

شرح
الأصول الثلاثة
من ربك
ما دينك
من نبيك
الأصل الأول
الأصل الثاني
الأصل الثالث
فضيلة الشيخ
محمد حسان
مكتبة فياض

شرح الأصول الثلاثة

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٨/١١٣٦٨

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

المنصورة: شارع عبد الهادي - عزبة عقل

ت: ٠٥٠/٢٢٦٧٣٩٨

شرح الأصول الثلاثة

شرح

فضيلة الشيخ

مُحَمَّد بن حَسَّان

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع

تمهيد

الحمد لله الذي لم يتَّخذ ولدًا ولم يكن له شريكٌ في الملك وما كان معه من إله ، الذي لا إله إلا هو ؛ فلا خالق غيره ولا ربَّ سواه ، المستحقُّ لجميع أنواع العبادة ، ولذا قضى ألا نعبد إلا إيَّاه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبيَّنا محمَّدًا عبدُه ورسوله ، وصفيُّه وخليله ، بعثه الله ـ جلَّ وعلا ـ وأهل الأرض أحوج لرسالته من غيثِ السَّماء ، ومن نُور الشَّمس والهواء ، فقام بتبليغ الرِّسالة ، وأداء الأمانة ، والنُّصح للأمَّة حتَّى أتاه اليقين ، فاللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ، وعلى كلِّ من سار على دربهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فما من أزمة تمرُّ بها الأُمَّةُ إلَّا ونزدادُ يقينًا بحاجتنا إلى التوحيد بصفائه وشموله ؛ بل ولا تزيدنا بركُ الدِّماءِ وأكوامُ الأشلاءِ إلَّا إصرارًا على أن الخُطوة العملية الأولى على طريق النَّصر والعِزَّةِ والكرامة والتَّمكين هي تحقيق التَّوحيد !!

فالإسلامُ عقيدةٌ ، تنبثقُ منها شريعةٌ ، تُنظِّمُ هذه الشريعةُ كُلَّ شئونِ الحياةِ ، ولا يقبلُ اللهُ تعالى من قومٍ شريعتهم إلَّا إذا صَحَّت عقيدتُهم!

بلَ ولا سعادة في الدنيا والآخرةِ إلا بتحقيق التَّوحيد ، لَكِنَّ التَّوحيدَ ليْسَ كلمةً تردده الألسنةُ فَحَسْب .. كلا كلا .. ولكنَّهُ قولٌ باللِّسانِ ، وتصديقٌ بِالجَنَانِ ، وعملٌ بالجوارحِ والأركان.

نعم .. التَّوحيدُ أصلُ الدِّين وأَسَاسُه وَرَأْسُ أَمْرِهِ .. وجميع أركان الدِّين متفرعةٌ عَنْهُ ، متشعبةٌ مِنْهُ ، مُكَمِّلاتٌ لَهُ ، ولا يمكن أبدًا في أيِّ مرحلةٍ من مراحل البناءِ أن نترك أو نتخلى عن التوحيد إلى غيره من أركان الدِّين فضلًا عن فروعِهِ !!

لأن التَّوحيد لا يُنتَقَل منه أبدًا إلى غَيره ؛ بل يُنْتَقَلُ معه دَوْمًا إلى غيره ؛ **فمن مقتضيات التَّوحيد** : البراءةُ التَّامَّةُ من كُلِّ معبودٍ سوى الله ـ جلَّ وعلا ـ قال تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦] . فالنَّفي فقط ليس توحيدًا ، وكذلك الإثباتُ فقط ليس توحيدًا ؛ بل التَّوحيد متضمن للنَّفي والإثبات معًا «**لا إله إلا الله**» .

وَمِنْ مقتضيات التَّوحيد : إفرادُ الله ـ جلَّ وعلا ـ وَحْدَهُ بالعبادة الظَّاهرة والباطنة ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] .

وَمِنْ مقتضيات التَّوحيد : إفرادُ الله وحده بأسماء الجلال وصفات الكمال ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تمثيلٍ ؛ قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٠]

وَمِنْ مقتضيات التَّوحيد : الإيمانُ برسولِ الله ﷺ وجميع إخوانه من النَّبِيِّين والمرسلين ؛ قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

وَمِنْ مقتضيات التَّوحيد : الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، والبراءة من الشرك والمشركين ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[الممتحنة:١] .

وَمِنْ مقتضيات التَّوحيد : تحكيم منهج الله ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة:٥٠] .

وَمِنْ مقتضيات التَّوحيد : أن يُصاغ النِّظامُ الاقتصادي والتَّعليمي والإعلامي والفِكْري والأخلاقي وِفْقَ المنهج الرَّبَّاني والنَّبوي .

فالتَّوحيد منهجٌ متكاملٌ للحياةِ ؛ بل هو حياةٌ للحياةِ !! ولن تعودَ للأمَّة هُوِيَّتُها وكرامتها وسيادتها ومكانتها إلا إذا حقَّقت التَّوحيد بشموله وكماله على مُرَاد الله ـ جلَّ وعلا ـ وعلى مُرَاد رسول الله ﷺ .

ولا ينبغي أبدًا أن يَمَلَّ العلماء والدُّعاة طرح قضية التَّوحيد ؛ بل ولا يجوز لهم أن يقدِّموا عليها غيرها من قضايا الدِّينِ ؛ فهي الصَّيْحةُ الأولى لكلِّ رسالة ؛ والدَّعوةُ الأولى لكلِّ نبوَّةٍ ، والخُطوة الصَّحيحة الأولى لكلِّ داعيةٍ متبع ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[النحل:٣٦] ،

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥] .

فماذا يملكُ من فقد التَّوحيد؟!

وماذا فقد من هُدي إلى التَّوحيد؟!

فلنتحرك جميعًا لدعوة البشريَّة كلِّها إلى التَّوحيد الصَّحيح بِخُلُقٍ عذبٍ ، وكلمةٍ رقراقةٍ جميلةٍ ، وموعظةٍ حسنةٍ رقيقةٍ ؛ فنحن لا نتعامل مع ملائكةٍ بررة ، ولا مع شياطين مَرَدَة ، ولا مع أحجار صلدة ؛ بل نتعامل مع نفوس بشرية فيها الخير والشَّر ، فيها الحلال والحرام ، فيها الفجور والتَّقوى ، فيها الطَّاعة والمعصية .

قال تعالى : ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ [البلد:١٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٧-١٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:٣] .

وَمِنْ فضل الله عليَّ أن شرَّفني إخواني الفضلاء بالأكاديمية العلمية في قناة المجد الفضائية ـ زادهم الله فضلًا وتوفيقًا وهدى ـ بشرح كتاب «**الأصول الثلاثة**» لسماحة الشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأسكنه الفردوس الأعلى ، بما قدم لدعوة التَّوحيد .

فتهيَّبتُ كثيرًا أن أرتقي هذا المُرتقى الصَّعب ، وأن يُذكر اسمي ، وأنا الفقير الذَّليل إلى جوار اسم هذا المجدد الرَّبَّاني الجليل !!

وَقُلْتُ بلسان الحال والمقال :

أَسِيرُ خَلْفَ رَكْبِ القَوْمِ ذَا عَرَجٍ ... مُؤَمِّلًا جَبْرَ ما لَاقَيْتُ مِنْ عِوَجِ

فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لِرَبِّ السَّمَا فِي النَّاسِ مِنْ فَرجِ
وَإِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأَرْضِ مُنْقَطِعًا فَمَا عَلَى أَعْرَجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

أسأَلُ الله أن يجبر كَسْرنا ، وأن يغفر ذنبنا ، وأن يَسْتُرَ عيبنا ، وألا يجعل حظَّنا من ديننا قولنا ، وأن يُحْسن نيَّاتِنَا وأعمالنا ، وأن يجعل عملنا خالصًا لوجه الكريم ، وألا يَحْرِمنا شرف الدعوة إليه ، وكرامة البلاغ عنه ، ودلالة الخلق عليه بحق ، وأن يقرَّ أعيننا بنصرة التَّوحيد والموحدين ؛ إنَّه وليُّ ذلك ومولاه ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه

أبو أحمد محمد بن حسان

ربيع الأول ١٤٢٧ هـ

التعريف بالكتاب

إنَّ المطالعَ لكتاب الأصول الثَّلاثة ، يُلاحظ أن المصنِّف رحمه الله لم يبدأ مباشرةً بالحديث عن الأصول الثَّلاثة ؛ التي جعلها الشيخ عنوانًا لكتابه هذا ، وإنما قدَّم بين يدي الأصول الثلاثة بمقدمةٍ شاملةٍ جامعةٍ ، تشتمل على ثلاثة موضوعات مهمة جدًّا؛ ودونك هي :

الموضوع الأول:

ويشتمل على أربع مسائل ، ذكرها المصنِّف رحمه الله بقوله : « اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ أنَّه يجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أرْبَعِ مَسَائِلَ :

الأولى : الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ الله ـ تبارك وتعالى ـ وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ.

الثانية : الْعَمَلُ بِهِ ـ أي: العَمَلُ بِالْعِلْمِ .

الثالثة : الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرابعة : الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ».

وسأذكر الأدلة ـ إن شاء الله تعالى ـ مفصَّلةً مع الشرح .

الموضوع الثاني :

ثم شرع المصنِّف رحمه الله بعد ذلك في ذكر ثلاث مسائل أخرى ؛ فقال : « اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ المَسَائِلِ الثَّلاثِ، والْعَمَلُ بِهِنَّ ...

الأولى : أَنَّ اللهَ ـ تَعَالَى ـ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ ...

الثانية : أَنَّ اللهَ ـ تَعَالَى ـ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ

مُقَرَّبٌ ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ...

الثالثة : أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ ﷺ، وَوَحَّدَ اللهَ ـ تَعَالَى ـ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ ...» .

الموضوع الثالث :

ثم بيَّن المصنِّفُ رحمه الله بعد ذلك ملَّة إبراهيم ﷺ التي أمر اللهُ ـ تعالى ـ جميع النَّاس باتباعها بقوله: « اعْلَمْ ـ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ ـ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: هِيَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا ».

هذه هي الموضوعات الثَّلاثة التي ذكرها المصنِّف رحمه الله بين يدي الحديث عن الأصول الثَّلاثة .

ثم شرع بعد ذلك في الحديث عن الأصول ؛ فقال: « فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ : مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، وَدِينَهُ ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ» .

ثم ختم المصنِّف رحمه الله كتابه هذا ببعض قضايا الإيمان باليوم الآخر؛ كالإيمان بالبعث والحساب.

هذا وصفٌ مجملٌ عامٌّ للكتاب الذي بين أيدينا، ومع صِغَر حَجْم الكتاب ـ فهو لا يتجاوز عشر ورقات ـ إلا أنه عظيم الفائدة ؛ بل لا أكون مبالغًا أبدًا حين أقول : إن الكتاب مع هذه المقدمات التي ذكرها الشيخ رحمه الله بين يدي الأصول الثَّلاثة يشتمل على الدِّين كلِّه ـ كما سأبيِّنُ ذلك بالشَّرح والتَّفصيل ـ إن شاء الله تعالى ـ والله وحده الموفق ، وعليه التُّكْلان .

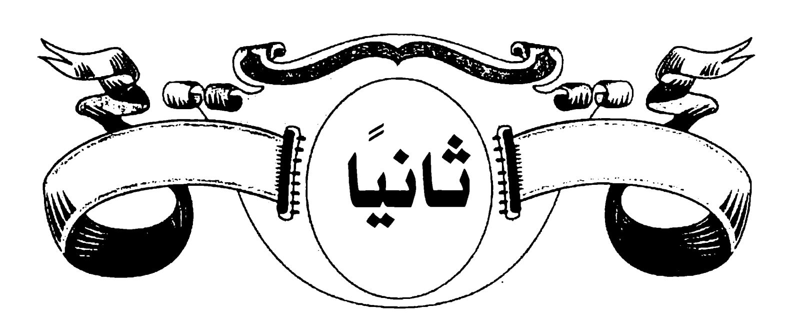


تمهيد المصنف بين يدي حديثه عن الأصول الثلاثة ، ويشتمل على ثلاثة أبواب :

١ ـ الباب الأول : ويشتمل على أربع مسائل.

٢ـ الباب الثاني : ويشتمل على ثلاث مسائل.

٣ـ الباب الثالث : مفهوم العبادة .



توضيحُ الأصول الثلاثة

تمهيد المصنف
الباب الأول
ويشتمل على أربع مسائل

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ : **الأُولَى:** الْعِلْمُ ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ. **الثَّانِيَةُ:** الْعَمَلُ بِهِ . **الثَّالِثَةُ:** الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ . **الرَّابِعَةُ:** الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ » .

الشرح

وهنا استهلَّ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه بالبَسْمَلَةِ؛ فقال: « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » اقتداءً بالقرآن الكريم ؛ فلقد بُدِئت كلُّ سورِ القرآنِ الكريمِ بالبسملةِ باستثناء سورة «براءة» .

وتأسِّيًا بالنَّبيِّ ﷺ ؛ فقد ثبت أنَّه ﷺ كان يبدأُ كتُبهُ بالبسملةِ ؛ ففي «صحيح البخاريِّ ومسلم» (١) أنه ﷺ أرسل كتابًا إلى هرقل ، قال فيه: **«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ .. فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ...** » إلى آخر كتابه المبارك ﷺ .

والشاهد معنا في الحديث : أن النَّبيَّ ﷺ قد بدأ كتابه هذا بالبسملة، وهنا

---

(١) جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاريُّ في كتاب بدء الوحي رقم (٧) ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣) .

نجد المصنِّف رحمه الله بدأ كذلك كتابه هذا بالبسملة ؛ اقتداءً بالقرآن الكريم ، واقتداءً بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

شرح البسملة :

قوله : «**بِسْمِ الله**» أي: أبدأ تصنيفي، وعملي هذا، وكتابي هذا بـ «**بِسْمِ الله**» وما أعظمها وأكرمها وأشرفها من بداية ، ولقد حثَّ الشرع الحنيف ، وندب إلى ذِكْر اسم الله ـ تبارك وتعالى ـ مع كلِّ فعل من الأفعال ؛ كالأكل، والشرب ، والذبح ، والصيد ، والنوم، والركوب ، والجماع ، والوضوء ، وعند دفن الميت ، وغير ذلك من الأعمال ؛ قال الله ـ تبارك وتعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:١١٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود:٤١] .

وفي «**صحيح البخاري ومسلم**»[(١)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « **إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ ـ أَوْ كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ ـ فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَحُلُّوهُمْ ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ ، وَاذْكُرِ اسْمَ الله ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ ، وَاذْكُرِ اسْمَ الله ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ ، وَاذْكُرِ اسْمَ الله ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ ، وَاذْكُرِ اسْمَ الله ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا** » ؛ فاذكر اسم الله ـ تبارك وتعالى ـ على كلِّ شيء.

وفي «**الصحيحين**»[(٢)] ـ أيضًا ـ من حديث عُمَرَ بْنِ أبي سَلَمَةَ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال له: « **يَا غُلَامُ ، سَمِّ الله ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ ، فَمَا زَالَتْ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده رقم (٣٢٨٠) ، ومسلم ، كتاب الأشربة ، باب الأمر بتغطية الإناء ، وإيكاء السقاء ، وإغلاق الأبواب ، وذكر اسم الله عليه (٢٠١٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأطعمة ، باب التسمية على الطعام رقم (٥٣٧٦) ، ومسلم ، كتاب الأشربة ، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها رقم (٢٠٢٢)

تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ».

وفي «الصحيحين» (١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ: بِاسْمِ الله، اللَّهُمَّ جَنِّبْنِي الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، ثُمَّ قُدِّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ، أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا».

وفي «الصحيحين» (٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ».

وفي «صحيح مسلم» (٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ الله عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ الله عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ الله عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ المَبِيتَ وَالْعَشَاءَ». وفي لفظٍ: «وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ الله عِنْدَ طَعَامِهِ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ الله عِنْدَ دُخُولِهِ».

وفي «الصحيحين» (٤) عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله!

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله (٥١٦٥)، وانظر (١٤١)، ومسلم، كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٤٣٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الدعوات، باب (١٣) (٦٣٢٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٤).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها (٢٠١٨).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الشركة، باب قسمة الغنم (٢٤٨٨)، ومسلم، كتاب الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام (١٩٦٨).

إِنَّا لَاقُو الْعَدُوِّ غَدًا وَلَيْسَتْ مَعَنَا مُدًى ؛ فَقَالَ: « اعْجَلْ أَوْ أَرِنِي ، مَا أَنْهَرَ الدَّمَ ، وَذُكِرَ اسْمُ الله فَكُلْ ، لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ ، وَسَأُحَدِّثُكَ : أَمَّا السِّنُّ فَعَظْمٌ ، وَأَمَّا الظُّفُرُ فَمُدَى الْحَبَشَةِ » .

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم بسندٍ صحيح بشواهده [1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال : « لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ الله تَعَالَى عَلَيْهِ » .

وروى أحمد وأبو داود [2] عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النَّبيَّ ﷺ قال : «إِذَا وَضَعْتُمْ مَوْتَاكُمْ فِي الْقُبُورِ ، فَقُولُوا : بِسْمِ الله وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ الله ﷺ » .

وغير ذلك من الأحاديث التي تحثُّ على التسمية في أول الأعمال .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤١٨) ، وأبو داود ، كتاب الطهارة ، باب في التسمية على الوضوء (١٠١) ، وابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في التسمية على الوضوء (٣٩٩) ، والدارقطني (٢١٩) ، والحاكم (١/ ١٤٦) ، والبيهقي (١/ ٤٣) ، وقد روي عن جمع من الصحابة، وصححه الحاكم ، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٢٢) :« ولا شك أن الأحاديث التي وردت فيها « أي التسمية على الوضوء» وإن كان لا يسلم شيء منها عن مقال ، فإنها تتعاضد بكثرة طرقها ، وتكسب قوة » ، وقال الحافظ ابن حجر : « إن مجموع الأحاديث يحدث منها قوة ، تدل على أن له أصلًا » .

وقال أبو بكر ابن أبي شيبة : « ثبت لنا أن النبيَّ ﷺ قاله » ، « تلخيص الحبير» (١/ ٧٥) وحسَّنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٨١) ، ونقل تحسينه عن ابن الصلاح ، وابن كثير ، والحافظ العراقي .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧، ٤٠، ٤١، ٥٩، ٦٩، ١٢٧، ١٢٨) ، وأبو داود ، كتاب الجنائز ، باب في الدعاء للميت إذا وضع في قبره (٣٢١٣) ، والترمذي ، كتاب الجنائز ، باب ما يقول إذا أدخل الميت القبر (١٠٤٦) وقال: « حسن غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في إدخال الميت القبر (١٥٥٠) ، وابن أبي شيبة (٤/ ١٣١) ، والحاكم (١/ ٣٦٦) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الإرواء» (٧٤٧) ، و«صحيح الجامع» (٨٣٢) .

أمَّا لفظ الجلالة «الله» ؛ فهو الاسم المفرد العلم ، الدَّال على كلِّ الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ؛ لذا كلُّ الأسماء الحسنى تنسب إليه ، فأنت تقول : «العزيز» من أسماء الله ، ولا تقول: «الله» من أسماء العزيز .

والصَّحيح ؛ كما قال ابن القيم رحمه الله : أنه مشتقٌّ من الإله ،والإله هو المعبود .

و«الرَّحمن الرَّحيم» قال ابن عباس رضي الله عنهما [١]: «الرَّحمن الرَّحيم اسمان رقيقان ، أحدهما أرق من الآخر ، أي أكثر رحمة».

وقال عبد الله بن المبارك [٢]: «الرَّحمن الذي إذا سُئل أعطى ، والرَّحيم الذي إذا لم يُسأل يغضب» .

والاسمان الجليلان يثبتان صفة الرَّحمة لله ـ تبارك وتعالى ـ ونحن نثبت لله ـ جَلَّ وَعَلَا ـ ما أثبته لذاته من الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، وما أثبته له أعرفُ الخلق به عبده ورسوله محمد ﷺ ، ونؤمن بهذه الأسماء والصفات من غير تحريف لألفاظها ،ومن غير تحريف لمعانيها ،ومن غير تعطيل ، أو تشبيه ، أو تمثيل ؛ قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر:٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:١٠٥] ، وقال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[الزخرف:٣٢] ، وقال سبحانه : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ

---

(١)أخرجه البيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (ص٥١) عن ابن عباس قوله . وفي «الشعب» (٢٣٦٢) عن ابن عباس مرفوعًا في سياقٍ أطول ، وسنده ضعيف جدًّا .

(٢)انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٢٥) ط دار طيبة ، و«فتح الباري» (٨/ ١٥٥) ، و« تيسير العزيز الحميد » (١/ ١٥) .

أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[الإنسان:٣١] .

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» [١] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ ، وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَهْوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي** ». وفي لفظٍ :« **سَبقَتْ غَضَبِي** » .

وفي «الصحيحين» ، من حديث عُمَر بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ : قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي ، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ ؛ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : « **أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ** » قُلْنَا : لاَ ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ ؛ فَقَالَ : « **اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا** » [٢].

ورحمةُ الأم بولدها لا يستطيع بليغٌ أن يُجَسِّدَهَا ، أو أن يعبر عنها ؛ لذا قال أحد الصالحين يومًا : « اللهم إنك تعلم أن أُمِّي هي أرحم الناس بي ، وأنا أعلم أنك أرحم بي من أمي ، وأمي لا ترضى لي الهلاك والعذاب ؛ أفترضاه لي أنت ، وأنت أرحم الراحمين ؟» .

فما أقبل عبدٌ على الله ـ تبارك وتعالى ـ إلا وفرح الله ﷻ بإقباله وتوبته وأوبته ؛ كما قال رسول الله ﷺ : « **لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً ، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ؛ قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ :**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قوله الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[آل عمران:٢٨] ، رقم (٧٤٠٤) ، وانظر رقم (٣١٩٤) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه رقم (٢٧٥١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته رقم (٥٩٩٩) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه رقم (٢٧٥٤) .

اللَّهُمَّ! أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ »[(١)] .

وفي «الصحيحين»[(٢)] من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ[(٣)] عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ ، وَيَقُولُ : عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُقَرِّرُهُ ثُمَّ يَقُولُ : إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ » .

والذي نريد أن نؤصِّله ونؤكِّد عليه : أن الاسمين الجليلين: «الرَّحمن الرَّحيم» يثبتان صفة الرحمة لله ـ تبارك وتعالى ـ ونحن نثبت لله ما أثبته لذاته من أسماء الجلال ، وصفات الكمال ، من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ؛ قال جل جلاله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ، واقتصر المصنف على البسملة ؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر ، والله تعالى أعلم .

*****

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب التوبة ، باب في الحض على التوبة والفرح بها رقم (٢٧٤٧) عن أنس ، وأخرجه كذلك البخاريُّ ـ باختصار ـ في كتاب الدعوات ، باب التوبة (٦٣٠٩) ، وفي «صحيح البخاري» (برقم ٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ، وهو في «صحيح البخاري» أيضًا (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب ستر المؤمن على نفسه رقم (٦٠٧٠) ، وانظر رقم (٢٤٤١) ومسلم ، كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله رقم (٢٧٦٨).

(٣) الكنف في اللغة: الستر والرحمة ، فلسنا ممن يؤول صفة .

المسألة الأولى : العلم قبل العمل

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

« اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِل : الأُولَى : العِلْمُ ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الله ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ... » .

الشرح

قول المصنِّف : «اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ» بدايةٌ يستثير بها الاهتمام ، ويستجيش بها العواطف ، ويحرك بها الوجدان .

«اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ» أي: جعلك الله أهلاً لرحمته وفضله ، وأودُّ أن أقف هنا لحظات ؛ لأُذكر طلبةَ العلم والدُّعاة إلى الله ـ تبارك وتعالى ، أن يبدؤوا دعوتهم مع المكلفين ، ومع الناس برحمةٍ ورقةٍ ؛ فشتان شتان بين أن تبدأ الحديث مع مكلَّف أو مدعو بقولك : اعلم ـ رحمك الله ـ بابتسامة مشرقة تعلو وجهك ، وبين أن تبدأ بالدُّخول في موضوع الدَّعوة مباشرة بقولك كذا وكذا، أو يجب عليك كذا ، أو افعل كذا بغلظة وقسوة ، يستحيل معها أن تستحوذ على قلبه واهتمامه ، لكن افتح قلبه بكلمة رقيقة ، وابتسامةٍ مشرقة ؛ فكثيرٌ من إخواننا الدُّعاةِ وطلبةِ العلمِ يظنون أن الأسنان عورة ، يحرم عليهم أن يكشفوا عنها ، لا ـ يا أخي ـ أظهر بياض أسنانك لإخوانك ممن تبلغهم دين الله ـ تبارك وتعالى ؛ قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ لنبيه ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

وأودُّ من إخواننا أن يفرِّقوا بين مقامين في غاية الأهمية :

الأول: مقام الدَّعوة إلى الله .

الثاني: ومقام الجهاد في سبيل الله .

لأنني أرى خلطًا رهيبًا بين مقامي الدَّعوة والجهاد ؛ فمقام الجهاد مقام غلظة ورجولة ؛ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:٧٣] .

أمَّا مقام الدعوة ؛ فالرحمةُ ، والحكمةُ ، واللين ، وهذا المنهج الدعوي ـ أيها الأحبة ـ منهج توقيفي ، لم يَدَعْه ربُّنَا ـ تبارك وتعالى ـ لنبيٍّ من الأنبياءِ ، ولا لرسولٍ من الرسل ؛ فضلاً عن داعيةٍ من الدُّعاة ، وإنما هو منهجٌ توقيفيٌّ لا يختلف باختلاف الزَّمان والمكان ، فعليك أن تكون رحيمًا رقيقًا ، مهذبًا مؤدبًا ، وعليك أن تعلم أنك تخاطب نفوسًا بشرية فيها الإقبال والإحجام ، فيها الخير والشر ، فيها الحلال والحرام ، فيها الطاعة والمعصية ، فيها الفجور والتقوى ؛ فعليك أن تكون ملمًّا بمفاتيح هذه النفس البشرية ؛ لتسبر أغوارها ، ولتتغلغل إلى أعماقها ، فمحال أن تدخل قلب من تدعوه إلى الله ، ومن تبلغه عن الله ـ تعالى ـ وعن رسوله ﷺ إلا برحمة ورقة ، وقد أمر الله ـ تعالى ـ بالحكمة في مقام الدَّعوة ؛ فقال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] ، والحكمة : ليست كلمةً يردِّدها داعية أو عالم؛ فما المراد بالحكمة هنا؟

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: « الحكمةُ هي : فعل ما ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ..

وأركانها : العلم ، والحلم ، والأناة . وآفاتها ، وأضدادها ، **ومعاول هدمها :**

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٩ ـ ٥٠٠) ، طبعة دار الحديث . بتصرف .

الجهل، والطيش، والعجلة» ؛ ثم قال تعالى : ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥].

ولاحظ أن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وصف الموعظة في الآية بقوله : ﴿ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ ، ولم يصف الحكمة بالحسنة ؛ لأن الحُسْنَ أصلٌ في الحكمة ، ووصفٌ ذاتيٌّ لها ؛ فلا يمكن أبدًا أن توصف الحكمة بغير الحسن ، وقد قال الله ـ تعالى ـ لنبيْين كريميْن هما موسى وهارون ـ على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٣، ٤٤] ، قال يحيى بن معاذ [(١)] لما تُليت عليه الآية فبكى وقال : «إلهي وسيدي هذا رفقك بمن يزعم : أنه الإله ، فكيف رفقك بمن يقول: أنت الإله ؟!» .

وقال يزيد الرقاشي [(٢)] : «يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟!» .

فما أفقه المصنِّف ! وما أرق قلبه ! وما أرحمه بمن يدعوهم إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ حين بدأ بهذه الكلمات الرقيقة ، التي لا تزيد على ثلاث كلمات : «**اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ**» إنها كلمات تستثير الانتباه ، وتستجيش العواطف ، وتحرك الوجدان ، إذا قلتُ لك : «**اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ**» أصغيت لي سمعك ، وانتبهت .

وكلمة : «**اعْلَمْ**» يُؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة التي ينبغي للمتعلم أن يُصْغِي إلى ما يُلْقى إليه منها .

اعلم ـ جعلك الله أهلاً لرحمته ، وأهلاً لفضله وبركته ـ أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل .

قَوْلُه : «**أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ**» الذي قصده الشيخ رحمه الله بالواجب هنا؛

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٤٥١١) ، وانظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ١٧١) و«تفسير الخازن» (١/ ٢٧٤) ، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧٥) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٩/ ٣٣٩) ط أولاد الشيخ .

الواجب عند علماء الأصول .

تعريف الواجب[(١)]:

والواجب هو: ما أُمر به المكلَّف أمرًا جازمًا ، وضابطه: أن فاعله موعود بالثواب ، وأن تاركه متوَعد بالعقاب .

والواجب : هو الفرض عند الإمام مالك والشافعي ـ رحمهما الله تعالى ـ وهو القول الصحيح الثابت عن الإمام أحمد رحمه الله ، وخالف أبو حنيفة رحمه الله الجمهور ، ففرق بين الفرض والواجب ؛ فجعل الواجب في مرتبةٍ أدنى من الفرض ، لكن المصنف هنا يقصد الواجب الذي هو بمعنى الفرض ؛ ففرضٌ على كل مكلفٍ ذكرًا كان أو أنثى ـ أن يعرف ربَّه ، وأن يعرف نبيَّه ﷺ ، وأن يعرف دينَه الذي هو الإسلام ، فرض على كل مكلف أن يعرف التوحيد ، والصلاة ، والصيام إن كان من أهل الصيام ، وأن يتعرف على ركن الزكاة إن كان من أهل الزكاة ، وأن يتعرف على الحج إن كان ممن يستطيع الحج .

قوله : «**الأُولَى**» أي:المسألةُ الأولى أو المسألةِ الأولى ؛ واللغتانِ صحيحتان ، الأولى على الابتداء ، والثانية على أنها بدل من أربع ، في قوله : «... **أَرْبَعِ مَسَائِلِ** » .

ثم شرع المصِّنف رحمه الله في بيان تلك المسائل التي يجب علينا تعلُّمها، فبيَّن أول تلك المسائل بقوله: «**العِلْمُ**» ، وعرَّفه ؛ فقال : (**هو معرفةُ الله** عز وجل ، **ومعرفة نبيِّه** ﷺ ، **ومعرفةُ دين الإسلامِ بالأدلة**) وهناك من أهل العلم من عرَّف العلم بتعريفات أخرى :

---

(١) انظر : «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (١/ ١٣٩، ١٤٠) ، و«المحصول» للرازى (١/ ١١٩ـ١٢١) ، و«روضة الناظر وجنة المناظر» لابن قدامة (٢٦).

تعريف العلم :

هو إدراكُ الشيء على حقيقته ، إدراكًا جازمًا [١] ، وهناك من أهل العلم من فرق بين العلم ، والإدراك ، والمعرفة ، ولا يتسع المقام هنا لذكر هذه التفصيلات، وعرفه ابن القيم رحمه الله ؛ **فقال** [٢]: « قال صاحب المنازل : «العلم ما قام بدليل ورفع الجهل » قال : يريد أن للعلم علامة قبله ، وعلامة بعده ، فعلامته قبله ما قام به الدليل ، وعلامته بعده رفع الجهل » ، ولكن الشيخ المصنِّف رحمه الله اختار للعلم تعريفًا ؛ فقال : «**هو معرفة الله ، ومعرفة نبيِّه** ﷺ **ومعرفة دين الإسلام بالأدلة**» .

والحديث عن العلم حديثٌ جميل ، والعلم إذا أطلق هكذا إنما يراد به العلم الشرعي ؛ فما أمر الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ نبيَّه ﷺ بطلب الازدياد من شيء في هذه الدنيا إلا من العلم ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[طه:١١٤] ؛ فالعلم : هو الأنيس في الوحدة ، والصاحبُ في الغربة ، وهو المحدث في الخلوة .. به يعرف الله ويوحد ، ويعبد ويحمد ويمجد .. لا يمنحه الله ـ تبارك وتعالى ـ إلا للسعداء ، ولا يُحرم منه إلا الأشقياء ، ولقد اغرورقت عيني بالدموع وأنا أستمع لهذه الكلمات الرقراقة الجميلة لشيخنا سماحة الوالد عبد العزيز بن باز رحمه الله ، وهو يذكِّرنا بحديث رسول الله ﷺ في «**الصحيحين**» من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: « **مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ** » [٣].

فقال الشيخ : « فمن لم يتفقه في الدِّين ما أراد الله به خيرًا ، ولا حول ولا

---

(١) انظر : «التعريفات» للجرجاني (١٩١) ، و«الكليات» للكفوي (٦١١) .

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب العلم ، باب : « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين » حديث رقم (٧١) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة حديث رقم (١٠٣٧).

قوة إلا بالله » ، ومن أراد الله به الخير علمه وفقهه في دين الله ـ تبارك وتعالى.

الناس من جهة الأصل أَكْفَاءُ أبوهمُ آدمُ والأمُّ حوَّاءُ

نفسٌ كنفس وأرواح مشابهة وأَعْظُمٌ خُلقت فيهمُ وأعضاءُ

فإن يكن لهمْ من أصلهمْ حَسَبٌ يفاخرون به فالطينُ والماءُ

ما الفخرُ إلا لأهل العلم إنَّهمُ على الهدى لمن استهدى أَدِلَّاءُ

وقَدْرُ كلِّ امرئٍ ما كان يُحْسِنُهُ والجاهلون لأهل العلم أعداءُ

فَفُزْ بعلمٍ تعشْ حيًّا به أبدًا فالناس موتى وأهلُ العلمِ أحياءُ

نعم ؛ لا حياة إلا بالعلم ؛ فالعلم حياة القلوب من مرض الشبهات ، وحياة الأبدان من مرض الشَّهوات ، والعلم نور العقول ، وزاد للمسلم الذي يريد الوصول إلى الله ـ تبارك وتعالى .

وما دام الناس على علم ؛ فهم في هدى وعلى خير ، فإذا قبض العلم بقبض العلماء ، وقع الناس في الضنك ، والضَّلال ، والشقاق .

وقد رفع الله قدر العلم ، وأعلى الله ﷻ شأن أهل العلم كذلك ؛ فقال ـ سبحانه وتعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩] ؛ بل انظر إلى هذه اللطيفة الرقيقة في الآية التي يشهد الله ـ تبارك وتعالى ـ بها لأهل العلم ؛ فإنَّ أول من شهد له بالوحدانية هو نفسه ﷻ ، ثم ثنَّي بملائكته ، ثم ثلَّث بأهل العلم ؛ فقال جل جلاله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨] .

وفي الحديث الجميل الذي رواه البخاريُّ ومسلم من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الله لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ ،**

وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا ، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً ، فَسُئِلُوا ، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » [(١)] .

مصيبة كبرى أن يتجرأ على الفتوى الآن كثيرٌ من الجهلاء ، ممن لا يحسنون أن يفرقوا بين الدليل ، ومراتب الدليل ، ومناطات الدليل ، ممن لا يحسنون أن يفرقوا بين المجمل والمبين ، والعام والخاص ، والناسخ والمنسوخ ؛ لذا كان نبيُّنا ﷺ شديد الحفاوة بالعلم ، وطُلَّاب العلم .

ففي «**مسند أحمد** » ، و« **معجم الطبراني** » ـ بسندٍ جيد ـ من حديث صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال : أتيت النبيَّ ﷺ وهو في المسجد متكئ على بُرْدٍ له أحمر ، فقلت ـ والقائل صفوان : يا رسول الله ، إني جئتُ أطلب العلم قال : « **مَرْحَبًا بِطَالِبَ العِلْمِ ، إِنَّ طَالِبَ العِلْمِ تَحُفُّهُ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا ، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُم بَعْضًا ، حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِمَا يَطْلُبُ**» [(٢)] .

انظر كم فرط الناسُ في هذا الفضل ، وانشغل كثير من الناس عن هذا الخير ؛ فقد يَعُدُّ أحدنا لمشروع تجاري ، أو اقتصادي أكثر من دراسة جدوى ، وهذا أمرٌ جميلٌ ، لا نقلل من شأنه أبدًا ؛ فالأمة يجب عليها أن تبدع في كل مجالات الحياة ، وأن تأخذ بالأسباب ؛ فهي أُمَّةُ الأخذِ بالأسباب ، وعلمها نبيُّها ﷺ التوكُّلَ في كل شيء ، والتوكُّل هو صدقُ اعتماد القلب على الله ـ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب كيف يقبض العلم حديث رقم (١٠٠) ، ومسلم ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان حديث رقم (٢٦٧٣) .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»(٤/ ٢٣٩، ٢٤٠) مختصرًا ، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٥٤) (٧٣٤٧) واللفظ له ، والحاكم (١/ ١٠٠ ، ١٠١)، وابن عدى في «الكامل في الضعفاء» (٦/ ٣٣٠) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٠/ ٣٦٩) ، وابن الأثير في «أسد الغابة» (١/ ٥٢٢) ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٢) ، ط الكتب العلمية ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٣١) : « رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح» ، وجود سنده البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٢٦٩/ ٤) ، وحسنه الألباني في « الصحيحة» (٣٣٩٧).

تعالى ـ مع الأخذ بالأسباب ، لكن الذي يُدمي القلب أن يَعُدَّ أحدنا لمشروع تجاري أكثر من دراسة جدوى ، في الوقت الذي لا يفكِّر أن يمنح لنفسه ساعة ؛ ليتعلم فيها عن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وعن رسوله ﷺ ؛ قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧] ، وقال ﷻ : ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦] ؛ فهو يعلم ظاهرًا من الحياة الدنيا ، لكن لا يعلم شيئًا عن الله ، ولا يعلم شيئًا عن أسماء جلاله ، ولا صفات كماله ، ولا يعلم شيئًا عن نبيه ﷺ ، ولا يعلم شيئًا عن الإسلام ، ولا عن الإيمان ، ولا عن الإحسان ، لا يعلم شيئًا عن هذا ، وربما تراه قد حصل شهادة الدكتوراه في جانب من جوانب العلم المادي ـ لا نقلل من شأن ذلك ـ لكن يجب على كل مكلَّف أن يتعلم عن الله ، وأن يتعلم عن رسول الله ﷺ فروض الأعيان التي لا يصح أبدًا لمكلَّف أن يجهلها .

قال الشاعر:

الجهلُ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ وأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ من جسومِهم وليس لهم قبلَ النشورِ نشورُ

ومن جميل ما قرأتُ في هذا الباب كذلك ؛ **ما رواه أحمد وأبو داود والترمذيُّ ، وابن ماجه ، والنسائيُّ وغيرُهم** [(١)] ـ بسندٍ حسنٍ بشواهده ـ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦) ، وأبو داود كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١) ، والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم (٢٦٨٢) ، وابن ماجه في مقدمة السنن ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم رقم (٢٢٣) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» برقم (٣٠٩٦) ، وفي « صحيح الجامع» برقم (٦٢٩٧).

يَصْنَعُ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ ، لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا ، وَلاَ دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ».

والفقرة الأولى من الحديث لها أصْلٌ في «صحيح مسلم» (١) عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ... ».

وفي سنن الترمذي ـ بسندٍ حسن ـ من حديث أبي أمامة الباهليِّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ ذُكر له رجلان أحدهما عابد ، والآخر عالم ؛ فقال ﷺ : « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ » (٢) . انظر إلى فضل العلم ؛ لتكون صاحب همة عالية في الطلب .

فمــن يتهيــبْ صــعودَ الجبــالِ ... يعــش أبــدَ الــدهرِ بــين الحفــرِ

***

ولم أرَ في عيــوبِ النــاسِ عيبًــا ... كــنقصِ القــادرينَ عــلى الــتمامِ

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » من حديث أبي واقد الليثي ﷺ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدَ والنَّاسُ مَعَهُ ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، قَالَ : فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَمَّا أَحَدُهُم ! فَرَأَى فُرْجَةً

---

(١) جزءٌ من حديث أخرجه مسلم ، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر رقم (٢٦٩٩) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب العلم عن رسول الله ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم (٢٦٨٥) ، وقال : «حسن غريب» وزاد في بعض النسخ «صحيح» ، والدارمي في مقدمة السنن ، باب من قال العلم الخشية رقم (٢٨٩) ، مرسلاً ، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٣٣) (٧٩١١) ، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» ، وفي «صحيح الجامع» برقم (٤٢١٣).

فَجَلَسَ فِيْهَا ، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ - يعني: استحيا أن يتخطى الرقاب والصفوف - ونسأل الله أن يرزقنا الحياء ؛ فما أقل من يمتثل هذا الأدب في مجالس العلم وفى خطب الجمع - استحيا فجلس خلف الصف ، وأما الآخَرُ : فأَدْبَرَ ذَاهِبًا ، فَلَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : « **أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى الله ، فَآوَاهُ الله ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا ، فَاسْتَحْيَا الله مِنْهُ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ ، فَأَعْرَضَ الله عَنْهُ** »[(١)] .

والحديث - أيها الأحبة - في فضل العلم جليلٌ ، طويلٌ ، عظيمٌ ، والرسول ﷺ يذكرنا في كثير من الأحاديث بفضله ومكانته ، وواجبٌ على كلِّ مسلم كما ذكَّرنا شيخُنا رحمه الله أن يتعلَّم عن الله وعن رسوله ﷺ ؛ ليعبد الله عز وجل عبادةً صحيحةً من كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ .

وأعظم العلم وأفضله معرفة الله بما تعرَّف به إلى عباده في كتابه وسنة نبيه ﷺ بأنه الخالق الرازق المدبر المستحق لجميع أنواع العبادة .. نتعرف عليه بأسماء جلاله ، وصفات كماله وأفعاله ، ولا يكون العبد على دراية بدينه إلا بعد العلم بالله سبحانه وتعالى ، ومعرفة نبيه ﷺ فهو الواسطة بين الخلق وبين الخالق سبحانه في تبليغ رسالة الله ومعرفته فرض على كلِّ مكلف .

ومعرفة دين الإسلام الذي تعبَّد الله الخلق به بالأدلة من الكتاب والسنة .

*****

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب العلم ، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس رقم (٦٦) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها رقم (٢١٧٦) .

المسألة الثانية: العمل بالعلم

قال المصنف رحمه الله:

«الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ ...».



فالعلمُ مقدمٌ على العمل، ليس فقط بدليل فضل العلم على العابد كما بيَّنا سابقًا؛ بل إن المصنف رحمه الله استدلَّ على ذلك بالترجمة الفقهية البليغة للإمام البخاري رحمه الله في كتاب العلم [1]؛ حيث قال: «باب العلم قبل القول والعمل»، وَصَدَّر البخاريُّ هذا الباب بقول الله ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد:١٩]، فقد أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة بأمرين: فبدأ بالعلم وثنَّى بالعمل.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله [2]: «قال ابن المنير: أراد أن العلم شرط في صحة القول والعمل؛ فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل»، إذًا قبل أن تتكلَّم، وقبل أن تعمل يجب أن تتعلم، ولكن العلم النافع هو العلم الباعث على العمل به، لذا قال المصنف رحمه الله هنا: «**الثَّانِيَةُ**»؛ أي: المسألة الثانية: «**العَمَلُ بِهِ**»؛ أي: العمل بالعلم الذي تعلَّمه؛ فكل علمٍ لا يفيد عملًا ليس في الشرع البتَّه ما يدلُّ على استحبابه أو استحسانه؛ بل إن العلم النافع الذي مدحَ الله ورسولُهُ ﷺ أهلَهُ على الإطلاق هو العلمُ الباعثُ على العمل؛ قال الله ـ جَلَّ وَعلاَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٠٠) ط الحديث.

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠١).

ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢،٣] ، وقال الله - جَلَّ وَعَلاَ - : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤] ، وأنا والله كلَّما تحدثتُ في هذا الباب أُشهد الله أنني أشعر بالخجل والتقصير ؛ فنحن اليوم نتكلَّم كثيرًا ، ولكننا نعمل قليلًا ، ويرنُّ في أذني قول القائل :

وغير تقيٍّ يأمر الناس بالتقى طبيبٌ يداوي والطبيب عليل

إن أول من تُسعر بهم النارُ يوم القيامة ثلاثة ، والحديث رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ : « **إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ: كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ** » [(١)].

انظروا إلى خطر العلم بغير عمل ؛ فكلُّ علمٍ لا يفيد عملًا ليس في القرآن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار رقم (١٩٠٥).

ولا في السنة ما يدلُّ البتة على استحسانه ؛ فما قيمة علمٍ لا يورثنا الخشيةَ من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ؟ ، وما قيمةُ علمٍ لا يدفعنا إلى الطاعة والقرب من الله ـ تبارك وتعالى ؟ قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] .

فالقضية إذًا ليست في تحصيل العلم فحسب ، وإنما في أن نُحوِّل هذا العلم الرباني : القرآني والنبوي في حياتنا إلى واقع ، ومنهج عملي ؛ ففي **«الصحيحين»** من حديث أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما ، أن النبيَّ ﷺ قال : « **يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ** [١] **فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ** » [٢] .

وروى أحمد وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن حبان وغيرهم [٣] من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا قُرِضَتْ وَفَتْ ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ، وَيَقْرَؤُونَ كِتَابَ اللهِ وَلاَ يَعْمَلُونَ بِهِ** » .

وقد كان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ يحثون على العمل بالعلم .

---

(١) أقتابه: أمعاؤه.

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب بدء الخلق ، باب صفة النار وأنها مخلوقة رقم (٣٢٦٧) و (٦٠٩٨) ، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق ، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله رقم (٢٩٨٩).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند»(٣/ ١٢٠ ، ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩، ٢٤٠) ، ووكيع في «الزهد» (٢٩٧) ، وابن المبارك في «الزهد» (٨١٩) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٢٢٢) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤/ ٣٠٨) ، وابن حبان (٥٣) ، وأبو يعلى (٣٩٩٦، ٤٠٦٩، ٤١٦٠) ، والبيهقي في «الشعب» (٤٩٦٥ـ ٤٩٦٧) ، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ١٩٩، ٢٠٠) (١٢/ ٤٧) ، وفي «موضح أوهام الجمع والتفريق» (٢/ ١٧٠) ، و«اقتضاء العلم العمل» (٧٣) ، وصححه بمجموع الطرق الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٩١) ، و«صحيح الجامع» (١٢٩).

فعن ابن مسعود ﷺ قال: « إن الناس أحسنوا القول كلَّهم ، فمن وافق قولُه فعلَه فذلك الذي أصاب حظَّه ، ومن خالف قولَه فعلُه فإنما يوبخ نفسه »[١] .

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : « لا تكون تقيًّا حتى تكون عالمًا ، ولا تكون بالعلم جميلاً حتى تكون به عاملاً »[٢] .

والعلم ليس بنافع أربابه ... ما لم يفد عملًا وحسن تبصُّرِ
سيان عندي من لم يستفد ... عملًا به وصلاة من لم يطهر
فاعمل بعلمك توف نفسك وزنها ... لا ترضى بالتضييع وزن المخسر

*****

ألا أيها المعلِّمُ غيرَه ... هلا لنفسك كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذي الضَّنا ... كي ما يصحَّ به وأنت سقيمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
وهناك يُقبل ما تقول ويُقتدى ... بالقول منك وينفع التعليمُ

وقال غيره:

إِذَا العِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً ... عَلَيْكَ وَلَمْ تُعْذَرْ بِمَا أَنْتَ حَامِلُ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَبْصَرْتَ هَذَا فَإِنَّمَا ... يُصَدِّقُ قَوْلَ المَرْءِ مَا هُوَ فَاعِلُ

وقد كان مالك بن دينار ﷺ يقول[٣] : « إن العالم إذا لم يعملْ بعلمِهِ زلَّتْ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧٥)، ووكيع في «الزهد» (٢٦٦) ، وأحمد في «الزهد» (٢/ ١٠٨) ، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢/ ٤١٤، ٤١٥) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/ ١٧٢) .

(٢) أخرجه الدارمي (٢٩٣) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٣٩) ، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (١٦، ١٧) .

(٣) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٩٧) ، و«تاريخ بغداد» (٤/ ١١٠) ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٨٨) ، وأحمد في «الزهد» (٣٢٣).

موعظَتُهُ عن القلوب كما يزل القطرُ عن الصفا» ، أي : كما يزل الماء عن الحجر الأملس .

قال ابن السماك رحمه الله [(١)] : « كم من مُذَكِّرٍ بالله ناسٍ لله ، وكم من مخوف بالله جرئٌ على الله ، وكم من تالٍ لكتاب الله وهو منسلخٌ عن آيات الله ، وكم من مقرِّبٍ إلى الله وهو بعيدٌ عن الله » !! فنسأل الله ـ تعالى ـ الصدق والإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال .

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه [(٢)] يقول : « إني لخائف يوم ينادي منادٍ ؛ فيقول: يا عويمر . فأقول: لبيك رب لبيك . فيقول: أما علمت؟ فأقول : نعم . فيقال: كيف عملت فيما علمت؟ فتأتي كلُّ آية في كتاب الله زاجرة وآمرة تسألني فريضتها ، فتشهد عليّ الآمرة بأني لم أفعل ، وتشهد عليَّ الزاجرة بأني لم أنته أو أترك ، فأعوذ بالله من قلب لا يخشع ، ومن عمل لا ينفع ، ومن صوتٍ لا يسمع ، وأعوذ بالله من دعاء لا يجاب» . وفي لفظٍ عند أبي نعيم : «ودعاء لا يسمع» .

هل تتصور أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم الذي غفر اللهُ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، الذي فُطر على التوحيد ، والذي عصمه الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .. هل تتصور أنه كان يدعو الله ـ تبارك وتعالى ـ وكان يتعوذ بالله من علم لا ينفع ؟ هل فكر كثيرٌ من طلاب العلمِ الجرءاءُ الذين يتطاولون على الرموز ، ويتطاولون على العلماء .. هل فكَّر أحدهم في تلك الاستعاذة من علم لا ينفع ؟ وهل هناك علم لا ينفع ؟

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٩١٦) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٢١٥) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١٣، ٢١٤) من طريق سريج بن يونس ، عن الوليد بن مسلم عن علي بن حوشب عن أبيه عن أبي الدرداء ، وهو في «اقتضاء العلم العمل» للخطيب (١٩) مرفوعًا ، وضعفه الشيخ الألباني ـ رحمه الله تعالى.

وأخرجه أحمد في « الزهد» (١٣٦) من طريق أخرى عن أبي الدرداء موقوفًا ، وله طريق ثالثة عند أبي نعيم في «الحلية» المصدر السابق ، والموقوف يُحسَّن من تلك الوجوه .

نعم .. هناك علم لا ينفع ؛ فالعلم الذي لا يورث صاحبه الأدب لا ينفعه ، والعلم الذي لا يورث صاحبه الخشية لا ينفعه ، والعلم الذي لا يورث صاحبه التواضعَ لله ولرسولِ الله ﷺ ثم لأهلِ العلمِ لا ينفعه هذا العلم ؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه [(١)] : ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكنَ العلمَ خشيةُ الله » ؛ قال ـ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] .

وروى مسلمٌ في «صحيحه» من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ** .. » [(٢)] ؛ فهل استعذت أنت بالله من علم لا ينفع ؟ ومتى كانت آخر مرة تضرعت فيها إلى الله وتململت بين يديه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ كتململ العصفور المبلل بماء المطر، واستعذت به ـ تبارك وتعالى ـ من علم لا ينفع؟ فالرسول ﷺ يقول : « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا** » .

وكان ﷺ يقول ؛ كما في سنن الترمذي وابن ماجة وغيرهما وصححه الشيخ الألباني رحمه الله [(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « **اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي ، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي ، وَزِدْنِي عِلْمًا** » .

وما أروع كلمات هذا الأثر ـ وإن كان في سنده ضعف ـ من باب الأمانة العلمية ـ والأثر رواه الدارمي وابن عبد البر وغيرهما عن عليٍّ رضي الله عنه قال : «يا حملة العلم اعملوا به ؛ فإن العالم من علم ثم عمل ، ووافق علمَهُ عملُهُ ،

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٥٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣١).

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل رقم (٢٧٢٢).

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الدعوات ، باب (١٢٨) رقم (٣٥٩٩) ، وقال : «حديث حسن غريب من هذا الوجه» ، وابن ماجة في المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به (٢٥١) ، وفي كتاب الدعوات (٣٨٣٣) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن الترمذي وابن ماجه» .

وسيأتي أقوامٌ يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم ، يخالف علمَهُمُ عملُهُمُ ، وتخالف سريرتَهم علا نيتُهم ، يقعدون حِلَقًا يباهي بعضهُم بعضًا ، حتى إن أحدَهم ليغضب على جليسه إن تركه وجلس إلى غيره ، أولئك لا ترفع أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله ﷻ»[1] ، هل يجسد عليٌّ رضي الله عنه واقعَ كثيرٍ من طلاب العلم الآن ؟!

فالقضيةُ ـ إذًا ـ قضية عمل ؛ وقد يكون من اليسير جدًّا أن تقدم منهجًا نظريًّا في التربية والأخلاق ؛ بل إن المنهج موجود ، فالقرآن موجودٌ بين أيدينا ، وسنة النبيِّ ﷺ موجودة بين أيدينا ؛ فمن اليسير جدًّا أن تقدم منهجًا نظريًّا في التربية والأخلاق ، لكن هذا المنهج سيظلُّ حبرًا على الورق ما لم يتحول هذا المنهج في حياتنا إلى واقعٍ عمليٍّ ومنهج حياة ، وهذا هو السرُّ الذي من خلاله استطاع نبينا ﷺ أن يقيم للإسلام دولة من فتاتٍ متناثرٍ وسط صحراء تموجُ بالكفر والجهل موجًا، فإذا بدولة الإسلام بناءٌ شامخٌ لا يطاوله بناء ، وذلك في مدة لا تُساوي في حساب الزمن شيئًا على الإطلاق ، وذلك يوم أن نجح نبينا ﷺ في طبع عشرات الآلاف من النسخ من المنهج القرآني والنبوي ، لكنه لم يطبعها بالحبر على صحائف الأوراق وفي بطون الكتب والمجلدات أو عَبْر أشرطة الكاسيت أو الأقراص المدمجة، وإنما طبعها ﷺ على صحائف قلوب الصحابة بمداد من التقى والهدى والنور ؛ فانطلق الصَّحْبُ الكرام ليحولوا هذا المنهج الرباني القرآني والنبوي إلى منهج حياة ، وإلى واقع يتألق

---

(١) سندُهُ ضعيف: أخرجه الدارمي (١/ ١٠٦) ، والخطيب في «الاقتضاء» (٩) ، وفي «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٣٢) ، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٣٧) من طريق الحسن بن بشر قال : ثنا أبي عن سفيان الثوري عن ثوير بن أبي فاختة عن يحي بن جعدة عنه ، وثوير ضعيف ، ويحي بن جعده لا يروي عن علي رضي الله عنه . وقال الشيخ الألباني في «الاقتضاء» : «إسناده موقوف منقطع ، وثوير بن أبي فاختة ضعيف» .

سموًّا وعظمة وصدقًا وإخلاصًا وحركة وعملًا وبناءً .

فالفارق الكبير بيننا وبينهم أننا ربما نجد الآن عند كل طالب علم من الكتب والمجلدات ما لم يكن عند السلف ، ما كانت هذه الكتب والمجلدات بسمتها ورسمها وعددها وكمها عند السلف ، ولكنهم حولوا هذا المنهج إلى عمل ؛ فالعلم عاريةٌ لا يُنتفع به إلا إذا حوله صاحبه إلى منهجٍ عملي ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾ [يوسف:٦٨] ، قال قتادة في هذه الآية [١]: « وإنه لذو عمل بما علمناه » ، قال ـ جلَّ وعلا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢،٣] .

*****

(١) أخرجه الطبريُّ في «التفسير» (١٩٢٩٠)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٧/ ٢١٧٠).

المسألة الثالثة: الدعوة إلى الله

قال المصنف رحمه الله:

«الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ».

الشرح

هل يعودُ الضمير في قول المصنف: «الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ» على العمل أم على العلم؟ والراجح: الدعوة إلى العمل بالعلم؛ فقد أصَّلنا أن علمًا بدون عمل لا قيمة له، لاسيما وقد عَرَّف الشيخُ العلمَ بقوله: «الْعِلْمُ: هُوَ مَعْرِفَةُ الله، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَمَعْرِفَةِ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ»، وسأرجئ الحديث عن معرفة الله ومعرفة نبيه ﷺ ومعرفة دين الإسلام عند الحديث عن الأصول الثلاثة - إن شاء الله تعالى - فهذا هو لبُّ كتابنا بإذن الله - جَلَّ وَعَلاَ؛ وأقول:

الدعوة إلى الله من أعظم الفروض التي افترضها الله على هذه الأمة، وقد دلَّت الأدلة من القرآن والسنة على وجوب الدعوة إلى الله على منهج رسول الله ﷺ؛ فقال الله - سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقال - جَلَّ وَعَلاَ: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

قال ابن القيم رحمه الله [١]: «ولا يكون الرجل من أتباع النبيِّ ﷺ حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه النبيُّ ﷺ على بصيرة».

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٤)، وانظر: «إعلام الموقعين» (٤/ ١٣٠)، و«المدارج» (٢/ ٤٨٢) بتصرف في المعنى.

والدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ، شرف هذه الأمة ، ونَسَبُهَا ؛ قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ ﴾ [آل عمران:١١٠] ، وهذه الخيرية ليست ذاتية ، وليست عرقية ، وليست عصبية ، ولكنها خيرية مستمدة من حمل الأمة لهذه الرسالة المباركة لأهل الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠] ؛ فأمة النبيِّ ﷺ أمة دعوة ، وأمة بلاغ ، وما شُرِّفت الأمة إلا لحملها هذه الرسالة ، تدبروا هذا الأمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول لقومه : ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ [الجن:٢٢،٢٣] ، أمرٌ مهيبٌ جليلٌ؛ فلن ينجيني من عذاب الله إلا أن أبلغ دين الله ـ تبارك وتعالى ـ فالأمة ما شُرفت إلا بالدعوة ، وما كُرِّمت إلا بحمل هذا الدين ، وما عزَّت الأمة إلا يوم رَفَعَتْ راية الدعوةِ إلى الله ـ تعالى ـ على منهج النبيِّ ﷺ ، وما ذلَّت الأمة وهانت إلا يوم أن تخلَّت عن هذه الأمانة العظيمة ، والشرف الكبير، والتبعة الثقيلة .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر:١،٢] ؛ فقام ـ ورب الكعبة ـ ولم يذق طعم الراحة حتى لقي الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وحتى أنزل الله عليه قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]

قال شيخنا ابن باز رحمه الله [(١)] : « الدعوة إلى الله الآن فرض عين على كلِّ مسلم ومسلمة ، كلٌّ بحسب قدرته واستطاعته ؛ لأننا نعيش زمانًا انتشر فيه الباطلُ وأهلُهُ » ـ ووالله ما انتشر الباطلُ وأهلُهُ إلا يوم أن تخلَّى عن الحق أهلُهُ !!

---

(١) من أقوال الشيخ ابن باز في الدعوة إعداد / زياد بن محمد السعدون (ص١٨) ط الوطن ، بتصرف .

فواجبٌ على كل مسلم أن يبلغ دين الله على قدر استطاعته، وبقدر ما عَلَّمَه الله - تبارك وتعالى - من العلم، ألم تحفظ آية من كتاب الله ؟! ألم تحفظ حديثًا من أحاديث رسول الله ﷺ ؟

فقد روى «البخاريُّ» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: « **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** » (١).

وهنا لطيفةٌ أحبُّ أن أذكِّر بها ؛ فقوله: « **بَلِّغُوا** » تكليف و« **عَنِّي** » تشريف، وقوله: « **وَلَوْ آيَةً** » تخفيف . نعم .. كلٌّ بقدر استطاعته وإمكاناته.

وفي سنن الترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم - بسندٍ صحيح - من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، ورُوِي من حديث ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : «**نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ** » (٢) ؛ فرسول الله ﷺ يدعو بنضارة الوجه لمن بلغ عن الله وعن رسوله ﷺ بصدق .

بل وعد الله بالفلاح لمن يدعو إلى الخير ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران:١٠٤، ١٠٥] ، وقال جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل رقم (٣٤٦١) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، في كتاب العلم ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع رقم (٢٦٥٦-٢٦٥٨) ، وأبو داود في كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم رقم (٣٦٦٠) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب من بلغ علمًا (٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٦) وأحمد (١/ ٤٣٧) و (٣/ ٢٢٥) و (٥/ ١٨٣) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٧٦٣- ٦٧٦٦) و«الصحيحة» (٤٠٤) .

ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت:٣٣] .

وفي « صحيح مسلم » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: « **مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا** »(١) .

وفي « **صحيح مسلم**» (٢) من حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا :لِمَنْ؟ قَالَ: «**لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**». والدعوة إلى الله تعالى من النصيحة لله سبحانه ، وهي نصيحة لعامة المسلمين كذلك .

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٣) عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه قال : « **بَايَعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى النُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ** » .

وقال سبحانه: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [الشورى:١٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص:٨٧]، وقال جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج:٦٧] .

وفي «**الصحيحين**» (٤) عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر : «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب (العلم) ، باب من سن حسنة أو سيئة رقم (٢٦٧٤).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « **الدين النصيحة**» (٥٧ ،٥٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٦) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب دعاء النبيِّ صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام والنبوة (٢٩٤٢) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).

الإِسْلاَمِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ ، فَوَ اللهِ ! لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ ».

وفي « صحيح مسلم » من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « **مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي ، إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ ، يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ** »[١] .

فأسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعًا من حواري رسول الله ﷺ ، ولن نكون أبدًا من حواريِّ رسول الله ﷺ ؛ ولا من أتباعه حقًّا حتى نرفع نفس الراية التي رفعها رسول الله ﷺ ، ونتحرك بين الناس بذات المنهج الذي تحرك به بين الناس رسول الله ﷺ ، وندعو إلى الله بمنهج رسول الله ﷺ ببصيرة ، وبحكمة بالغة ، وكلمةٍ رقيقة رقراقة ، وموعظةٍ حسنة .

إن منهج الدعوة إلى الله تعالى توقيفيٌّ ، لم يَدَعْهُ الله لنبيٍّ من الأنبياء ؛ فضلا عن داعية من الدعاة ، وأُصُولُ هذا المنهج الدعوي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ولكن قد تختلف الوسيلة من مكانٍ لآخر أو زمان لآخر ، وبحسب حال المدعوين .

فالمشافهة وجهًا لوجه من أعظم وسائل الدعوة بأن يقابل الداعي المدعوين في محاضرة في المسجد أو خطبة جمعة إلى غير ذلك ، وهناك مشافهة للمدعوين ، ولكنها غير مباشرة .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان رقم (٥٠) .

فالقنوات الفضائية وسيلةٌ تتفق مع عصرنا وزماننا ، والشريط وسيلة ، والمحاضرة عبر الإذاعة وسيلة ، وإعلانٌ لمحاضرة في التلفاز أو في جريدة وسيلة، أو عن طريق الكتابة والتأليف في الكتب والمجلات .. إلى غير ذلك ؛ فالوسائل تختلف باختلاف الزمان والمكان ، أما المنهج فتوقيفيٌّ ، لا يختلف البتة باختلاف الزمان والمكان .

إن أصول هذا المنهج الدعوى قد بينها الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥] .

وقد نقل الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في «**فتح المجيد**»(١) عن ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ قوله في معنى هذه الآية فقال : « ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدْعُوِّ : فإنه إما أن يكون طالبًا للحق محبًّا له مؤثرًا له على غيره إذا عرفه ؛ فهذا يُدْعى بالحكمة ، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال ، وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق ، ولكن لو عرفه آثره واتبعه ؛ فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب ، وإما أن يكون معاندًا معارضًا ؛ فهذا يجادل بالتي هي أحسن ، فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدال إن أمكن » .

وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] ، وقال تعالى : ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه:٤٣،٤٤].

هذه هي أصول المنهج الدعوى ، وفي «صحيح مسلم»(٢) عن عائشة رضي الله عنها

---

(١) «فتح المجيد» (٨٦ ـ ٨٧) ، وهو في «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٤/ ١٢٧٦) ، وانظر : «مجموع الفتاوى» (٢/ ٤٥) بمعناه .

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل الرفق (٢٥٩٣).

أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « **يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ ، مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ** » .

وحياة النبيِّ ﷺ في الدعوة إلى الله تطبيقٌ عمليٌّ لهذه الأصول ، ولا يتسع الوقت لذكر النماذج الدعوية التطبيقية العملية من سيد الدعاة رسول الله ﷺ ؛ لكنني أجدُني مضطرًا لأن أُذَكِّرَ بموقفين :

فهذا موقف لشاب تجري حرارة الشباب في عروقه ، فقد جاء النبيَّ ﷺ ليسأله شيئًا !! فهل يا ترى جاء ليسأله مالاً ؟ أو جاء ليسأله أن يدعو الله له ؟ أو جاء ليستأذنه في الجهاد في سبيل الله ؟ كلا ... وإنما جاء ليستأذن رسول الله ﷺ في « **الزِّنَا** » !!

فكيف أجابه الرحمة المهداة ، والنعمة المسداه ؟ هل سَبَّه؟ هل زجره ونهره ؟ هل عنفه ووبخه وأمر به ليحمل من الأيدي والأرجل ليلقى به بعيدًا بعيدًا ؟ لا وربِّ الكعبة .. فماذا قال نهر الرحمة ، وينبوع الحنان ، ومعين الرفق واللين ﷺ ؟

ففي «مسند أحمد» والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «الشعب» [1] من حديث أبي أمامة الباهليِّ رضي الله عنه قال: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ ، قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ : «**ادْنُهْ**» ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيباً، قَالَ : فَجَلَسَ ، قَالَ : «**أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟**» قَالَ : لاَ، وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ ، قَالَ : وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ ، قَالَ: « **أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟** » قَالَ: لاَ وَالله يَا رَسُولَ الله ، جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ ، قَالَ : «**وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**» ، قَالَ : « **أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ ؟**» قَالَ : لاَ وَالله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ ، قَالَ : «**وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧) ، والطبراني في «الكبير» (٧٦٧٩) ، و«مسند الشاميين» (١٠٦٦) ، والبيهقي في «الشعب» (٥١٨١) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٢٩) : « ورجاله رجال الصحيح» ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٠) .

لأَخَوَاتِهِمْ» ، قَالَ : « **أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ ؟** » قَالَ: لاَ وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ» ، قَالَ : « **أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟** » قَالَ: لاَ وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ : «وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاَتِهِمْ» ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ : «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ** ».

وكلُّنا يحفظ حديث الأعرابي الذي رواه البخاريُّ من حديث أبي هريرة ﷺ : أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ ؛ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**دَعُوهُ ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ ، أَوْ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ ـ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ** » [١].

هل تتصور هذا المشهد؟ أعرابيٌّ يَدَعُ هذه الصحراء المترامية ، ولا يجد مكانًا يقضي فيه حاجته إلَّا في مسجد رسول الله ﷺ ؛ بل وفي حضرته الشريفة ﷺ ، ويقول الصحابة: مه مه ، ماذا تصنع أيها الرجل ؟! والرسول ﷺ سيد الدعاة يقول : « **لَا تُزْرِمُوهُ** » [٢].

إننا لا نذكر هذا من باب الإعجاب السالب ـ أيها الأحبة ـ أو لمجرد الثقافة الذهنية البادرة ؛ بل لنبين منهجًا عمليًّا للدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وواجبٌ لكل سالكٍ لهذا الطريق والدرب المنير أن يكون على هذا المنهج العظيم .

وقوله: «**لا تُزْرِمُوهُ**» أي: لا تقطعوا عليه بولته !! ويقضي الرجل بوله باطمئنانٍ كامل ، ثم يُنادي عليه رسول الله ﷺ ؛ نهرُ الرحمةِ ، وينبوعُ الحنانِ ، وأستاذُ الخُلُقِ والأدبِ ، ويقول : « **إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب الأدب ، باب قول النبيِّ ﷺ : « **يسروا ولا تعسروا** » رقم (٦١٢٨) ، وانظر (٢٢٠) ، وأخرجه البخاريُّ (٢١٩، ٢٢١، ٦٠٢٥) ، ومسلم (٢٨٤، ٢٨٥) من حديث أنس ﷺ .

(٢) هذه الرواية من حديث أنس ﷺ .

الْبَوْلِ وَلاَ الْقَذَرِ ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله ﷻ ، وَالصَّلاَةِ ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ » [(١)] ، ويأمر النبيُّ ﷺ صحابيًّا ، فيأتي بدلو من الماء فيشنه على أثر البول ، ويطهر المكان ، وانتهت القضية ، وانتهت المشكلة ، فما أمر النبيُّ ﷺ الصحابة أن يلقوا هذا الرجل من يديه وقدميه خارج المسجد ، وما عنَّفه ، وما وبخه ، وما آذاه بكلمة ولا بلفظة ـ لا والله ـ فانفعل هذا الأعرابي بهذا الخلق الكريم ؛ فدخل الصلاة خلف رسول الله ﷺ ، ثم دعا الله بهذه الدعوة التي سمعها النبيُّ ﷺ ، سمع الأعرابي يقول : « **اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا ، وَلاَ تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا** » ، وهنا لم يجامله النبيُّ ﷺ على حساب المنهج ، وإنما لما قضى النبيُّ ﷺ صلاته قال : « **لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا**» [(٢)] ، يعني: لم تضيق ما وسع الله تبارك وتعالى ؟ والله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ يقول : ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف:١٥٦] .

فهذا درس عمليٌّ من المعلم الأعظم ﷺ يبين لنا منهج الدعوة إلى الله تعالى .

وما أجمل قول يحيى بن معاذ رحمه الله المتقدم في تعليقه على قول الله ـ تعالى ـ لموسى وهارون ـ على نبينا وعليهما الصلاة والسلام : ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ [طه:٤٣، ٤٤] ، وكلُّنا يعرف فرعون ؛ ففرعون هو الذي قال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات:٢٤] ، وفرعون هو الذي قال : ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص:٣٨] ، ومع ذلك يأمر الله ـ تعالى ـ موسى وهارون نبيين كريمين أن يقولا لفرعون قولًا لينًا ، وهنا يقول يحيى بن

---

(١) هذه رواية أنس رضي الله عنه المخرجة سابقًا .

(٢) انظر : «صحيح البخاريّ» ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم (٦٠١٠) وهذه القصة كانت قبل البول كما عند أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب الأرض يصيبها البول (٣٨٠) ، والترمذي ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في البول يصيب الأرض (١٤٧) ، وابن ماجه ، كتاب الطهارة وسننها (٥٢٩) ، وأحمد (٢/ ٢٣٩) ، وابن خزيمة (٢٩٨) ، والحميدي في «مسنده» (٩٣٨) ، وانظر : «الإرواء» (١٧١).

معاذ [١] : « إلهي وسيدي ، هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله ، فكيف رفقك بمن يقول: أنت الإله ؟! »

وأقولُ: لقد دخلت بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل الجنة في كَلْب ؛ كما ثبت في « الصَّحِيحَيْنِ » من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ النبيُّ ﷺ : « **بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا، فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ** » [٢] .

فإذا كانت الرحمة بالكلاب تغفر الخطايا للبغايا ؛ فكيف تصنع الرحمة بمن وحَّد رب البرايا؟ ونحن نركز على هذه القضية المهمة ؛ لأننا نلاحظ ونلمح قسوة وجفوة في كثيرٍ من إخواننا ؛ فبمجرد أَنْ يلتزم الالتزام الظاهر يُحوِّلُ البيتَ إلى نارٍ متأججة ، لا يستطيع والده أن يكلمه ، ولا تستطيع أمه أن تتحدث معه ؛ فضلًا عن أخواته ، وإخوانه ، لماذا ؟! يقول : التزمت ، هل هذه حياة الالتزام ؟! هل بهذا الخُلُقِ والسلوكِ ندعو غيرنا إلى الله تبارك وتعالى ونأخذ بقلوب الخلق إلى الله تبارك وتعالى؟!! مُحالٌ ـ أيها الأحبة ـ فالدعوة منهجٌ ، لا يجوز للداعية أن يتجاوز أصولَه التي حددها القرآنُ كما ذكرتُ .

وهنا أقول : إن الحقَّ معنا ؛ لكننا لا نُحسن أن نشهدَ لهذا الحق شهادةً خُلُقية عملية على أرض الواقع ، ولا نُحسنُ أن نُبَلِّغُ هذا الحقَ لأهلِ الأرض بحق ، هذه هي المشكلة ،وإن الباطلَ مع غيرنا ، لكنه يُحسن أن يلبس الباطلَ ثوبَ الحق ، ويُحسن أن يَصِلَ بالباطلِ إلى حيثُ ينبغي أن يصل الحق ، وحينئذٍ ينزوي حقُّنا ويضعف كأنه مغلوب !! وينتفخ الباطل وينتفش كأنه غالب ؛ كما هو الواقع !!

---

(١) سبق عزوه .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) رقم (٣٤٦٧) ، وانظر: (٣٣٢١) ، ومسلم ، في كتاب السلام ، باب فضل البهائم المحترمة وإطعامها رقم (٢٢٤٥).

وهنا نتألمُ لحقنا الذي ضَعُف وانزوى ، وللباطل الذي انتفشَ وانتفخ ، فنعبر عن ألمنا هذا بصورةٍ من صورتين لا ثالث لهما :

إما أن نعبر عن ألمنا بصورة مكبوتة سلبية ؛ فنزداد هزيمة نفسية على هزيمتنا ، وانعزالًا عن المجتمع والعالم !! .

وإما أن نعبر عن ألمنا هذا بصورة صاخبة متشنجة منفعلة ،وأحيانًا دموية مخزية ؛ فيزداد أهل الأرض بغضًا للحق الذي معنا ، وإصرارًا على الباطل الذي معهم ، فنخسر الحق مرة بعد مرة ، مع أننا على الحق وغيرنا على الباطل !!!

فالقضية ـ أيها الأفاضل ـ هي كيف ندعو الناس؟ وكيف نبلغ الحق لأهل الأرض بحق ؟

وأقول ـ مرارًا : إننا لا نتعامل مع ملائكة بررة ، ولا مع شياطين مردة ، ولا مع أحجار صلدة ؛ بل نتعامل مع نفوس بشرية فيها الإقبال والإحجام ، فيها الخير والشر ، فيها الحلال والحرام ، فيها الفجور والتقوى ، فيها الطاعة والمعصية ، أَوَ لَمْ يقل خالق النفس البشرية ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[الشمس:٧، ٨] .

فلنتعامل مع النفس البشرية من هذا المنطلق ، لنسبر أغوارها ، لنتغلغل إلى أعماقها ، ولن يكون ذلك أبدًا ـ أيها الأحبة ـ إلا بالحكمة البالغة ، والموعظة الحسنة ، والكلمة الرقيقة الرقراقة .. هذا كلُّه في سبيل تحصيل هذا الفضل العظيم الذي أشرنا إليه ألا وهو فضل الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى .

وقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم:٢٤، ٢٥] ، هذه هي الدعوة الكريمة .. هذه هي الكلمة الطيبة التي ضرب الله ﷻ مثلًا

لها في القرآن بالشجرة الكريمة الطيبة ، تلك الشجرة التي تغلغل في أعماق التربة وفي قلب الصخور ، لا تؤثر فيها الرياح العاتية ،ولا تحطمها معاول الهدم والبطش والطغيان .. إنها الدعوة إلى الله تعالى .

بَـيْن الجـوانح في الأعـماق سُـكْنَاهَا — فكيف تُنسى ومَنْ في الناس ينساها

الأُذن سـامعةٌ والعـين دامعـةٌ — والروحُ خاشعةٌ والقلبُ يهواها

وَلِمَ لَا وهي كلمةُ الله ـ جَلَّ في عُلاه ـ وكلمة رسُول الله ﷺ .

ومن المزالق الخطيرة أن ينظر داعيةٌ إلى من يدعوهم نظرة المستعلي .. وأن يكلمهم كلام المترفع ، وكأن لسان حاله يقول لهم : أنا العالم وأنتم الجاهلون !! أنا الطائع وأنتم المذنبون العاصون !!أنا التقيُّ وأنتم الفاسقون !! أنا المتبع وأنتم المبتدعون !! أنا المُهْتدي وأنتم الضالون !!

ألا فلنذكر ـ جميعًا ـ قول الله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [النساء:٩٤] ، وقول الله سبحانه : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧] .

فمهما أظهر الداعية من حكمة ورحمة ،ولم يتوِّج هذا بتاج التواضع ، فحتمًا ستنصرف من حوله القلوب ؛ لأن النفس البشرية تنفر من الكبر وتبغض المتكبرين ،ومن يطلب العزة في الكبر كمن يطلب الماء من النار !!

فما هو التواضع إذًا ؟

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ :« هو انكسار القلب لله ، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده ؛ فلا يرى له على أحدٍ فضلاً ،ولا يرى له عند أحدٍ حقًّا ؛ بل يرى الفضل للناس عليه ، والحقوق لهم قبله ، وهذا خُلُقٌ إنما يعطيه الله عَزَّ وَجَلَّ من يحبه ويكرمه ويقربه »[١] .

---

(١) «الروح» لابن القيم (٢٣٣) .

وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: «يخضع للحق، وينقاد له، ويقبل الحق من كل من يسمعه منه»[(١)].

فليحذر الداعية أن يرى لنفسه ـ بدعوته ـ حقًّا على الله؛ فلن يدخل الجنة أحدٌ بعمله إلا أن يتغمده الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ برحمته؛ كما أخبر بذلك حبيب رب العالمين ﷺ؛ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»[(٢)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «**وَلاَ أَنَا، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**».

وفي «صحيح مسلم»[(٣)] عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**لاَ يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلاَ يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ وَلاَ أَنَا، إِلاَّ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ**».

وفي «صحيح مسلم»[(٤)] مِنْ حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المجاشِعيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لاَ يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**».

هذه هي أخلاق الداعية، وسماته؛ حكمة ورحمة وتواضع.

أعذار بعض طلبة العلم القاعدين عن الدعوة:

ومن عجبٍ بعد هذا البيان الوجيز لفضل الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ أن كثيرًا من إخواننا وطلابنا يعزفون عن الدعوة إلى الله بدعوى أنهم مازالوا

---

(١) أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (٨٢٤٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/ ٤١٩)، والشجري في «أماليه» (٤٣٠)، انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب المرض، باب نهي تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦)، وأخرجه البخاريُّ (٦٤٦٤ـ ٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب المرض، باب نهي تمني المريض الموت (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦)، وأخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٧).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

يطلبون العلم ، ومن قال لك بأن طلب العلم ينتهي في مرحلة من المراحل ، إن طلبك للعلم لا ينتهي حتى تلقى الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

قال الإمام أحمد ـ إمام أهل السنة ـ حينما رآه أحد الأفاضل ما زال في مجلس العلم يمسك المحبرة ، فقال له : يا إمام ، بلغت ما بلغت وما زلت تمسك المحبرة ؛ فقال : « نعم ، مع المحبرة إلى المقبرة » (١) ؛ قال تعالى آمرًا نبيَّهُ محمدًا ﷺ بالازدياد من العلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤] ، هكذا يأمر الله نبيَّه بهذا ، فسيظل الطالب يطلب العلم إلى أن يلقى الله ﷻ .

ونحن لا نريد أن تتحول الأمة كلُّها إلى دعاة على المنابر في المساجد ، وإنما نريد أن تتحول الأمة كلُّها إلى دعاة لدين الله ؛ كلٌّ في موضع إنتاجه ، وموطن عطائه ، فلو شهد كلُّ مسلمٍ للإسلام شهادةً عمليةً في موقعه ؛ فهذه هي أعظمُ خدمةٍ نقدمها لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ شهادةٌ ـ ورب الكعبة ـ آثمٌ قلبهُ من يكتمها الآن ؛ لأننا نعيش عصرًا صار الغرب يحكم فيه على الإسلام من خلال واقعنا كمسلمين .

وواقع المسلمين أليم ، إلا من رحم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ من أفراد ؛ فأعظم خدمة نقدمها للدين أن ندعو للدين بأخلاقنا ، وسلوكنا ، وأعمالنا ، وأقوالنا ، وأنا أسأل : من منَّا لا يستطيعُ في أي موقف من المواقف أن يبلغ عن الله بكلمة مهذبة رقيقة ؟!

وأذكِّر بهذا المثال : والله لا زِلْتُ أذكُر هذه الأخت الفاضلة من الرياض ؛ فحين كنت في زيارة لإخواننا في ألمانيا ، وأخبرني إخواني هنالك عن رجلٍ ألماني فاضل من الدعاة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وقالوا : إنه كان يعمل ملاكمًا

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ١٢٧) ، و«أدب الإملاء والاستملاء» للسمعاني (١٧٠) .

لفترة من الفترات قبل عشرين عامًا ، ودُعي ليكرم في مدينة الرياض ، فتقدمت أختٌ فاضلة بحجابها الكامل ، وقدمت له هدية بين الهدايا ، وما كان هذا الرجل قد أسلم بعد ، قدمت له ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الألمانية ، هذا الذي قدمته فقط ، يقول هذا الرجل : وأخذت الهدية ووضعتها بين الهدايا ، ومضى على هذه الهدية عشرون عامًا ، وجلست يومًا لأرتِّب مكتبتي ، فوقع في يدي هذا الكتاب ، فتذكرت وعدتُ إلى الوراء عشرين سنة !! قال : فجلست على كرسي مكتبي ، وفتحت الكتاب من أوله فقرأتُ تفسير سورة الإخلاص ، قال: فعدت إلى الكتاب من آخره ، فقرأت تفسير سورة الفاتحة ، قال : فهزَّت المعاني قلبي ، فوقع حبُّ الإسلام في قلبي ، فخرجت من بيتي إلى المركز الإسلامي ، قلتُ: دلوني ماذا أصنع إن أردتُ أن أدخل دين الله؟ قالوا : اغتسل ، فاغتسلَ ، ونطق الشهادتين ، ودخل دين الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي اللحظة التي خلع فيها رداء الشرك على عتبة التوحيد والإيمان تحرك للدين ، وتحرك للدعوة ، ماذا يصنع ؟ لا يحفظ شيئًا من القرآن ، لا يحفظ شيئًا من السُّنَّة ؛ لكنه يستطيع أن يقدم شيئًا .

وصَدَق من قال :

فلم أر في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

أخذ مجموعةً من الكتيبات التي تتحدث عن الإسلام باللغة الألمانية ، وخرج في ميدان ، ووضعها على منضدة بين يديه ، وكان الشباب والفتيات يعرفونه ، وينزلون له ليوقِّع لهم على «الأوتوجرافات» ، فيقدِّم إلى أحدهم كتيبًا من هذه الكتيبات ، يُقسم الإخوة بالله دخل الإسلام على يد هذا الرجل ما يزيد على مائتي رجل وامرأة في عامٍ واحد ، والسؤال: هذا العدد كلُّه في

ميزان مَنْ ؟ الأخت الفاضلة التي قدمت له هذه الهدية التي ما توقعت أن تكون سبب إسلامه بعد عشرين سنة ؛ فما عليك إذًا إلا أن تدعو إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وأن تغرس في حقل الإسلام غرسًا صحيحًا ، بالقرآن والسنة بفهم سلف الأمة ﷺ، ودع النتائج بعد ذلك إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ فالقلوب ليست بيد أحد .

وفرقٌ ـ يا إخوة ـ بين هداية الدلالة وهداية التوفيق ؛ فهداية الدلالة هذه وظيفتنا ، أن ندل الخلق على الحق ،نقول : قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وقال الرسول ﷺ ، ويكون ذلك بأدب وتواضع وحكمة ورحمة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] ، فأثبت لهم الهُدَى الذي معناه الدلالة والدَّعْوةُ والتَّنْبِيهُ ، أما هداية التوفيق فبيد الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يملكها ملكٌ مقرب ولا نبيٌّ مرسل ، ولو كان المصطفى ﷺ ؛ قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٧٢] ، ولكن !!! ألا نرى تعارضًا بين هذه الآية التي ذكرت ، وبين قول الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] ؛ فأقول: لا تعارض ؛ فإن الهداية المثبتة للنبيِّ ﷺ هي هداية الدِّلالة أو الدَّلالة ـ واللغتان صحيحتان بالفتح والكسر ـ أما الهداية المنفية عن رسول الله ﷺ ؛ فهي هداية التوفيق ؛ فهذه بيد الله ـ تبارك وتعالى وحده.

ولو كانت بيد المصطفى ﷺ لهدى النبيُّ ﷺ عمه أبا طالب ؛ كما في « **صحيح البخاري ومسلم** » من حديث سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ ، جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ الله ابْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ؛ فَقَالَ : « **أَيْ عَمِّ ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ**

بِهَا عِنْدَ اللهِ » فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ ، وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ ، عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ** » ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣] [١] ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ ؛ فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص:٥٦] .

قال الفيروزآبادي رحمه الله [٢] : «وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أضرب :

الأول : الهدايةُ التي عمَّ بها كلَّ مكلَّف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية ؛ بل عمَّ بها كل شيء حسب احتماله ؛ كما قال تعالى : ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٥٠] .

الثاني : الهداية التي جعلت للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء:٧٣] .

الثالث : التوفيق الذي يختص به من اهتدى ، وهو المَعْنِيُّ بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧] ، وقوله : ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١] ، وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

الرابع : الهداية في الآخرة إلى الجنة ، وهو المَعْنِيُّ بقوله : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ

---

(١) رواه البخاريُّ في تفسير القرآن ، باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦] ، رقم (٤٧٧٢) .

(٢) « بصائر ذوي التمييز » (٥/ ٣١٣ــ ٤١٣) ، وانظر : «المفردات» للراغب (٨٣٥ ــ ٨٣٧) ، و«بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٣٥ـ ٣٧) .

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[محمد:٥،٦] ، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣] ، وهذه الهدايات الأربع مترتبة . فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية ؛ بل لا يصحُّ تكليفه ،ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرَّابعة ، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدًا إلا بالدعاء وتعريف الطُّرُقِ دون سائر أنواع الهدايات ، وإلى الأول أشار بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥٢] ، وبقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد:٧] ، أي: داعٍ ، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[القصص:٥٦] ، وكل هداية ذكر الله تعالى أنه منع الكافرين والظالمين ؛ فهي الهداية الثالثة ، وهي هداية التوفيق الذي يختص به المهتدون .

والرابعة التي هي الثواب في الآخرة ، وإدخال الجنة المشار إليها بقوله : ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[آل عمران:٨٦] .

ألا تعجب ـ معي بعد كلِّ هذا الفضل ـ أن يتخلى كثيرٌ من أهل الإسلام عن الدعوة إلى الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بل وقد يقنن أحدهم هذا العزوف ، ويحتج ويدلِّل له بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] ، وهذا فهمٌ خاطئ ،وفهمٌ مقلوبٌ للآية ، وقد خشي الصديق رضي الله عنه يومًا من هذا الفهم الخاطئ للآية ، فارتقى المنبر ؛ **كما في سنن أبي داود والترمذي ، ابن ماجة ومسند أحمد بسندٍ صحيح** ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه ارتقى المنبر فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاس ، إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلى غَيْرِ مَا وَضَعَهَا الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] ، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :

« إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ لاَ يُغَيِّرُونَهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ »(١).

وأنتم تعلمون أن الفتنة والمصيبة إن وقعت تصيب الصالح والطالح ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥] .

ونبينا ﷺ يقول ؛ كما في «صحيح البخاري» (٢) : عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ :

«مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا ، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ! فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا ».

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) عَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ ﷺ أَنَّهَا قَالَتِ : اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ : « **لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ** » وَعَقَدَ سُفْيَانُ تِسْعِينَ أَوْ مِائَةً ، قِيلَ : أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ** ».

فالدعوة إلى الله ـ أيها الأفاضل ـ فرضُ عينٍ على كلِّ مسلم ومسلمة ، كلٌّ بحسب قدرته واستطاعته ؛ لأننا نعيش زمانًا انتشر فيه الكفر ، واستشرى فيه

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي (٤٣٣٨) ، والترمذي في « جامعه » كتاب الفتن ، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨) ، وقال : «حديث صحيح» ، وابن ماجه في « سننه » ، كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥) ، وأحمد (١/ ٢، ٥، ٧، ٩) ، والحميدي (٣) وعبد بن حميد (١) ، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٧٤، ١٧٥) ، وابن حبان (٣٠٤، ٣٠٥) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٩٧٤) ، و«الصحيحة» (١٥٦٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الشركة ، باب : هل يقرع في القسمة رقم (٢٤٩٣، ٢٦٨٦) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب الفتن ، باب : قول النَّبِيِّ ﷺ : « **وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ** » رقم (٧٠٥٩) ، وانظر (٣٧٩٢) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب : اقتراب الفتن ، وفتح ردم يأجوج ومأجوج ، رقم (٢٨٨٠) .

الباطل ، وما انتشر الكفر وأهله والباطل وأهله إلا يوم أن تخلى عن الحق أهلُهُ !!

وأُذكِّر بمثالٍ آخر : ألمح الآن صِدِّيق الأمة ﷺ أبا بكر بعد ما نطق الشهادتين ، وفي أيام قليلة ينطلق إلى الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ليرجع بعد يوم واحد بخمسةٍ من العشرة المبشرين بالجنة ، يرجع بعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وبالزبير بن العوام ، وبسعد بن أبي وقاص ، وبطلحة بن عبيد الله .

نعم ؛ فشتان بين زهرةٍ حقيقية من خَلْقِ الله لا تحبس عن الناس أريجَها وعطرَها ، وبين زهرةٍ صناعية لا تحمل من عالم الزهور إلا اسمها !!!

*****

المسألة الرابعة : الصبر على الأذى في العلم

قال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

«الرَّابعة : الصَّبْرُ عَلَى الأذَى فِيْهِ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:١-٣] ، قَالَ الشَّافِعِيُّ [(١)] - رَحِمَهُ الله تَعَالَى :« لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلاَّ هَذِهِ السُّورَةَ ، لَكَفَتْهُمْ» . وَقَالَ البُخَارِيُّ [(٢)] - رَحِمَهُ الله تَعَالَى - بَابُ العِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ ، وَالدَّلِيْلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد:١٩] ، فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ » .

الشرح

ما أحوجنا جميعًا إلى هذه الخصلة الكريمة ، والصبرُ جوادٌ لا يكبو ، وجندٌ لا يُهزمُ ، وحصنٌ لا يُهدمُ .

١- وقد شرَّف الله أهل الصبر ، وأكرمهم فجعلهم في معيته التي تتضمن حفظهم ،ويا لها من كرامة ؛ فقال - جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣] ، وَقَالَ - جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦]

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ١٥٢) ، والاستقامة» (٢/ ٢٥٩) ، و«التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٥٤) ، و«إغاثة اللهفان» (٢٥) ، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦) ، و«تفسير ابن كثير» (لسورة العصر) .

(٢) انظر: «الفتح» (١/ ١٩٢) ط الريان .

والمعيةُ نوعان : معيةٌ عامةٌ ، ومعيةٌ خاصةٌ ، والمراد بالمعية في الآية هنا ؛ المعية الخاصة ، وهي معية النصر والمدد والتأييد والفضل ؛ فيا لها من كرامة أن تكون أيها الصابر في معية الله ـ تبارك وتعالى (١) .

٢ـ بل لقد ذكر الله ﷻ في قرآنه أنه ـ سبحانه وتعالى ـ يحبُّ الصابرين ؛ فقال عزَّ من قائل : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦] .

فإن كنتَ أيها الصابر في معية الله ، فممن تخاف ؟! وإن كان الله يحبك ، فعلى أي شيء تحزن ؟!

٣ـ وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد جمع للصابرين هذه البشريات التي لم يجمعها لغيرهم : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥] ، مَنْ هم الصابرون ؟ قال الله ﷻ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٥، ١٥٦] ، انظر إلى فضل الله عليهم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٧] ؛ فجمع الله للصابرين من البشريات ما لم يجمعه أبدًا لغيرهم .

٤ـ وأهل الصبر هم أهل العزائم ؛ كما قال الله سبحانه في شأنهم : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى:٤٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧] .

٥ـ بل بين الله ـ تعالى ـ كرامة الصابرين حين تدخل الملائكة عليهم الجنة لتبشرهم ولتحييهم هذه التحية الكريمة ؛ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) والمعية العامة: هي العلم والإحاطة ، الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] .

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]

٦ـ ثم أجمل الله ﷻ فضل الصابرين على طاعة الله ، وعلى مجاهدة النفس ونهيها عن الهوى وتزكيتها ومحاسبتها ومراقبتها عند الابتلاء ؛ فقال ـ سبحانه وتعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:٩، ١٠]، أي: لا يعلم أجر الصابرين إلا هو سبحانه ؛ فأجرهم عند الله كالماء المنهمر ؛ فلا يوزن لهم ولا يكال ، وإنما يغرف لهم غرفًا .

٧ـ وضمن الله النصر والمدد لأهل الصبر ؛ كما قال سبحانه : ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] .

٨ ـ والصبر سمة الأنبياء والصالحين ؛ قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف:٣٥] ، وَقَالَ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٥، ٨٦] ، وَقَالَ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام:٣٤] .

وقال سبحانه عن نبيه أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] ، وقال نبيُّ الله يعقوب : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]

وَقَالَ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥] .

٩ـ وبالجملة ؛ فقد قال الإمام أحمد وتبعه شيخ الإسلام ـ رحمهما الله [(١)] : لقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا . وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على شرف الصبر ، ومكانته .

١٠ـ بل لا تنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] .والحديث عن آيات الصبر في القرآن حديثٌ طويلٌ جميلٌ بطول الصبر وجماله وجلاله .

تعريف الصبر :

الصبر لغة [(٢)]: هو الحبس والمنع .

واصطلاحًا : حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن التشكي ، وحبس الجوارح عن المعاصي [(٣)] .

فالصبر منهج ، والصبر دين ، ليس مجرد كلمة يرددها مبتلى ، بعد أن يقول ما يُسْخطُ ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ وبعد أن يفعل ما نهى النبيُّ ﷺ عن فعله ، ثم بعد ذلك يقول : أنا صابر ، كلاَّ كلاَّ ، قال ﷺ : « **إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى**» [(٤)] ؛ وهذه هي حقيقة الصبر ؛ والوقوف مع البلاء بحسن الأدب ،

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٠/ ٣٩) ، و«عدة الصابرين » (١٢١) .

(٢) « لسان العرب » (٤/ ٤٣٨) ، مادة (ص ب ر) .

(٣) « مدارج السالكين » (١/ ١٦٢، ١٦٣) ، و« عدة الصابرين » (١٨) ط ابن عباس .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب زيارة القبور (١٢٨٣) ، ومسلم ، كتاب الجنائز ، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٩٢٦) .

ومن الأدب : عدم الشكوى إلا إلى الله ، والشكوى نوعان :

١ـ **شكوى محمودة** : وهي الشكوى إلى الله ـ تعالى ـ وهي من كمال وتمام العبودية ؛ فلقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ نبيًّا كريمًا من أنبيائه ؛ ألا وهو يعقوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ الذي قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف:١٨] ، والصبر الجميل هو الصبر الذي يستعلي صاحبه على الألم وعن الشكوى .. هو الصبر الذي يبتغي به صاحبه وجْهَ الله ـ تبارك وتعالى ـ فهو لا يصبر من أجل أن يقول عنه الناس : صابر متجلِّد ، ولا خوفًا من أن يقول عنه الناس: جزع ، لا ؛ بل هو الصبر الجميل ، فيعقوب ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ حينما جاء أولاده ، وأخبروه بهذا الخبر المفجع الآليم فـ ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ [يوسف:١٧] الآيات ؛ قال قولتَهُ الجميلة : ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ، ومع ذلك فقد اشتكى إلى الله ؛ كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف:٨٦] ، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ؛ بل اشْكُ حالك إلى الله ، واشْكُ فقرك ، وضعفك ، وعجزك إليه ، وقم بالليل واطرح قلبك بذلٍّ وانكسار بين يديه ، واشْكُ له كلَّ ما تعاني ؛ وقلْ:

بك أستجير ومن يجير سواك ... فأجِرْ ضعيفًا يحتمي بحماك
إني ضعيفٌ أستعين على قوي ... ذنبي ومعصيتي ببعض قواك
أذنبت يا رب وقادتني ذنوب ... ما لها من غافر إلاك
دنياي غرتني وعفوك شدني ... ما حيلتي في هذه أو ذاك
لو أن قلبي شك لم يك مؤمنًا ... بكريم عفوك ما غوى وعصاك
ربَّاه ها أنا ذا خُلِّصْتُ من الهوى ... واستقبل القلبُ الخليُّ هداك

ربَّاه قلبٌ تائب ناجاك أتردُّه   وتردُّ توبةَ تائبٍ حاشاك
أتردُّه وتردُّ صادق توبتي حاشاك   ترفض تائبًا حشاك
فليرض عني الناس أو فليسخطوا   أنا لم أعد أسعى لغير رضاك

فقم ، واشكُ حالك إليه ؛ فهذا من تمام وكمال عبوديتك بين يديه ﷻ .

وكذلك ذكر الله ـ تعالى ـ نبيه أيوب ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ الذي أثنى عليه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بصفة الصبر ؛ فقال ﷻ : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ [ص:٤٤] ، لاحظ أن الذي يحكم لأيوب هو ربُّنا ـ تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، ومع ذلك فقد شكى أيوب حاله إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بكلمةٍ رقراقة جميلة : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ [الأنبياء:٨٣] ، ولم يقل : « أهلكني » مع أنه فقد ماله وأولاده وصحته وعافيته ، وليس كما يقول من لا يحترمون الدليل ولا العقل أن الدود ملأ جسده ، إلى آخر هذه الإسرائيليات والأكاذيب ، وإنما فقد ماله ، وأهله ، وابتلي بمرض أقعده في الفراش ، وصبر مدة طويلة ، ولما أراد أن يشكو حاله إلى الله ـ تعالى ـ عبر بهذه الكلمة الرقيقة الجميلة : ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

إذًا الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ؛ بل هي من كمال العبودية لله ﷻ [(١)] .

٢ـ شكوى مذمومة :وهي الشكوى من الله ـ تعالى ـ فإنها تنافي الصبر ، وهي أن تشكو الخالق إلى المخلوق ،وأن تشكو الرازق إلى المرزوق ، وأن تشكو الرحمن الرحيم ، إلى من لا يرحم ؛ فالله ﷻ ليس أحد أرحم بخلقه منه ، أو لم يقل نبينا ﷺ :« **اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا** » [(٢)] .

---

(١) انظر : « عدة الصابرين » (ص٦٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ، رقم (٥٩٩٩) ، ومسلم كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه رقم (٢٧٥٤) ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أقسام الصبر :

تعريف الصبر كما ذكرنا هو : حبس النفس عن الجزع ، وحبس اللسان عن التشكي ، وحبس الجوارح عن المعاصي .

ومن هنا ، يقسم علماؤنا الصبر من الناحية الاصطلاحية إلى ثلاثة أقسام :

*** صبرٌ على الطاعة ، أو صبرٌ على المأمور .**

*** وصبرٌ عن المعصية ، أو صبرٌ عن المحظور .**

*** وصبرٌ على البلاء ، أو صبرٌ على المقدور [(١)] .**

وهذه الأقسام قد جمعتها آيات في كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ :

كقوله سبحانه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧] .

قال ابن القيم رحمه الله [(٢)]: « فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر ،أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه ، وأما من حيث اللزوم الشرعي ؛ فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهي » .

فاشتملت الآية على الصبر على الطاعة في قوله : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ وصبر على المعصية في قوله : ﴿ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ وأول ما ينهى نفسه .

ثم صبر على المقدور في قوله : ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ ؛ وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ

---

(١) انظر : « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » (ص٤٦) .

(٢) « عدة الصابرين » (ص٤٧) .

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:١٩ـ ٢٢] ، وَقَالَ ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] .

قال ابن القيم رحمه الله [(١)]: « فكلُّ موضع قُرِنَ فيه التقوى بالصَّبر اشتمل على الأمور الثلاثة ؛ فإن حقيقة التقوى: فعل المأمور وترك المحظور » .

أولاً : صبرٌ على الطاعة ، أو صبر على المأمور :

أي: صبر على ما أمرك الله ﷻ به ، وهذا من أرقى وأجل مراتب وأقسام الصبر [(٢)]، أن تصبر نفسَك على طاعة الله ﷻ ، وهذا صبر أتباع الرسل ، وأعظمهم اتباعًا أصبرهم في ذلك ؛ فالنفس جَمُوح ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٣] ، فمن صبَّر نفسه على طاعة الله ، على أن يقوم ليصلي الفجر في جماعة في شدة البرد ، على أن يقوم ليصلي لله بالليل ، وأن ينتزع نفسه من الفراش ؛ من بين أحضان زوجه ؛ فمن يصبر نفسه على طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويمتثل الأمر ؛ فهذه رتبةٌ من أعظم الرتب ،ودرجة من أعلى الدرجات .

ثانيًا : صبر عن المحظور ، أي عن المعصية :

ولا شكَّ أنها درجة أيضًا من أعظم الدرجات : أن تمتنع عن أكل الحرام .. أن تمتنع عن أكل الربا ..أن تغض الطرف عن الحرام مع كثرة الفتن .. أن

---

(١) المصدر السابق (ص٥١) .

(٢) راجع « عدة الصابرين »(٦١) وما بعدها .

تكف لسانك عن الغيبة والنميمة ،مع أن الغيبة صارت فاكهة المجالس ، أن تنتهي عما نهاك الله ـ تبارك وتعالى ـ عنه ، وعما نهاك عنه النبيُّ ﷺ ، وأن تصبر على المعاصي مع كثرة الشهوات التي تحيط بك من كل ناحية .. إنها فتن كقطع الليل المظلم ،ومع ذلك يُصَبِّرُ المؤمن نفسه على الطاعة ،ويحبس نفسه عن المعصية ؛ فهذه درجة من أعظم الدرجات ، وقربة من أعظم القربات ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ثالثًا : صبرٌ على البلاء ، أو صبرٌ على المقدور :

قال الله جل جلاله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر:٤٩] ، وَقَالَ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[العنكبوت:١ـ٣] .

وينقسم الابتلاء إلى قسمين :

الأول : الابتلاء بالشَّرِّ ، وهو مناط الصبر .

الثاني : الابتلاء بالخير ، وهو مناط الشكر .

وقد جمعهما النبيُّ ﷺ كما في «**صحيح مسلم**» [١] من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه **أَنَّهُ** ﷺ قَالَ : «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ** » .

حكمة الله في ابتلاء أهل الإيمان :

فالإيمان ليس مجرد كلمة ترددها الألسنة فقط ؛ بل معتقدنا الذي ندين الله به : أن الإيمان قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالجوارح والأركان .. يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ؛ كما سنفصل ـ إن شاء الله ـ بعد ذلك .

---

(١)أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كلُّه خير (٢٩٩٩) .

فالإيمان أمانة ذات تكاليف ، ومسئولية ضخمة ذات أعباء ، والله ـ تبارك وتعالى ـ يبتلي أهل الإيمان ؛ ليميز الخبيث من الطيب ، وليظهر الصادق من الكاذب ؛ فكثير من الناس يردد كلمة الإيمان يحسبها سهلة هينة ، خفيفة الحمل ، فهو يردد كلمة الإيمان وهو سائرٌ على درب الدعوة ،وعلى الطريق إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ مع السائرين ،إن حَصَّل من المغانم ، أومن المكاسب المادية ما حَصَّل ، فهو سائر على الدرب ، أما إن تعرض لمحنة ، أو لفتنة ، أو ابتلاء ، نكص على عقبيه ؛ فهذا لا يستحقُّ أن يُشرَّف برفع راية الدعوة إلى ـ سبحانه ـ وليس جديرًا أن يسير على هذا الطريق ، على درب الأنبياء ؛ على طريق ودرب نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وغيرهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ابن القيم رحمه الله [١] : «سأل رجلٌ الشافعي رحمه الله فقال : يا أبا عبد الله أيُّهما أفضلُ للرَّجُلِ ، أن يُمَكَّنَ فيشكر الله عز وجل ، أو يبتلى بالشرِّ فيصبر ؟ **فقال الشافعي** : لا يُمَكَّنُ حتى يُبتلى ؛ فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم ومحمدًا ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ فلما صبروا مكَّنَهُمْ ، فلا يظن أحدٌ أن يخلص من الألم البتة » .

ولو كان طريق الدعوة إلى الله هينًا لينًا سهلاً مفروشًا بالورد ، والزهور والرياحين ، لسهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة ، ولاختلطت حينئذٍ دعوة الحق بدعاوى الباطل ، وما أكثرها !!

والذي يجب أن يكون راسخًا في القلب ؛ لا تعصف به الرياح ولا تزعزعه الأهواء أن نعلم يقينًا أنه ليس أحدٌ أغير على الحق وأهله من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ

(١) «الفوائد» لابن القيم (٢٨٣) بتصرف .

وحاشا لله الرحمن الرحيم أن يعذب أولياءه من المؤمنين بالفتن أوأن يؤذيهم بالابتلاءات .

« ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة ، فهي في حاجة إلى إعداد خاصٍّ لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق .. وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات .. وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام .. وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء ، والنفس تصهرها الشدائد ، فتنفي عنها الخبث ، وتستجيش من قواها المذخورة .. فلا يكفي أن يقول الناس : آمنَّا وهم لا يُتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة ، فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافيةً عناصرُهم ، خالصةً قلوبهم ، كما تفتن النار الذهب ، لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به .. وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب ؛ قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت:٢] .

هذه الفتنة على الإيمان أصلٌ ثابت ، وسنة جارية .. ميزان الله سبحانه ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٣] .

فالفتنة سنةٌ جارية ؛ لامتحان القلوب ، وتمحيص الصفوف ؛ لأن الإيمان أمانةُ الله في الأرض لا يحملها إلا من هم لها أهْلٌ ، وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلوبهم تجرُّدٌ لها وإخلاص ، لا يحملها إلا الذين يؤثرونها على الراحة والدَّعة ، وعلى الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والإغراء ،وإنها لأمانةُ الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة ، فهي أمانةٌ كريمة ، وهي أمانة ثقيلة .

ومن ثم تحتاج إلى طرازٍ خاصٍّ يصبر على الابتلاء .. ولله الحكمة البالغة ؛

فإن بروز المجرمين لحرب الدعوات يقوي عودها ، ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها .. وكفاحُ وجهادُ أصحابِ الدعوات للمجرمين الذين يتصدون لها ـ مهما كلَّفهم من مشقة وكلفة ـ هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة .. وهو الذي يمحص القائمين عليها ويطرد الزائفين عنها .. فلا يبقى إلا العناصر القوية المؤمنة المتجردة التي لا تبتغي المغانم ، ولا تريد إلا الدعوة خالصة تبتغي بها وجه الله تعالى ، مؤثرين دعوتهم على الراحة والمتاع وأعراض الحياة الدنيا ؛ بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها ، وهؤلاء بجدارةٍ هم أصحاب الأهلية لحمل راية هذه الدعوة والسير بها بين الأشواك والصخور وهم واثقون فيما عند الله تعالى من إحدى الحسنيين ! إما النصر ، وإما الشهادة »[١] .

« وهكذا فإن موكب الدعوة إلى الله الموغل في القدم الضارب في شعاب الزمان ، ماضٍ في الطريق ، مستقيم الخطى ، ثابت الأقدام ، يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل ، يقاومه التابعون من الضالين والمتبوعين .. ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة .. وتسيل الدماء ، وتتمزق الأشلاء ، والموكب في طريقه لا ينحني ، ولا ينثني ، ولا ينكص ، ولا يحيد ، والعاقبة مهما طال الزمن للمؤمنين » .

والوصول ـ أحبتي ـ إلى هذا المرتقى الكريم يحتاج حتمًا إلى زاد الدعوة اللازم لكلِّ مرحلة من مراحل هذا الطريق الطويل الشاق ، ألا وهو: « الصبر الجميل »[٢] .

ولكن الصبر الجميل ـ كما ذكرنا ـ ليس مجرد كلمة ترددها الألسنة مع ضيق الصدر وتململ القلب ! كلَّا ؛ **إنما الصبر الجميل :** « هو الصبر المطمئن

---

(١) انظر: «خواطر على طريق الدعوة» (٢٦١ـ ٢٦٣).
(٢) المصدر السابق .

الذي لا يصاحب السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد .. صبر الواثق من العاقبة ، الراضي بقدر الله ، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء، الموصول بالله ، المحتسب كل شيء عنده مما يقع به .

الصبر الجميل: هو الترفع على الألم .. والاستعلاء على الشكوى.. والثبات على تكاليف الدعوة .. والتسليم لله ﷻ، والاستسلام لما يريد من الأمور والقبول لحكمه والرضى به .

الصبر الجميل: هو الذي يكون ابتغاء وجه الله ـ جلَّ وعلَا ـ لا تحرجًا من الناس حتى لا يقولوا: جزعوا .. ولا تجملاً للناس حتى يقولوا : صبروا .

الصبر الجميل : هو الثبات على طول الطريق دون عجلة أو قنوط .. ولنقف أمام لفتةٍ تستحقُّ التدبر العميق ، ألا وهي: أن الرسول ﷺ الذي يلاقي ما يلاقي من الأذى والتكذيب والكبر والكنود يقُال له: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[غافر :٧٧].

فأدِّ واجبك وفقط ، فأما النتائج فليست لك ، حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق وعيد الله للمتكبرين والمكذبين .. ليس له أن يعلق به قلبه .. إنه يعمل وكفى .. يؤدِّى واجبه ويمضي .. فالأمر ليس أمره ، والقضية ليست قضيته ـ بأبي هو وأمي ـ ولكن الأمر كلَّه لله ، والله يفعل به ما يريد .. ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله في كل حين .. فهذا هو حزام النجاة في خِضَمِّ الرغائب التي تبدو بريئة في أول الأمر ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم !!

نعم .. فإنه من السهل جدًّا على صاحب الدعوة أن يغضب ؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته فيهجر الناس .. إنه عمل مريح قد يفثأ الغضب ،

ويهدئ الأعصاب .. ولكن أين هذه الدعوة ؟ إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية .. فليضق صدره .. ولكن ليكظم غيظه ، وليمض في دعوته ، والله أرعى لدعوته وأحفظ .. فليؤدِّ الداعيةُ واجبه في كل ظرف وفي كل جو ، والبقية على الله تعالى ، والهدى هدى الله ﷻ وإن في قصة ذي النون ـ عليه السلام ـ لدرسًا لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأمَّلوه .. وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها .. والقرآن الكريم لا يقصُّ قصة إلا ليواجه بها حالة ، ولا يقرر حقيقةً إلا ليغير بها باطلاً لا للنظر المجرد !!

وفي قصة يونس ﵇ الذي لم يصبر على تكاليف الرسالة في لحظةٍ من اللحظات فضاق صدرًا بالقوم ، وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضبًا ، ضيِّق الصدر ، حرج النفس .. فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين ، ولولا أنه ثاب إلى ربه ، واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه ؛ فما فرَّج الله عنه هذا الضيق !

يقول ـ عزَّ من قائل : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ، ٨٨] .

فمَنْ مسَّهُ الضُّر في فتنة من الفتن وفي ابتلاء من الابتلاءات فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء .

فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة ، ويقنط من عون الله له في المحنة ، حين تشتد المحنة فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ، وليذهب بنفسه كل

مذهب !! فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج: ١٥].

والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كلَّ نافذة مضيئة ، وكلَّ نسمة رخية ، وكلَّ رجاء في الفرج ، ويستبد به الضيق ، ويثقل على صدره الكرب ، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء إلا أنه لا سبيل في احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله ، ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله ، ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله ، وكل حركة يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة ، إلا زيادة الكرب ، ومضاعفة الشعور به ، والعجز عن دفعه بغير عون الله.

وأخيرًا .. فإنَّ الذين احتملوا في الطريق إلى الله ما احتملوا ، فلم ينكصوا ولم ييأسوا .. الذين صبروا على فتنة الناس وعلى فتنة النفس .. الذين حملوا أعباءهم ، وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب .. أولئك لن يتركهم الله وحدهم ، ولن يضيع أعمالهم ، ولن ينسى جهادهم ، إنه تعالى سينظر إليهم من عليائه فيرضيهم .. وسينظر إلى جهادهم فيه فيهديهم .. وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم .. وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: آخر آية :٦٩] ».

وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويسومونهم سوء العذاب ، فما هم أبدًا بمفلتين من عذاب الله ، ولا ناجين مهما انتفخ باطلهم وانتفش ، ومهما زاد ظلمهم وانتعش ؛ فكما أن الله ـ تعالى ـ جعل الابتلاء سنة جارية ليميز الخبيث

من الطيب.. فقد جعل أَخْذ الظالمين أيضًا سنة لا تتبدَّل ولا تتخلف.. فكلُّ هذه القُوى بكلِّ ما تملك من وسائل التقنية الحديثة، ومن وسائل الإبادة والتدمير مَثَلُها: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

نعم.. فأين الطواغيت والفراعنة والجبابرة والأكاسرة والقياصرة ؟! أين فرعون الذي قال لقومه: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] واستخفهم بقوله: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف:٥١]؟! فأجراها الله من فوقه !!! أين نمرود بن كنعان الذي قال لإبراهيم عليه السلام: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ؟! أين قارون الذي قال في خيلاء وكبر واستعلاء: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]؟! وأين عاد وثمود ؟ وأين أبو جهل وأبو لهب ؟ ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠] [1].

فالإيمان أمانة عظيمة، ومسئولية كبيرة ذات تكاليف وأعباء، ولا يجوز أبدًا أن يردد الإنسان كلمة الإيمان دون أن يُمَحَّص، وأن يُبْتَلَى، أيثبت على الدرب أم ينكص على عقبيه ؟ قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٣]،

---

(١) راجع «الخواطر» (٢٦٧ـ ٢٧٢) ط فياض.

وأودُّ أن أطيل النفس في هذه المسألة ؛ لأنني أعالج بها واقعًا تحياه الأمة الآن ، أعالج بها واقع شباب الصحوة الذي يعاني ويتساءل في كلِّ لقاء من اللقاءات ؛ فالفتن كثيرة ، والمحن كثيرة ، والشباب إلى الآن لا يريد أن يتعلم أبدًا الصبر ؛ فهو - دائمًا - متعجل ،ومن تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ؛ فهو يستكثر هذه المحن والفتن والابتلاءات التي تمر بها الأمة الآن ،ويتساءل : أين النصر ؟ أين العزة ؟ أين الاستعلاء ؟ أين التمكين ؟ أين الاستخلاف ؟ بل لقد قال لي قائل بنفس اللفظ : يا شيخ ! هل خلق الله الكون ونفض يديه منه ! ولم يعد الله قادرًا على ضبط الكون بميزان الحق والعدل ؟ ألا يرى هذه الدماء التي تسفك ، والأشلاء التي تمزق ؟!! فأقول:

لقد أنستنا العجلة سنن الله الثابتة في الكون ؛ فإن لله سننًا ربانية لا تتبدل ، ولا تتغير ، ولا تجامل تلك السنن أحدًا من الخلق بحال ؛ مهما ادعى لنفسه من مقومات المحاباة .

فلقد هُزم المسلمون في أحد .. لا تُجمِّل اللفظة ، نعم هُزموا ،وقائد الميدان رسول الله ﷺ ، وتساءل الصحابة - رضوان الله عليهم - كيف نهزم وقائد الميدان رسول الله ﷺ !! كيف نهزم وعدونا هم المشركون ؟ فنزل قرآن يربي الصحابة والأمة من بعدهم : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [آل عمران:١٦٥] ، وهنا أقول لك : لا تعلق أخطاءك على الحكام تارة ، وعلى العلماء تارة ، وعلى الأعداء تارة ؛ بل تقصيرك أنت هو السبب ، وتقصيري أنا هو السبب ؛ لماذا أنظر إلى القذاة في عينك ، وأغضُّ الطرف عن عود في عيني؟ لماذا نبرر لأنفسنا دائمًا الأخطاء والتقصير؟ لماذا نعلق دائمًا على غيرنا ، ونتجاهل سنن الله ﷻ في الكون ؛ التي لا تجامل

أحدًا من الخلق بحال ، مهما ادَّعى لنفسه من مقومات المحاباه ؟ تسمع الآن من يدعي أنه من أحباب النبي ﷺ ، ومن أتباع النبي ﷺ ، وهو عن سنة النبيِّ ﷺ وشريعته أبعد ما يكون ؛ فهذا خللٌ في فهم القرآن والسنة ، وفي فهم سنن الله الكونية التي يضبط بها الكون ، وتضبط بها الحياة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] ، وقال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣] .

فسنن الله ثابتةٌ لا تتبدل ولا تتغير ؛ فالشباب الآن متعجل للنصر، مع أننا لم نبذل بَعْدُ كلَّ أسباب النصر ، والتمكين ،والعز ؛ فنحن لا نريد إلى هذه اللحظة أن نتعلم الصبر !!

فالكلُّ متعجل ؛ بل الكلُّ يتساءل الآن ـ وربما بجرأة : لماذا لا ينصرنا الله ؟ وأنا أقول : يا أخي: أنت لست مسئولاً عن النتائج ، ولستَ أغير على دين الله من الله ـ سبحانه ـ ولستَ أغير على المستضعفين الذين تسفك دماؤهم ،وتمزق أشلاؤهم من الله ، لكن الله لا يَعْجل لعجلةِ أحد ؛ فما عليك إلا أن تبذل ، وأن تأخذ بالأسباب ، وأن تبذر في حقل الإسلام بذرًا صحيحًا على القرآن والسنة بفهم سلف الأمة ، وأن تتأدب مع الله ، وتدع النتائج له ـ تبارك وتعالى .

فتدبر معي مرة أخرى قول الله ﷻ : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ [العنكبوت:٢] ، يقولها الإنسان بملء فيه: ﴿ ءَامَنَّا ﴾ ، ثم إذا تعرض لمحنة أو فتنةٍ ، أو ابتلاء ،نكص على عقبيه ،وترك الدرب ، وحاد عن الطريق ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢، ٣] ، تصوَّر أن الرسول ﷺ نفسه يُبتلى ويُؤذى ؛ فالطريق لا بد أن تؤذى فيه ،

ولا بد أن تُصبرَ نفسك على الأذى الذي ستتعرض له على هذا الدرب ، وعلى هذا الطريق ؛ قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٣١] ، وقال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴾ [المطففين:٢٩- ٣٢] على نحو ما يقال الآن: أصوليون ، وصوليون ، فضوليون ، فوضويون ، همجيون، رجعيون ، متأخرون، متخلفون ، جامدون ، لا يفهمون الواقع ، لا يعرفون شيئًا عن الزمن .. إلى آخر هذه التهم المعلبة ، التي تُكَال الآن للمؤمنين في الليل والنهار ، فلا تتعجل ولا تغضب ولا تحزن ؛ بل المؤمن العاقل يستبشر ؛ لأن الله يشهد له في الآية بالإيمان إن تعرَّض للأذى ، وهو سائر على الحق ، لا يلتفت لما يقال !!

فما من رسول ولا نبيٍّ ، ولا مصلحٍ سلك هذا الدرب إلى الله ، وسلك طريق الدعوة إليه ﷻ إلَّا وتعرَّض للأذى ،والمحن ،وتعرض للفتن والابتلاءات ،والمؤمن هو الذي يُصبِّر نفسه على الأذى ،وعلى المحن ،وعلى الفتن حتى يلقى الله ﷻ ، وليس من الضرورة أن يجني ثمرة الصبر في حياته ؛ بل النصر الحقيقي أن تموت وأنت على الدين .

فما علينا نحن إلا أن نبذل ، وأن نمتثل الأمر ، وأن نجتنب النهي ، وأن نقف عند الحد ، وأن نعمل ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، وأن ندع النتائج له ـ تبارك وتعالى ؛ فهو الذي ينصر دينه وقتما أراد أن ينصره ، ويمكن لدينه في الوقت الذي أراد أن يمكن له فيه .

ولقد شكا خباب بن الأرت ؓ وأصحابه إلى رسول الله ﷺ من شدة العذاب وما يلقاه هو وأصحابه من أذى المشركين ؛ فماذا قال ﷺ ؟

والحديث رواه البخاري [(١)] من حديث خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ ﷺ قَالَ : شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، فَقُلْنَا: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا ، أَلاَ تَدْعُو لَنَا ؟ فَقَالَ : « **قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ ، فَيُجْعَلُ فِيهَا ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَالله لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ الله ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ** ».

وَقَالَ ﷺ لابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ ؛ **كَمَا فِي مسند أحمد وسنن الترمذي ـ بسندٍ صحيح** [(٢)] : « **وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ».

بل وأخبر النبيُّ ﷺ : «**أَنَّ الصَّبْرَ ضِيَاءٌ**» [(٣)].

قال النووي رحمه الله [(٤)]: « أي: لا يزال صاحبه مستضيئًا مهتديًا مستمرًّا على الصواب » .

وَفِي « **الصَّحِيحَيْنِ** » [(٥)] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ وَفِيْهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ الله ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ** ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦٩٤٣) ، وانظر: رقم (٣٦١٢) .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧، ٣٠٨) ، والترمذي ،كتاب صفة القيامة ، باب (٥٩) (٢٥١٦) ، وقال : «حسن صحيح» ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧) وسيأتي معادًا .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

(٤) «مسلم بشرح النووي» (٢/ ١٠٣) .

(٥) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله (٦٤٧٠) ، وانظر (١٤٦٩) ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب فضل التعفف والصبر (١٠٥٣) .

صبر النبي ﷺ على أذى المشركين :

اعلم أخي في الله ـ أن الأنبياء أشدُّ الناس بلاءً ، وأشدهم هو نبينا ﷺ ؛ ففي «مسند أحمد» «وسنن الترمذي» وابن ماجه والدارمي وغيرهم بسندٍ حسن[1] من حديث سَعْدِ بْنِ أَبِي وقاص رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً ؟ قَالَ : « **الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلاَبَةٌ زِيدَ فِي بَلاَئِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ** ».

فما من نبيٍّ ولا رسول إلا وتعرض للأذى ، انظر إلى هذا الخطاب إلى النبيِّ ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام:٣٤] .

وتصور أن النبيَّ ﷺ ، وهو صاحب أطهر وأشرف نفس ، يشتد به الأذى إلى الحد الذي يحتاج فيه النبيُّ ﷺ إلى أن يُذَكَّر من ربه العلي بقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥] ، وهو صاحب النفس الزكية ، المطمئنة ، وهو صاحب التوكل على الله ﷻ ، يحتاج من شدة الأذى ، أن يذكره ربه ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ أمر ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ وددتُ لو تدبر شبابنا ، واستفادوا من هذا الأمر الرباني للحبيب النبيِّ ﷺ ، اصبر ـ يا أخي ـ لا تتعجل ، العنف يهدم ولا يبني ،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢ـ١٧٤، ١٨٠ـ١٨٥) ، والترمذي ،كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨) ، وقال : «حسن صحيح» ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٣) ، والدارمي (٢٧٨٣) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٦) ، وابن حبان (٢٩٠٠، ٢٩٢١) ، والحاكم (١/ ٤١) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٣) ، و«صحيح الجامع» (٩٩٢) .

والشدة تفسد ولا تصلح ، وما كان الرفق في شيء إلا زانه ، وما نزع الرفق من شيء إلا شانه .

هذا الذي يريد النصر ، والعزة ، والاستخلاف والتمكين ، ولَمَّا تقدم الأمة الآن كلَّ أسباب النصر ، والتمكين ، فإنه شخص متعجل، ويريد أن يجني الثمرة قبل أن تنضج ، وهذا مخالف لسنن الله ـ تعالى ـ في الكون .

فالرسول ﷺ يحتاج إلى أن يذكَّر من ربه بالصبر ؛ من شدة الأذى ، ومن شدة الابتلاء ، ومن شدة المحن التي تعرَّض لها ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٩] .

وقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧] .

وقال سبحانه : ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود:٤٩] .

وقال الله لنبيه : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ [المعارج:٥] .

ومن أول لحظة ـ أيها الأحبة ـ ارتقى فيها النبيُّ ﷺ جبل الصفا بعدما أمر من الله جَلَّ جَلَالُهُ بالبلاغ ، ونادى النبيُّ ﷺ على بطون قريش .

والحديث في «**الصَّحِيحَيْنِ**» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] ، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا ، فَجَعَلَ يُنَادِي : « **يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ** » لِبُطُونِ قُرَيْشٍ ، حَتَّى اجْتَمَعُوا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ ؛ فَقَالَ : « **أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي ، تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ** » قَالُوا : نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا ، قَالَ : « **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** » فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ ، أَلِهَذَا

جَمَعْتَنَا ؟ فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد:١، ٢] (١) .

من هذه اللحظة تعرَّض النبيُّ ﷺ لأصناف الأذى ، والفتن ، والمحن ، والابتلاء ؛ بل لقد أبرقت مكةُ وأرعدت ، وأرغت مكة وأزبدت ، ودقَّت طبول الحرب وأوعدت ، وصبَّت مكةُ كلُّها جام غضبها على ابنها البار ، الذي خلعت عيه بالإجماع قبل النبوة لقب الصادق الأمين . هم الذين لقبوه بهذا ، وهم الذين خلعوا عليه هذا اللقب ، ومع ذلك فهم الآن يصبون جام غضبهم عليه ؛ لأنه يدعوهم الآن إلى توحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ والكفر بالطواغيت ، والأنداد ،والأرباب ، والآلهة المكذوبة الباطلة المدعاه ، من هذه اللحظة لم يتوقف الأذى ؛ بل والله لقد تعرض النبيُّ ﷺ للخنق على يد عقبة بن أبي معيط ـ عليه من الله ما يستحقه ـ حتى كادت أنفاس النبيِّ ﷺ أن تقف ، وجاء الصديق ليردَّ هذا الشقي الفاجر عن رسول الله ﷺ وهو يقول : أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله ، **وقد روى ذلك البخاريُّ** ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ ، وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ الله ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] ، رقم (٤٧٧٠) وانظر (١٣٩٤) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ رقم (٢٠٨) .

﴿ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨] »(١).

بل لقد وضعت النجاسة على ظهره ﷺ وهو ساجدٌ بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ كما في « **الصَّحِيحَيْنِ** » من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، وَجَمْعُ قُرَيْشٍ فِي مَجَالِسِهِمْ ، إِذْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : أَلاَ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمُرَائِي ؟ أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى جَزُورِ آلِ فُلاَنٍ ، فَيَعْمِدُ إِلَى فَرْثِهَا وَدَمِهَا وَسَلاَهَا ، فَيَجِيءُ بِهِ ، ثُمَّ يُمْهِلُهُ حَتَّى إِذَا سَجَدَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، فَانْبَعَثَ أَشْقَاهُمْ ، فَلَمَّا سَجَدَ رَسُولُ الله ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا ، فَضَحِكُوا حَتَّى مَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الضَّحِكِ ، فَانْطَلَقَ مُنْطَلِقٌ إِلَى فَاطِمَةَ عليها السلام وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدًا ، حَتَّى أَلْقَتْهُ عَنْهُ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَسُبُّهُمْ ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ الصَّلاَةَ ، قَالَ : « **اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ** »(٢).

أنا أسألك : هل وُضِعتِ النجاسةُ على ظهرك ؟ هل وضع التراب على رأسك ؟ هل خنقت خنقًا شديدًا حتى كادت أنفاسك أن تتوقف وأنت على هذا الدرب ؛ على طريق الله ـ تبارك وتعالى ؟

هذا نبينا ﷺ يؤذى هذا الإيذاء ؛ بل وفي « **صحيح مسلم** » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، قَالَ: فَقِيلَ : نَعَمْ ، فَقَالَ : وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى ! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب مناقب الأنصار ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة رقم (٣٨٥٦) (٤٨١٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « الصلاة » ، باب المرأة تطرح عن المصلى شيئًا من الأذى ، رقم (٥٢٠) وانظر: (٢٤٠) ، ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، رقم (١٧٩٤) .

أَوْ لأُعفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ ، قَالَ : فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ ، قَالَ : فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ؟! فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ المَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا** » (١) .

ولقد قال النبيُّ ﷺ يومًا لعائشة ؛ كما في « **الصَّحِيحَيْنِ** » قَالَتْ : « يَا رَسُولُ الله ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ » (٢) .

قَالَ : « **لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ : ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** » (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب « صفة القيامة والجنة والنار » ، باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦، ٧] ، رقم (٢٧٩٧) .

(٢) تعرض النبيُّ ﷺ في هذا اليوم للقتل ، وشجَّ وجهه الشريف ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه (*) ، وانتشر بالفعل في الميدان خبر قتل رسول الله ﷺ ، حتى لقد ألقى بعض الصحابة السلاح بالفعل ، واستسلموا للموت .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « بدء الخلق » ، باب إذا قال أحدكم : آمين (٣٢٣١) ، ومسلم ، كتاب « الجهاد والسير » ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، رقم (١٧٩٥) .

==============

(*) انظر : البخاريَّ (٢٩٠٣، ٢٩١١، ٤٠٧٥، ٥٧٢٢) ، ومسلمًا (١٧٩٠) ، وانظر : مسلمًا (١٧٩١) .

والله لو كان النبيُّ ﷺ ممن ينتقم لذاته ، ويثأر لنفسه ، لأمر النبيُّ ملك الجبال ، فلحطَّم ملك الجبال هذه الرؤوس الصلدة ، والجماجم العنيدة ، ولسالت بحورٌ من الدماء ؛ لا أقول ليراها أهل الطائف بالطائف ؛ بل ليراها أهل مكة بمكة ، لكنه ما خرج لذاته قط ، وما انتقم لنفسه أبدًا ؛ بل خرج وهو يحمل في قلبه ربيعًا يتجدد ويتنفس ، خرج وهو يحمل في قلبه أملاً ينمو كل لحظة ؛ لذا يقول لملك الجبال تلك المقالة الرحيمة : « **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** ».

إنه نهر الرحمة ، وينبوع الحنان ﷺ ، أنا لم أتكلَّم عن الأذى الذي تعرض له نوح ، ولم أتكلَّم عن الأذى الذي تعرَّض له إبراهيم ،ولم أتكلَّم عن الأذى الذي تعرض له موسى ، أو تعرض له عيسى ، أو تعرض له زكريا ، أو تعرض له يحيى ـ عليهم الصلاة والسلام جميعًا ـ وإنما أتكلَّم عن الأذى الذي تعرض له نبينا ﷺ ؛ فهو أشرف نبي ، وأقرب نبيٍّ من الرب العليِّ ؛ بل هو حبيب الله سبحانه ، ومع هذا يتعرض لهذا الأذى ، ويتعرض لهذه المحن ، والفتن ، والابتلاءات .

وروى الترمذي وابن ماجه ـ بسندٍ حسن [1] ـ من حديث أنس رضي الله عنه **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ قَالَ : « **إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاَءِ ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ** ».

ارجع معي للآية الكريمة : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ،رقم (٢٣٩٦) وقال : «حسن غريب من هذا الوجه» ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، رقم (٤٠٣١) ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي وابن ماجه» .

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٢، ٣] .

وقد يَسْأَلُ سائلٌ ويقول : وهل ربُّنا جَلَّ جَلَالُهُ لا يعرف الصادق من الكاذب إلا بعد أن تقع الفتنة والمحنة والابتلاء ؟ والجواب: كَلَّا ؛ فالله جَلَّ جَلَالُهُ يعلم ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ، وما لم يكن ، لو قدر الله عَزَّ وَجَلَّ له أن يكون لعلم كيف يكون ؛ فما من جبل على ظهر الأرض ، إلا ويعلم الله ما في وعره ، وما من بحر ولا نهر على سطح الأرض ، إلا ويعلم الله ما في قعره ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ؛ قال جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] ؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يحاسب الخلق بمقتضى علمه فيهم ،وإنما بمقتضى عملهم هم ؛ فالله يعلم الصادق من الكاذب ، لكن تأتي المحنة لتثبت للصادق صدقه ، وللكاذب كذبه ، فلا يعامل الخلق بمقتضى علمه فيهم ، وهو الحكم الحق العدل جَلَّ جَلَالُهُ ، وإنما بمقتضى عمل الخلق بأنفسهم [(١)] ، فيعامل أو يجازي الصادق على صدقه ،ويجازي الكاذب على كذبه ، ثم ليظهر للصف المسلم الصادق من الكاذب ، وقد يندسَّ الكذابون والمنافقون في الصف ، فتأتي المحن لتبرز المنافقين ، ولتظهر الكذابين .

فإن المعادن لا تظهر إلا بعد التمحيص ؛ كالذهب لا يخلص من الشوائب

---

(١) **قال الشنقيطي في «دفع إيهام الاضطراب»** (٢٤) : «أي: علمًا يترتب عليه الثواب والعقاب ، فلا ينافي كونه عالمًا به قبل وقوعه ، وقد أشار تعالى إلى أنه لا يستفيد بالاختبار علمًا جديدًا ؛ لأنه عالم بما سيكون ، حيث قال تعالى : ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤] فقوله : ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ﴾ دليل على أنه لا يفيده الاختبار علمًا لم يكن يعلمه سبحانه وتعالى عن ذلك ، بل هو تعالى عالم بكل ما سيعلمه خلقه ، وعالم بكل شيء قبل وقوعه كما لا خلاف فيه بين المسلمين ، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ [سبأ:٣] » ا.هـ .

العالقة به إلا بعد أن يدخل النار، كذلك الفتنة تأتي لتصفِّي الصف، وتميز الخبيث من الطيب، وتُمحِّص العاملين والسائرين على الدرب؛ قال ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ [البقرة:٢١٤]، والله الذي لا إله غيره لم أجد في قواميس اللغة على وجه الأرض مرادفًا لقوله ﷻ: ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ ولك أنت أن تتصور حجم هذا الزلزال، وقال ﷻ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٢]؛ فالأمر ليس فوضى، وليس ادعاءً؛ فما أيسر الادعاء، وما أرخص الكلام، وما أسهل الزعم، والتنظير البارد؛ قال جلَّ وعلا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف:١١٠].

*****

ثم قال المصنف رحمه الله :

« وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر:١-٣] ؛ قَالَ الشَّافِعِيُّ رحمه الله : « لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ ».

الشرح

الدليل على هذه المسألة الرابعة التي فصَّلتُ فيها القول آنفًا هو قول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ يستدلُّ المصنف بهذه السورة الكريمة على هذه المسألة الرابعة: « الصبر على الأذى فيه » ؛ بل على المسائل كلِّها .

(**بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾) يقسم الله جل جلاله بالعصر ، والعصر هو الدهر ؛ فهو محلُّ الأحداث من خير وشر ، ومن أهل العلم من قال: بأن المراد بالعصر هنا هو عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أهل العلم من قال: إن المراد بالعصر هنا وقت العصر أو صلاة العصر لكونها الصلاة الوسطى ، وقيل : العصر عمر الإنسان ، وقيل العصر : ما بعد زوال الشمس إلى غروبها [(١)].

والله جل جلاله له أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالخالق ـ تبارك وتعالى ـ فالله جل جلاله يقسم بالعصر ، وبالدهر ، وبالأيام والليالي وذلك لعظمة المقسم عليه ؛ وكما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

---

(١) والمشهور الأول؛ كما قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (لسورة العصر) وقال الطبريُّ في «التفسير» أيضًا: «والصواب من القول في ذلك : أن يُقال: إن ربنا أقسم بالعصر ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ اسم للدهر، وهو العشي والليل والنهار ، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى ؛ فكلُّ ما لزمه هذا الاسم ، فداخل فيما أقسم به جلَّ ثناؤه » .

خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢] .

قوله: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ ، أي: إن الإنسان كلَّ الإنسان لفي خسر ؛ أي: لفي خسران وهلكة ونقصان ، واستثنى الله ـ تبارك وتعالى ؛ فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

وهذه الآية تشتمل على ثلاث قضايا: إيمان بالله ـ تبارك وتعالى ـ وهذا الإيمان لا بد أن ينبني على العلم ، إذ لا يصح الإيمان إلا بالعلم ، ولا يكون إلا بأن تعرف الله ـ تعالى ـ وتعرف نبيه ﷺ ، وتعرف دينك .

وعملٌ صالح ، والعمل الصالح هو كلُّ عملٍ يقربك إلى الله ﷻ بشرط أن تبتغي به وجه الله ـ تبارك وتعالى ـ وأن يكون عملك هذا موافقًا لهدي رسول الله ﷺ .

﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ : أي : أوصى بعضهم بعضًا بالحق ،وهو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر بغير منكر .

﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ولابد أن تعلم أنك إن سلكت الدرب فآمنت بالله ، وعملت صالحًا ، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فإنك ستتعرض للمحن والأذى ؛ فلابد أن تصبر نفسك ،وأن تدعو غيرك إلى الصبر؛ فطاعة الله تحتاج إلى صبر ، وأقدار الله تحتاج إلى صبر ، والدعوة إلى الحق يُؤْذَى صاحبها فتحتاج إلى صبر . وخصَّ الله التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر بالذكر ، وهما داخلان في العمل الصالح لبيان أهميتهما ،ولعظم شأنهما .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى [١]: « قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ... ﴾ السورة ، قال الشافعيُّ ﷺ : لو فكر الناس كلُّهم في هذه السُّورة

---

(١) « مفتاح دار السعادة » (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩) .

لكَفَتهُم . وبيان ذلك أن المراتب أربع ، وباستكمالها يحصُلُ للشخصِ غايةُ كَمالِه :

إحداها : معرفَةُ الحقِّ .

الثَّانية : عملُهُ بِهِ .

الثَّالثة : تعليمُهُ مِنْ لا يُحسِنُهُ .

الرَّابعة : صَبرُهُ على تعلُّمِه ، وَالعَمَلِ بِهِ ، وتَعلِيمِهِ .

فذكر تعالى المراتب الأربع في هذه السورة ،وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كلَّ أحدٍ في خُسرٍ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهم الذين عرفوا الحق ، وصدَّقوا بِهِ ؛ فهذه مرتبة .

﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهم الذين عملوا بما علموه من الحق ؛ فهذه مرتبةٌ أخرى . ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ وصَّى به بعضُهُم بعضًا تعليمًا وإرشادًا ؛ فهذه مرتبةٌ ثالثةٌ . ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ صَبَروا على الحقِّ ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بالصَّبرِ عليه ، والثبات ؛ فهذه مرتبةٌ رابعةٌ .

وهذا نهاية الكمال ؛ فإن الكمالَ أن يكون الشَّخصُ كاملاً في نفسه ، مكملاً لغيره ، وكماله بإصلاح قُوَّتَيةِ العلميَّةِ والعمليَّةِ ؛ فصلاحُ القُوَّةِ العمليَّةِ بالإيمانِ ، وصلاحُ القوَّةِ العَمليَّةِ بعملِ الصَّالحاتِ ، وتكميلهِ غَيرَهُ ، وتعليمه إيَّاهُ ، وصبرِهِ عليهِ ، وتوصيتهِ بالصَّبرِ على العلم والعملِ .

فهذه السورةُ على اختصارها هي من أجمع سُوَرِ القرآن للخير بحذافيره ، والحمد لله الذي جعل كتابهُ كافيًا عن كلِّ ما سواهُ ، شافيًا من كلِّ داءٍ ، هاديًا إلى كلِّ خيرٍ » انتهى .

ثم استشهد المصنف رحمه الله بقولة الإمام الشافعيِّ ؛ ذلكم الإمام الحجة التي يقول فيها : « لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم » .

يعني: كفتهم موعظة وحثًّا على التمسك بالإيمان والعمل الصالح ، والدعوة على الله ، والصبر على ذلك ، وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة ، لكن كفتهم موعظة . فكلُّ إنسانٍ عاقل يعرف أنه في خسر إلَّا إذا اتصف بهذه الصفات الأربع ، فإنه سوف يحاول بقدر ما يستطيع أن يتصف بها ، وإلى تخليص نفسه من الخسران . نسأل الله أن يجعلنا من الرابحين الموفقين ، إنه على كلِّ شيء قدير [١] .

ولخَّص شيخ الإسلام المراد بالآيات في كلمات فقال [٢] : « أخبر الله تعالى أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمنًا ، ومع غيره موصيًا بالحق ، موصيًا بالصبر ، وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سببًا لعلو الدرجة وعظيم الأجر » .

وقال صاحب تتمة «**أضواء البيان**» [٣] : «فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة» .

ثم ختم المصنف بقول الإمام البخاري: باب العلم قبل القول والعمل؛ فبدأ بالعلم ؛ لأن تعلم العلم مقدم على القول والعمل ، فقول المرء وعمله لا يصلح بدون علم ،وهل يتمكن شخص من عبادة الله عبادة صحيحه إلا بالعلم ؛ ثم استدل بالآية التي أمر الله نبيه فيها بأمرين : بالعلم ثم العمل ؛ فقال سبحانه : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] ، هذا العلم ، ثم أعقبه بالعمل ؛ فقال : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ؛ فالعلم شرط في صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ؛ فهو مقدَّم عليهما ؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل .

---

(١) من كلمات شيخنا ابن عثيمين رحمه الله في «تفسيره» (لسورة العصر) .

(٢) «الفتاوى» (٢٨/ ١٥٢) وقد نقل شيخ الإسلام عبارة الشافعي ثم عقب بعدها بقوله : «وهو كما قال » .

(٣) «أضواء البيان» (التتمة٩/ ٢٩٥) للشيخ عطية سالم رحمه الله .

الباب الثاني: ويشتمل على ثلاث مسائل

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

« اعْلَمْ رَحِمَكَ الله أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاَثِ مَسَائِلَ ، والْعَمَلُ بِهِنَّ:الأُولَى : أَنَّ الله خَلَقَنَا ، وَرَزَقَنَا ، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا ؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً ، فَمَنْ أَطَاعَهُ ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَاهُ ؛ دَخَلَ النَّارَ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ [المزمل:١٥، ١٦] » .



هذه الكلمات القليلة البليغة اشتملت على ستة أصول في غاية الأهمية والجلال .

الأصل الأول : أن الله هو الخالق :

فلنقف مع هذا الأصل الأول ؛ فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ هو الخالق ، والأدلة النقلية القرآنية ، والنبوية ، والأدلة العقلية على هذا الأصل الكبير المهم ما أكثرها ، وما أجلها ، وما أعظمها !

الأدلة من القرآن الكريم :

قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر:٦٢] ؛ فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ هو الخالق ، وقال ـ سبحانه : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾

[الطور:٣٥، ٣٦] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن:١ـ٤] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:١٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤] ، وقال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٣، ١٤] ، وقال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل:٦٠] .

وقال ﷻ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس:٣٣ـ٣٦] .

وقال سبحانه في خلقه للناس : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:٢] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ [الأعراف:١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر:٢٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم:٢٠] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ :

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴾ [الرحمن:١٤] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٤٧] ، وقال الله سبحانه : ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [الشورى:٤٩] ، وقال سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ ﴾ [القصص:٦٨] ، وقال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾[الحشر:٢٤].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله هو الخالق ـ سبحانه.

فالأصل الأول أن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ هو الخالق ، ولم ينكر المشركون هذه الحقيقة الكبيرة ،مع مكابرتهم وعنادهم وإعراضهم عن الحق ؛ تدبر معي قول الله ـ جَلِّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧] ، فهذا جواب المشركين ؛ بل يقرُّون بتوحيد الأسماء والصفات ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩] ؛ فالمشرك لم ينكر هذه الحقيقة ، ألا وهي: أن الله ـ تعالى ـ هو الخالق .

الأدلة من السنة النبوية على أن الله هو الخالق :

ففي مسند أحمد وسنن الترمذي والحاكم وغيرهم [(١)] من حديث الحارث

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠) ، والترمذي ، كتاب «الأمثال» ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣، ٢٨٦٤) وقال : «حديث حسن صحيح غريب» ، والطيالسي (١١٦١، ١١٦٢) ، وأبو يعلى (٣/ ١٥٧١) ، وابن خزيمة (٤٨٣، ٩٣٠، ١٨٩٥) ، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٣٣) ، والحاكم (١/ ١١٧، ١١٨، ٢٣٦، ٤٢١) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٢٤) ، و«صحيح الترغيب» (٥٥٣) ، و«المشكاة» (٣٦٩٤) .

الأشعري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ عز وجل أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عليهما السلام، بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، ...» وفيه: «أَوَّلُهُنَّ: أَن تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ، أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي عَمَلَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللهَ عز وجل خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا..».

وفي «صحيح مسلم»[1] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّهُ أَمَرَ رَجُلاً إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ! خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ عُمَرَ؟ فَقَالَ: مِنْ خَيْرٍ مِنْ عُمَرَ، مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وفي «مسند» أحمد و«مستدرك» الحاكم «ومعجم الطبراني الكبير»[2] من حديث عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري رضي الله عنهما «لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ».

وفي «صحيح البخاري» من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ»[3].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب «الذكر والدعاء»، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣٢) و(٥/ ٦٦)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١٥٤، ١٥٥)، (١٨/ ١٥٠، ١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٧)، والحاكم (٣/ ٤٤٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٢٦): «رواه أحمد بألفاظ، والطبراني باختصار، وفي بعض طرقه: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ورجال أحمد رجال الصحيح»، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧٩، ١٨٠)، و«صحيح الجامع» (٧٥٢٠)، و«المشكاة» (٣٦٩٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب «الدعوات»، باب أفضل الاستغفار، رقم (٦٣٠٦)، ورقم (٦٣٢٣).

ومـن أرق الأحاديـث وأجلِّهـا في هـذا البـاب العظـيم الكبـير، مـا رواه «البخـاريُّ ومسـلم» مـن حـديث أنـس بـن مالـك ﵁ قـال : « نُهِينَـا أَنْ نَسْـأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ شَيْءٍ ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِـلُ ، فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ؛ فَقَـالَ : يَـا مُحَمَّـدُ ، أَتَانَـا رَسُولُكَ ، فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الله أَرْسَلَكَ ، قَالَ : « صَدَقَ » قَـالَ : فَمَـنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟ قَالَ : « الله » ، قَـالَ : فَمَـنْ خَلَـقَ الأَرْضَ؟ قَـالَ : «الله» ، قَـالَ : فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ ، وَجَعَـلَ فِيهَا مَا جَعَلَ ؟ قَـالَ : « الله » قَـالَ : فَبِالَّـذِي خَلَـقَ السَّمَاءَ ، وَخَلَـقَ الأَرْضَ ، وَنَصَـبَ هَـذِهِ الْجِبَـالَ ، آلله أَرْسَـلَكَ ؟ قَـالَ : « نَعَمْ » ، قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَـا وَلَيْلَتِنَـا ، قَـالَ : «صَدَقَ» قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ ، آلله أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : « نَعَـمْ » ، قَـالَ وَزَعَـمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا ، قَالَ : « صَدَقَ » قَالَ : فَبِالَّـذِي أَرْسَـلَكَ آلله أَمَـرَكَ بِهَـذَا ؟ قَـالَ : « نَعَـمْ » ، قَـالَ : وَزَعَـمَ رَسُـولُكَ أَنَّ عَلَيْنَـا صَـوْمَ شَـهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا ، قَالَ : « صَدَقَ » ، قَـالَ : فَبِالَّـذِي أَرْسَـلَكَ آلله أَمَـرَكَ بِهَـذَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قَالَ : وَزَعَـمَ رَسُـولُكَ أَنَّ عَلَيْنَـا حَـجَّ الْبَيْـتِ مَـنِ اسْـتَطَاعَ إِلَيْـهِ سَبِيلاً ، قَالَ : « صَدَقَ » ، قَالَ : ثُـمَّ وَلَّى ، قَـالَ : وَالَّـذِي بَعَثَـكَ بِـالْحَقِّ لاَ أَزِيـدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ »[١] .

الشـاهد مـن سـؤال الأعـرابي: مـن الـذي خلـق السـماء ؟ مـن الـذي خلـق الأرض؟ من الذي خلق الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ وجـواب النبـيِّ ﷺ عـلى هذا الأعرابي هي إجابة واحدة ، فلم يجب إلا بلفـظ الجلالـة المفـرد العَلَـم ؛ الله ، وقد ذكرتُ قبل ذلك أن لفظ الجلالة الله ، هو الاسم المفردُ العَلَـمُ الـدالُّ عـلى

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتـاب « العلـم» بـاب مـا جـاء في العلـم (٦٣) ، ومسـلم في كتـاب « الإيـمان » ، بـاب السؤال عن أركان الإسلام (١٢) واللفظ له .

كلِّ الأسماء الحسنى، والصفات العلا .

الأدلة العقلية على أن الله هو الخالق :

فلقد استدل على ذلك الإمام أحمد بالبيضة ؛ فقال: «ههنا حصن حصين أملس ـ يقصد البيضة ـ ليس له باب ، ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز ، فبينما هو كذلك ، إذ انصدع جداره ، فخرج منه حيوان ؛ سميع بصير ، ذو شكل حسن ، وصوت مليح » .

أإله مع الله يفعل هذا ؟

وقد استدل الشافعيُّ بورقة التوت ، فقال : « ورقة التوت تأكلها الغزالة فتعطينا مسكًا ، وتأكلها دودة القز فتعطينا حريرًا ، وتأكلها النحلة فتعطينا عسلاً ، وتأكلها الشاة والبقر والأنعام فتعطينا لبنا ولحمًا وتخرجه بعرًا » ؛ فلو كانت الأمور تسير بالصدفة كما يقولون ؛ لكانت عصارة الطعام الواحد واحدة ؛ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

أما أبو حنيفة رحمه الله ؛ فقد استدل استدلالًا عقليًّا جميلًا ،حين جاءه بعض الزنادقة ،والملحدين ، وقالوا : ما الدليل على خلق الله ــ تبارك وتعالى للكون؟ فقال : « دعوني فإني مفكِّر في أمر قد شغلني وأخَّرني عنكم ، قالوا : وما هو ؟ « قال : كنت على الشاطئ الآخر ، ولم أجد مركبًا لأركبه لآتي إليكم ، وفجأة وجدتُ الأشجار على الشاطئ تُقطع دون أن يقطعها نجار أو صانع ، ونظرت فرأيتُ هذه الألواح تُنَسَّق وصارت سفينة دون أن يصنعها صانع ، ثم جاءت هذه السفينة وشَقَّت هذه الأمواج المتلاطمة ، ووقفت أمام يدي وتحت قدمي ، فركبتها ، وشقَّت بي هذه الأمواج المتلاطمة دون أن يقودها ربان » !!

فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : هذا كلام لا يقوله عاقلٌ على وَجْهِ الأرض .

قال : (سبحان الله ! تستكثرون هذا ، وتستنكرونه ، وهذا العالم العلوي

والسفلي ، تنكرون أن له خالقًا خلقه ؟) فبهت القوم وأسلموا[(١)] .

قال الشيخ العثيمين ـ رحمه الله تعالى[(٢)] :

«أما الدليل العقلي على أن الله خلقنا فقد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥] ، فإن الإنسان لم يخلق نفسه ؛ لأنه قبل وجوده عدم ، والعدم ليس بشيء ، وما ليس بشيء لا يُوجِد شيئًا ، ولم يخلقه أبوه ولا أُمه ولا أحدٌ من الخلق ،ولم يكن ليأتي صدفة بدون مُوجد ؛ لأن كل حادث لابد له من مُحدث . ولأن وجود هذه المخلوقات على هذا النظام البديع والتناسق والتآلف يمنع منعًا باتًّا أن يكون صدفة ؛ إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده ، فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره ، فتعين بهذا أن يكون الخالق هو الله وحده ؛ فلا خالق ولا آمر إلا الله ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] » .ا.هـ .

وقد أنكر الله على المشركين شركهم ، وبين أن آلهتهم المزعومة لا تخلق شيئًا مهما قَلَّ ؛ فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج:٧٣] .

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى[(٣)] :

« ومن المعلوم بالضرورة أن الحادث بعد عدمه لابد له من محدث ، وهذه قضية ضرورية ومعلومة بالفطرة ،حتى عند الصبيان ؛ فإن الصبي لو ضربه ضارب ، وهو غافل لا يبصر لقال من ضربني ؟ فإن قيل له : لم يضربك أحد

---

(١) انظر : «معارج القبول » (١/ ٦٤، ٦٥) بتصرف .

(٢) «شرح الثلاثة أصول» (ص٢٠) .

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٥٨، ٣٥٩) .

لم يقبل عقله أن تكون الضربة حدثت من غير محدِث ؛ بل يعلم أنه لابد للحادث من محدِث ، فإن قيل له : فلان ضربك بكى حتى يضرب ضاربه ، فكان في فطرته الإقرار بالصانع وبالشرع الذي مبناه على العدل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥] .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [1] عن جبير بن مطعم ؛ أنه لما قدم في فداء أسارى بدر قال : وجدتُ النبيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، قال : فلما سمعتُ هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥] ، أحسستُ بفؤادي قد انصدع . وذلك أن هذا التقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها ، يقول : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أي : من غير خالق خلقهم ، أم هم خلقوا أنفسهم ؟! وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل ؛ فتعين أن لهم خالقًا خلقهم ـ سبحانه وتعالى» ا.هـ.

فهذا الكون من العرش إلى الفرش خلقه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨] .

وسأُفصِّل هذا في فيما يأتي إن شاء الله ـ تبارك وتعالى .

فالله ﷻ هو الخالق ، ومن ثَمَّ فالذي خلق هو الذي يرزق ، وهذا هو:

الأصل الثاني : أن الله هو الرازق.

تعالوا بنا لنتعرف على معنى الرزق ابتداءً ، وهل هو مقصور على الرزق المادي فحسب ؟!

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التفسير» ، باب سورة الطور (٤٨٥٤)، وانظر (٧٦٥) ، ومسلم ، كتاب «الصلاة» ، باب القراءة في الصبح (٤٦٣) مختصرًا ، ولفظ البخاري : « كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ » وفي لفظٍ عند أحمد (٤/ ٨٣ـ٨٥) : « فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي » .

قال ابن منظور في «لسان العرب» [١] : «الرِّزْقُ : بالكسر هو ما ينتفع به ، وهو العطاء» .

قال الجرجانيُّ: «والرزق الحسن : هو ما يصل إلى صاحبه بلا كَدٍّ في طلبه ، وقيل : ما وُجِد غيرَ مرتقب ، ولا محتسب ، ولا مكتسب» [٢] .

فكثيرٌ من الناس يظن أن الرزق مال فحسب ! كلا ؛ فالرزق أوسع مدلولًا من المال ؛ فالإيمان بالله رزق ، والإيمان برسول الله ﷺ رزق ، وحب آل بيت النبيِّ ﷺ رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والخُلُقُ رزق ، والأدب رزق ، والزوجة الصالحة رزق ، والولد الصالح رزق ، والمال رزق ، وكلُّ هذا من رزق الرزاق ذي القوة المتين ؛ قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦] .

وقال الله سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت:٦٠] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [سبأ:٢٤] ، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة:٢١٢] ، وقال سبحانه : ﴿ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر:٣] ، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك:٢١] .

وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ

---

(١) «لسان العرب» (٤/ ١٣٢، ١٣٣) ط الحديث ، و«مختار الصحاح» (١٤١) .

(٢) «التعريفات» للجرجاني (١١٢) .

وَإِيَّاهُمْ ﴾[الأنعام:١٥١] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٣١] .

قال السفاريني رحمه الله[1]: « والرزق نوعان :

١ ـ خاص : وهو الرزق الحلال للمؤمنين ،وهذا هو الرزق النافع الذي لا تبعة فيه إذا كان عونًا على طاعة الله تعالى ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٢] .

٢ ـ عام : وهو ما به قوام البدن سواء كان حلالاً أو حرامًا ، وسواء كان المرزوق مسلمًا أو كافرًا ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦]» .

ومن لطيف ما قرأت : «أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله جلس يومًا ليأكل بعض قطع اللحم المشوي ، فجاءت قطة (هرة) فخطفت قطعة وجرت ، فقام وراءها ، ليتابع الموقف باهتمام ، فوجد أن القطة قد تركت قطعة اللحم في مكان مهجور في باطن الأرض وانصرفت ؛ فظل جالسًا يراقب الموقف ، ويتفكَّر ويتدبَّر ،وفجأة رأى ثعبانًا أعمى البصر لا يرى ، يخرج من هذا الجحر في باطن الأرض ؛ ليجرَّ قطعة اللحم إلى جحره! فيرفع إبراهيم بن أدهم رأسه إلى السماء ، ويبكي ويقول : سبحانك يا من سخرت الأعداء يرزق بعضهم بعضًا» ؛وصدق ربِّي حين قال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، ليس على أحد من البشر مهما كان ، ولا على دولة ، ولا على قوة ..

وقال ـ جَلَّ وَعلاَ ـ :﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ [الذاريات:٢٢] .

---

(١) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ٣٤٣) نقلًا عن «جامع شروح الأصول الثلاثة» (١١٥).

كيف وأموالنا وأرزاقنا في الأرض ؟ أراد الله ﷻ أن يلفت العقول الزكية ، والقلوب التقية ، والفطر السوية ، إلى أن الرزق في السماء ، بيد خالق السماء والأرض ، الذي تكفل بأرزاق الخلق ، وأرزاق العباد ؛ فقال : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات:٢٢، ٢٣]

أرأيت هذه الصيغ التوكيدية المتعددة ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهذا قسم من الباري ، ثمَّ أكَّد ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ بـ لام التوكيد ، ﴿ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ ، ولقد سمع أعرابيٌّ هذه الآية ؛ فقال كلمات رقيقة جميلة جدًّا ، صاح وقال: يا سبحان الله ! من الذي أغضب الجليل حتى يقسم [1] ؟! ألم يصدقوه في قوله حتى أقسم؟!

من هذا الذي لم يصدق الله على أنه هو الرزاق ، حتى أقسم بهذا القسم تلو القسم؟!! فما أحوج الناس إلى الثقة في هذا القسم ، وإلى اليقين في الرزاق ذي القوة المتين .

والله لو فهمنا وتعبدنا لله باسم الرزاق ، على مراد الله ، وعلى مراد رسوله ﷺ ، ما قتل القاتلُ من قتل ، وما سفك الدماءَ من سفك ، وما كذب من كذب ، وما تملق من تملق ، لو علم أهلُ الأرضِ أن الرزق بيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه لا تستطيع قوةٌ على وجه الأرض أن تَحُول بينك وبين رزقٍ قسمه الله ـ تعالى ـ لك ما نافقت أحدًا ، وما تملقت أحدًا ؛ لأن قلب من ترائي وتنافق بيد من عصيت !!

---

(١) أخرجه ابن قدامة المقدسي في «التوابين» (٤٧٣، ٤٧٤) ط الكتب ، تعليقًا عن الأصمعي قوله . وانظر : « الكشاف» للزمخشري (٤/ ١٧) ، و«القرطبي» في تفسير الآية .

قيل لحاتم الأصم [(١)]: «كيف حققت التوكل ؟ قال : بأربعة أشياء . قالوا : ما هي ؟ قال : علمتُ أنَّ رزقي لا يأكله غيري ؛ فاطمأن قلبي ، وعلمت أن الموت ينتظرني ؛ فأعددت الزاد للقاء الله ، وعلمت أن عملي لا يتقنه غيري ؛ فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلعٌ عليَّ ؛ فاستحييتُ أن يراني على معصية ». وفي بعض الروايات قال : «علمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره» .

فيا أيها الحبيب: هل تُضيع الصلاة بعد ذلك من أجل الرزق ؟ وهل تُضيع الخشوع ، والخضوع ، والذل ، والاستسلام لله من أجل الرزق ؟ بل وتُفرط في العبودية التي من أجلها خُلقت من أجل الرزق ؟!

فرزقك بيد الله ؛ بل لقد كتب الله رزقك وأنت في بطن أمك ، بل لقد كتب الله رزقك قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ كما في «صحيح مسلم» عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﭬ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قَالَ : وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** » [(٢)].

قال الله ـ تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر:٤٩] ، فرزقك مُقدر وأنت في بطن أمك ؛ كما في «**البخاري ومسلم**» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﭬ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ وَكَّلَ فِي الرَّحِمِ مَلَكًا ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ نُطْفَةٌ ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَهَا قَالَ : يَا رَبِّ أَذَكَرٌ ، يَا رَبِّ أُنْثَى ، يَا رَبِّ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ ، فَمَا الأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ** » [(٣)].

---

(١) عند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٢٤٣) ، وقد أخرجه أيضًا البيهقي في«الشعب» (١٢٧٤) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٧٣) ، وذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ١٧٨٥).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «القدر» ، باب حجاج آدم وموسى (٢٦٥٣) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٣٣) ، ومسلم ، كتاب «القدر» ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٦) .

فكلُّ أرحام النساء على وَجْه الأرض ؛ المسلمات والكافرات ، وكّل الله بهذه الأرحام ملكًا من الملائكة ؛ فلا تحمل أيُّ أنثى على ظهر الأرض إلا بأمر المَلِكِ للمَلَكِ ، وفي لفظٍ من حديث ابن مسعود ﵁ : « **فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ ، وَيَكْتُبُ المَلَكُ** »[(١)].

قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦ ـ٥٨].

ما أجمَلَ القرآن وأعظمه ! فمع قضية العبادة تأتي قضية الرزق ؛ لأن كثيرًا من الناس يظن أن العبادة ستضيع الرزق ،وستشغله عنه .

فإذا رأيتَ مسلمًا يقف في محلٍّ تجاري ، وقد سمع الأذان ، والمؤذن يقول : حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح ، يقول : أخشى أن أُغلق المحل فتضيع مني هذه الصفقة ، أو سيضيع منِّي مالٌ كثيرٌ كنتُ سأحصله الآن !! كلَّا كلَّا .. ونقول لك: إن رزقك مُقدَّر ومكتوب ، فلا تنشغل بقضية الرزق ؛ فإن الله ﷻ قد قسم رزقك ، فما عليك إلا أن تأخذ بالأسباب ، وأن تتوكل على الله .

والتوكُّل : هو صدق اعتماد القلب على الله ، مع الأخذ بالأسباب ، وقد كان النبيُّ ﷺ يقول ؛ كما في الحديث الصحيح ، الذي رواه **أحمد والترمذي وغيرهما** : عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﵁ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا** »[(٢)]. تغدو : يعني تخرج في الصباح الباكر خماصًا أي: بطونها فارغة ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «القدر» ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٥) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب «الزهد» ، باب في التوكل على الله (رقم ٢٣٤٤) ، وقال:«هذا حديث حسن صحيح» ، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٠) ، وابن حبان في «صحيحه» ، (٧٣٠) ، والحاكم (٤/ ٣١٨) ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب التوكل واليقين (٤١٦٤) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٢٥٤) .

وتروح ؛ أي: ترجع في وقت الروحة ، وقد رزقها الله ـ تبارك وتعالى ـ الذي تكفل بأرزاق المخلوقات كلِّها في هذه الدنيا ؛ فما عليك إلا أن تأخذ بالأسباب ، وليس معنى ذلك أن نتواكل على الله ، ونقول : الرزق مقدر ؛ فهذا مفهومٌ مغلوطٌ لحقيقة التوكُّل على الله ـ تبارك وتعالى .

قال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله [(١)]: « من طعن في التكسب ـ الأسباب ـ فقد طعن في السُّنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان » ؛ فالأخذ بالأسباب سُنة النبيِّ ﷺ ، والتوكُّل على الله حال النبيِّ ﷺ ؛ فمن كان على حال النبيِّ ﷺ ، فلا يتركن سنة النبيِّ ﷺ [(٢)] .

أي: من كان على توكُّلِ رسول الله ﷺ ؛ فواجب عليه أن يأخذ بالأسباب ، كما أخذ بالأسباب رسولُ الله ﷺ ، فها هو النبيُّ ﷺ لم يترك سببًا من الأسباب إلا وقد أخذ به يوم الهجرة ؟

وكان ﷺ يقاتل بين درعين ، وكان إذا شعر بالجوع قام ليأكل ، وكان إذا شعر بالمرض ذهب ليتداوى ، وهو سيد المتوكلين على الله .

فالصواب أن يأخذ العبد بالأسباب وقلبه معلق بمسبب الأسباب.

قال الشيخ العثيمين رحمه الله [(٣)]: « أما الدليل العقلي على أنَّ الله رِزْقنا ؛ فلأننا لا نعيش إلا على طعام وشراب ، والطعام والشراب خلقه الله عز وجل ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ

---

(١) «حلية الأولياء» (١٠/ ١٩٥) .

(٢) انظر : «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٣٧) .

(٣) «شرح الثلاثة أصول» (٢١) .

نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾[الواقعة:٦٣-٧٠]، ففي هذه الآيات بيان أن رزقنا ـ طعامًا وشرابًا ـ من عند الله ﷻ.

وقال ابن كثير رحمه الله [(١)] **في قوله تعالى** : « ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾[الملك:٢١] «أي : من هذا الذي إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟! أي: لا أحد يعطي ويمنع ، ويخلق ويرزق وينصر إلا الله ﷻ وحْدَهُ لا شريك له ، أي : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ، ولهذا قال : ﴿ بَل لَّجُّواْ ﴾ أي : استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ، ﴿ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أي: معاندة ، واستكبارًا ، ونفورًا على أدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه » ا.هـ.

والحديث في قضية الرزق حديثٌ طويلٌ جليلٌ ، وقد أطلتُ النفس فيها ؛ لأنها قضية تشغل بال كلِّ مخلوق على وجه الأرض ، لكن المؤمن يعلم علم اليقين أن رزقه بيد الله ـ تبارك وتعالى ـ فهو يأخذ بالأسباب ، وهو على يقين أن الأسباب وحدها لا تضر ، ولا تنفع ، ولا ترزق ، ولا تمنع ؛ إلا بأمر مسبب الأسباب ـ جَلَّ وَعَلاَ .

الأصل الثالث : أن الله ﷻ لم يتركنا هملاً:

ما أحوج البشرية إلى هذه الكلمات ؛ فكثيرٌ من الناس الآن يردد: «جئتُ لا أعلم من أين ، ولكني أتيت ، ولقد أبصرتُ قُدَّامي طريقًا فمشيت ، وسأمضي في طريقي شئتُ هذا أم أبيت ، كيف جئت ؟ ، كيف أبصرت طريقي ؟!! لست أدري!! » .

لا يدري خالقَه ، ولا يدري الغاية التي من أجلها خُلق ، ولا يعرف الوظيفة التي من أجلها ابتُعث ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٤/ ٧٧) .

مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩] ، وقال ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢] .

فالله ﷻ خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا ؛ بل نحن مخلوقون لغاية ، فنحن مخلوقون في الكون لوظيفة محددة بيّنها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في كلمات حاسمة ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

وما أرقَّ وأجملَ كلماتِ ربعي بن عامر ﷺ ، حين سأله رستم قائد الجيوش الفارسية « الكسروية » الجرارة: من أنتم ؟

فقال [1] : « الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان ؛ إلى عدل الإسلام » .

فالصحابة ﷺ فَهِموا الغاية التي من أجلها خُلقوا ، والوظيفة التي من أجلها ابتعثوا ، لكن كثيرًا من الناس الآن يعيشون في الكون يأكلون ، ويشربون ، ويتمتعون ، وهم لا يعرفون ربًّا ، ولا يعرفون نبيًّا ، ولا رسولًا ، ولا غاية من أجلها خُلقوا ، ولا وظيفة من أجلها ابتعثوا ، ثم بعد ذلك يتصورون أن الأمر سينتهي بالموت ؛ قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥ـ١١٧] .. تعالى الله أن يخلق الخَلق بغير حكمة .. تعالى الله أن يخلق البشر لغير وظيفة .. تعالى الله أن يترك

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٤٠١) ، و«البداية النهاية» (٧/ ٤٧) .

الخلق هملاً وسدى ؛ قال الله جل جلاله : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة:٣٦ـ٤٠] ، أتظن ـ أيها الإنسان المخدوع المغرور ـ أنك خُلقتَ في هذه الدنيا ؛ لتأكل وتشرب وتتكاثر ، ثم تموت وتنتهي قصةُ حياتك ، ويُسدَلُ الستار عليها عند هذا المشهد ؟ لا والله ؛ بل أنت مخلوق لغاية ، ووظيفة ، وقد أرسل الله عز وجل إليك الرسل ليبينوا لك هذه الغاية ، وليأخذوا بيدك لتسير معهم على الدرب ، وعلى الطريق الذي يوصلك إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ فكل الطُّرق إلى الله مسدودة إلا من طريق الرسل والأنبياء ، ثم بعد ذلك تموت ، ثم بعد ذلك تبعث ، وبعد البعث حسابٌ ، وعرضٌ ، وصحفٌ ، وميزانٌ ، وبعده صراطٌ ، وبعد الصراط: جنة أو نار .

فلو أُسدل الستارُ على حياة ابن آدم عند الموت ، لظَلم من ظَلم، وانتفش من انتفش ، وانتفخ من انتفخ ، وكفر من كفر ، وفعل كلُّ إنسان ما يريد ؛ لأنه حينئذٍ مطمئنٌ إلى كلِّ ما يريد أن يفعله بأنه لن يقتص منه ربنا بعد ذلك ؛ فلا يُؤْخَذُ للمظلوم حقه من الظالم !! لا .. إن الدنيا ليستْ سوقًا سينفضُّ وحسب ، وإنما سيبعث الله الخلقَ جميعًا ، وسيُوقِف الله الناسَ كلَّهم بين يديه للسؤال عن القليل والكثير ، وعن الصغير والكبير .

قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] ، وقال ربنا جل جلاله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ

ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:١ ـ٨] ، وقال ﷻ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء:١٣، ١٤] ، وقال ـ عز من قائل : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾[القمر:٥٣] ، وقال ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم:٣٩] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٨، ٤٩] ، وما أكثرَ الآياتِ في ذلك .

وقد بين النبيُّ ﷺ ذلك ؛ ففي **«صحيح مسلم»** (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : « **هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ ؟** » قَالُوا : لاَ ، قَالَ : « **فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ ؟** » قَالُوا : لاَ ، قَالَ : « **فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي أَحَدِهِمَا ، قَالَ : فَيَلْقَى الْعَبْدَ ، فَيَقُولُ : أَيْ فُلْ** (٢) **، أَلَمْ أُكْرِمْكَ ، وَأُسَوِّدْكَ ، وَأُزَوِّجْكَ ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، قَالَ : فَيَقُولُ : أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، فَيَقُولُ : فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي ، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ ، فَيَقُولُ : أَيْ فُلْ ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ ، وَأُسَوِّدْكَ ، وَأُزَوِّجْكَ ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ ،**

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الزهد والرقائق»(٢٩٦٨) .

(٢) أي فُلْ: بضم الفاء وإسكان اللام ، ومعناه : يا فُلان ، وهو ترخيمٌ على خلاف القياس ، وقيل: هي لغة بمعنى: فلان ؛ حكاه القاضي عياض . وانظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (حديث رقم ٢٩٦٨) .

وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ ؟ فيَقُولُ : بَلَى ، أَيْ رَبِّ ، فيَقولُ : أَفظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ ؟ فيَقُولُ : لاَ ، فيَقولُ : فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي ، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فيَقولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فيَقُولُ : يَا رَبِّ ، آمَنْتُ بِكَ ، وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ ، وَصَلَّيْتُ ، وَصُمْتُ ، وَتَصَدَّقْتُ ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ ، فيَقُولُ : هَا هُنَا إِذًا قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ : انْطِقِي ، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ الله عَلَيْهِ ».

وفي «الصحيحين» مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﵁ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَا مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ »[1].

بل وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ ابْنَ عُمَرَ ﵄ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى ؟ قَالَ : « يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : نَعَمْ ، وَيَقُولُ : عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُقَرِّرُهُ ثُمَّ يَقُولُ : إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ »[2].

والكنف في اللغة ـ لا تأويلاً للصفة ـ هو الستر والرحمة ؛ فكم من مصيبةٍ قد كنتَ نسيتَهَا ذكَّركَ الله إياها ، وكم مِن معصية قد كنتَ أخفيتَهَا أظهرها

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التوحيد» باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥١٢) ، وانظر (١٤١٣ ، ٦٥٣٩ ، ٦٠٢٣ ، ٦٥٦٣) ، ومسلم ، في كتاب « الزكاة » باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأدب باب ستر المؤمن على نفسه (٦٠٧٠) ، وانظر (٢٤٤١) ، ومسلم ، في كتاب « التوبة » باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨) .

الله لك وأبداها ، فيا حسرةَ قلبك وقتها على ما فرطتَ في دنياك من طاعة مولاك ؛ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]

نسأل الله ﷻ كما سترنا فيما مضى من عُمُرنا ، أن يسترنا في الدنيا والآخرة ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

الأصل الرابع والخامس والسادس:

وها هي ثلاثةُ أصولٍ أخرى في هذه المسألة :

إحداها : رسالةُ النبيِّ ﷺ .

ثانيها: وجوب طاعة النبي ﷺ .

ثالثها : جزاء من أطاع أو خالف النبي ﷺ .

وهذه قمة الرحمة من الله ﷻ أن يرسل إلينا رسولاً .

وكثيرٌ من الناس ـ الآن ـ يتصور أن البشرية قد وصلت إلى مرحلة النضج ؛ بحيثُ لم تَعُد في حاجة إلى رسولٍ لتسير خلفه ؛ ليدلَّها على طريق الله ﷻ ، لأن البشرية قد حوَّلت العالم كلَّه إلى قريةٍ صغيرة ، عن طريق هذا التقدُّم العلميِّ المذهل في عالم الاتصالات والمواصلات ، ولأن البشرية قد صنعت القنبلة النووية والهيدروجينية ، وصدرت إلى السماء أتوبيس الفضاء « ديسكفري » إلى غير ذلك . فيتصور الكثير أن البشرية لم تَعُدْ في حاجةٍ إلى الرسل !! كلا .. كلا ، بل إن البشرية في أمسِّ الحاجة إلى رسولٍ يدلها على الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيأخذ بيدها إلى الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

وأنقل كلامًا رائعًا للعلامة ابن القيم في «زاد المعاد» حيث يقول [(١)] :

«ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوقَ كلِّ ضرورة إلى معرفة الرسول ، وما جاء

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٦٩، ٧٠) ط الرسالة .

به ، وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ؛ فإنَّه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ، ولا في الآخرة إلَّا على أيْدي الرسل ، ولا سبيلَ إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا مِنْ جهتهم ، ولا يُنال رضى الله البتة إلا على أيديهم ، فالطَّيِّبُ من الأعمال والأقوال والأخلاق ، ليس إلا هديهم وما جاؤوا به ، فهم الميزانُ الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميَّز أهل الهدى من أهل الضلال ؛ فالضرورة إليهم أعظمُ مِن ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والروح على حياتها ، فأيُّ ضرورة وحاجة فُرِضَت ، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير . وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديُه وما جاء به طرفَةَ عينٍ، فسد قلبُكَ ، وصار كالحوت إذا فارق الماء ، ووضع في المِقلاة ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل ؛ كهذه الحال ؛ بل أعظمُ ، ولكن لا يُحسُّ بهذا إلا قلب حيٌّ .

وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

وإذا كانت سعادةُ العبد في الدارين مُعَلَّقَةً بهدي النبيِّ ﷺ . فيجب على كلِّ من نصح نفسه ، وأحب نجاتها وسعادتها ، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يَخْرجُ عن الجاهلين به ، ويدخل به في عِداد أتباعه وشِيعته وحِزبه ، والناس في هذا بين مستقلٍّ ، ومستكثر ، ومحروم ، والفضلُ بيد الله يُؤْتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

*****

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

« بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً ؛ فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ ، والدَّلِيْلُ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ [المزمل:١٥،١٦] » .

الشرح

إنَّ النبيَّ ﷺ هو الإمام الأعظم ،وخاتم النبيين والمرسلين ، ولم يرسله الله جل جلاله للعرب فحسب ؛ بل أرسله الله جل جلاله إلى كلِّ الخلق : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨] ، وقال جل جلاله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] ، والآيات كثيرة .

ولقد أخذ الله جل جلاله الميثاق والعهد على النبيين بلا استثناء ، إذا بعث فيهم محمدًا ﷺ أن يؤمنوا به وأن يتبعوه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١].

وفي « صحيح مسلم » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ! لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** »(١) .

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب «الإيمان » ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣) .

واشترط النبيُّ ﷺ السماع ؛ لأن الله ﷻ لا يعذِّب ولا يحاسبُ الخلق إلا بعد أن يقيم الحجة عليهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء:١٦٥] ، وقال ـ سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء:١٥] .

إذًا وجب على أهل الأرض بعد أن بعث الله فيهم محمدًا ﷺ أن يؤمنوا به كما آمنوا بإخوانه من النبيين ؛ فنحن لا نفرق بين نبيٍّ ونبيٍّ في أَصْل الإيمان بالله ـ تبارك وتعالى ـ وفي الإيمان بهذا النبي المبعوث أو المُرسل من قِبَل الله ﷻ ؛ قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[البقرة:٢٨٥] .

وفي « صحيح البخاري ومسلم » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ** »(١) .

إذًا أرسل الله رسولاً إلى جميع الخلق كافة ، وهو محمد ﷺ ، فمن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ؛ قال الله ﷻ : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠]

إذًا طاعة رسول الله ﷺ طاعة لله ، ومعصية رسول الله ﷺ معصية لله ؛ بل لا يجوز لمن آمن بالله ورسوله ، أن يقدِّم قولاً أو فعلاً على قول وفعل رسول الله

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « الجهاد والسير » ، باب قول النبيِّ ﷺ : « **نصرت بالرعب مسيرة شهر** » (٢٩٧٧) ، ومسلم ،كتاب « المساجد ومواضع الصلاة » (٥٢٣) واللفظ له ، وصحَّ من حديث جابر ابن عبد الله ﷺ عند البخاري (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢) ، ومسلم (٥٢١) .

ﷺ ؛ قال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات:١] ؛ قال ابن عباس : «أي : لا تقولوا قولاً خلاف الكتاب والسنة» (١) .

وقال القرطبيُّ (٢): « أي: لا تقدموا قولاً على قول الله ،ولا فعلاً على قول وفعل رسول الله ﷺ ؛ فإن من قدم قوله أو فعله ، على قول وفعل رسول الله ، فإنما قدمه على الله ؛ لأن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بما أمر به من الله عَزَّ وَجَلَّ » .

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (٣) في قوله: ﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾: «ويدخل في الآية دخولاً أوليًّا تشريع ما لم يأذن به الله ـ تعالى ؛ فلا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولا دين إلا ما شرعه الله ـ تعالى ـ على لسان رسوله ﷺ » .

إذًا طاعة النبيِّ ﷺ طاعة للرب العلي ، ومعصية النبيِّ ﷺ معصية للرب العلي ؛ قال سبحانه : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران:٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال:٢٠] ، وقال الله جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْ ﴾ [المائدة:٩٢] ، أي: احذروا أن تقعوا في مخالفته ﷺ ، ثم قال: ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [المائدة:٩٢] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلَاَ : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٣٢ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٢، ١٣٣] ، وقال سبحانه : ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ... ﴾ [النساء:١٣] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلَاَ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢١/ ١٨٠) ، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٣٠٢) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٩٨) ، والمروزى في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٦٦١) .

(٢) « الجامع لأحكام القرآن » (١٦/ ٢٣٤) بتصرف .

(٣) « أضواء البيان » (٧/ ٦١٤) بتصرف .

وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧١] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ [النور:٥٤] ، وقال ﷻ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥١، ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩]

وفي المقابل هذا جزاء مَنْ عصاه أن يدخل النار ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء:١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن:٢٣] ، وحكى الله عن الكفار تمنيهم طاعته حيث لا ينفع التمني ؛ قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾[الأحزاب:٦٦] ، لذا فلا اختيار في طاعته ؛ قال ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[الأحزاب:٣٦] ، وقال الله ﷻ في آية جامعة : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الحشر:٧] .

الرد على القرآنيين وإثبات حجية السنة :

ومهمٌّ أن نركِّز على هذه المسألة الآن ؛ لأن جماعة خبيثة تسمي نفسها الآن بالقرآنيين ، تدَّعي أنه واجبٌ على الأمة أن تأخذ بالقرآن فحسب ، وليست الأمة في حاجة إلى السنة !!وأنا أقولُ: والله لا يستطيع أعقل أهل الأرض أن

يفهم كتاب الله ﷻ بعيدًا عن سنة رسول الله ﷺ، فليفتح واحدٌ من هؤلاء القرآن، ويقرأ من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وليخبرنا بعيدًا عن السنة كيف نصلي؟ وكيف نحج؟ وكيف نزكي؟ وكيف نصوم؟ ومتى نفطر؟ ومتى نمسك؟ وما مبطلات الصوم؟ وما واجباته؟ وما مندوباته؟ وما أركان الحج؟ وما الفرق بين وادي عرفة ووادي عرنة؟ وما واجبات الحج؟ وما الفرق بين الركوع والسجود؟ وما الذي أقوله في الركوع؟ وما الذي أقوله في السجود؟ إلى غير ذلك؛ فلا يستطيع عاقلٌ على وجه الأرض أن يفهم القرآن بعيدًا عن سنة النبيِّ ﷺ؛ لذا يقولُ نبينا ﷺ: « **إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ** »[(١)].

ومن جميل ما قاله الأوزاعي عن مكحول قال[(٢)]: « القرآن أحوج إلى السنة، من السنة إلى القرآن ».

وقال يحيي بن أبي كثير ؒ[(٣)]: « السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب قاضيًا على السنة ».

وقال الإمام الشوكاني ؒ[(٤)]: « إن ثبوت حجية السنة المطهرة، واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام ».

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٧٢)، والدارقطني في «سننه» (٤٥٥٩) والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٢٥٠، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١/ ٥٦) ورواه مالك (٥٩٢) بلاغًا، وله شواهد صححه بها الألباني ؒ في «صحيح الجامع» رقم (٢٩٣٧)، و«الصحيحة» (١٧٦١).

(٢) أخرجه الخطيب في « الكفاية » (٢١)، وابن بطة في « الإنابة » (٨٨)، والهروي في « ذم الكلام » (٢٢٢).

(٣) أخرجه الخطيب في «الكفاية» (٢١) والدارمي في «سننه »(١/ ٤٥)، وابن بطة في « الإبانة » (٨٩)، والهروي في « ذم الكلام » (٢١٩).

(٤) « إرشاد الفحول » (٥٣).

ومن بديع ما قاله ابن القيم رحمه الله **قال** (١): « والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن تكون السنة موافقة للقرآن من كل وجه ، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها » .

يأتي في القرآن الأمر بالتوحيد ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، فيأتي صاحب السنة ﷺ ؛ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**» عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ** » (٢) ؛ فتتضافر السُّنَّة مع القرآن في الباب الواحد ، أو في المسألة الواحدة ؛ هذا هو الوجه الأول من أوجه السنة مع القرآن .

قال : «**الوجْهُ الثاني** : أن تكون السُّنَّة بيانًا لما أريد بالقرآن وتفسيرًا له» . فالسنة مبينة ، وموضحة ،ومفسرة لما أجمله القرآن ، يأمر الله في القرآن بالصلاة ؛ فيقول ربنا ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣] .

فكأنما سأل سائل: كيف نقيم الصلاة ؟ فيقوم صاحبُ السنة ﷺ ؛ ليصلي أمام الصحابة ، ويقول عليه السلام : « **صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي** » (٣) .

وقال الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ كيف نؤتي الزكاة ؟ وما مقدارها ؟ وما نصيبُ كلِّ واحدٍ من هؤلاء الذين أخرج لهم الزكاة ؟ فيأتي

(١) « إعلام الموقعين » (٢/ ٢٧٠، ٢٧١) بتصرف .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الإيمان» باب بني الإسلام على خمس رقم (٨) ومسلم ،كتاب « الإيمان » باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام رقم (١٦) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « الأذان» باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة رقم (٦٣١) .

صاحب السنة ﷺ ليبين مقدار الزكاة، ونصابها، وما يجب فيها.

وقال سبحانه: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦] والسؤال: كيف أحج؟ وكيف أعتمر؟ فيأتي صاحبُ السنة ويقول: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»(١).

قال: «والوجه الثالث: أن تكون السنةُ موجبةً لحُكْمٍ سكت القرآن عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه».

وهذا من أهم أوجه السنة مع القرآن، لا سيما في هذا الزمن الذي انتشرت فيه الفتن؛ فقد أنكر هذا التأصيل المغرضون الأفاكون، وتلك الفتنة يغني بطلانها أصلاً عن إبطالها، ويغني فسادها عن إفسادها، ويغني كسادها عن إكسادها.

أَوَ لَمْ يَقُلْ ربُّنا ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:١ـ٥]

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود والترمذي ـ بسندٍ صحيح ـ عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَاناً عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، أَلاَ وَلاَ لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهِدٍ، إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ، فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب «الحج» باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا (١٢٩٧).

قِرَاهُمْ »(١) (**) .

وقال ميمون بن مهران ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء:٥٩] ،: « الردُّ إلى الله ، هو الرجوع إلى القرآن الكريم ، والردُّ إلى رسول الله ﷺ ، هو الرجوع إلى النبيِّ ﷺ ، في حياته ، والرجوع إلى السنة بعد مماته »(٢) ، ونلاحظ أن الله ـ تعالى ـ لم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم ؛ بل جعل طاعة أولي الأمر تابعة لطاعة الله ورسوله .

وفي « **صحيح البخاري** » عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى** » قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، وَمَنْ يَأْبَى ؟ قَالَ : « **مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى** » (٣) .

فالذي يأبى أن يدخل الجنة هو من عصى النبيَّ ﷺ ، مع أن النبيَّ ﷺ يدفع هؤلاء دفعًا إلى دخول الجنان ،وإلى البعد عن النيران ؛ فما من خيرٍ إلا وأمرنا به ، وما من شرٍّ إلا وحذَّرنا منه ﷺ .

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « **مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ**

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٠، ١٣١) ، وأبو داود ، في كتاب « السنة » ، باب لزوم السنة (٤٦٠٤) ، والترمذي ،كتاب «العلم » ، باب ما نهي أن يقال عن حديث النبي ﷺ (٢٦٦٤) وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه في مقدمة السنن ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ (١٢) ،والدارمي (٥٨٦) ،وابن حبان (١٢) ، والحاكم (١/ ١٠٩) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه» .

(**) وهذا تشريع تستقل به السنة ، ويستقل به صاحب السنة ﷺ، فبموجب هذا الحديث حَرَّم رسول الله ﷺ أكل لحوم الحمار الأهلي ،وكل ذي ناب من السباع ، وحرم لقطة المعاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها .

(٢) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٩٩١١، ٩٩١٢) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ٩٩٠) ، والبيهقي في «الاعتقاد» (٢٥٣، ٢٥٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة » ، باب الاقتداء بسنة الرسول ﷺ رقم (٧٢٨٠) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأحكام » ، باب قول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء:٥٩] =

أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ » .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ »(١) عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ : يَا قَوْمِ ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا ، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ » .

ومن أرقِّ الأحاديث التي قرأتُها في هذا الباب ؛ ما رواه الإمامُ البخاريُّ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ، فَقَالُوا : إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلاً ، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلاً ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ، فَقَالُوا : مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا ، وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً ، وَبَعَثَ دَاعِيًا ، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ ، فَقَالُوا : أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُ نَائِمٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ ، فَقَالُوا : فَالدَّارُ الْجَنَّةُ ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ ، فَقَدْ عَصَى اللهَ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ »(٢) ؛

= (٧١٣٧) ، وانظر (٢٩٥٧) ، ومسلم ، كتاب « الإمارة » باب وجوب الطاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية (١٨٣٥) .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الاعتصام » ، باب الاقتداء بسنن رسول الله (٧٢٨٣) ،وانظر (٦٤٨٢) ، ومسلم ، كتاب « الفضائل » باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم عما يضرهم (٢٢٨٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» باب الاقتداء بسنة النبيِّ ﷺ رقم (٧٢٨١) .

فمن خصوصيات النبيِّ ﷺ أنه كان لا ينام قلبه وإن نامت عينه ـ عليه الصلاة والسلام .

فهذه الدار « الجنة » ، وما أعد الله ﷻ فيها من النعيم ، ولا تكون ولا يكون نعيمها إلا لمن أطاع محمدًا ﷺ ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة ، أي : لم يستمتع بنعيمها من عصى محمدًا ﷺ ؛ فمحمد فرق بين الناس .

❊❊❊❊❊

المسألة الثانية : الشرك

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

«الثَّانِيَةُ : أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] ».

الشرح

قال رَحِمَهُ اللهُ : « الثَّانِيَةُ » أي : المسألة الثانية ؛ أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ؛ وهذا هو توحيد الألوهية ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] ، وهذه أكبرُ مصيبة ترتكبُ على وَجْه الأرض في كُلِّ زمان ومكان .. إنها مصيبةُ وكبيرةُ الشركِ بالله ؛ فالشركُ أظلمُ الظلمِ ،وأقبحُ الجهل ؛ كما أن التوحيدَ أعدلُ العدلِ ؛ ولذا فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ يغفر أيَّ ذنب ، ويغفر أيَّ كبيرةٍ مهما كانت ، إلا الشرك ، فلا يغفره الله عَزَّ وَجَلَّ أبدًا ، إلا إذا خلع المشركُ رداء الشرك على عتبة الإيمان ، ووحَّد الله ـ تبارك وتعالى ـ وآمن به ، وآمن برُسله ، وكتبه ، وملائكته ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣] .

ولكن يبقى هذا الذنب الذي لا يغفره الله أبدًا ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في حُكمٍ حاسمٍ واضحٍ لا التباس فيه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة:٧٢] ؛ نسأل الله السلامة والعافية ؛ بل ستعجب إذا علمت أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد خاطب صفوة البشر، وهم الرسل والأنبياء بقوله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦] ، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾
[الأنعام:١٦٢، ١٦٣]

إنها آياتٌ واضحةٌ حاسمةٌ ؛ فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يرضى أبدًا لعباده الكفر ،ولا يقبل منهم أبدًا هذه الكبيرة ، وهذه المعصية الخطيرة ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ عن لقمان :﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] ، وقال سبحانه : ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر:٧] .

فالعبادة حقٌّ لله على عباده ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] .

فالعبادة حقٌّ له سبحانه لا يجوز أن تصرف لأحدٍ غيره .

ففي «الصَّحِيحَيْنِ » [(١)] عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الجهاد والسير» ، باب اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٠) .

عَلَى حِمَارٍ ، يُقَالُ لَهُ : عُفَيْرٌ ، فَقَالَ : « **يَا مُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ** » قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ ، وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ ؟ قَالَ : « **لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا** ».

وفي « صحيح مسلم » (١) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا : فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ...** » .

فلا يجوز أن يُشرَكَ مع الله غيره ، فهو وَحْدَهُ المستحق لجميع أنواع العبادة ؛ فلا تُصْرَفُ العبادة لملك من الملائكة ، ولو كان من المقربين ؛ كجبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل وغيرهم ، ولا لنبيٍّ مرسل ، ولو كان أشرف الرسل وأكرمهم على الله ، وهو رسول الله ﷺ ؛ فإذا كان هذا كذلك ، فلا تصرف العبادةُ لولي ، ولا لقبر ، ولا لعبد من عباد الله ؛ لأن هذا من الشرك الذي لا يرضاه الخالق تبارك وتعالى .

أقسام الشرك :

وقد بين العلماء أن الشرك ينقسم إلى قسمين : شرك أكبر ، وشرك أصغر .

أولًا : الشرك الأكبر : وهو الذي لا يغفره الله ـ تبارك وتعالى ـ أبدًا ، وهو اتخاذ الند مع الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أو من دونه ـ سبحانه وتعالى ـ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥] ، اللهم اجعلنا من هؤلاء الذين امتلأت

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الأقضية » ، باب النهي عن كثرة المسألة من غير حاجة (١٧١٥) .

قلوبهم بحبك ،أما أن يتخذ العبد ندًّا مع الله ، أو من دون الله ، يحبُّ هذا الند كمحبة الله ، أو يخاف هذا الند كخوفه من الله ـ تبارك وتعالى ـ فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ـ تبارك وتعالى ـ أبدًا .

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) من حديث عبادة بن الصامت ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال : « **مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ** » قَالَ الْوَلِيدُ : حَدَّثَنِي ابْنُ جَابِرٍ عَنْ عُمَيْرٍ عَنْ جُنَادَةَ ، وَزَادَ : « **مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ** » .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ » (٢) من حديث عتبان بن مالك ﵁ أنه ﷺ قال : «**فَإِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله** » .

انظر إلى فضل التوحيد ؛ لذا فقد روى مسلم في «صحيحه» (٣) : عَنْ جَابِرٍ ﵁ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، مَا الْمُوجِبَتَانِ ؟ فَقَالَ : « **مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ** » .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ » (٤) عن أنس ﵁ عن النبيِّ ﷺ قال : « **يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب : قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ [النساء:١٧١] ، رقم (٣٤٣٥)، ومسلم ، في كتاب « الإيمان» ، باب أن من مات على التوحيد دخل الجنة رقم (٢٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأطعمة» باب الخزيرة رقم (٥٤٠١) ، وانظر : (٤٢٤) ، ومسلم ، كتاب «المساجد» ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة لعذر رقم (٢٦٣) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة رقم (٩٣) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ،كتاب « أحاديث الأنبياء » ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٣٤) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٢٨٠٥) .

فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ : أَنْ لاَ تُشْرِكَ وَلاَ أُدْخِلَكَ النَّارَ ، فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ ». فالشرك أعظم ذنب على الإطلاق !! نعوذ بالله من ذلك .

ففي «الصَّحِيحَيْنِ » [(١)] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله ؟ قَالَ : « **أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ** ».

وتدبر هذا الحديث الجميل الذي رواه **الترمذي** ـ بسندٍ حسنٍ لغيره [(٢)] من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : «**قَالَ الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً** ».

ولابن رجب ﷺ **كلامٌ بديعٌ نفيسٌ جدًّا ، يقول فيه** : « فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم ، فلو وُضِعَ ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات» [(٣)] .

والدليل على هذا ؛ ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» والترمذي في « سننه » وغيرهما ـ بسندٍ صحيح ـ من حديث عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب « التفسير » ، باب قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢] ، (٤٤٧٧) ، ومسلم ،كتاب « الإيمان » باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب « الدعوات » ، باب خلق الله مائة رحمة رقم (٣٥٤٠) ، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» وفي «الصحيحة» برقم (١٢٧) .

(٣) « جامع العلوم والحكم» (٣٤١) ط الفكر ، حديث رقم (٤٢) .

رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ : لاَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ ، فَقَالَ : إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ »[(١)] . هذا هو فضل التوحيد .

فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، ولا ينجو مَن وقع في الشرك الأكبر قط ؛ بل هو مخلَّد في النار بنص القرآن ، وبنص حديث النبي ﷺ كما بينتُ .

ثانيًا :الشرك الأصغر : وهو الرياء ، كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»[(٢)] ـ بسندٍ صحيح ـ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » قَالُوا : وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « الرِّيَاءُ ، يَقُولُ الله ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ : اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً » .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب « الإيمان » ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله رقم (٢٦٣٩) ، وقال : « حسن غريب » وابن ماجه ، في كتاب «الزهد » ، باب ما يُرجى من رحمة الله يوم القيامة رقم (٤٣٠٠) ، وأحمد في « مسنده » برقم (٢/ ٢١٣) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٧٧٦) .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٥٥٥) ، و«الصحيحة» (٩٥١) .

تعريف الرياء وخطورته :

الرياء ؛ كما قال أهل اللغة : راءيت الرجل مُرآة ورياءً أريتُه على خلاف ما أنا عليه [(١)] .

قال الجرجاني: «الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه» [(٢)] ، فهناك المُرائي ؛ وهو العامل للعمل ،وهناك المُراءَى ؛ وهم الناس الذين يريد عندهم الشهرة ، والوجاهة ، والسمعة ، وهناك الرياء ؛ وهو العمل ذاته .

والرياء مُحبط للأعمال ؛ نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال ، والأحوال .

يقول ربُّنا ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ كما في «**صحيح مسلم**» [(٣)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** » .

وفي لفظ ابن ماجه ـ بسندٍ صحيح [(٤)] ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **قَالَ الله ﷻ : أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي ، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ** » .

قال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١٠] .

فكيف تُرائي من أنت على يقين مطلق أن قلبه بيد من عصيتَ ؟ فأنت ترائي الخلق ، وأنت تعلم أن قلوبهم بيد الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فلِمَ الرياء ؟!

---

(١) « لسان العرب »(٤/ ١٦) ، و«القاموس المحيط» (٤٨٠) .

(٢) «التعريفات» للجرجاني (١١٥) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب « الزهد » ، باب من أشرك في عمله غير الله رقم (٢٩٨٥) .

(٤) أخرجه ابن ماجه ، كتاب « الزهد» ، باب الرياء السمعة رقم (٤٢٠٢) ، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» .

واعلم أن المعاقبة بنقيض القصد أمرٌ ثابتٌ شرعًا وقدرًا ، يعني : إذا قصد العبد بقوله ، أو بفعله الرياء والشهرة والسمعة ، يعاقبه الله ـ تبارك وتعالى ـ إن لم يتب إليه بنقيض القصد ؛ فيُظهر الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ سريرته بين الناس ، ويجعل الله سره علانيته ، أَوَ لَمْ تسمع إلى حديث رسول الله ﷺ ؛ **كما في البخاري ومسلم** [١] من حديث جُنْدُب العَلَقِيِّ رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي الله بِهِ** ».

أي : أن الله عز وجل يجعل سره علانية ،ويظهر الله ـ تبارك وتعالى ـ نيته الفاسدة الخبيثة للناس ، إن لم يتب إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ويرجع إليه ـ جَلَّ وَعَلاَ . فالمعاقبة بنقيض القصد أمرٌ ثابتٌ شرعًا وقدرًا ، إن لم يتب صاحب هذا العمل الملوث ، وصاحب هذه النية الخبيثة إلى الحق ـ سبحانه وتعالى .

ما يتوهم أنه من الرياء وليس منه :

وهنا مسألة يَطرحُ سؤالَها كثيرٌ من طلاب العلم في كل المناسبات ، ألا وهي : قد أعمل العمل ، وأنا لا أريد به إلا وجه الله ـ تبارك وتعالى ـ لكنني حينما أسمع الثناء الحسن من الناس ؛ فأشعر بشيء من السعادة ، وأشعر بشيء من الفرح ، فأخشى أن أكون قد وقعت في الرياء ! وأقول: ليس هذا من الرياء ؛ ففي « **صحيح مسلم** » [٢] من حديث أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ : أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : « **تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ** » .

اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين ؛ فإن وجدت هذا السرور ، وهذا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب الرياء والسمعة رقم (٦٤٩٩) ، ومسلم ، كتاب «الزهد» باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٧) ، وأخرجه مسلم (٢٩٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «البر والصلة » ، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره ، رقم (٢٦٤٢).

الفرح ، ما دمت قد ابتغيتَ بعملك وجه الحق ـ تبارك وتعالى ـ فأبشر ؛ فهذه بشرى لك من الله ﷻ، وأسأل الله الذي بشرك بهذا في الدنيا ، أن يبشرك برضوانه في الآخرة ؛ إنه على كلِّ شيء قدير ، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن مثل هذا في القرآن الكريم ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[مريم:٩٦] .

قال ابن عباس رضي الله عنه [١] : «أي: محبة وحبًّا في قلوب الخلق» ، ولا شك أن المراد بالخلق هنا : أهل التوحيد والإيمان ؛ فإن الكافر والمنافق لا يحبُّ المؤمن على الإطلاق ؛ قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾[المطففين:٢٩] الآيات ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الفرقان:٣١] .

ثم ذكر الدليل على أن الله لا يرضى أن يُشْرَكَ معه أحد في عبادته ، وهو قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[الجن:١٨] ، والمعنى: أن المواضع التي بنيت للصلاة وللعبادة ولذكر الله ، أو أعضاء السجود لله ؛ فكلُّ هذا لله ، فالمساجد أقيمت لله ولعبادته دون ما سواه ﴿ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[الجن:١٨] ، أيًّا كان ؛ فهذا نهيٌ عام للجن والإنس أن يصرفوا العبادة لغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا لصنم ، ولا لشجر ، ولا لقبر ، ولا لحجر ، ولا لولي ، ولا لجن ، ولا لملك ، ولا لأي أحد !!

فلفظة : ﴿أَحَدًا ﴾جاءت نكرة في سياق النفي أو النهي ؛ لتفيد العموم والشمول ؛ فالكلُّ عبيد لله ، وهو وحْدَه الذي يستحق العبادة. وقوله : ﴿ فَلَا

---

(١)أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (٢٧٧٦، ٢٣٧٨٦) ، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٢٢) ، و«الأوسط» (٥/ ٣٤٨) ، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٤) .

تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾والدعاء ينقسم إلى قسمين :

١ ـ **دعاء المسألة أو الطلب :** وهو الدعاء المعهود ؛ كأن تقول : يا رب ارزقني ، يا رب اغفر لي ، يا رب وفقني .. إلى غير ذلك .

٢ ـ **دعاء العبادة :** وهي العبادة نفسها من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد .. إلى غير ذلك ، فأنت تصلِّي أو تصوم أو تحج رغبة في الأجر والثواب من الله ؛ فكأنك تقول : يا رب اغفر لي بصلاتي أو بصيامي أو بحجي .. إلى غير ذلك ؛ وكلاهما ـ أي: دعاء المسألة والعبادة ـ يَحْرُم صرفه لغير الله ﷻ.

*****

المسألة الثالثة : عدم موالاة من حاد الله ورسوله

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

«الثَّالِثَةُ : أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ ، وَوَحَّدَ الله ؛ لاَ يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ ؛ والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢] ».

الشرح

هذه مسألةٌ أخرى من أكبر القضايا ، ومن أَجَلِّ المسائل التي تشتمل على أَصْلٍ كبيرٍ من أصول الدين ألا وهو : الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ، والبراءة من الشرك والمشركين .

تعريف الموالاة والبراء :

قال ابن منظور في «لسان العرب» وغيره [١] : الموالاة : هي المحبة ، والنصرة ، والمولى : هو المحب ، والناصر ، والتابع .

والولي : هو الصديق والنصير .

فالولاء هو : التقرب وإظهار الود بالقول والفعل والنية سواء كان لأهل

---

(١) «لسان العرب» (١٥/ ٤١١) ط الفكر ، و«القاموس المحيط» (١٤٢٠) ط المعرفة ، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٨٨١) ط المعرفة .

الإيمان أو لأهل الكفر ، وهو محرم .

والبراء : هو التنزه ، والتباعد ، والخلاص [١] .

إذًا أصْلُ الولاء : الحب ، وأصل البراء : البغض .

لا يستقيم دين العبد إلا إذا حقق الولاء والبراء :

نعم ..لا يستقيم دينك إلا بالولاء لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، والبراءة من الشرك ، والمشركين ؛ قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة:١] .

وقال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠٠، ١٠١] ، وقال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٢٠] .

وقال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ

---

[١] «لسان العرب» (١/ ٣٣) .

وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[البقرة:٢١٧].

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾[آل عمران:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة:٢٣، ٢٤]، وقال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:١١٨]، وقال سبحانه: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[المائدة:٨٠، ٨١]، وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[الممتحنة:٤].

وأدلَّةُ السُّنةِ كثيرةٌ في هذا الباب ؛ منها ما يلي:

روى أحمد والنسائيُّ والبيهقيُّ وصححه شيخنا الألبانيُّ[(١)] عن جَرِيرٍ رضي الله عنه قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُبَايِعُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، ابْسُطْ يَدَكَ حَتَّى أُبَايِعَكَ ، وَاشْتَرِطْ عَلَيَّ فَأَنْتَ أَعْلَمُ ، قَالَ ﷺ : « **أُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ تَعْبُدَ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتُنَاصِحَ المُسْلِمِينَ ، وَتُفَارِقَ المُشْرِكِينَ** ».

وروى الطبراني في «المعجم الكبير» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما **وهو عند الطيالسي وابن أبي شيبة والطبراني** من حديث ابن مسعود رضي الله عنه **وحسنه شيخنا الألباني** رحمه الله[(٢)] أنه ﷺ قال :«**أَوْثَقُ عَرَى الإِيمَانِ ؛ المُوَالاةُ فِي الله ، وَالمُعاداة في الله ، وَالْحُبُّ فِي الله ، وَالْبُغْضُ فِي الله**» .

وروى أبو داود[(٣)] **وغيره** عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **مَنْ أَحَبَّ لله ، وَأَبْغَضَ لله ، وَأَعْطَى لله ، وَمَنَعَ لله ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ** ».

وغير ذلك الكثير من الأحاديث العملية من صحابة رسول الله ﷺ ؛ فقد تركوا الأهل والوطن ، وحاربوا آباءهم وإخوانهم نصرة لدين الله عز وجل ، والكتب

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٤) ، والنسائي ، كتاب « البيعة » ، باب البيعة على فراق المشركين (٤١٨٦، ٤١٨٧، ٤١٨٨) ، والبيهقي في «السنن» (٩/ ١٣) ، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٥٩) (٢٣١٨) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٣٦) .

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في «الكبير» (١١٥٣٧) ، والبغوي في « شرح السنة » (٣٤٦٨) عن ابن عباس مرفوعًا ، وأخرجه الطيالسي (٣٧٨) ، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٨٩) والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٧، ١٠٥٣١) ، و«الصغير» (٦٢٤) ، والحاكم (٢/ ٤٨٠) ، وصححه ولم يوافقه الذهبي ، وحسنه بمجموع طرقه الألباني في «الصحيحة» (٩٩٨، ١٧٢٨) .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب « السنة » ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١) ، والطبراني في «الكبير» (٧٦١٣، ٧٧٣٧) ، و«الأوسط» (٩٠٨٣) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٧٣٠) ، والبيهقي في «الشعب» (٩٠٢١) ،وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٠) ،و«صحيح الجامع» (٥٩٦٥) .

حافلة بمواقفهم التي لا تنسى ؛ فهذا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه [١]، حينما حلفت أمُّه أن لا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب ، ويأبى مع ذلك أن يكفر .

وغير ذلك الكثير ؛ لأن الله قد بين لنا من الذي يجب أن نتولاه ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[المائدة:٥٥، ٥٦] .

أصناف الناس في مسألة الموالاة :

يستطيع المحقق المُنْصف أن يصنف الناس في قضية الموالاة إلى أصناف على النحو التالي :

١ ـ صنفٌ والى الله ورسوله والمؤمنين ، وعادى الشرك والمشركين .

٢ـ صنفٌ من الناس وافق الكفار موافقةً تامة في الظاهر والباطن ، وهذا هو الذي فيه الوعيد في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] ؛ لأنه وافقهم في الظاهر والباطن .

٣ـ صنفٌ وافقهم في الباطن وخالفهم في الظاهر ، وهذا هونفاق الاعتقاد : يُسِرُّ الكفرَ ويُظْهِرُ الإسلامَ ، وإظهاره للإسلام يعصم دمه وماله .

٤ ـ صنفٌ وافقهم في الظاهر وخالفهم في الباطن ، وهذا لا يكون إلا في حال واحد ألا وهو حال الإكراه ؛ كما في قوله ـ تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[النحل:١٠٦] .

---

(١) انظر : «صحيح مسلم» ، كتاب « فضائل الصحابة » ، باب في فضل سعد بن أبي وقاص (١٧٤٨/٤٣) .

إذًا المؤمن الذي كمل إيمانه يوالي الله ، ورسوله ، والمؤمنين ، ويعادي الشرك والمشركين ، ولله درُّ القائل :

أتحـبُّ أعـداءَ الحبيـب وتـدَّعي ... حبًّـا لـهُ مـا ذاك في الإمْكَـانِ

وكـذا تُعـادي جاهـدًا أَحبابَـهُ ... أيـن المحبَّـةُ يـا أخـا الشـيطانِ

شرطُ المحبـةِ أن توافـقَ مـن ... تُحِـبُّ عَـلَى مَحبَّتِـهِ بـلا نُقْصَـانِ

فـإن ادعيـتَ لَـهُ المحبـةَ مـع ... خلافِكَ ما يُحبُّ فأنتَ ذو بُطْلاَنِ(١)

******

لـو صـدقتَ الله فـيما زَعَمتَـهُ ... لعاديـتَ مَـنْ بـالله وَيْحَـكَ يكفـرُ

وواليـتَ أهـلَ الحـقِّ سرًّا وجهـرةً ... وَلَمَـا تُعَـادِيهِم وللكُفْـرِ تَـنْصُرُ

فَـمَا كُـلُّ مَـنْ قَـالَ مَـا قُلْـتَ مُسْلِمٌ ... ولَكِـنْ بِـأَشَراطِ هُنَالِـكَ تُـذْكَرُ

مُبَايَنَـةُ الكُفَّـارِ في كُـلِّ مَـوْطِنٍ ... بِـذَا جَاءَنَـا الـنَّصُّ الصَّحيحُ المُقَرَّرُ

وتَصْـدَعُ بِالتَوحِيـدِ بَـيْنَ ظُهُـورِهِم ... وتَـدْعُوهُم سِرًّا لِـذَاك وتَجْهَـرُ

فهـذا هـو الـدينُ الحنيفـي والهُـدَى ... ومِلَّـةُ إبـراهيمَ لَـو كُنْـتَ تَشْـعُرُ(٢)

إذًا مَنْ وحَّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأطاع الرسول ﷺ ؛ لا يجوز له البتة أن يوالي من حاد الله ورسوله ، ولو كان أقرب قريب ، ولو كان أباه أو أخاه أو ولده أو أهله وأقاربه .

قال الألوسي رحمه الله(٣) : « ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ

---

(١) نونية ابن القيم (١٧١) .

(٢) «ديوان عقود الجواهر المنضدة الحسان» للشيخ سليمان بن سحمان (٧٩) .

(٣) «روح المعاني» (٢٨/ ٣٦) .

عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة:٢٢] ، قدم الآباء ؛ لأنه يجب على أبنائهم طاعتهم ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف ، وثنَّى بالأبناء ؛ لأنهم أعلق بهم لكونهم أكباد ، وثلَّث بالإخوان ؛ لأنهم الناصرون له ... وختم بالعشيرة ؛ لأن الاعتماد عليهم والتناصر بهم بعد الإخوان غالبًا » .

ومظاهر موالاة الكفار كثيرة منها :

١ ـ الرضا بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم ، أو الشك في كفرهم ، أو تصحيح أيٍّ مذهبٍ من مذاهبهم الكافرة .

٢ـ التشبه بهم وبعاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم ؛ لأن الذي تشبه بهم معجب بهم ، والنبيُّ ﷺ يقول : « **مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ** »(١) .

٣ـ الاستعانة بهم ، والثقة بهم ، واتخاذهم أعوانًا وأنصارًا .

٤ـ معاونتهم ومناصرتهم .

٥ـ مشاركتهم في أعيادهم بإعانتهم ؛ إما بالحضور أو التهنئة أو ما شابه ذلك .

٦ ـ التسمِّي بأسمائهم .

٧ـ السفر إلى بلادهم من غير ضرورة ؛ كالتعلُّم أو العلاج أو الدعوة .

٨ـ الاستغفار لهم ، والترحُّم عليهم ، وعلى من مات منهم .

٩ـ استعارة قوانينهم ومناهجهم في حكم الأمة وتربية أبنائها .

١٠ـ مجاملتهم ومداهنتهم في الدين .

إلى غير ذلك ، ومن أراد المزيد ؛ فليراجع كتاب « الولاء والبراء في الإسلام » للقحطاني ـ وفقه الله تعالى .

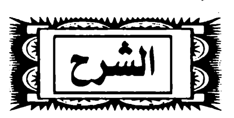
---

(١) أخرجه أبو داود كتاب « اللباس » ، باب في لبس الشهرة (٤٠٣١) ، وأحمد (٢/ ٥٠) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٨٤٨) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٩٤٠١ ، ٣٣٠١٦) ، والبيهقي في «الشعب» (١١٩٩) ، وصححه الألباني في « الإرواء » (٥/ ١٠٩) ، و«صحيح الجامع» (٢٨٣١) (٦١٤٩) .

الباب الثالث : مفهوم العبادة

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ : أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام : أَنْ تَعْبُدَ الله وَحدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ الله جَمِيعَ النَّاسِ ، وخَلَقَهُمْ لَهَا ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] ، ومعنى «يَعْبُدُونِ» : يُوَحِّدُونِي ، وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ الله بِهِ: التَّوْحِيدُ ، وهو : إِفْرَادُ الله بِالعِبَادَة ، وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشِّركُ ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ ، والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦] ».



تعريف الرشاد [١]:

قولُ المصنف: «أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ» ، أي : هداك ووفقك لطريقه المستقيم ، طريق الحق والهدى ؛ فقولُه: «أَرْشَدَكَ » : أي : هداك ودلَّك ، والرشد ضدُّ الغي ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٣٨] ، أي : أهدكم سبيل الحق والهدى .

والهداية في اللغة [٢] هي : الدِّلالة أو الدَّلالة ، والإرشاد ، والتعريف، والبيان.

وهي تنقسم أربعة أقسام اصطلاحًا :

---

(١) « القاموس المحيط » (٥٠٨) ،و«مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني (٣٥٤) ، و« لسان العرب» (١٤٨/٤) .

(٢) سبق تعريفها والإشارة إليها .

١ـ هداية عامة .

٢ـ هداية الدِّلالة أو الدَّلالة ، والإرشاد والتعريف والبيان .

٣ـ هداية التوفيق .

٤ـ الهداية في الآخرة إلى الجنة [١] .

هذه أقسام الهداية .

إذًا قوله: «أَرْشَدَكَ» ، أي: دلَّك الله ﷻ ، وهداك إلى طريق الحق والهدى ، وهذه دعوةٌ جميلةٌ من المصنف رحمه الله للمدعوين .

تعريف الطاعة :

قوله: « اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ» والطاعةُ هي : فِعْل ما أمر الله ﷻ به ، والانتهاء عما نهى عنه ـ سبحانه وتعالى ـ أو امتثال الأمر ، واجتناب النهي ، والوقوف عند الحد ، هذه الأُصُولُ تُمَثِّل طاعة الله ـ سبحانه وتعالى .

قوله رحمه الله : **« اعْلَمْ أَرْشَدَكَ الله لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام : أَنْ تَعْبُدَ الله وَحَدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ »** .

تعريف الحنيف : هو المائل عن الشرك ، المقبل على الله سبحانه، المعرض عن كلِّ ما سواه .

و«الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ» **هي** : ملة التوحيد الخالص ؛ المائلة : أي البعيدة عن الشرك صغيره وكبيره ، المبنية على الإخلاص .

وإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام : أثنى الله ـ تبارك وتعالى ـ عليه ، وجعله خليلًا له ، وإمامًا للأنبياء ، وقدوة للمرسلين ؛ فقال الله ـ تبارك وتعالى :﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥] ، وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ

---

(١) راجع «المفردات» للأصفهاني (٨٣٦) .

مبينًا أن إبراهيم هو الأسوة ، والقدوة للنبيِّ ﷺ ، ولأمته من بعده ؛ فقال سبحانه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤] ، وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٦٧] ، وقول: ﴿ حَنِيفًا ﴾أي : مائلاً عن الشرك ، سائرًا على طريق التوحيد ، محققًا للإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ؛ وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:٦٨] .

وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٠ـ١٣٢].

فإبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ خليلُ ربِّ العالمين ، وقدوة المحققين ،وقدوة سيد النبيين والمؤمنين .

بل لقد أثنى الله ـ تبارك وتعالى ـ عليه بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٠] ، وستعجب إذا علمت أن إبراهيم قد آتاه الله ﷻ رشده من صغره ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٥١] .

نشأ إبراهيم عليه السلام في بيتٍ يصنع فيه أبوه الحجارة ،والأوثان والآلهة المكذوبة الباطلة ؛ ليقدمها لتعبد من دون الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ نشأ في مثل هذا البيت ، ومع ذلك فقد آتاه الله رشده ، وأقام الحجة على أبيه ، وعلى قومه ،

بالدلالة الدامغة ، والحجة البالغة !! تدبر قوله ـ تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ [الأنعام:٧٥، ٧٦] ، وهو يريد أن يقرع قومه الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان ، وإلا فإبراهيم ممن آتاه الله ﷻ رشده من قبل ، وقد رزقه الله ـ تبارك وتعالى ـ التوحيد ، وشرح صدره له ، ولكنه في هذه المناظرة العقلية ، يقيم الحجة على قومه ، ويقرعهم الدليل بالدليل ، والبرهان بالبرهان ، وإلا فأين يذهب هؤلاء الجهلاء أمام نور النبوة الباهر ؟قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٥ـ ٧٩] .

ومع ذلك قام يدعو أباه بحكمةٍ بالغة ، وأدبٍ جم ؛ كما قال ربُّنا ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [مريم:٤١ـ٤٧] .

فلما علم أن القوم قد أصروا على الكفر والعناد ؛ تبرأ منهم وأعلن البراءة من الشرك والمشركين ؛ بل وأعلن العداء لهذه الآلهة المكذوبة الباطلة المدعاة ، وتوعَّدها بقوله : ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٧ـ ٥٩] ، لقد حطَّم الخليل هذه الأصنام والآلهة ، وحوَّلها إلى ركام في ركام ، وإلى رماد في رماد ، وأحالها ترابًا في تراب ، وما زالوا مُصرِّين على أنها آلهة ؛ مع أنهم رأوها قد تبعثرت وتدحرجت ، وأحيلت إلى ركام في ركام ؛ لكنها العقول حينما تغلق ، أو إن شئت ؛ فقل : لكنها البصائر حينما تطمس .. لكنها الفطرة حينما تدنس ، وتحيد عن طريق الحنيفية ، وتميل عن الحق إلى الباطل ، والشرك ، والضلال !!

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٥٩ـ٦١] ، تدبر.. يقيم الحجة العقلية الدامغة على قومه ؛ ليخرجهم من ظلمات الشرك والضلال ، إلى أنوار التوحيد والإيمان بالله ـ تبارك وتعالى .

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٦٣ـ ٦٨] ، فبيَّن الحق في وضوح وجلاء ؛ ولكنه الكبر والعناد ؛ كما قال سبحانه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا

وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤].

وهكذا ـ أيها الأحبة ـ حتى أثنى الله ـ تبارك وتعالى ـ على الخليل بهذه الآية ، التي والله ما قرأتها قط ، إلا وكاد قلبي أن يهتز ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠]

أخي: لا تعجب إذ جعله الله ـ تعالى ـ إمامًا للأنبياء ،وقدوة لسيد الأنبياء محمدٍ ﷺ ، في قوله ـ تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [آل عمران:٦٨] ، وهذا النبيُّ هو نبينا محمد ﷺ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [آل عمران:٦٨]، وهم الموحدون من أتباع أمة سيد النبيين ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨]

الحكمة التي من أجلها خلق الله ـ جلَّ وعلاَ ـ الخلق :

قوله رحمه الله: « **مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَنْ تَعْبُدَ الله وَحدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ** » ؛ يُلَخِّصُ لنا الشيخُ بهذه الكلماتِ الأَصْلَ الذي من أجله خلق الله الخلق ، وخلق الجنة والنار ، والسماوات والأرض ؛ بل ومن أجله أنزل الكتب وأرسل الرسل ، ألا وهي: «العبادة ».

قال رحمه الله: «**وَبِذَلِكَ أَمَرَ الله جَمِيعَ النَّاسِ ، وخَلَقَهُمْ لَهَا ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] ، **ومعنى «يَعْبُدُونِ» : «يُوَحِّدُونِي »**.

وإن كان بعض أهل العلم قال : بأن معنى العبادة أشمل من معنى يوحدون ؛ لكن إن كان القصد بالتوحيد ؛ التوحيد الشامل الكامل ، فلا فرق إذًا بين العبادة التي خلقنا الله ـ تبارك وتعالى ـ من أجلها وتحقيق التوحيد ، وبين التوحيد بمعناه الشامل المتكامل .

ما هو التوحيد ؟

التوحيد هو أعظم ما أمر الله ﷻ به ، وهو إفراد الله ـ تبارك وتعالى ـ وحده بالعبادة ، وأعظم ما نهى الله ﷻ عنه هو الشرك ، وهو : دعوة غيره معه سبحانه ؛ والدليل قوله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦] ، وقال سبحانه : ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢] .

وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] ، وقال تعالى آمرًا العباد بعبادته : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة:٢١] .

معنى العبادة لغةً وشرعًا :

لغةً : هي الخضوع والذل ، يقال : طريق معبد أي : طريق مذلل قد وطأته الأقدام [(١)] .

اصطلاحًا أو «شرعًا » : هي: اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذُّل لله ونهايته ؛ **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله [(٢)] : « فمن خضع لإنسان مع بغضه له فلا يكون عابدًا له ، ولو أحبَّ شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له » .

وقال [(٣)] : « لفظ العبادة يتضمن كمال الذلِّ بكمال الحبِّ » ؛ فلا يمكن أبدًا أن تكون عبادة إلا بهذين الركنين : بالذلّ والحب ، فهي كمال الذلّ لله مع كمال الحبِّ لله .

---

(١) «لسان العرب » (٣/ ٢٧٠٤) ، و«الصحاح» للجوهري (٢/ ٥٠٢) ، و«معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٤/ ٢٠٥، ٢٠٦) .

(٢) « رسالة العبودية » (٤٨) ، ط المكتب الإسلامي .

(٣) « الجواب الصحيح » (٦/ ٣١) ، ط العاصمة .

فبعض الناس يقول: نحن نعبد الله بالحب .. دون أن يمتثل الأمر ، أو أن يجتنب النهي ،ودون أن يقف عند حدود الله ـ تبارك وتعالى !!

نقول : هذه دعوى كاذبة ؛ فليست هذه عبادة على مراد الله ـ سبحانه ـ ولا على مراد رسول الله ﷺ ؛ بل العبادة التي أُمرت بها هي كمال الذل لله ، وكمال الانقياد ، والخضوع ،والتسليم ،والخشوع ، والرهبة ، والجلال ، مع كمال الحب ، أي : وأنت في غاية الحب لله ، والرضا عن الله ؛ تمتثل الأمر ،وتجتنب النهي ، وتقف عند الحد ، وأنت تردد مع السابقين الأولين قولتهم الخالدة : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

وهناك تعريفٌ آخر للعبادة ؛ حيث عرفها شيخ الإسلام رحمه الله بتعريف شامل جامع [١] ؛ **فقال :** «العبادة هي : اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال ،والأعمال ؛ الظاهرة ،والباطنة » .

فالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وصلة الأرحام ، وبرُّ الوالدين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، والدعوة إلى الله ، والجهاد ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهود ، والتوكل ، والرجاء ، والإنابة ، والتفويض ، والخشية ، والاستعانة ، والاستغاثة ، والدعاء ، والذكر ، وقراءة القرآن .. كلُّ هذا ، وغير هذا من العبادة التي أُمرنا بها .

فالقلْبُ له عمل ، واللسان له عمل ، والجوارح لها عمل .

شروط صحة العبادة :

العبادة ـ بهذا المعنى الذي مرَّ ـ تسع الحياة كلَّها ، وبتعبيرٍ آخر : حياة المؤمن

---

(١) « رسالة العبودية » (٤٤) .

كلُّها عبادة ، وذلك بشرطين :

١ ـ أن تصحَّ النيةُ : بالإخلاص لله ﷻ في أيِّ عمل .

٢ـ أن يكون العمل موافقًا لسنة سيد البشرية ﷺ .

ومن أعظم الأدلة النبوية على هذه الرحمة الندية ؛ **ما رواه الإمام مسلم في «صحيحه»**[1] عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ : يَا رَسُولَ الله ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ : « **أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ الله لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ** » قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ، قَالَ : « **أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ** ».

إذًا العبادة تسع الحياة كلَّها ؛ فحياة المؤمن كلُّها عبادة ، بهذين الشرطين: أن يكون العملُ خالصًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ موافقًا لهدي رسول الله ﷺ .

إذًا العبادة ليست أمرًا على هامش الطريق .. كَلَّا ؛ بل هي الأصل الأول ، والغاية التي من أجلها خلق الله الخلق ، وأنزل جميع الكتب ، وأرسل جميع الرسل ؛ قال سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦ـ ٥٨] ؛ فمقتضى العبادة بهذا التعريف ؛ أن يقول الربُّ ﷻ :

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الزكاة» ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف رقم (١٠٠٦) .

أمرتُ ونهيت ، وأن يقول العبد : سمعْتُ وأطعت .. أن يُسْلِمَ العبد كُلِّيَّتَهُ .. أن يُسْلِمَ بصره ، وسمعه ، ولسانه ، وجنانه ، وجوارحه ، وعقله .. أن يُسْلِمَ نفسه لله سبحانه وتعالى الذي أمره بعبادته وَحْده لا شريك له .

ومقتضى العبادة كذلك : أن يسير العبد - ليصل إلى الله - تبارك وتعالى - خَلْف رسول الله ؛ فكلُّ الطُّرُقِ إلى الله - جَلَّ وَعَلاَ - مسدودةٌ ، إلا من طريق محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [(١)] : « وجماع الدين أصلان :

الأول : أن يُعبد الله وحده لا شريك له .

والثاني : أن يُعبد بما شرع على لسان رسول الله ﷺ » ، وهذان الأصلان هما حقيقة قولنا : نشهد أن لا إله إلا الله ، ونشهد أن محمدًا رسول الله ، وتحقيق الشهادة الأولى بتحقيق معنى لا إله إلا الله؛ معرفةً ، وإقرارًا ، وعملاً ، وتحقيق الشهادة الثانية بتحقيق معنى محمد رسول الله ؛ معرفةً ، وإقرارًا ، وعملاً ؛ فبالشهادة الأولى يعرف المعبود عز وجل ، وبالشهادة الثانية يعرف الطريق الموصل إلى المعبود عز وجل .

قال ابن القيم رحمه الله [(٢)] : « اعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله تعالى بقلبه ، وهمته ، لا ببدنه ، فالتقوى في الحقيقة : تقوى القلوب ، لا تقوى الجوارح ؛ قال - تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢] » ؛ فالطرق إلى الله عز وجل تُقْطع بالقلوب ، وتُقْطع بالهمم العالية الصادقة ؛ ولا يمكن أبدًا أن نصل إلى الله جل جلاله بالعقل المجرد .

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١/ ٨٠) بتصرف .
(٢) « الفوائد » (١٤١) .

نعم .. قد تصل إلى توحيد الربوبية بالعقل ، لكن الغاية ليست توحيد الربوبية ، وإنما الغاية هي توحيد الألوهية ، وهي : أن تفرد الله بالعبادة ، وتلك هي الغاية التي من أجلها خلق الله سبحانه وتعالى الخلق ؛ لا من أجل أن يقول الناس: الخالق والرازق هو الله وفقط ! دون أن يحولوا هذه المعرفة بعد ذلك إلى خضوع ومحبَّة ، وإلى ذلٍّ وانكسار ، وحبٍّ للعزيز الغفار ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل:٦٠] ، أي : قد عرفتم أن الذي خلق ، ورزق ، وأبدع هذا الكون الفسيح وأودعه كُلَّ هذه الآيات ، وكلَّ هذه النعم ، هو الله ﷻ . فالغاية إذًا ـ بعد هذه المعرفة ـ أن تفردوا هذا الإله العظيم ﷻ بالطاعة ،والوحدانية ، والعبادة ؛ ولذا قال: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل:٦٠] ، أي : يسوون بين آلهتهم المكذوبة الباطلة المدعاة ،وبين الحقِّ ـ سبحانه وتعالى ـ الخالق الرازق ، الذي يستحق أن يُعبد وحْدَهُ ـ جَلَّ وَعَلاَ .

اختلاف الناس في فهم قضية العبادة :

فالعبادة ـ كما بينا ـ بهذا المفهوم السابق تسع الحياة كلَّها ، وهذا يوقفنا على انحرافٍ مزرٍ ، قد وقع فيه كثيرٌ من الناس ، في شأن قضية العبادة ؛ فمن الناس من يحلُّ ما حرم الله ، ويحرم ما أحل الله ، أو يتبع من فعل ذلك ، وهذا الصنف قد صرف العبادة لغير الله !! كالذين يتبعون الأحبار أو الرهبان ، الذين أحلُّوا ما حرم الله ، أو حرموا ما أحلَّ الله !

روى الترمذيُّ والبيهقيُّ في سننيهما بسندٍ حسَّنه شيخنا الألبانيُّ رحمه الله [١] :

(١) أخرجه الترمذيُّ ، في كتاب « التفسير» في تفسير سورة التوبة رقم (٣٠٩٥) ، والبخاريُّ في «التاريخ» (٤/ ١/ ١٠٦) والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١١٦) ، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ٩٢، ٢١٨، ٢١٩) وحسنه الألباني في «غاية المرام» (٢٠) و«الصحيحة» (٣٢٩٣) .

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ : « **يَا عَدِيُّ ، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ** » وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١] ، قَالَ : « **أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ** ».

وفي رواية : « **بَلَى ، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الحَلاَلَ ، وَحَلَّلُوا لَهُمُ الحَرَامَ ، فَاتَّبَعُوهُمْ ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ** » .

ومن الناس من صرف صورًا كثيرة من صور العبادة لغير الله ؛ فذبح لغير الله ، ونذر لغير الله ، وحلف بغير الله ، واستعان بغير الله ، واستغاث بغير الله ، وطاف بغير بيت الله ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٤] ، ويقول ـ تعالى ـ لنبيه المصطفى ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦] ، ونبيُّنا ﷺ يُعَلِّمُ عبد الله بن عباس ﷺ ويقول له : « **يَا غُلاَمُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله** » ؛ أي: لا تسأل نبيًّا ، ولا وليًّا ، ولا مَلَكًا مقربًا ، ثم قال له : « **وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ** »(١) .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، في كتاب « صفة القيامة » رقم (٢٥١٦) ، وقال:« هذا حديث حسن صحيح» ، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣) ، والحاكم (٣/ ٦٢٤) ط العلمية ، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٧٨) ، (١٢/ ٢٣٨) ،=

ومن الناس من فهم العبادة فهمًا مبتورًا ناقصًا جزئيًا ؛ فالعبادة عنده لا تتعدى أداء الشعائر التعبدية ؛ كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والعمرة ، والحج ؛ فلا حرج بعد ذلك أن يتعامل بالربا ، أو أن يعاقر الزنا ، أو أن يشرب الخمر ، أو أن يترك بناته متبرجات عاريات ،أو أن يسب والديه ، أو أن يأكل الحرام ، أو أن يظلم مرؤوسيه ، أو أن يؤذي جيرانه !!

وهذا خللٌ بَيِّنٌ ، وفهمٌ مبتورٌ منقوصٌ لحقيقة العبادة ، وقد بينتُ أن العبادة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ؛ فالصلاة ، والصيام ، والزكاة، والحج ، والحب في الله، والبغض في الله، والحب لله ، والحب لرسوله ،والحب لآل بيت رسول الله ، والحب للصحابة ، والحب للعلماء ، والحب لأهل الإيمان ، والحب لأهل الطاعة ، والتوكل ، والرجاء ، والتفويض ، والاستعانة ، والاستغاثة ، والذبح ، والنذر ، والحلف ، والدعاء ، والذكر ، وقراءة القرآن .. كلُّ هذا وغيره من العبادة .

فمن الناس الآن من يصلي ، ويصوم ، ويزكي ؛ فإن خرج من بيت الله ـ تبارك وتعالى ـ تراه إنسانا آخر تمامًا ؛ وكأنه قد انفصل عن الدين ، وعن شرع رب العالمين ، وعن منهج سيد النبيين ﷺ، وقد حذَّر الله من هذا الصنيع اللئيم ، وبَيَّنَ أنه من صنيع اليهود ؛ فقال ـ سبحانه : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[البقرة:٨٥] .

وهنا سؤال: لماذا أمر الله الخلق جميعًا بعبادته ؟

أقولُ ابتداءً بين يدي الجواب على هذه المسألة : لو تخلَّى الخلق جميعًا ، في الكون

= و«الأوسط» (٥٤١٧) ، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٥٥٦) ، والبيهقي في «الشعب» (١٩٥) ، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي » ، و«صحيح الجامع» (٧٩٥٧) .

كلِّه عن عبادة الله ـ سبحانه ؛ فالله ـ جَلَّ وعَلاَ ـ غنيٌّ عن كلِّ خلْقه ؛ لا تنفعه الطاعة ،ولا تضرُّه المعصية ؛ بل لا يزيد ملكَهُ توحيدُ الموحدين ، ولا حمد الحامدين ، ولا شكر الشاكرين ، ولا ينقص ملكه كفر الكافرين ، ولا عصيان العاصين ؛ قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ موجهًا نداءً عامًّا للناس جميعًا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥] .

أقسام الافتقار إلى الله :

والفقر نوعان ؛ كما قال ابن القيم في كتابه الماتع «طريق الهجرتين» [١] : فقر اضطراريٌّ ، وفقر اختياريٌّ .

الأول : الفقر الاضطراريُّ : وهو فقر كلِّ الخلق في الأرض ، برهم وفاجرهم ؛ وهذا فقر اضطرارٍ إلى الله ، الكلُّ محتاجٌ إلى الشمس ، والنور، والهواء ، والماء ، والأرض ، وهي خلق الله ـ تبارك وتعالى ـ ؛ فقال سبحانه ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران:٨٣] ؛ بل وفقر جميع المخلوقات والأكوان إلى الله ـ تعالى ـ حتى السماوات والأرض ؛ قال سبحانه : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت:١١] ، فهذا فقرٌ اضطراريٌّ لا يشذ ولا يحيدُ عنه مخلوقٌ من مخلوقات الله في الكون ، والله لا يريد من الخلق هذا الفقر ؛ إنما يريد النوع الثاني من الافتقار إليه ، ألا وهو:

الثاني : الفقر الاختياريُّ : وهو فقر العبودية ، والذل ، والانكسار لله ـ تبارك وتعالى ـ وكلَّما ازددت فقرًا من هذا النوع الثاني ، ازددت عند الله غنى ؛ فكلَّما ازدادت عبوديتك لله ازددتَ عزًّا عند الله ، وكلَّما ازداد فقرك لله ، زادك الله غنًى وزادك الله رفعةً ، وعلوًّا ومكانة وشأنًا عنده في الدنيا والآخرة ؛ قال

---

(١) « طريق الهجرتين » (٩) ،وما بعدها بتصرف ، ط ابن رجب .

ـ جَلَّ في علاه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[فاطر:١٥ـ١٧]» .

وتدبروا هذه الآية الجليلة التي تبين لنا أن الكون كلَّه ـ بعيدًا عمن كفر من الجن والإنس ؛ يسبح الله ، ولا يغفل عن تسبيحه ، وطاعته ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء:١٩، ٢٠] .

فلو غفل الخلقُ جميعًا عن تسبيحه ، وعبوديته ، وعبادته ؛ فالكون كلُّه يسبح الله ، وملائكة الله لا تغفل عن تسبيحِهِ ، وذكرِهِ ، وطاعتِهِ ، وعبادتِهِ .

قال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في وصفهم : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦] ؛ بل في «**الصَّحِيحَيْنِ**» [1] من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ حين ذكر البيت المعمور ؛ قال : «**يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا**». تصوَّرت هذه الأعداد الهائلة ، التي تدخل البيت المعمور منذ خلقه الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ لتعلم أن الله غنيٌّ عن كلِّ خلقه ؛ فهو القائل ـ سبحانه ـ **في الحديث القدسي الذي رواه مسلم** [2] من حديث أبي ذر ﷺ وفيه : «**يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ ، وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ، يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ ، وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ ، وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**».

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « بدء الخلق » ، باب ذكر الملائكة رقم (٣٢٠٧)، ومسلم ، في كتاب « الإيمان » ، باب الإسراء برسول الله ﷺ رقم (١٦٤) .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب «البر والصلة » ، باب تحريم الظلم رقم (٢٥٧٧) .

ولا يزال السؤالُ يتكَرَّرُ : لماذا أمرنا الله بعبادته ؟ والجواب:

١ ـ لأن العبادة حق الله على العباد :

نعم .. العبادة هي حق الله على عباده ، فقد روى البخاريُّ ومسلم من حديث معاذ بن جبل ﷺ قال : كُنْتُ رَدِيفَ النبيِّ ﷺ يومًا على حمار ، فقال النبيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ ؟ » قَالَ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ » [١].

فأخبر بها معاذ بن جبل عند موته تأثُّمًا ؛ أي : خشية وقوعه في إثمٍ ، لكتمان العلم عن رسول الله ﷺ.

إذًا نعبد الله ؛ لأن العبادة حقُّ الله على عباده ؛ فليس بمستغرب ولا بمستنكر أن يكون لله حقٌّ على عباده ؛ بل المستغرب والمستنكر أن ينكر العبادُ والخلق حقَّ خالقهم ـ تبارك وتعالى ؛ فأنت لا تنسى إحسان من أحسن إليك من البشر ؛ فكيف تنسى إحسان رب البشر ، وأنت غارق في إحسانه وفضله مِنْ رَأسِك إلى قدميك ؟! كيف تجحد حق خالقك عليك ؟! وفضْلُ الله عليك ، ونعمه عليك لا تعدُّ ، ولا تحصى ؛ قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم:٣٤].

انظر إلى وجهك ـ فقط ـ في المرآة ؛ لتعرف حق الله ـ تبارك وتعالى ـ عليك .. من الذي خلق عينك ، ووضعها في هذه العلبة العظمية القوية ، وأحاطها بالرموش ؛ حتى تَعْكِس أشعة الشمس ؛ حتى لا تؤذي عينك ، وأحاطها

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «التوحيد» ، باب دعاء النبي أمته إلى توحيد الله رقم (٧٣٧٣) ، وانظر : (٢٨٥٦) ، ومسلم ، في كتاب «الإيمان» ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٠).

بهذه الأهداب ؛ حتى لا يتساقط العرق بداخلها ، وأمدها بهذا الماء المالح ؛ ليقتل الميكروبات التي تتسرب إليها من الهواء والرياح ؟!

ومن الذي خلق أذنك بهذا الشكل ، وجعل لها هذا الصوان الخارجي البديع ، وأودعها هذا الماء المر ؛ حتى لا تتسرب الحشرات إليها وأنت نائم ؟!

ومن الذي خلق الأنف بهذا الشكل الجميل ، وأودعه هذا الماء الذي يسمى بالمخاط ، أو هذا الماء الحامض ؛ ليكون بمثابة مصفاة لتنقية الهواء حين تنفسك ؟!

ومن الذي خلق الفم بهذا الشكل الجميل ، وأمده بهذا الماء العذب الحلو ؛ لتتذوق به ألوان الطعام والشراب ، وجعل القواطع ؛ لتقطع ، والأنياب ؛ لتمزق ، والضروس ؛ لتطحن ، واللسان ؛ ليتحرك ، واللعاب ؛ ليسهل ؟!

وجعل هذه البوابة المنيعة التي تُسَمَّى بلسان المزمار ؛ التي لو أخطأت في عملها مرة وأخفقت في وظيفتها مرة طوال حياتك في الدنيا لهلكتَ في التو واللحظة ، فيسد لسان المزمار البلعوم عند التنفس ، ويسد القصبة الهوائية عند البلع ، ولو أخطأ مرة لهلكت ومِتَّ في التو واللحظة ؟!

ثم بعد ذلك البلعوم يدفع الطعام ، والمعدة تقوم بدورها ، والبنكرياس يقوم بدوره ، والأمعاء الدقيقة تقوم بدورها ، والأمعاء الغليظة تقوم بوظيفتها .

كلُّ هذا وأنت نائم ، وأنت غافل ، ما أصدرت أمرًا واحدًا لعضوٍ من هذه الأعضاء أن يتحرك ، أو أن يستريح قليلًا .. من الذي خلق لك هذا الكون من عرشه إلى فرشه ؟ ومن سمائه إلى أرضه ؟ وأمدَّه بهذه الآيات في هذه القبة السماوية الزرقاء ، وأمده بهذه الآيات في الأرض ؟!!

ولو نظرت إلى أيِّ نبات، أو إلى أيِّ آية من آيات الله في الأرض، لعرفْتَ حقَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ عليك، ولعرفت أنه وَحْدَهُ الذي يستحقَّ أن يُعبد، وأن يوحد، وأن يطاع.

لو وقفت يومًا على منطقة اللسان في رأس البر في مدينة دمياط ـ مثلًا ـ لِترى كيف لا يختلط الماء العذب مع الملح الأجاج، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن:١٩، ٢٠]، أي: لا يختلط العذب بالمالح، ولا المالح بالعذب .. آيات عجيبة؛ فنقول: من الذي خلق لك كلَّ هذا؟ إنه الإله العظيم، ثم هذا الإله العظيم الذي أرسل إليك محمدًا ﷺ، وأنزل عليه القرآن؛ ليكون القرآن حبلاً للنجاة ممدودًا بيننا وبينه ـ تبارك وتعالى ـ إلى أن نلقاه.

ثم هذا الإله العظيم، الذي شرح صدرك للتوحيد والإيمان، وهذه أشرف نعمة؛ قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[الحجرات:١٧].

فالله ـ تبارك وتعالى ـ هو الذي منَّ عليك بالإسلام، والإيمان، وحبب إليك الإيمان، وزينه في قلبك، وكره إليك الكفر، والفسوق، والعصيان دون اختيار منك أصلًا، فأنت نشأت في بيت يوحد الله، فوحدت الله.

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» [١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتِجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ** ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ، في كتاب «الجنائز»، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥)، ومسلم، في كتاب «القدر»، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم (٢٦٥٨).

فأنت نشأت في بيت يوحد الله ، فوحَّدت الله تبارك وتعالى ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء : ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١] ، وهذا نشأ في بيت يهودي ، فصار يهوديًّا ، وهذا ولد في بيت نصراني، فصار نصرانيًّا ، وهذا ولد في بيت مجوسي ، فصار مجوسيًّا يعبد النار ، ونحن بفضل الله وبرحمته وبتوفيقه ، خلقنا الله في بيوت توحد الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فوحدنا الله سبحانه .

أيُّ نعمةٍ هذه ؟! وأيُّ شرفٍ هذا ؟!

وممـــا زادني فخـــرًا وتيهًـــا وكـدتُّ بـأخمصي أطـأ الثريَّـا

دخـولي تحـت قولـك يـا عبـادي وأن صـيَّرتَ أحمـد لي نبيَّـا[1]

هذا الإله العظيم ،ألا يستحق أن يعبد ؟!

فالعبادة حقُّ الله على عباده ، وهذا هو السبب الأول الذي لأجله أمرنا الله بالعبادة .

٢ـ أمر الله الخلق بعبادته رحمة بهم :

إن من أرقِّ وأجلِّ صور الرحمة من الحق بالخلق أن أمرهم بعبادته ، لماذا ؟

لأن العبادة غذاء لأرواحنا ؛ وحياة لقلوبنا ، وسببٌ لتفريج كروبنا ؛ ولأن العبادة تقربنا من ربنا ـ تبارك وتعالى ، ثم بعد ذلك نعبد الله لذاته ؛ لأنه يستحق أن يعبد ،وطلبًا لجنته ، وخوفًا من ناره .

وها أنا ذا أفصِّل شيئًا ما ؛ فأقول :

نحن نعبد الله ؛ لأن العبادة غذاء للأرواح ، والإنسان بدن وروح .

فأنا أعطي البدن ما يشتهيه : من طعامٍ ، وشرابٍ ، وزوجةٍ في الحلال

---

(١) سيأتي عزوهما قريبًا .

الطيب .. إلى غير ذلك .

لو لم أعطِ الروح هي الأخرى غذاءها ، فإنها تصرخ في أعماق الجسد تريد هي الأخرى غذاءً وشرابًا ودواءً !!

وغذاءُ الروح لا يعلم حقيقته إلا من خلقها ؛ لأن العلم يتوقف عند الروح ؛ إذ إن الروح لا تقاسُ بميزان الحرارة ، ولا توزن بالجرام ، ولا توضع في بوتقة التجارب في معامل الكيمياء والفيزياء .

ومن هنا يقول ربنا : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٨٥] .

فالعبادة : هي غذاء هذه الروح ، ولا تعرف هذا إلا من طريق الرسل ؛ لأنهم يأتون بوحي الله الذي خلق الخلق ، وهو أعلم بما يصلحهم : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[الملك:١٤] .

إذًا العبادة غذاءٌ لهذا الشق الآخر في الجسد وهو الروح ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش حياة سوية مستقيمة بالبدن فحسب .

ولا يمكن أن يعيش بروحه فحسب ، لا يمكن أبدًا أن يقتل البدن لتحيا الروح ، ولا يمكن أبدًا أن تقتل الروح ليحيا البدن ؛ بل لا بد أن يحيا الروح والبدن معًا .

لذا ؛ لا يمكن لطائر جبار ، أن يحلِّق في أجواء السماء بجناحٍ واحد ، ولو نجح في وقت ولو طال ، فإنه حَتْمًا سيسقط لينكسر جناحه الآخر !!

*****

ثانيًا : بيان الأصول الثلاثة

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

« فَإِذَا قِيلَ لَكَ : مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا ؟ فَقُلْ : مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ ،وَدِينَهُ ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ . فَإِذَا قِيلَ لَكَ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَقُلْ : رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي ، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ ، وَهُوَ مَعْبُودِي ، لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة:٢] ، وَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ » .

الشرح

هُنَا يَشْرَعُ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ فِي ذِكْرِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ ؛ مَنْ ربُّكَ ،مَا دِينُكَ ، مَنْ نبيُّكَ ؛ هَذِهِ هِي الأُصُولِ الثَّلاثَةُ ، ونُلاحِظُ أَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ بَدَأَ هَذِهِ الأُصُولَ بصِيغَة السُّؤالِ : «فَإِذَا قِيلَ لَكَ : مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ؟» أُسْلُوبٌ مِنْ أَسَاليبِ لَفْتِ الانْتباهِ ، يريدُ أن يَسْتحوذَ بِهِ عَلَى اهْتمامِ الطَّالبِ ، أو اهتمامِ المسْتمع ، أو اهْتمامِ المَسْئولِ ، أيًّا كَانَ هَذَا المَسْؤُول ،« فَإِذَا قِيلَ لَكَ : مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا ؟ فَقُلْ : مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ ،وَدِينَهُ ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ » .

أَهَمِّيَةُ هَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ :

بِدَايَةً : كَلِمةُ أُصُولٍ : الأُصُولُ ؛ جَمْعُ أَصْلٍ ، والأَصْلُ فِي اللُّغَةِ : مَا انْبَنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ ؛ كَالأَسَاسِ أَصْلٌ لَلسَّقْفِ والجِدَارِ ، وكَعُروقِ الشَّجَرةِ الثَّابتَةِ فِي الأَرْضِ ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم:٢٤] [1] .

---

(١) «الأصول من علم الأصول » (١) و« شرح متن الورقات » (٢) و« المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ابن حنبل » (١٤٤) ط مؤسسة الرسالة .

أَقُولُ : لَقَدَ بَدَأَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثِةِ ،وَهِي أَصُولُ كَبِيرة ؛ بَلْ هِي الدِّين ؛ بِلْ لاَ يَصِحُّ لإِنْسَانٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ دِينٌ ، إِنْ تَخَلَّفَ أَصْلٌ مِنْ هَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ ،وَهِي الَّتِي سُيسْأَلُ عَنْهَا العَبْد ـ أَيُّ عَبْدٍ ـ فِي قَبرِهِ ؛ كَمَا فِي الحَدِيثِ الجميلِ الطَّوِيلِ الَّذِي رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ ، وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ السُّنَنِ (١) مِنْ حَدِيثِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ ﷺ وَهُو حَدِيثٌ صَحِيحٌ ؛ وَفِيهِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ المَيِّتِ إِذَا أُدْخِلَ قَبْرُهُ ، وَذَكَرَ فِيْهِ : « وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ الله ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيقُولُ : دِينِي الإِسْلاَمُ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ الله ﷺ ، فَيَقُولاَنِ : وَمَا يُدْرِيكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ ». زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ : « فَذَلِكَ قَوْلُ الله ﷻ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآيَةَ [إبراهيم:٢٧] ». ثُمَّ اتَّفَقَا ، قَالَ : « فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ » قَالَ : « فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا » قَالَ : « وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ » قَالَ : « وَإِنَّ الْكَافِرَ » ـ فَذَكَرَ مَوْتَهُ ـ قَالَ : « وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيقُولاَنِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيَقُولاَنِ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧) ،وأبو داود ، كتاب السنة ؛ باب المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤) ، وبرقم (٣٢١٢ مختصرًا) ، والنسائي ، كتاب الجنائز ، باب الوقوف للجنائز (٤/ ٧٨ مختصرًا) وابن ماجة ،كتاب الجنائز ، باب ما جاء في الجلوس في المقابر (١٥٤٨ ، ١٥٤٩ مختصرًا) والحاكم في« المستدرك » (١/ ٣٧ـ٤٠) وقال: «صحح على شرط الشيخين» ، ووافقه الذهبي ، من طريق : المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء ﷺ ، وسنده حسن ، وصححه ابن القيم في « إعلام الموقعين » (١/ ٢١٤) ، و« تهذيب السنن » (٤/ ٣٣٧) ونقل ابن القيم فيه تصحيحه عن الحافظ أبي نعيم وغيره .وصححه الألبانيُّ ؛ كما في « أحكام الجنائز » (ص ١٥٩) ط المكتب الإسلامي .

فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ كَذَبَ ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ » قَالَ : « فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا » قَالَ : « وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ ».

إِذًا هَذِهِ الأَسْئِلَةُ ،وَهَذِه الأَصُولُ ، لاَ يَصِحُّ دِينٌ إِلاَّ بِهَا ،وَأَوَّلُ مَا ستُسأَلُ عَنْه فِي قَبْرِك : مَنْ رَبُّكَ ؟ مَا دِينُكَ ؟ مَنْ نَبِيُّكَ ؟ وَدُونَكَ تَوْضِيحُ ذَلِكَ .

أَوّلاً : مَنْ رَبُّكَ ؟

فَمعرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ هِيَ الأَصْلُ الأَوَّل ؛ فَلاَ يَصِحُّ لِعَبْدٍ دِينٌ ، إِلاَّ إِذَا عَرَفَ الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ وَأَفْرَدَهُ وَحْدَه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بِالعُبُودِيَّةِ ، والعِبَادِةِ ؛ فَلَيْسَ القَصْدُ أَنْ يُقِرَّ العَبْدُ لله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبيةِ ، وإِنَّمَا القَصْدُ حِينَ يَتعرَّفُ عَلَى الله ﷻ أَنْ يُفْرِدَهُ وَحْدَهُ بِالعِبَادَةِ والأُلُوهِيةِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ﵀ : « فَإِذَا قِيلَ لَكَ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَقُلْ : رَبِّي الله الَّذِي رَبَّانِي ، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ » ، فَإِذَا قِيلَ لَكَ :مَنْ ربُّكَ ؟ سُؤَالٌ بِكُلِّ أَسَفٍ يَجْهَلُ الجَوابَ عَنْه الآن مليارَاتٌ مِنَ البَشَرِ ! هَلْ تَتَصَوَّرُ أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ لاَ يَعْرِف الكَثِيرُ الجَوابَ عَنْه ؛ عَلَى مُرادِ الله ـ تَعَالَى ، وَعَلَى مُرَادِ رَسُولِ الله ﷺ ؟! لَقَدَ قَالَ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:٤٠] ، وَقَالَ الله ـ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦] ، وَقَالَ الله ـ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦]، وَقَالَ الله ـ تَعَالَى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] ، وَقَالَ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] ، فَإِذَا قِيلَ لَكَ : مِنْ رَبُّكَ ؟ لاَ تَسْتهِنْ بِهَذَا السُّؤَالِ ؛ فَلَقَدْ سَأَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِلَفْظِهِ لِلجَارِيَةِ : «مِنْ رَبُّكِ ؟» ففي «سنن أبي داود» و«النسائي» و«الدارمي» و«مسند أحمد »

وغيرهم بسندٍ حسنٍ [(١)] من حديث الشَّرِيدِ بْنِ سُوَيْدٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ، فَقُلْتُ : إِنَّ أُمِّي أَوْصَتْ أَنْ تُعْتَقَ عَنْهَا رَقَبَةٌ ، وَإِنَّ عِنْدِي جَارِيَةً نُوبِيَّةً أَفَيُجْزِئ عَنِّي أَنْ أَعْتِقَهَا عَنْهَا ؟ قَالَ : « **ائْتِنِي بِهَا** » فَأَتَيْتُهُ بِهَا ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ : « **مَنْ رَبُّكِ؟** » قَالَتْ: الله ، قَالَ : « **مَنْ أَنَا؟** » قَالَتْ : أَنْتَ رَسُولُ الله ، قَالَ : « **فَأَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ** ».

فَأَكْثَرُ أَهْلِ الأَرْضِ لاَ يُحْسِنُونَ الجَوَابَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْ كَلِمَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ ؛ فَإِذَا سُئِلْتَ مَنْ رَبُّكَ ؟ فَلْيَكُنْ جَوَابُكَ كَمَا قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله : « **رَبِّي الله الَّذِي رَبَّانِي** » .

مَعنى كلمة ربٍّ :

كَلِمَةُ رَبٍّ بِدُونِ الأَلِفِ واللاَّمِ ، أَيْ : بِدُونِ التَّعْرِيفِ ، هُوَ صَاحِبُ كُلِّ شَيْءٍ وَمَالِكُهُ ؛ كَمَا فِي قولة عبد المطلب لأبرهة ، صاحب الفيل : « أَنَا ربُّ الإِبِلِ - أَيْ : صَاحِبُهَا وَمَالِكُهَا - وللبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيه » [(٢)] أَمَّا الرَّبُّ بِالأَلِفِ وَاللاَّمِ بِالتَّعْرِيفِ ؛ **فَقَالَ ابْنُ القَيِّمِ** رحمه الله [(٣)]: « فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات ؛ فهو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقه ، والقادر عليه ، لا يخرج شيء

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الأيمان والنذور ، باب في الرقبة المؤمنة (٣٢٨٣) والنسائي، كتاب الوصايا ، باب فضل الصدقة عن الميت (٦/ ٢٥٢) ، وفي « الكبرى » (٦٤٤٧) ، والدارمي (٢٣٤٨) ، وأحمد (٤/ ٢٢٢، ٣٨٨، ٣٨٩) ، من طرقٍ عن حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن الشريد بن سويد الثقفي به .وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣١٦١) ، وأصْلُ الحديث في « صحيح مسلم » كتاب المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه .

(٢) وهذا القول مشهورٌ عن عبد المطلب جد النبيِّ ﷺ ؛ راجع « تاريخ الطبري » (١/ ٤٤١) ، و«البداية والنهاية » (٢/ ١٧٢) و« سيرة ابن هشام » (١/ ١٦٨) .
وانظر « تذكرة الموضوعات » للفتني (ص٧٢) ، و « المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» للقاري (ص١٤٥) مكتبة المطبوعات الإسلامية ، وفي «كشف الخفاء» للعجلوني (٢/ ١٣٨) .

(٣) « مدارج السالكين » (١/ ٣٤) ط دار الكتاب .

عن ربوبيته ، وكل من في السموات والأرض عبدٌ له في قبضته ،وتحت قهره » ؛ فهو ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : الجَامِعُ لجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ ؛ فَهُوَ خَالِقُها ورَازِقُهَا ومَالِكُهَا ومُصَرِّفُهَا ومُدَبِّرُ أَمْرِهَا وشُئُونِهَا ،لاَ يَخْرُجُ شَيءٌ عَنْ مُلْكِهِ ، وَلاَ عَنْ قَهْرِهِ ، وَلاَ عَنْ سُلْطَانِهِ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

ومِنْ جَمِيلِ مَا قَرْأْتُ أَنَّ مِنْ أَهْلِ العِلْم مَنْ عَرَّفَ الرَّبَّ بِقَوْلِهِ : « الرَّبُّ هُوَ الخَالِقُ ابْتِداءً ، والمُرَبِّي غِذَاءً ، والغَافِرُ انْتِهَاءً » .« قَالَهُ الواسطيُّ »[1] وهو أبو بكر محمد بن موسى .

وَقَوْلُ المُصَنِّفِ : « فَقُلْ : رَبِّي اللهُ الَّذِي رَبَّانِي ، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ ».

فنِعَمُ الله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ على جميع العالمين لا تُعدُّ ولا تُحْصَى ؛ بل العالمون جميعًا غارقون في نعم الله ؛ من رؤوسهم إلى أقدامهم ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٤] .

والعالَمُ كُلُّ مَنْ سِوَى الله فَهُوَ عالَمٌ[2]؛ عالم البشر ، عالم الجن ، عالم الشياطين ، عالم البحار ، عالم الطير ، عالم الحيوانات ، عالم الماء ، عالم النار ؛ عوالم لا يعلمها إلا الله ـ تبارك وتعالى ـ فأنا وأنت ، والخلق جميعًا ، عالَمٌ من هذه العوالم التي لا يعرف قدرها وحقيقتها إلا من خلقها ـ سبحانه وتعالى.

---

(١) « تفسير النسفي » (١/ ٣، ٧) ، و« الكشف والبيان » للثعلبي (١/ ٢٨) ، والواسطي مترجمٌ في « الأعلام » للزركلي (٧/ ١١٧) ، و«طبقات الأولياء » لابن الملقن (١/ ٢٤) .

(٢) **قال ابنُ منظور في « اللِّسان » (٩/ ٣٧٣ مادة علم)** : «العالَمون : أصناف الخلق ، والعالَمُ: الخلْق كلُّه ... وقال الزجاج : معنى « العالَمين » كلُّ ما خلق الله ؛ كما قال ﷻ : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام:١٦٤] ، « وهو ربُّ كل شيء .. وهو جمع عالَم» . وفي «المفردات» للراغب (٣٤٩) : « العالم عالمان : الكبير : وهو الفَلَكُ بما فيه ، والصغير : وهو الإنسان ؛ لأنه مخلوق على هيئة العالم ،وقد أوجد الله تعالى فيه كُلَّ مَا هُوَ موجود في العالم الكبير» ا.هـ .

قَالَ المصَنِّفُ : « وَكُلُّ مَا سِوَى الله عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مَنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ ».

ومِنْ لطيفِ ما قَرَأْتُ لشيخِنَا ابنِ عثيمين رحمه الله ؛ قال [(١)]: « وسُمُّوا عَالمًا ؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم ، ومالكهم ،ومدبرهم» ، وهذه لطيفةٌ جميلة ، وإضافةٌ جديدة . ثم يقول [(٢)]: « فكلُّ العالمين ، قد رباهم الله بنعمهِ ، وأعدهم لما خلقوا له ، وأمدهم برزقه ؛وهذا كما في قول الله عز وجل ، في الحوار الذي دار بين فرعون وموسى ، حين سَأَلَ فرعونُ نبيَّ الله موسى ـ عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه:٤٩، ٥٠] ».

قال العلامة « الألوسي » : «أي : أعطى كلَّ شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكل والمنفعة والمضرة وغير ذلك ، أو الأمر اللائق بها نيط به من الخواص والمنافع المطابق له ، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الأبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع ،وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان ،كل واحدٍ منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه ،وقيل : أعطى كل شيءٍ الإيجاد الذي استعدَّ له ، أو اللائق به ، بمعنى أنه تعالى أوجد كل شيء حسب استعداده أو على الوجه اللائق به ، وهو كما ترى» [(٣)] ا.هـ .

وقال العلامة السعديُّ رحمه الله [(٤)] : «أي : ربنا الذي خلق جميع المخلوقات ، وأعطى كلَّ مخلوقٍ خَلْقَه اللائق به ، على حُسْنِ صُنْعِهِ مِنْ خلقه ، من كبرِ الجسم

---

(١) (« تفسير القرآن» / سورة الفاتحة :آية٢) ، و«شرح ثلاثة الأصول» (ص٤٧) للعلامة ابن عثيمين رحمه الله .
(٢) « شرح الأصول » (ص٤٦) .
(٣) « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » لشهاب الدين الألوسي .
(٤) «تفسير الكريم» (سورة [طه:٤٩، ٥٠]) ، وراجع « تفسير الطبري » و« زاد المسير » لابن الجوزي في تفسير الآيات ؛ ففيهما إضافات جديدة ومفيدة .

وصغره وتوسُّطِه وجميع صفاته ، ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له ، وهذه الهداية الكاملة المشاهَدَة فِي جميع المخلوقات ؛ فكلُّ مخلوقٍ تجده يسعى لما خلق له من المنافع ،وفي دفع المضار ، حتى إن الله أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به من ذلك، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧] ؛ فالذي خلق المخلوقات وأعطاها خَلْقهَا الحسن الذي لا تقترح العقول فوق حسنه ، وهداها لمصالحها ، هو الربُّ على الحقيقة ، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا ،وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب ، فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومة ما أنكره كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك » انتهى المراد .

وكما ذكرنا ـ فيما تَقَدَّم ـ أنّ نعم الله ﷻ على الخلق لا تعدُّ ، ولا تحصى ؛ بل الخلق جميعًا غارقون في نعمه ، عاجزون عن شكره ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ولكننا نذكِّر ببعض النعم ، التي قد يغفل الناس عن معرفتها ، فضلاً عن شكرها ، ولا شك أن أشرف ، وأجلَّ ، وأعظم ، وأكبر ، وأطهر نعمةٍ أنعم الله تعالى بها علينا هي : « **نعمة الإيمان و الإسلام** » .

قال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧] .

وَلله دَرُّ القَائِلِ :

وَمِمَّا زَادنِي فَخْرًا وتَيِهًا ... وكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا

دُخولِي تَحْتَ قَوْلِكَ : يَا عِبَادِي ... وأنْ صَيَّرتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا[1]

---

(١) «غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب» (٤/ ٥٨) للسفاريني ، و«مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح»=

نعم ..نعمة الإسلام هي :أشرف وأجلُّ نعمة على الإطلاق ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٢٢] ، ووالله لو فقدتَ كُلَّ شيءٍ ،ورزقك الله نعمة الإسلام ؛ فقد رزقك الله كلَّ شيءٍ .

تدبروا مني هذه الكلمات ؛ أقول :ماذا فقد مَنْ وجد الإسلام ؟ وماذا وجد مَنْ فقد الإسلام ؟! من وجد الإسلام فإنه ما فقد شيئًا ؛ حتى ولو لم يأكل ويشرب ،ما فقد شيئًا ما دام ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ قد أنعم عليه بأشرف وأعظمِ نعمة ألا وهي : نعمة الإسلام . أما من فقد الإسلام ؛ فإنه ما وجد شيئًا على الإطلاق ؛ ولو كان يتمرَّغُ في ألوان النعيم ،والطعام ،والشراب ، والمتاع ؛ فكلُّ شيءٍ بيده سيتحول إلى شقوة ، وضنك ؛ كما قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٣، ١٢٤] ؛ والإسلام منهجٌ كاملٌ فذٌّ فريدٌ ، وما زال الإسلام شامخًا يعرضُ نفسه على الإنسانية كلِّها ؛ لأنه وحده هو المخلِّص للإنسانية من هذا الطيش وهذا الشَّقاء بعد أن أحرقها لفح الهاجرة القاتل ، وأضناها طول المشي في التيه والظلام .

ورحم الله من قال :

لكــلِّ شيءٍ إذا فارقتــه عــوض وليس للإسلام إن فارقت من عوض

= (١٦/١) للملا علي القاري ، و« حاشية قليوبي » (١٨/١) ، و « حاشية البيجرمي على الخطيب » (٢٧/١) ، و« روح المعاني » (٣٧/٦) ط دار إحياء التراث ؛ وهذه الأبيات للقاضي عياض رحمه الله .

كذلك من النعم التي أنعم الله بها علينا : « نعمة العقل » :

إن نعمة العقل من أكبر وأعظم نعم الله على الإنسان ـ بعد نعمة الدين ـ لأنه يميز بها بين الطيب والخبيث ،وبين الخير والشر ، والنفع والضر ، ويعقل بها عن الله أمره ونهيه ،ويعرف بها أعظم غاية ، وهي عبودية الله وحده لا شريك له [(١)].

فعلينا أن نعرف قدْر نعمة العقل ،وأن نشكر الله عليها ، وأن لا نسعى إلى ما يضرها .وقد أثنى الله على أصحاب العقول الصافية ؛ فقال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل:١٢] ، أما من عطَّل نعمة العقل ، فلم ينتفع بها ، فهو كالأنعام ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[الأعراف:١٧٩] .

فالإسلام منهج الله الخالق الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ، فلله الحمد أن خلقنا موحدين ، وللإسلام متمسكين ، وعلى هدي نبينا ﷺ مقتدين ، ونسأل الله أن يتوفانا على هذا الدين القويم ، والصراط المستقيم ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

ولا أنسى أبدًا هذا المشهد حين دخلتُ إحدى مستشفيات الأمراض العقلية ، وقدَّر الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن ندخل عنبرًا للنساء ؛ فجاءت فتاةٌ في العشرين من عمرها تقريبًا ؛ من أجمل ما رأَتْ عينُك ؛ فلقد منَّ الله عليها بحُسْن خَلْقٍ عجيب ؛ فجاءت هذه الفتاة ، فأخذت الغُتْرة مِنْ على رَأْسي ، وألقتها على رأسها ، ثم وضعتها على رأسي ، ثم أخذتها وألقتها على الأرض ، ثم ضحكت

(١) «الإسلام أصوله ومبادئه »(٢٣٢) للسحيم .

بطريقة هستيرية ، ثم بكت بصوت مرتفع ؛ كلُّ هذا في دقائق معدودات ، وأمام أعيننا وبين أيدينا وقفت لتتجرَّدَ من ملابسها ،كما ولدتها أمها !! فبكيتُ والله ، وخرجتُ مسرعًا ، وأنا أقول لإخوانٍ معي : أشهد الله ، ثم أشهدكم ، أني ما شكرتُ الله على نعمة العقل قبل هذه اللحظة !! فمَنْ منَّا فكَّر في نعمة العقل ، وشكر الله ـ تعالى ـ عليها ؟! تلك النعمة التي تعقلُ بها كلَّ شيء من حولك .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الملك:٢٢] .

وقال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل:٧٨].

وكذلك نعمة الأكل والإخراج ؛ فَيَدُكَ تمتد إلى ألوان الطعام والشراب ، ولن أتحدث عن هذا الرزق ؛ فالرزق لا يقتصر على المال فقط ؛ ولكنْ هو ما تقوم به حياة كلِّ كائنٍ حي، ماديًّا كان ، أو معنويًّا (١) ؛ لأن بعض الناس يتصور أن الرزق في المال فحسب !! كلاَّ ؛ بل هذه صورة من صور الرزق ، ونوعٌ من أنواع النعم ، التي لا تعدُّ ، ولا تحصى ؛ تمتد يدك بانسيابيةٍ جميلة ، وتُمْسِكُ أصابِعُكَ الطعام لترفعه إلى فمك ، ولو كنت تأكل في الظلام لم تخطئ يدك أبدًا ،ولن تضع يدُكَ الطعامَ في عينك ، أو في أذنك ؛ حتى ولو كنت أعمى لا ترى ، وترى الفم ينفرجُ دون أمرٍ منك للفمِ بالانفراج ، والقواطع تقطع ، والأنياب تمزق ، والضروس تطحن ،واللسان يتحرك ،واللعاب يسهل ،

---

(١) **قال أبو البقاء في « الكليات » (٧٤٤، ٧٤٥) :** « الرِّزْقُ هو: ما يُقَال للعطاء الجاري دنيويًّا كان أو دينيًّا ، وللمنصب ، ولما يصل إلى الجوف ، ويتغذى به ، وفي الجوهري : هو ما ينتفع به ، ولا يلزمه أن يكون مأكولاً .. » ، وانظر « المفردات » للراغب (٢٠٠) ، و« لسان العرب » لابن منظور (٥/ ٢٠٣، ٢٠٤) ط إحياء التراث .

ولسان المزمار يفتح البلعوم حين البلع ،والمعدة تقوم بدورها ، والأمعاء الدقيقة بدور ،والغليظة بدور ،وفتحة الشرج بدور ، ثم بعد ذلك يتحول إلى دماء ، والقلب يقوم بدوره بطين ، وأذين !! أمورٌ عجيبة ، لو تفكَّرت فيها لوحَّدت الخالق ، ولأفردتَه ـ تبارك وتعالى ـ بالعبادة ؛ لذا فها هو ربنا ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ يُلْفِتُ أنظارنا ، ويقول : ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] ، ويلفت أنظارَنا ـ كما سأبين ـ الآن للنظر في هذا الكون كلِّه ؛ من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ؛ لنتعرف عليه ـ تبارك وتعالى ـ فما أعظم الآيات ، وما أكثرها لذوي الفِطَر ، والعقول ، والألباب ؛ لذا قَالَ الْمُصَنِّفُ رحمه الله : «**إِذَا قِيلَ لَكَ : مِنْ رَبُّكَ ؟ فَقُلْ : رَبِّي الله الَّذِي رَبَّانِي ، وَرَبِّي جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعْمَتِهِ**» ، ونِعَمُ الله عَلَيْنَا لاَ تعدُّ ،وَلاَ تُحْصَى ؛ قال ـ تَعَالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم:٣٤] .

كان أحدُ السَّلف ، إذا دَخَلَ الخلاء ، وقضى حاجته بنفسه ، وطهَّر نفسه بيده ،وخرج ،وَضَعَ يَدَه على بطنه ،وقال : يا لها من نعمةٍ مَنْسِيَّةٍ ، غَفَلَ عَنْ شُكْرِهَا كثيرٌ من الناس .

وعن الفضل بن الربيع قال : كنتُ واقفًا بين يدي الرشيد ، إذ دخل عليه ابن السَّماك ، فدعا الرشيد بماءٍ ليشربه ، فأُتي به ، فلما رفعه ليشربه ، قال له ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين ، بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هنَّاك الله ، فلما شرب ، قال: بقرابتك من رسول الله ﷺ لو منعت خروجها من بدنك ، بما كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ! قال ابن السماك : وملكٌ قيمته شربة

ماء لجديرٌ أن لا تُنَافَس فيه ، فبكى الرشيد ،واشتد بكاؤه [(١)] .

نعمٌ كثيرة ـ لو تدبرناها ـ لاَ تُعَدُّ ، وَلاَ تُحْصَى .

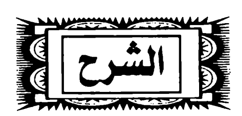
والسُّؤالُ : كيف يرزقني ربي وأعبدُ سواه ؟! نعم .. خيره إلينا نازل ، وشرُّنا إليه صاعد ، يتحبب إلينا بالنعم ـ وهو الغنيُّ عنا ـ ونتبغَّضُ إليه بالمعاصي ، ونحن أحوج شيء إليه ؛ كيف يرزقنا ، ويخلقنا ، ويغرقنا في فضله ونعيمه ، ثم بعد ذلك نُشْرِكُ معه في العبادة غيره ؟! فنسأل غيره ، ونذبح لغيره ، ونفوض لغيره ، ونلجأ لغيره ،ونتوكَّل على غيره ، ونستعين بغيره ،ونستغيث بغيره ، ونطوف بغير بيته ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ كيف وهذا الإله العظيم ﷻ هو وحدَهُ الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ ؛ فهو معبودي الذي لا معبود لي سواه ، ويجبُ عليَّ أن أتبرأ من كلِّ معبودٍ سواه ؛ وأقول : اللهم إني أبرأُ من الثقة إلا بك ، وأبرأ من الأمل إلا فيك ، وأبرأ من التسليم إلا لك ، وأبرأ من التفويض إلا إليك ، وأبرأ من التوكل إلا عليك ، وأبرأ من الذل إلا في طاعتك ، وأبرأ من الرهبة إلا لجلالك العظيم ، وأبرأ من الوقوف إلا على بابك أنت ؛ فلنتبرأ جميعًا من كلِّ الآلهة ، والأنداد ، والأرباب ، والطواغيت ؛ لنُفرِد الله وحْدَه بالعبادة ؛ فهو معبودنا ، ولا معبود لنا سواه ؛ والدليل قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة:٢] ، فهو ربُّ العالمين ؛ مالِكُهم ، ورازقهم ، وصاحب الفضل عليهم ، والمتفضل عليهم بنعمه ، له الحمد كلُّه ، وله الثناء كلُّه ، وله الفضل كلُّه ،وله الأمر كلُّه ، ولا يستحق أن يعبد إلا إياه ـ تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام الآية:١٦٣] .

---

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخه » (١/ ٣٨٧) ،والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣١٧) واللفظ له ، وانظر : « تاريخ الخلفاء » للسيوطي (٢٤٩) ، و« البداية والنهاية »(١٠/ ٢٣٤) ، و « تاريخ الطبري » (٥/ ٢٢) ، و« الإحياء» (٤/ ١٢٤) ، و« تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٤٣١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم »(رقم ٧٧٦) ، و« الأخلاق والسير » لابن حزم (٧٠) .

قَالَ المُصنِّفُ رحمه الله :

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ : بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ ، وَمِنْ آيَاتِهِ : اللَّيْلُ والنَّهَارُ والشَّمْسُ والْقَمَرُ ؛ وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ : السَّماوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ ،وَمَا بَيْنَهُما ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧] ، **وَقَولُهُ تَعَالَى :** ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤] .



الاستدلال على الله تَعَالَى بآياتِه ومخلوقاتِهِ ؛ والآية هي العلامة(١) .

والآياتُ نَوْعانِ :

١ـ آياتٌ كونية .

٢ـ آياتٌ شرعية .

فالآياتُ الكَوْنية : هي الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر ... إلى آخره ، وما أكثر هذه الآيات .

والآياتُ الشَّرْعية هي : مَا أوحى الله إلى أنبيائه ، ورسله ؛ فحينئذٍ نقول : إن المصنف رحمه الله عطف الخاص على العام ، لو عرَّفنا الآيات بأنها الآيات

---

(١) « لسان العرب » (١/ ٢٨١، ٢٨٢) ، و « النهاية » لابن الأثير (١/ ٩٥) ط المعرفة، و « المفردات » للراغب (ص٤١) ط التوفيقية .

الكونية ، والشرعية ، أو من باب عطف المباين المغاير ، إذا خصصنا الآيات بالآيات الشرعية .

وعلى كلٍّ فالله ﷻ يعرف بآياته الكونية ، وهي المخلوقات العظيمة وما فيها من عجائب الصنعة وبالغ الحكمة ،وكذلك يعرِّف بآياته الشرعية وما فيها من العدل ، والاشتمال على المصالح ، ودفع المفاسد (١) .

والآياتُ الكَوْنية كثيرة: انظر إلى هذا الكون من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ؛ انظر إلى السماء وارتفاعها ، وإلى الأرض واتساعها ، وإلى الجبال وأثقالها ، وإلى الأفلاك ودورانها ، وإلى البحار وأمواجها ، وإلى كلِّ ما هو متحرك ، وكلِّ ما هو ساكن ، والله : إنَّ الكُلَّ يُقِرُّ بتوحيد الله ، إلاَّ مَنْ كَفَر من الثقلِيْن المكَلَّفيْن ـ الإنس والجن ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج:١٨] ، فالكون كلُّهُ يُسَبِّحُ ، والكون كلُّه يوحِّد ؛ قال ـ تعَالَى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء:٤٤] ، وما أكثر الآيات في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ التي تدلُّ العبد وتعرِّفه على الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تدبروا معي قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران:١٩٠] ، فجعل الله المخلوقاتِ آياتٍ كريمةً تدلُّ عليه ـ تبارك وتعالى : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

---

(١)« شرح الأصول الثلاثة » للعلامة ابن عثيمين (٤٧) .

جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ....﴾ [آل عمران:١٩٠، ١٩١] ، وبعد هذا التفكير حتمًا ، لابد أن يصلوا إلى هذه النتيجة ، إن كانوا من أولي الألباب ، أي : من أصحاب العقول السليمة ، حينئذٍ سيرددُون ـ بحبٍّ لله وخوف وخشوع: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] .

وهذا رئيسُ أكاديمية العلوم بنيويورك يقول : « لقد توصَّلنا بعد البحث العلمي والتجربة : أن الأجرام السماوية ،ما وُضِعتْ في الكون عشوائية أو مصادفة ، وإنما وُضِعَتْ بحسبان ؛ فلو أن الشمس تَركَتْ مدارها إلى أعلى قليلاً ؛ لتجمَّد كُلُّ حيٍّ على ظهر الأرض ، ولو أن الشمس تركت مدارها إلى أسفل قليلًا لاحترق كلُّ حيٍّ على ظهر الأرض ، ولو أن القمر ترك مداره إلى أعلى ، أو إلى أسفل قليلاً ؛ لاختلَّت حركة المد ، والجزر على ظهر الأرض ، ومات أهل الأرض غرقًا ، أو عطشًا » [(١)] ، وصدق ربي إذ يقول : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥] ، وقال ﷻ : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] .

فالله سبحانه يذكرنا بتوحيد الربوبية ليلْفِتَ الفِطَر السَّوِيَّة ، والقلوب التقية ، والعقول النقية ؛ للإقرار له بتوحيد الألوهية :

انْظُرْ لِتِلْكَ الشَّجَرةِ ذَاتِ الغُصُونِ النَّضِرَة
كَيْفَ نَمَتْ مِنْ حَبَّةٍ وَكَيْفَ صَارَتْ شَجَرة
ابْحَثْ وقُلْ مَنْ ذَا الَّذي يُخْرِجُ مِنْهَا الثَّمَرة
ذَاكَ هُوَ الله الَّذِي أَنْعُمُهُ مُنْهَمِرَة
ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وقُدْرَةٍ مُقْتَدِرَة

---

(١) وانظر : « الإسلام يتحدى » لوحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الدين خان ، تقديم د / عبد الصبور شاهين (ص٧٦) .

وصدق من قال :

سَلِ الوَاحَةَ الخَضْرَاءَ والمَاءَ جَارِيا وَهَذِهِ الصَّحارِي والجِبَالَ الرَّواسِيَ
سَلِ الرَّوْضَ مُزْدَانًا سَلِ الزَّهْرَ والنَدَى سَلِ اللَّيْلَ والإِصْبَاحَ والطَّيْرَ شَادِيَا
سَلْ هَذِهِ الأَنْسَامَ والأَرْضَ والسَّمَا سَلْ كُلَّ شيءٍ تَسْمَعُ الحَمْدَ سَارِيَا
ولَوْ جَنَّ هَذَا اللَّيْلُ وامْتَدَّ سَرْمَدًا فَمَنْ غَيْرُ رَبِّي يُرْجِعُ الصُّبْحَ ثَانِيا

ولو تدبَّرنا قول الله ـ تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢ـ١٤] ، يلقي الرجل نطفته في لقاءٍ ـ في الحلالِ الطيِّبِ ـ مَعَ امْرَأتِهِ ؛ فيودع نطفته امرأته ؛ تلك النطفة التي تحتوي على ملايين الحيوانات المنوية ، تتسابق كلُّهَا ؛ لتصل إلى عروسٍ جميلةٍ واحدةٍ تسمَّى بالبويضة ، لا تخرج من رحم المرأة إلا مرة واحدة في الشهر .. تهلك كلُّ الحيوانات المنوية في هذا الطريق الطويل إلى البويضة ، أو إلى هذه العروس الجميلة ، ولا يصل إلى البويضة إلا حيوان منويٌّ واحدٌ ! هذه المعلومة الدقيقة لم يتوصل إليها العلم الحديث إلا من سنواتٍ قليلة جدًّا ، مع أن الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، قد أخبر عنها من أربعة عشر قرنًا ؛ فقال كما في «**صحيح مسلم**»[١] من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قال : سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الْعَزْلِ ؟ فَقَالَ : « **مَا مِنْ كُلِّ المَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ ، وَإِذَا أَرَادَ الله خَلْقَ شَيْءٍ لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ** »؛ فالمرادُ بالماء هنا المنيُّ ؛ كما في قوله ﷻ : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [الطارق:٥، ٦] ، فيصِلُ إلى البويضة حيوانٌ منويٌّ واحدٌ ؛

---

(١) أخرجه مسلمٌ ، في كتاب « النكاح » ، باب حكم العزل ، رقم (١٤٣٨/ ١٣٣) .

فتخرج البويضةُ عليها تاجٌ مُشِعٌّ ؛ لتلفِتَ أَنْظَار الحيواناتِ المنوية إليها ؛ فإذا اقترب منها الحيوان المنوي ، أفرزت البويضةُ سائلاً ، من وظائف هذا السائل أن يمسك بالحيوان المنوي ؛ ليلتصق على جدار البويضة ، فيفرزُ الحيوانُ المنويُّ بذاته سائلاً ؛ ليبدِّدَ جُزءًا من التَّاجِ المُشِعِّ على جِسْم البويضة ؛ ليَسْهُلَ عليه أن يَخْترق جِدَارهَا ؛ فإذا اخْتَرق الحيوانُ جدار البويضة ، وَخَصَّبها تتحوَّلُ هذه النطفة الأمشاج (١) بعد أيامٍ قليلةٍ إلى علقة ، ثمَّ إلى مضغة وسمَّاهَا الله ـ تبارك وتعالى ـ مضغة ؛ لأن الجنين في هذه المرحلة يُشْبِهُ قطعة اللحم التي مضغتها الأسنان ، وتتحول المضغة بعد ذلك إلى عظام !!! لم أقل : إلى عظمة ؛ بل تتحول إلى هيكل عَظْمي ، في غاية التناسق ، والجمال ، والإبداع ، ولو نظرت إلى الهيكل العظمي فحسب ، لعرفت ربك ، من أين جاء هذا الهيكل العظمي ؟ كان ماءً مهيناً حقيرًا ، يتحول إلى هذا الهيكل العظمي ، ثم يُكسى باللحم ، ثم تأتي مرحلة الخلق الآخر ؛ ألا وهي مرحلة نفخ الروح ، وهنا وقَفَ عالم الأجِنَّة الشهير « ألاكسيس كريل » وصرخ حين راقب مراحل نمو الجنين في بطن امرأة ؛ فحينما نُفِخَتِ الروح ، ودقَّ القلب ، ونبض ، وتحرك الجنين حركة كاملة في بطن أمه ، صرخ هذا العالم ، وقال : Here THE God ، أي : « هنا الله » ، لا يمكن أبدًا أن تأتي هذه الروح إلا من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤] .

لذا يلفتُ ربنا أنظارنا لنتدبر ،ولنتفكر ، ولنتعرف عليه ؛ فيقول ﷻ : ﴿ وَفِيٓ

---

(١) كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان:٢] ، أمشاج ؛ أي: أخلاط . (اختلاط ماء الرجل بماء المرأة) ثم ينتقل بعد ذلك من طور إلى طور ،وحال إلى حال ، ولون إلى لون ... وهكذا . (« تفسير ابن كثير » ٤/ ٤٣٨) ط المكتبة القيمة ، وراجع « تفسير الطبري » (٨٣٥٥ ـ ٨٣٥٩ ط السلام) .

أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١] ، ويقول سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦ـ٨] .

فلو نظرت إلى أيِّ شيء في الكون لتعرَّفت على الخالق ـ سبحانه وتعالى .

ففي كُلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحد[١]

ولعلَّ من أجمل ما ذُكر في هذا الباب العظيم ؛ ما قاله قِسُّ بنُ ساعدة الإيادي ، وكان من الناس الذين يعبدون الله على دين إبراهيم عليه السلام قبل بعثة المصطفى ﷺ .

يقول ـ رحمه الله تعالى : « أيها الناسُ ، اجتمعوا فاسمعوا ، وإذا سمعتم فَعُوا ،وإذا وعيتم فانتفعوا وقولوا ، وإذا قلتم فاصدقُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، كُلُّ ما هو آت آت ، مطرٌ ونبات ، وأحياء وأموات ، ليلٌ داج ، وسماءٌ ذات أبراج ، ونجومٌ تزهر ،وبحارٌ تزخر ، وضوء وظلام ،وليل وأيام ،وبر وآثام ، إن في السماء خبرًا ، وإن في الأرض عبرًا ، يحار فيهن البصر ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تفور » .

ثم يقول من بعدها : « شرق وغرب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ،ورياح وأمطار ،وليل ونهار ،وإناث وذكور ، وبرار وبحور ،وحب ونبات ،وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في إثْرِهَا آيات ،ونور وظلام ، ويُسْرٌ وإعدام ، وفقير وغنيٌّ ، ومحسن ومسيء ، تبًّا لأرباب الغفلة ؛ بل هو إلهٌ واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى»[٢] .

---

(١) سيأتي عزوه .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٨٨) ، وابن عدي في « الكامل » (١/ ٢٦١) ، وأبو سعيد النقاش في=

ورحم الله من قال :

فيـا عجبًـا كيـف يُـعصى الإلـهُ أم كيـــف يَجْحَـــدهُ الجاحـــدُ

ولله في كـــــل تحريكـــــة وفي كـــلٍّ تســـكينةٍ شـــاهدُ

وفي كـــلِّ شيءٍ لـــه آيـــة تَـدُلُّ عــلى أنــه الواحـــد [(١)]

ورحم الله مَنْ قال :

الشـمسُ والبـدرُ مـن آثـارِ قدرتـه والـبرُّ والبحرُ فَيْض مـن عطايـاه

الطـيرُ سَـبَّحهُ والـوحشُ مجَّـدَهُ والمَـوْجُ كـبَّره والحُـوتُ ناجـاه

والنَّملُ تحت الصخورِ الصُمِّ قدَّسهُ والنحـلُ يهتـفُ حمـدًا في خلايـاه

فما من ذرة من ذرات هذا الكون إلا وتشهد بربوبية الخالق ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ

= « فنون العجائب » رقم (٤٠) ، والخطيب في « تاريخه » (٢/ ٢٨١) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١/ ٢١٣) من طريق :اللخمي عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس مرفوعًا ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٦٩٧) : « رواه الطبراني والبزار وفيه اللخمى وهو كذاب » .

وأخرجه البيهقي في « الدلائل » (٤٢٣) وفي «الزهد» (٦٩٦) من طريق أبي حمزة الثمالي عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس مرفوعًا ، وقد حكم عليه بالوضع ابن الجوزي في « الموضوعات » ، وأبو الفتح الأزدى كما في « اللآلئ المصنوعة » (١٦٧) ، و «الفوائد المجموعة» (٢٥١) ، وله طريق ؛ أورده الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ، (٢/ ٢٣٠) ، من حديث عبادة ؛ أخرجه الخرائطي في كتاب « هواتف الجنان » وحكم الحافظ ابن كثير على سنده بالغرابة . ثم أورد له طرقًا وأوجهًا أخرى ، ثم قال : « قال البيهقي : وإذا روي الحديث من أوجه أخر ، وإن كان بعضها ضعيفًا دلَّ على أن للحديث أصلًا ، والله أعلم.

ومن أهل العلم من حسن الحديث بطرقه الكثيرة ؛ ومن هؤلاء الإمام السيوطي ؛ وقد دافع وردَّ على من ضعَّف الحديث بقوة ؛ فقال : « فلو وقف الحافظ ابن حجر على هذه الطريق لحكم للحديث بالحسن لما تقدم من الطرق وخصوصًا الطريق الذي في « زيادة الزهد » لابن حنبل ، فإنه مرسل قوي الإسناد ، فإذا ضم إلى هذه الطريق الموصولة التي ليس فيها واهٍ ولا متهم حكم بحسنه بلا توقف » ، راجع « الفوائد المجموعة » و« تنزية الشريعة (١/ ٢٤١ـ ٢٤٣) .

(١)أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٥ ، ١٠٦) ، والخطيب في « تاريخه » ، (٦/ ٢٥٣) ، وابن عساكر (١٣/ ٤٥٣) ،وانظر « لسان الميزان » (١/ ٤٢٨) ، ونسبت هذه الأبيات لأبي العتاهية وابن المعتز .

والأدلة على ذلك كثيرة جدًّا .

وهذا التوحيد أقرَّ به المشركون وما عاندوه ولا عارضوه فلو سألتهم عن خالقهم ورازقهم ومالكهم وفاطرهم وخالق السموات والأرض لقالوا : « الله » !! كما حكى القرآن عنهم ذلك :

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف:٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٩] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١] ،وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٨، ٨٩] .

ولم يعارض هذا التوحيد من عارضه إلا على سبيل المكابرة والعناد ؛ كفرعون الذي قال : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣] .

وكالدهريين الذين أنكروا أن يكون لهذا الكون خالق يُصَرِّفه ويُدبِّرُهُ وقالوا : إن العالم يسيرُ بنفسه (وما يهلكنا إلا الدهر) .

ومنهم الثنوية من المجوس الذين جعلوا للعالم خالقين : خالقًا للخير وهو النور وخالقًا للشر وهو الظلمة ، ومنهم أهل التثليث عبَّاد الصليب !! ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف:٥] .

ومن ثم يتبين لنا أنَّ مشركي العرب الذين حكم الله تعالى عليهم بالشرك لم ينكروا توحيد الربوبية على الإطلاق ؛ بل إنهم كانوا يتوجهون إلى الله تعالى وقت الشدة ، ويخلصون الدعاء والرجاء ، وينسون ما يشركون !

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥] .

يا لَهُ من أمرٍ عظيم !! فاعلم جيدًا ـ يرحمك الله ـ أن من أقر بتوحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون ،ومع ذلك فقد وجه العبادة إلى غير الله ﷻ ، فهو مشرك من جنس أمثاله من هؤلاء المشركين !

بل الواجب أن يكون هذا التوحيد مستلزمًا لعبادة الله ـ تعالى ـ وحده ؛ فإن من أقر بأن الله هو الخالق وحده وهو الرَّازق وحده ، وهو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، وهو الذي يملك الضر والنفع ، وهو الذي يُصرِّف الكون ويدبر الأمر كلَّه لا شريك له في ذلك ؛ فَلِمَ يَعْبُدُ مع الله غيره ؟! فتدبر هذا جيدًا ؛ فما أقلَّ مَنْ يعرفه من أهل الأرض ؛ نسأل الله أن يشرح صدورهم وصدورنا للتوحيد .

لله فِي الآفَاقِ آيَاتٌ لَعَلَّ ... أَقلَّهَا هُوَ مَا إِلَيْهِ هَدَاكَا

ولَعَلَّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ آيَاتِه ... عَجَبٌ عُجَابٌ لَوْ تَرىَ عَيْنَاكَ

الكَوْنُ مِشْحُونٌ بِأَسْرَارٍ إِذَا ... حَاوَلْتَ تَفْسِيرًا لَهَا أعْيَاكَ

قُلْ للطَبِيبِ تَخَطَّفَتْهُ يَدُ الرَّدَى ... أَيَا مُدَاوِيَ الأمْرَاضِ مَنْ أَرْدَاكَ؟

قُلْ للمَرِيضِ نَجَا وعُوفِي بَعْدَ مَا ... عَجَزَتْ فُنونُ الطِّبِّ مَنْ عَافَاكَ ؟

قُلْ للصَّحِيحِ مَاتَ لاَ مِنْ عِلَّةٍ ... مَنْ يَا صَحِيحُ بِالمَنَايَا دَهَاكَا ؟

بَلْ سَائِلِ الأَعْمَى خطَا وَسْطَ الزِّحَامِ ... بِلاَ اصْطِدَامٍ مَنْ يَا أَعمى يَقُودُ خُطَاكَ ؟

بَلْ سَائِلِ البَصِيرَ كَانَ يَحْذَرُ حُفْرَةً ... فَهَوى بِهَا مَنْ ذَا الَّذِي أَهْوَاكَ ؟

وَسَلِ الجَنِينَ يَعِيشُ مَعْزُولاً بِلاَ رَاعٍ ... ومَرْعَى مَنْ ذَا الَّذِي يَرْعَاكَ ؟

وَإِذَا تَرى الثُّعْبَانَ يَنْفُثُ سُمَّهُ فَسَلْهُ مَنْ يَا ثُعْبَانُ بالسُّمُومِ حَشَاكَ ؟
وَاسْأَلْهُ كَيْفَ تَعِيشُ يَا ثُعْبَانُ أَوْتَحْيَا وَهَذَا السُّمُّ يَمْلأُ فَاكَ ؟
وَاسَأَلْ بُطُونَ النَّحْلِ : كَيْفَ تَقَاطَرَتْ شَهْدًاوقُلْ للشَّهْدِ مَنْ حَلاَّكَ ؟
بَلْ سَائِلِ اللَّبَنَ المُصَفَّى مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ مَنْ ذَا الَّذِي صَفَّاكَ ؟
وَإِذَا رَأَيْتَ النَّخْلَ مَشْقُوقَ النَّوى فاسْأَلْهُ مَنْ يا نَخْلُ شَقَّ نَوَاكَ ؟
وَإِذَا رَأَيْتَ البَدْرَ يَسْرِي نَاشِرًا أَنْوَارَهُ فَاسْأَلْهُ مِنْ أَرْسَاكَ ؟
وَإِذَا تَرَى الجَبَلَ الأَشَمَّ مَنَاطِحًا قِمَمَ السَّحَابِ فاسْأَلْهُ مَنْ أَرْسَاكَ ؟
وَإِذَا رَأَيْتَ النَّارَ شَبَّ لَهِيبُهَا فسْأَلْ لَهِيبَ النَّارِ : مَنْ أَوْرَاكَ؟
لله فِي الآفَاقِ آيَاتٌ لَعَلَّ أَقَلَّهَا هُوَ مَا إِلَيْهِ هَدَاكَ[1]

وقد استدلَّ المصنِّف بآية فصلت ، وآية الأعراف على كمال قدرته ، وعلى وحدانيته تبارك وتعالى .

أما آية فصلت ؛ فهي قوله الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧] .

قال السعديُّ [2]: « ﴿ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ أي: اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم ، ودعوا عبادة ما سواه ، من المخلوقات ، وإن كبر جرمها ، وكثرت مصالحها ، فإن ذلك ليس منها ،وإنما هو من خالقها تبارك وتعالى ؛ فخصوه بالعبادة ،وإخلاص الدين له : ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ » ا .هـ .

وبين الله تعالى في آية الأعراف أن الربَّ المعبود وحده لا شريك له لأنه خالق

(١) الأبيات منسوبة للشاعر : إبراهيم بديوي (سوداني).
(٢) في (« تفسير فصلت» :٣٧) .

العالم ؛ سماواته وأرضه ، وما بين ذلك في ستة أيام ؛ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤] .

وهنا لفتةٌ مهمة : في قول الله : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ذلكم العرش العظيم ، الذي يسع السموات والأرض ،وما فيهما ، وما بينهما ، استوى عليه ربُّنا القدير ؛ استواءً يليق بجلاله ، وعظمته ، وسلطانه .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [(١)] : «وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ ؛ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدًّا ليس هذا موضع بسطها ،وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ؛ مالك ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا ،وهو : إمرارها كما جاءت من غير تكييف ، ولا تشبيه ،ولا تعطيل ،والظاهرُ المتبادر إلى أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله ؛ فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ؛ بل الأمر كما قال الأئمة منهم ؛ نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : « من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر » .

وليس فيما وصف الله به نفسه ، ولا رسوله ﷺ تشبيه ؛ فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونَفَى عن الله تعالى النقائص ؛ فقد سلك سبيل الهدى .

وقوله تعالى : ﴿ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف:٥٤] ؛ أي: يذهب

---

(١) في (« تفسير الأعراف» :٥٤) .

ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكلٌّ منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا ؛ أي : سريعًا ، لا يتأخر عنه ؛ بل إذا ذهب هذا جاء هذا ، وعكسه ؛ كقوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس:٣٧ـ ٤٠] ؛ فقوله : ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ ﴾ أي : لا يفوته بوقتٍ يتأخر عنه ؛ بل هو في إثره بلا واسطة بينهما ؛ ولهذا قال : ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ ﴾ منهم من نصب ، ومنهم من رفع ، وكلاهما قريب المعنى ، أي : الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ؛ ولهذا قال منبهًا : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ أي : له الملك والتصرف ، ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ » انتهى كلام الحافظ ابن كثير.

ويستخرج لنا علامة القصيم شيخنا ابن عثيمين رحمه الله **الفوائد المستنبطة من الآية ؛ فيقول** (١) : «من الأدلة على أن الله خلق السموات والأرض ؛ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴾ وفيها من آيات الله :

أولاً : إن الله خلق هذه المخلوقات العظيمة في ستة أيام ،ولو شاء لخلقها بلحظةٍ ،ولكنه ربط المسببات بأسبابها ؛ كما تقتضيه حكمته .

ثانيًا : أنه استوى على العرش ؛ أي علا عليه علوًّا خاصًّا به ، كما يليق بجلاله وعظمته ،وهذا عنوانُ كمال الملك والسلطان .

ثالثًا : أنه يغشي الليل والنهار ، أن يجعل الليل غشاء للنهار ، أي غطاء له ؛ فهو

---

(١) «شرح الأصول الثلاثة» (٤٩، ٥٠) .

كالثوب يسدل على ضوء النهار ؛ فيغطيه .

رابعًا : أنه جعل الشمس والقمر مذللات بأمره جَلَّ سلطانه ، يأمرهن بما يشاء لمصلحة العباد .

خامسًا : عموم ملكه ، وتمام سلطانه حيث كان له الخلق والأمر ، لا لغيره .

سادسًا : عموم ربوبيته للعالمين كلِّهم » انتهى .

*****

الرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« والرَّبُّ : هُوَ المَعْبُودُ ؛ والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢] ، قَالَ ابْنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى [1]: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلعِبَادَةِ » .

الشرح

هذا الاستدلالُ بآيات الله ـ تعالى ـ ومخلوقاته الغايةُ منه : أن تُفْرِدَهُ ـ تبارك وتعالى ـ بالعبادة ؛ فالخالقُ لكلِّ هذه الأشياء ، المدبر لهذا الكون بهذا الإحكام والإتقان والإبداع ، هو وحْدَهُ الذي يستحقُّ أن يُعْبَد ؛ فالرَّبُّ هو المعبود ـ سبحانه وتعالى ـ واستدل المصنفُ بآيةٍ كريمةٍ جميلةٍ من كتاب ربِّنا ؛ قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١، ٢٢] . أين عقولكم ؟ كيف ! وقد خلق الله لكم هذا الكون ؛ من العرش إلى الفرش ، من السماء إلى الأرض ، كيف ! وقد خلق عَزَّ وَجَلَّ لكم الأرض ؛ وجعلها لكم فراشًا ساكنةً آمنةً مطمئنةً ، ثبَّتها ، وأرساها بالجبال الراسيات ، وأمدَّها

---

(١) في «التفسير» (١/ ٥٦) ط المكتبة القيمة « ومضمونه: أنه الخالق الرازق ، مالك الدار ، وساكنيها ورازقهم ؛ فبهذا يستحق أن يعبد وحده ، ولا يشرك به غيره » .

بالنعم التي لا تعدُّ ، ولا تُحصى ، وزيَّنها بالأنهار ، والبحار ، والأشجار ، والورد ، والزهور ، والرياحين ، وأوْدَعها من الكنوز والنعم ، ما لا يحصيه إلا الله ، وأنزل لكم من السماء ماءً ، ورفع فوقكم السماء بغير عمد ترونها ، وزيَّنها بالكواكب ، والأقمار ، والنجوم ، والشموس ؛ فهل من العقل ، بعد كلِّ هذا ؛ أن تشركوا معه غيره بالعبادة ؟! وأن تصرفوا العبادة في أيِّ جزئيةٍ من جزئياتها ، أو صورةٍ من صورها لغيره ـ تبارك وتعالى ـ؟! فالرَّبُّ : هو المعبود . والذي خلق ،ورزق ،ودبَّر أَمْر هذا الكون ، هو الذي يستحقُّ أن يُعبد دون أحدٍ ، وقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ نداءٌ عامٌّ لجميع الناس على وجه الأرض : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وهنا يقول العلامة السعديُّ في « تفسيره » [1]: « هذا أمرٌ عامٌّ لجميع الناس ، بأمرٍ عام ،وهو العبادة الجامعة لامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ،وتصديق خبره ، فأمرهم تعالى بما خلقهم له ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] ، ثم استدل على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم الذي ربَّاكم بأصناف النعم ، فخلقكم بعد العدم ـ وخلق الذين من قبلكم ، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة ، فجعل لكم الأرض فراشًا تستقرون عليها ، وتنتفعون بالأبْنية والزراعة والحراثة ، والسلوك من محلٍّ إلى محل ، وغير ذلك من وجوه الانتفاع ، وجعل السماء بناء لمسكنكم ، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم ؛ كالشمس والقمر والنجوم » .
ويضيفُ قائلاً : « وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة ما سواه ، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته ،وبطلان عبادة ما

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» [البقرة:٢١، ٢٢] .

سواه ،وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير ؛ فإذا كان كلُّ أحدٍ مقرًّا بأنه ليس له شريك بذلك ؛ فكذلك فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك في عبادته ، وهذا أوضحُ دليلٍ عقليٍّ على وحدانية الباري تعالى ، وبطلان الشرك ». انتهى كلام السعدي .

وأودُّ أن أبين هنا لطيفةً جميلةً في هذه الآية ينبغي أن ننتبه إليها ؛ وهي : إذا كانت العبادة هي الغايةَ من خَلْق الخلق ؛ فإن الله قد جعل التقوى غاية العبادة ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] إذًا الغاية من العبادة هي تحقيق التقوى .

فما هي التقوى ؟

التقوى هي : الاسم من اتقى ، والمصدر: الاتقاء ؛ وكلاهما مأخوذٌ من مادة وقى ،والوقاية هي : حِفْظُ الشيء مما يؤذيه ويضره [١] .

قال الحافظ ابن رجب في « جامعه » [٢] : « وَأَصْلُ التقوى : أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقية منه ؛ فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته ، واجتناب معاصيه.

وتارة تُضاف التقوى إلى اسم الله ﷻ ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المائدة:٩٦] . وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر:١٨] ؛ فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه وتعالى ؛ فالمعنى اتقوا سخطه وغضبه ،وهو أعظم ما

---

(١) «المفردات» للراغب (٥٤٥) ط التوفيقية ، وانظر : « لسان العرب » (١٥/ ٣٧٧ـ ٣٧٩) .

(٢) «جامع العلوم والحكم » (٢٨٧، ٢٨٨ الحديث الثامن عشر) .

يتّقى ،وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي ؛ قال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨] ؛ ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر:٥٦] ؛ فهو سبحانه أهلٌ أن يُخْشى ويهاب ويُجَلّ ويعظَّم في صدور عباده حتى يعبدوه ويطيعوه لما يستحقه من الإجلال ، والإكرام ،وصفات الكبرياء ، والعظمة ، وقوة البطش ، وشدة البأس .

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله ، وإلى مكانه كالنار،أو إلى زمانه كيوم القيامة؛ كما قال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٣١] ؛ وقال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٨١] ، ويدخل في التقوى الكاملة : فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات ، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات ،وترك المكروهات ، وهي أعلى درجات التقوى ؛ قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:١ـ٤] » انتهى .

*****

مِنْ أنواعِ العبادةِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

«وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ : الإِسْلامِ ، وَالإِيمَانِ ، وَالإِحْسَانِ ، وَمِنْهُ : الدُّعَاءُ ، وَالْخَوْفُ ، وَالرَّجَاءُ ، وَالتَّوَكُّلُ ، وَالرَّغْبَةُ ، وَالرَّهْبَةُ ، وَالْخُشُوعُ ،وَالْخَشْيَةُ ، وَالإِنَابَةُ وَالاسْتِعَانَةُ ، وَالاسْتِعَاذَةُ ،وَالاسْتِغَاثَةُ ، والذَّبْحُ ، وَالنَّذْرُ ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا ، كُلُّهَا للهِ تَعَالَى . وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] ؛ فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ ، فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ ، وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧] .

وَفِي الْحَدِيثِ : «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ» [١] وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠] » .

الشرح

تقدَّم أن المؤلف ذكر الأدلة على أن حقَّ الله على الخلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . ثم ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا المقام أنواعًا من العبادة لا على

(١) **حديثٌ ضعيفٌ** : رواه الترمذيُّ ؛ كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧١) ؛ وقال : « هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة » . والحديث سنده ضعيف ، وقد ضعفه العلامة الألباني في « ضعيف الجامع » (٣٠٠٣) ، ولكنه صحَّ من وجهٍ آخر بلفظ : « **الدعاء هو العبادة** » كما سيأتي .

سبيل الحصر؛ بل على سبيل المثال ؛ فذكر رحمه الله : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ،وهذه مراتبُ الدين ، وستعرض لها بالتفصيل إن شاء الله ـ تعالى ـ ونحنُ نتحدَّث عن الأصل الثاني ؛ ألا وهو معرفةُ دينِ الإسلام بالأدلة .

وقد ذكر المصنفُ رحمه الله بعد هذه المراتب الثلاثة ،أنواعًا من العبادة ؛ فبدأها بالدعاء .

١ ـ الدُّعَاء :

قال ابن منظور في « اللسان » [1] : «وقال أبو إسحاق في قوله عز وجل : ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة:١٨٦] ، معنى الدعاء لله على ثلاثة أَوْجه :

فضربٌ منها : توحيده والثناء عليه ؛ كقولك : يا الله لا إله إلا أنت ، وكقولك: ربَّنا لك الحمد ، إذا قلْتَهُ ؛ فقد دعوته بقولك : ربنا ، ثم أتيت بالثناء والتوحيد ، ومثله قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾[غافر:٦٠] ؛ فهذا ضربٌ من الدعاء .

والضَّرْبُ الثاني : مسألة الله العفو والرحمة وما يُقرِّب منه ؛ كقولك : اللهم اغفر لنا .

والضَّرْبُ الثالث : مسألة الحظِّ من الدنيا ؛ كقولك : اللهم ارزقني مالاً وولدًا ، وإنما سُمِّي هذا جميعه دعاء ؛ لأن الإنسان يُصدِّر في هذه الأشياء بقوله يا الله ، يا رحمن ؛ فلذلك سمِّي دعاء » انتهى المراد .

وقد عرَّفنا قَبْل ذَلِكَ العبادة ، وقُلْنا العبادة هي : « اسمٌ جْامعٌ لكلِّ مَا يحبه الله ، وَيَرْضَاهُ ؛ من الأقوال ، والأعمال ؛ الظاهرة ، والباطنة » .

وها هو المصنف رحمه الله يذكر بعض هذه الأنواع ؛ فيستهلُّ هذه الأنواع

---

(١) «لسان العرب» لابن منظور (مادة:دعا) .

بالدعاء . واستدلَّ بقول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠] ، على أن الدُّعَاءَ هو العبادة .

ثم استشهد بحديثٍ أنس مرفوعًا : « **الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ** » (١) وهذا الحديثُ ضعيفٌ ؛كما تقدَّم .

والصحيح ما رواه أحمد في « مسنده » والبخاريُّ في « الأدب المفرد » وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه في « سننهم » (٢) من حديث النعمان ابن بشير أنه ﷺ قَالَ : « **الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةِ** » وهذا النصُّ موافق تمامًا للآية التي استدلَّ بها المصنف رحمه الله ؛ فالدعاء من أعظم العبادات ، وصورة من صور القرب من رب الأرض والسماوات .

ورحم الله مَنْ قال :

لَبسْتُ ثُوْبَ الرَّجَا والنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا	**وَقُمْتُ أَشْكُو إلى مَوْلاَي مَا أَجِدُ**
فَقُلْتُ يَا أَمَلِي فِي كُلِّ نَائِبَةٍ	**وَمَنْ عَلَيْهِ لكَشْفِ الضُّرِّ أَعْتَمِدُ**
أَشْكُو إِلَيْكَ أُمُورًا أَنْتَ تَعْلَمُهَا	**مَالِي عَلَى حَمْلِهَا صَبْرٌ وَلاَ جَلَدُ**

---

(١) ويُفسِّرُ لنا الإمامُ ابنُ الأثير المعنى الوارد في هذا الحديث في « النهاية في غريب الحديث والأثر » (٢/ ٦٤٠) ط المعرفة ؛ فيقول : « مخُّ الشيء : خالصُه ، وإنما كان مُخَّها لأمرين :

أحدهما : أنه امتثال أمر الله تعالى ؛ حيثُ قال : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] ، فهو محضُ العبادة وخالصُها .

الثاني : أنه إذا رأى نجاح الأمور من الله ، قطع أمله عما سواه ، ودَعَاهُ لحاجته وحده ، وهذا هو أصْلُ العبادة ،ولأن الغرض من العبادة الثوابُ عليها ، وهو المطلوب بالدعاء » . انتهى .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦) ،والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٧٢٤) ، والترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة البقرة (٢٩٦٩) ، وفي باب : ومن سورة المؤمن (٣٢٤٧) ، وقال : « هذا حديث حسنٌ صحيحٌ» وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب فضل الدعاء (٣٨٢٨) ، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٧) ، و« الصَّحيحة » (٦/ ١/ ٣٢٦) .

وَقَـدْ مَـدَدَتُ يَـدِي بِالـذُّلِّ مُبْـتَهِلاً   إِلَيْـكَ يَـا خَـيْرَ مَـنْ مُـدَّتْ إِلَيْـهِ يَـدُ
فَـلاَ تَرُدَّنَّهَـا يَـا رَبُّ خَائِبَـةً   فَبَحْرُ جُودِكَ يَرْوِي كُلَّ مَنْ يَرِدُ [(١)]

ولا شك أن الإنسان في حاجةٍ إلى صلةٍ تربطه بالله ـ تبارك وتعالى ـ وتملأ قلبه بالثقة، والطمأنينة ؛ هذه الصلة ـ أيها الأحبةُ في الله ـ هي الدعاء، وما أحوجنا الآن إلى أن نتضرع إليه ـ سبحانه وتعالى ـ وإلى أن نستغيث، وأَنْ نستعين به وحْدَه ﷻ ؛ فالدُّعَاء يُحِبُّه رُبُّنا ـ سبحانه وتعالى ـ وليس شيءٌ أكرم على الله ﷻ من الدعاء ؛ **كما ثبت عند أحمد والترمذي وابن ماجه والبخاري في «الأدب المفرد»** [(٢)] مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : **«لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى** [(٣)] **اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ»**.

وفي الحديث الذي **رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم** [(٤)] ـ بسندٍ صحيح ـ من حديث سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**». وفي قول الله ـ

---

(١) هذه الأبيات لأبي إسحاق الشيرازي رحمه الله انظر: «طبقات الفقهاء» للشيرازي (١٧)، و«المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» لابن الدمياطي (١/ ٣٣) و « طبقات الشافعية » (٤/ ١٢٠) و«المنتظم» لابن الجوزي (١٠/ ٢٢)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ٢٠٢) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢) ، والترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧٠) ، وقال : «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث عمران القطان» . وابن ماجه ، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء (٣٨٢٩) ، والبخاري في« الأدب المفرد » (٧٢٢) ، وحسنه العلامة الألباني في « صحيح الجامع » (٥٣٩٢) .

(٣) أي : عند الله تعالى .

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨) ، وأبو داود « كتاب الصلاة » ، باب الدعاء (١٤٨٨) ، والترمذيُّ ـ واللفظ له ـ كتاب الدعوات ، باب (١٠٥) (حديث ٣٥٥٦) وقال : «هذا حديث حسن غريب ، ورواه بعضهم ولم يرفعه» ، وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب رفع اليدين في الدعاء (٣٨٦٥) ، والحاكم (١/ ٤٩٧) ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبيُّ ، وقال الحافظ في « الفتح » (١١/ ١٤٧) : « سنده جيد » ، وصححه أيضًا العلامة الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٧٥٧) .

سبحانه وتعالى ـ في هذه الآية التي ساقها المصنف ما يملأ القلب بالثقة والطمأنينة ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر:٦٠] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلا : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦] .

ونلاحظ أن هذه الآية تؤكِّدُ على أصلٍ عَقَديٍّ جميلٍ ؛ فما من آيةٍ سُئل فيها النَّبِيُّ ﷺ من أصحابه ، وإلا وجاء الجوابُ من الله لنبيه ﷺ بقوله تعالى : قل كذا ، وقل كذا ، وقل كذا ؛ إلا في هذا الموطن ـ في موطن الدعاء ـ لم يأمرِ الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه بقوله : قُلْ ؛ تدبروا ـ معي قول الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩] ، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:من الآية ٢٢٠] .

وَقَالَ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة:٢١٩] .

وَقَالَ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

وَقَالَ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال:من الآية ١] ، وَقَالَ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:من الآية ٨٥] إلى آخره .

إلا في هذا الموطن ؛ في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ [البقرة:من الآية١٨٦] لم يقل الله لنبيه ﷺ :«قل: إني قريب ! » وإنما قال : ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:من الآية ١٨٦] .

ومن رقيق ما قرأتُ ؛ **ما رَواهُ البخاريُّ ومُسْلمٌ** من حديث أَبِي مُوسَى

الأشعريِّ ﵁ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ [(١)] فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **أَيُّهَا النَّاسُ ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا ، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا** » ، ثُمَّ أَتَى عَلَيَّ وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي : لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله ؛ فَقَالَ : « **يَا عَبْدَ الله بْنَ قَيْسٍ ، قُلْ : لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ** ـ أَوْ قَالَ : **أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ ؟ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله** » [(٢)].

فربُّنا تبارك وتعالى قريبٌ ؛ سميعٌ بصير ؛ قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١]

وفي « **مسند أحمد** » و «**سنن النسائي** » و « **ابن ماجه** » **والبخاريِّ ـ معلقًا ـ** من حديث عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : الْحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ ؛ لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا ؛ فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلاَمُهَا ؛ فَأَنْزَلَ الله ﷻ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ الآيَةَ » [(٣)] ؛ فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ سميعٌ بصيرٌ ؛ يسمعُ دبيبَ

---

(١) وفي رواية: «لما غزا رسول الله ﷺ خيبر ـ أو قال : لما توجَّه رسولُ الله ﷺ أشرف الناسُ على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ .. » فذكره ، عند البخاري ،كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (٤٢٠٥) .

(٢) رواه البخاريُّ ، في كتاب « الدعوات » ، باب الدعاء إذا علا عقبة (٦٣٨٤) وانظر رقم (٤٢٠٥) ،كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ، ورقم (٧٣٨٦) ، ومسلم ، في كتاب « الذكر والدعاء » ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٤) .

(٣) أخرجه أحمد في « المسند» (٦/ ٤٦) ،والنسائيُّ ، كتاب « الطلاق ، باب الظهار (٦/ ١٦٨) واللفظ له ، وابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب الظهار ، (٢٠٦٣) والبخاريُّ ـ معلقًا مجزومًا به ـ كتاب التوحيد ، باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:١٣٤] =

النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في ليلة ظلماء !!

واعلم أنَّ الدعاء نوعان [(١)] :

دعاءُ عبادة .

ودعاءُ مسألة .

فدعاءُ المسألة : هو طلبُ ما ينفع الداعي ،من جلب نفعٍ أو كشف ضر ، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحدًا من دونه ، ممن لا يملك ضرًّا ولا نفعًا ؛ كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة:٧٦] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام:٧١] ، وقال : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦]

قال شيخ الإسلام [(٢)]: « فكلُّ دعاءِ عبادة مستلزمٌ لدعاءِ المسألة ، وكلُّ دعاء مسألة متضمنٌ لدعاء العبادة » ؛ قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥] ، وقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ

= باب رقم (٩) ؛ قال الحافظ في « الفتح » (١٣/ ٣٨٧) : « هذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها » ، وهو في «صحيح النسائي» و«صحيح ابن ماجه».

المفردات :

- « وسع » : بكسر السين : أي : يدركُ كُلَّ صوت .

- « فكان يخفى علي » : أي أنها كانت تشكو سرًّا حتى يخفى عليَّ ، وأنا حاضر كلامها. (شرح السندى على النسائي).

(١) وقد مرَّ موجزًا الحديث عن هذه الجزئية .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٥/ ١١) .

تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام:٤٠، ٤١] ، وقال : ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] ، وقال : ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد:١٤] ، وأمثالُ هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أنْ يُحصر ،وهو يتضمَّن دعاء العبادة ؛ لأن السائل أخلص سؤاله لله ، وذلك من أفضل العبادات ، وكذلك الذاكر لله ، والتالي لكتابه ونحوه ، طالبٌ من الله في المعنى ، فيكون داعيًا عابدًا .

فتبيَّن بهذا قول شيخ الإسلام : أنَّ دعاء العبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة ، كما أن دعاء المسألة متضمنٌ لدعاء العبادة .

وقد قال تعالى عن خليله : ﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم:٤٨، ٤٩] ، فصار الدعاءُ من أنواع العبادة ؛ فإنَّ قَوْلَهُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم:٤] .

وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه ؛ كقوله : ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٥، ٥٦] ، وهذا هو دعاءُ المسألة المتضمن للعبادة ؛ فإنَّ الداعي يرغبُ إلى المدعو ، ويخضع له ويتذلل ، وغير ذلك .

وضابطُ هذا: أن كلَّ أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ، ففعلُه لله عبادة ، فإذا

صرف من تلك العبادة شيئًا لغير الله ، فهو مشركٌ ، مصادمٌ لما بعث الله به رسوله من قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴾ [الزمر:١٤] (١) .

وهنا أودُّ أَنْ أنبه أن كثيرًا من الناس الآن يَشْكُون ويقولون : إننا ندعو الله كثيرًا ؛ أن يبدِّل الحال ، ويغير واقع الأمة ، ويضمِّد هذه الجراح ، ويحفظ هذه الدماء ، وهذه الأشلاء ،ومع ذلك لا نرى تغييرًا للواقع !

أقولُ: لأننا لم نفهم إلى الآن قضية الدعاء فهمًا صحيحًا ، على مراد الله ، وعلى مراد رسول الله ﷺ ؛ لأنَّ الدعاء لابد فيه من الأخذ بالأسباب ، لا بد أن نمتثل الأمر ، ونجتنب النهي ، ونقف عند الحد ، وأن نحقق شروط قبول إجابة الدعاء ،وبعد ذلك نتضرع إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ ولا نسأل أحدًا سواه ، ولا نستعين إلَّا به جلَّ وعلا ، والله سبحانه وتعالى يقول في آخر سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:١٩٠، ١٩٤].

تأمل بعدها قوله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ ﴾ [آل عمران:١٩٥] وهنا لم يقُلْ : أني لا أضيع دعوة داع ؟ لا ؛ بل قال : ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ ﴾ [آل عمران:١٩٥] .

---

(١) هذا النقل عن « فتح المجيد » (ص١٧٥، ١٧٦ ط ابن رجب) (الباب :١٣) .

نعم .. لابد من العمل ! وها هو النبيُّ ﷺ في بَدْر يستغيث الله ﷻ ، حتى سقط رداؤه من على منكبيه ، ويأتي الصِّدِّيق من ورائه يلتزمه ، ويردُّ الرداء على ظهره ؛ فعن ابن عباس قَالَ : حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ الْقِبْلَةَ ؛ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ : « **اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ** »؛ فَمَازَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَقَالَ : يَا نَبِيَّ الله ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩] ، فَأَمَدَّهُ الله بِالْمَلاَئِكَةِ »[(١)].

فالنبيُّ ﷺ في أرض المعركة قد صف الصفوف ،وجند الجنود ، ووقف بينهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أخذ بجميع الأسباب ، وبعد ذلك تضرع إلى الله ـ تبارك وتعالى .

أمَّا أَنْ يَأكُلَ الناسُ الحرام ، ويلوثوا أيديهم بالحرام ، ويلوثوا جوارحهم بالمعاصي ، ثم بعد ذلك يرفعون أيديهم إلى السماء ، ويتضرعون إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ فأَنَّى يستجاب لهم ؟!! ، يقول لي قائلٌ : ألا يسمع ربنا هذه الدعوات في الحرمين ، وفي المساجد التي تضجُّ إليه ، في الليل والنهار ، بالدعاء؟!! ألا يغير الله هذا الواقع ؟ ألا يُبدِّل الله هذا الحال؟!

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم (١٧٦٣).

وأنا أقول: فلنغير نحن أنفسنا أولًا ؛ وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] ؛ وكما قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣] .

وفي «**صحيح مسلم**»[١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الله طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ الله أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ؛ فَقَالَ :** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون:٥١] ، **وَقَالَ :** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة:١٧٢] ، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟** » .

وهذه هي القضية ! فالأمة إلى الآن لم تفهم قضية الدعاء ،ولم تحقق ـ جيِّدًا ـ هذه الطاعة ؛ والدعاء عبادة من أعظم العبادات ،وقربةٌ من أجلِّ القربات ، وطاعةٌ من أشرف الطاعات ؛ فلابد أن تعي الأمة هذه الحقيقة ،وأن تعرف الأمة مقتضيات هذه العبادة ؛ عبادة الدعاء ؛ فلنمتثل الأمر ،ولنجتنب النهي ، ثم بعد ذلك فلنسأل الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وحْدَهُ ؛ فإنه لا يجوز البتة أن تُصْرَفَ عبادة الدُّعاء لغير مستحقها ووليها ، وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ فهذا شِرْكٌ باتفاق .

وأودُّ أن أنبه كثيرًا من إخواننا ، وأخواتنا ، ممن يقنطون وييأسون حينما يَدْعُون الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا يرون الإجابة على الفور ، ربما يكفُّ بعد ذلك عن الدعاء !! وهذا مَدْخَلٌ خطيرٌ أيضًا من مداخل الشيطان ؛ **روى الإمام أحمد وغيره بسندٍ حسنٍ** عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **ما**

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها رقم (١٠١٥) .

مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ ، وَلاَ قَطِيعَةُ رَحِمٍ ، إِلاَّ أَعْطَاهُ الله بِهَا إِحْدَى ثَلاَثٍ : إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا » قَالُوا : إِذاً نُكْثِرُ ؟! قَالَ : « الله أَكْثَرُ »[1].

أي : الله أكثر إجابة .

إذًا ؛ لا تيأس ، فإن أجابك الله تعالى على الفور ؛ فهذا فَضْل ورحمة، وإن لم يُجْبك ، وادُّخر لك الأجر ، والفضل في الآخرة ؛ فهو أعظم من الأولى ، وإما أن يَصْرِف الله ﷻ عَنْكَ من السوء مثلها ، وأنت لا تدري .

ومن جميل ما قاله نبيُّنا ﷺ ؛ كما « **الصَّحِيحَيْنِ** »[2] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ : « **يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ : دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي** ». وفي لفظٍ عند مُسْلمٍ : قِيلَ : يَا رَسُولَ الله ، مَا الِاسْتِعْجَالُ ؟ قَالَ : « **يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُ ،**

---

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » (٣/ ١٨) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٧٢٠) ، وعبد بن حميد (٩٣٧) ، والحاكم (١/ ٤٩٣) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وأبو يعلى (١٠١٩) قال المنذريُّ : « بأسانيد جيدة » (« الترغيب والترهيب » (١/ ٦٥٤ط التوفيقية) .

وله **شاهدٌ** من حديث عبادة ؛ أخرجه الترمذي ،كتاب « أحاديث شتى » ، باب في انتظار الفرج وغير ذلك (٣٥٧٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه » ،وأحمد (٥/ ٢٨٤) ، وحسنه العلامة الألباني في « صحيح الجامع » (٥٦٣٧) .

وله شاهد عن أبي هريرة ؛ وله عنه طرق ؛ كما عند الترمذي ؛ أحاديث شتى ، باب في الاستعاذة (٣٦٠٤م ٣ـ٤) وقال : « هذا حديث غريب » ، وأخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٦٦٣) من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعًا . وبرقم (٧٢١) ، وأحمد (٢/ ٤٤٨) من وجه آخر كذلك عنه ؛ قال المنذري : « إسناده لا بأس به » ، («الترغيب» ١/ ٦٥٤) .

وله **شاهدٌ** من حديث جابر ؛ أخرجه الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة (٣٣٨١) ، وأحمد (٣/ ٣٦٠) وفيه ابن لهيعة .

وفي « الموطأ » عن زيد بن أسلم أنه كان يقول : فذكره من قوله . قال ابن عبد البر : « مثل هذا يستحيل أن يكون رأيًا واجتهادًا ، وإنما هو توقيف ،وهو خبر محفوظ عن النبيِّ ﷺ»، « الموطأ» كتاب القرآن ، باب ما جاء في الدعاء ، (٣٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الدعوات ، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل (٦٣٤٠) ،ومسلم ،كتاب الذكر والدعاء ، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل (٢٧٣٥) .

وَقَدْ دَعَوْتُ ، وَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَيَدَعُ الدُّعَاءَ ».

هذا بإيجازٍ شديد عن هذه العبادة الجميلة العظيمة ؛ ألا وهي عبادة الدعاء .

وَلله دَرُّ مَنْ قَالَ :

بِـكَ أَسْـتَجِيرُ ومَـنْ يُجِـيرُ سُـوَاكَ فَـأَجِرْ ضَـعِيفًا يَحْتَمِـي بِحِـمَاكَ

إِنِّي ضَـعِيفٌ أَسْـتَعِينُ عَـلَى قَـوِيٍّ ذَنْبِـي وَمَعْصِـيَتِي بِـبَعْضِ قُـوَاكَ

أَذْنَبْــتُ يَــا رَبِّ وَقــادَتْنِي ذُنُـوبٌ مَـا لَهَـا مِـنْ غَـافِرٍ إِلاَّك

دُنْيَـاي غَرَّتْنِـي وعَفْـوُك شَـدَّنِي مَــا حِيلَتِــي فِي هَــذِهِ أَوْ ذَاكَ

لَـوْ أَنَّ قَلْبِـي شَـكَّ لَمْ يَـكُ مُؤْمِنًـا بِكَرِيمِ عَفْوِكَ مَا غَـوَى وَعَصَـاكَ

رَبَّاهُ هَا أَنَا ذَا خُلِّصْتُ مِنَ الهَوى واسْـتَقْبَلَ القَلْـبُ الخَلِيُّ هُـدَاكَ

رَبَّــاهُ قَلْــبٌ تَائِــبٌ نَاجَــاكَ أَتَــرُدُّهُ وتَــرُدُّ صَــادِق تَــوْبَتِي

حَاشَــاكَ تَــرْفُضُ تَائِبًــا حَاشَــاكَ فلْـيَرْضَ عَنِّي النَّاسُ أَوْ فَلْيَسْـخَطُوا

أَنَا لَمْ أَعُدْ أَسْعَى لِغَيْرِ رِضَاكَ

*****

النوع الثاني من أنواع العبادة: الخَوْفُ

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« وَدَلِيلُ الخَوْفِ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] » .

الشرح

هذا نوعٌ آخر من أنواع العبادة التي لا ينبغي أبدًا أن تصرف إلاَّ لله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ والخوف مقامٌ من أفضل مقامات الدين ، وأجمع أنواع العبادة ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

والخوف عبودية القلب ، فلا يصلح إلا لله ، كالذلِّ والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء ، وغيرها من عبودية القلب ؛ كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله (١) .

تعريف الخوف :

قال الراغب (٢) :«الخوف: توقع مكروهٍ عن أمارة مظنونة أو معلومة .

ويضادُّ الخوف : الأمن ، والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد ؛ بل إنما يراد به الكفُّ عن المعاصي ، واختيار الطاعات ، ولذلك قيل : « لا يُعدُّ خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا » .

وقيل : الخوف : اضطراب القلب وحركته من تذكُّر المخوف .

وقيل : هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره (٣) .

---

(١) « طريق الهجرتين » (٤٣٧) .

(٢) « المفردات » (١٦٦) ط التوفيقية.

(٣) «المدارج» لابن القيم (١/ ٤٨٧) ط التوفيقية .

واعلم أن الخوف سراج في القلب ، به يبصر العبد ما فيه من الخير والشر ، وكلُّ أحدٍ إذا خفتَه هربت منه إلا الله ﷻ ، فإنك إذا خفته هربت إليه . فالخائف هاربٌ من ربه إلى ربه . وما فارق الخوف قلبًا إلا خرب ، وهو سْوطٌ يقوِّم الله به الشاردين عن بابه [1] .

وحقيقته ؛ كما قال شيخ الإسلام : « الخوف المحمود : ما حجزك عن محارم الله » [2] .

منزلة الخوف :

قَالَ ابنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ رحمه الله : « إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ لِيَعْرِفُوهُ وَيَعْبُدُوهُ وَيَخْشَوْهُ وَيَخَافُوهُ ، ونَصَبَ لَهُمُ الأدِلَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ لِيَهَابُوهُ وَيَخَافُوهُ خَوْفَ الإِجْلاَلِ ، وَوَصَفَ لَهُمْ شِدَّةَ عَذَابِهِ ودَارَ عِقَابِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِمَنْ عَصَاهُ لِيَتَّقُوهُ بِصَالِحِ الأَعْمَالِ ،وَلِهَذَا كَرَّرَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِي كِتَابِهِ ذِكْرَ النَّارِ وَمَا أَعَدَّهُ فِيهَا لأَعْدَائِهِ مِنَ العَذَابِ وَالنَّكَالِ ، وَمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الزَّقُّومِ والضَّرِيعِ والحَمِيمِ والسَّلاَسِلِ وَالأَغْلاَلِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهَا مِنَ الْعَظَائِمِ وَالأَهْوالِ ، وَدَعَا عِبَادَهُ بِذَلِكَ إِلَى خَشْيَتِهِ وَتَقْوَاهُ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى امْتِثَالِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَاجْتِنَابِ مَا يَنْهَى عَنْهُ وَيَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، فَمَنْ تَأَمَّلَ الْكِتَابَ الْكَرِيمَ وَأَدَارَ فِكْرَهُ فِيهِ وَجَدَ مِنْ ذَلَكَ الْعَجَبَ العُجَابَ ، وَكَذِلِكَ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي هِيَ مُفَسِّرةٌ وَمُبَيِّنَةٌ لِمَعَانِي الْكِتَابِ ، وَكَذَلِكَ سِيَرُ السَّلَفِ الصَّالِحِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، مَنْ تَأَمَّلَهَا عَلِمَ أَحْوَالَ الْقَوْمِ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالخَشْيَةِ وَالإِخْبَاتِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي رَقَّاهُمْ إِلَى تِلْكَ الأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ وَالْمَقَامَاتِ السَّنِيَّاتِ ، مِنْ شِدَّةِ الاجْتِهَادِ فِي

(١) المصدر السابق (١/ ٤٨٨).

(٢) «المدارج» (١/ ٥١٤) ، (٢/ ٣٩٤) .

الطَّاعَاتِ وَالانْكِفَافِ عَنْ دَقَائِقِ الأَعْمَالِ وَالْمَكْرُوهَاتِ فَضْلاً عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ»(١).

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : «الْقَدْرُ الوَاجِبُ مِنَ الْخَوفِ مَا حَمَلَ عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ ، فَإِنْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ ، بِحَيْثُ صَارَ بَاعِثًا لِلنُّفُوسِ عَلَى التَّشْمِيرِ فِي نَوافِلِ الطَّاعَاتِ وَالانْكِفَافِ عَنْ دَقَائِقِ الْمَكْرُوهَاتِ وَالتَّبَسُّطِ فِي فُضُولِ الْمُبَاحَاتِ ، كَانَ ذَلِكَ فَضْلاً مَحْمُودًا ، فَإِنْ تَزَايَدَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ أَوْرَثَ مَرَضًا أَوْمَوْتًا ، أَوْهَمًّا لازِمًا ، بِحَيْثُ يَقْطَعُ عَنِ السَّعْيِ فِي اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ الْمَطْلُوبَةِ الْمَحْبُوبَةِ لله عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ مَحْمُودًا »(٢).

وَقَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ : «إِنَّ الخَوْفَ مِنَ المَقَامَاتِ العَلِيَّةِ ، وَهُوَ مِنْ لَوازِمِ الإِيمَانِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] ، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِالله وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً** »(٣) . وَكُلَّمَا كَانَ العَبْدُ أَقْرَبَ إِلَى رَبِّهِ كَانَ أَشَدَّ لَهُ خَشْيَةً مِمَّنْ دُونَهُ ، وَقَدْ وَصَفَ الله تَعَالَى المَلائِكَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل:٥٠] ، وَالأَنْبِيَاءَ بِقَوْلِهِ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩] ، وَإِنَّمَا كَانَ خَوْفُ الْمُقَرَّبِينَ أَشَدَّ ؛ لأَنَّهُمْ يُطَالَبُونَ بِمَا لاَ يُطَالَبُ بِهِ غَيْرُهُمْ فَيُرَاعُونَ تِلْكَ المَنْزِلَةَ ، وَلأَنَّ الوَاجِبَ لله مِنْهُ الشُّكْرُ عَلَى المَنْزِلَةِ فَيُضَاعَفُ بِالنِّسْبَةِ لِعُلُوِّ تِلْكَ المَنْزِلَةِ ، فَالعَبْدُ إِنْ كَانَ مُسْتَقِيمًا فَخَوْفُهُ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ لِقَوْلِهِ ـ تَعَالَى : ﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال:٢٤] ، أَوْ نُقْصَانِ الدَّرَجَةِ بِالنِّسْبَةِ ، وَإِنْ كَانَ مَائِلاً فَخَوْفُهُ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ ، وَيَنْفَعُهُ ذَلِكَ مَعَ

---

(١) «التخويف من النار» لابن رجب (٦، ٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٢١) .

(٣) وهو في « الصحيحين » كما سيأتي .

النَّدم وَالإِقْلاَع ؛ فَإِنَّ الخَوْفَ يَنْشَأُ مِنْ مَعْرِفَةِ قُبْح الجِنَايَةِ وَالتَّصْدِيقِ بِالْوَعِيدِ عَلَيْهَا ، وَأَنْ يُحْرَمَ التَّوْبَةَ ، أَوْ لاَ يَكُونَ مِمَّنْ شَاءَ الله أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ، فَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ ذَنْبِهِ طَالِبٌ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ فِيمَنْ يَغْفِرُ لَهُ »[1] .

من معاني كلمة الخوف في القرآن الكريم :

قَالَ الفَيْرُوزُآبَادِيُّ : « وَقَدْ وَرَدَ الخَوْفُ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا :

الأَوَّلُ : بِمَعْنَى القَتْلِ وَالهَزِيمَةِ : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ ﴾ [النساء:٨٣] ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ﴾ [البقرة:١٥٥]، أَيْ : القَتْلِ .

الثَّانِي : بِمَعْنَى الحَرْبِ وَالقِتَالِ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ [الأحزاب:١٩] ، أَيْ : الحَرْبُ .

الثَّالِثُ : بِمَعْنَى العِلْمِ وَالدِّرَايَةِ : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا ﴾ [البقرة:١٨٢] ، أَيْ : عَلِمَ ، ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٢٩] ، أَيْ : يَعْلَمَا ، ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ [النساء:٣] ، أَيْ : عَلِمْتُمْ .

الرَّابِعُ : بِمَعْنَى النَّقْصِ : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل:٤٧] ، أَيْ : تَنَقُّصٍ .

الخَامِسُ : بِمَعْنَى الرُّعْبِ وَالخَشْيَةِ مِنَ العَذَابِ وَالعُقُوبَةِ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة:١٦] »[2] .

أنواعُ الخَوْف :

وَالخَوْفُ نَوْعَان :

خَوْفٌ جِبِلِّيٌّ طبيعيٌّ فطريٌّ : ولا إثم عليك إن أصابك شيء من هذا الخوف ، مثل : أن ترى سيارة مقبلة عليك بسرعة ، فتخاف ، أو كأن تخاف

---

(١) البخاري « الفتح » (١١/ ٣١٣) .

(٢) « بصائر ذوي التمييز » للفيروزآبادي (٢/ ٥٧٨، ٥٧٩) نقلاً عن « نضرة النعيم » (١٨٦٧، ١٨٧٨) .

من الغرق ،أو أن تخاف من الهدم ،أو من المرض ؛ فهذا خوفٌ لا شيء فيه ؛ فهو خوفٌ جبليٌّ طبيعيٌّ فطريٌّ .

أما الخوف الذي لا ينبغي أن تصرفه إلاَّ لله ـ تبارك وتعالى ـ فهو خوف الضر ، والنفع ؛ فيجب أن يكون العبد على يقينٍ ، بأن الضرَّ والنفع بيد الله ـ تبارك وتعالى : فأنت لا تخشى من أحدٍ فيما لا يقدر عليه إلاَّ الواحد الأحد ؛ لكن ربما تخشى إنسانًا ؛ لأنه يستطيع أن يضرك في أمرٍ ما ، فهذا لا حرج فيه ؛ لكن بشرط أن تكون على يقين أن الضر والنفع بيد ـ تبارك وتعالى ـ فهذا لا يملكُ أن يضرك أو أن ينفعك إلا بأمر الله سبحانه ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧] .

وقال النبيُّ ﷺ ـ **كما في « مسند أحمد » ، و« سنن الترمذي » ، وغيرهما ـ** بسندٍ صحيح [(١)] ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمًا ؛ فَقَالَ : « **يَا غُلَامُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ**

---

(١) أخرجه عبد الله بن وهب في «القدر» (٢٨) ، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٣) ، والترمذي ،كتاب صفة القيامة ؛ باب (٥٩) (حديث ٢٥١٦) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ـ واللفظ له ـ من طرقٍ عن قيس ابن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس . وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (٦٣٦) من طريق المثنى به الصباح عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس . وتابع المثنى : عبد الواحد ابن سليم ؛ كما في «مسند علي بن الجعد» (٣٤٤٥) ، وابن أبي الدنيا في «الفرج» (٦) ، والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٧٨) ، وتوبع عطاء من عمر مولى غفرة ؛ كما في « القدر » للفريابي (١٥٥) ، و«الزهد» لهناد بن السري (٥٣٦) ، وابن أبي مليكة كما عند الطبراني في « الكبير » (١١/ ١٢٣) ، والحاكم (٣/ ٥٤٢) .

وللحديث شواهد كثيرة ؛ ضربنا عنها الذكر صفحًا خشية الإطالة ؛ والحديث توسع في شرحه وبيان طرقه الحافظ ابن رجب في « جامع العلوم والحكم » (الحديث التاسع عشر) (٤٩٥) ، ثم قال : « وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة ، وبعضها أصلح من بعض ، وبكلِّ حالٍ ؛ وطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة .

وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة ، وقواعد كليَّة من أهم أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء : تدبرتُ هذا الحديث فأدهشني ، وكدت أطيش ، فوا أسفى من الجهل بهذا الحديث ، وقلة التفهم لمعناه » انتهى المراد . والحديث صححه العلامة الألباني في « الصحيحة » (٢٣٨٢) ، وانظر : « الضعيفة » (برقم : ٥٠١٧) .

تُجاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ ».

والخوفُ ـ أحبتي ـ شعورٌ يملأ القلب ، فيدفع هذا الشعورُ صاحبه لعملِ الطاعات ،واجتنابِ المعاصي ؛ فليس الخائفُ مِن يبكي ويمسح عينيه ، ولكنَّ الخائف من يتركُ ما يخاف أن يعاقبه الله عليه [(١)] ؛ هذا هو الذي يريده الله ﷻ منا ، أمَّا أن أسمع الموعظة وأتأثر وأبكي ، ثم أتجرأ بعدها على معصية الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فإن هذا لا يعدُّ خوفًا على الحقيقة !!

قَالَ الفُضَيلُ بْنُ عِيَاضٍ [(٢)]: « من خاف الله ﷻ دَلَّه الخوف على كلِّ خيرٍ ، وكُلُّ قلبٍ ليس فيه خوفُ الله ، فهو قلْبٌ خرب » [(٣)].

وفي «الزهد» لابن المبارك ، و«الوجل» لابن أبي الدنيا ، و«الحلية» لأبي نعيم ، و« تهذيب الكمال » للمزي [(٤)]: أن المغيرة بن مخادش سأل الحسن البصري ؛ فقال : يا أبا سعيد ، كيف نصنعُ بمجالسة أقوام ها هنا يحدثوننا حتى تكاد قلوبنا أن تطير؟! قال : «أيها الشيخ ، إنك والله لئن تصحب أقوامًا يخوفونك حتى تدرك أمنًا خيرٌ لك من أنْ تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف » .

وقد أمر الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بالخوف منه سبحانه في أكثر من موضع ؛ كما

---

(١) « إحياء علوم الدين » (٤/ ٢٢٥) ط فياض / بيان حقيقة الخوف .

(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤) ط فياض .

(٣) قال أبو سليمان الداراني : « ما فارقَ الخوفُ قلبًا إلا خرب » (« الإحياء » ٤/ ٢٣٤) .

(٤) أخرجه ابن المبارك (٣٠٣) ، وابن أبي الدنيا في « الوجل والتوثق بالعمل » (٣) ، والمزى في «تهذيبه » (٧/ ١١٤) ، وأبو نعيم (٢/ ١٥٠) . وذكره صاحب « الإحياء » (٤/ ٢٣٤) .

قال ـ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:١٧٣ـ ١٧٥] .

فنهى الله المؤمنين أن يخافوا من أولياء الشيطان ، وأمرهم أن يفردوه وحده سبحانه بالخوف ، ويقول سبحانه : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠] ، وَيَقُولُ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[آل عمران:٣٠] .

ويقول ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج:١٢] ؛ بل وجمع الله لأهل الخوف أعلى مقامات أهل الجنان من الهدى ، والعلم ، والرحمة إلى غير ذلك ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾[الأعراف:١٥٤] ، وَقَالَ ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] ، ووصف الله أهل الإيمان بقوله : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة:١٦] ، والآيات في هذا المقام عظيمةٌ كثيرة ؛ فما سكن الخوفُ قلبًا ، إلا ودَلَّ الخوفُ صاحبه على كلِّ خير ، وحَالَ بينه وبين كلِّ شر ، والمؤمن لا يخلو قلبه أبدًا من خوف وإن قَلَّ ، وهذا الخوف يزيدُ ويقلُّ بحسب الإيمان ،وبحسب معرفةِ العبد بربه ـ تبارك وتعالى ـ كما قال النبيُّ ﷺ : « **فَوَالله إِنِّي لأَعْلَمُهُمْ بِالله وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً** »[(١)] ؛ فكُلَّما عرفتَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأسماء جلاله ، وصفات كماله عرفتَ قدْرَهُ ـ تبارك وتعالى ـ فامتلأ قلبك بالحبِّ لله ، والخوف من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ نسأل الله أن يملأ قلوبنا بحبه تبارك وتعالى ، وبخشيته ، ورهبته ، والخوف منه ، إنه وليُّ ذلك

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠١) ، ومسلم ، في كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته (٢٣٥٦) .

والقادر عليه .

ومن أمتع ما قرأتُ ؛ ما أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما [(١)] من حديث أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ ، فَقَالَ : «**كَيْفَ تَجِدُكَ ؟** ». قَالَ : وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ** ».

بل ؛ وفي « **الصَّحِيحَيْنِ** » [(٢)] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « **ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ ـ أَوْ قَبْلَكُمْ ـ آتَاهُ اللهُ مَالاً وَوَلَدًا** ، يعني : أعطاه ، **قَالَ : فَلَمَّا حُضِرَ ؛ قَالَ لِبَنِيهِ : أَيُّ أَبٍ كُنْتُ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللهِ خَيْرًا** (فسرها قتادة : لم يدَّخِر) **وَإِنْ يَقْدَم على الله يُعَذِّبْهُ ، فَانْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي ـ أَوْ قَالَ : فَاسهَكُونِي ، ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا ، فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي ، فَفَعَلُوا ، فَقَالَ اللهُ : كُنْ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : « مَخَافَتُكَ » أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ ، فَمَا تَلاَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللهُ** » .

نعم .. من خاف الله أَمَّنَهُ وَطَمْأَنَهُ ،وأدركته الرحمة والمغفرة ؛ بل إن الخائف من الله في ظلِّ عرش الرحمن يوم القيامة ؛ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**» [(٣)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ** ـ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الجنائز ، باب (١١) (حديث ٩٨٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦١) ، وعبد بن حميد (١٣٧٠) وصححه لغيره العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٠٥١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب الخوف من الله (٦٤٨١) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة باليمين (١٤٢٣) ، ومسلم ،كتاب الزكاة ، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١) .

وذكر منهم : وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ » .

ومن الأحاديث الجميلة ؛ ما رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما (١) من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠] ، قَالَتْ عَائِشَةُ : أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ ؟ قَالَ : « لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ ، وَيُصَلُّونَ ، وَيَتَصَدَّقُونَ ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ » .

والسِّرُّ في خوف المؤمنين أن لا تقبل منهم عبادتهم ، ليس هو خشيتهم ألا يوفيهم الله أجورهم ؛ فإن هذا خلاف وعد الله إياهم في مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [النساء:١٧٣] ؛ بل إنه ليزيدهم عليها ؛ كما قال : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [فاطر:٣٠] ، والله تعالى لا يخلف وعده ؛ كما قال في كتابه ، وإنما السِّرُّ أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله ﷻ، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله ؛ بل يظنون أنهم قصروا في ذلك ،ولهذا فهم يخافون أن لا تقبل منهم .

فليتأمل المؤمن هذا عسى أن يزداد حرصًا على إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله ، وذلك بالإخلاص فيها له ، واتباع نبيه ﷺ في هديه فيها ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١٠] (٢) .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن ، باب (ومن سورة المؤمنون)(٣١٧٥) واللفظ له ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب التوقي على العمل (٤١٩٨) ، وأحمد (٦/ ١٥٩، ٢٠٥) ، والحميدي (٢٧٥) ، وصححه بالشواهد العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٦٢) .

(٢)« السلسلة الصحيحة » (تحت الحديث السابق برقم ١٦٢) .

درجاتُ الخوفِ وأنواعه[(١)] : أولاً : الخَوْفُ مِنْ مَكْر الله تَعَالَى : قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] ، نعم ، الأمن مِنْ مَكْر الله علامةُ شؤم ، وعلامة خسران ، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ؛ كقلبٍ واحدٍ ، يُقَلِّبها حيثُ شاء ، وكيف شاء ، وما سُمِّي القلبُ قلبًا إلا لكثرة تقلبه .

وفي « صحيح مسلم » [(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما **أَنَّهُ سَمِعَ** رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ** » .

وفي رواية لأحمد والترمذي وغيرهما [(٣)] من حديث أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

---

(١) **وقد قال الغزاليُّ في « الإحياء» (٤/ ٢٤٢)** : « اعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين :
أحدهما : الخوف من عذابه .
والثاني : الخوف منه .
فأما الخوف منه ؛ فهو خوف العلماء ، وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سرِّ قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨] ، وقوله ﷻ : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .
وأما الأول : فهو خوف عموم الخلق ،وهو حاصلٌ بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإنما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة ، وتزول أيضًا بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ؛ فإن فاتت المشاهدة ، فالسماع لا يخلو عن تأثير .
وأما الثاني : وهو الأعلى ، فأن يكون الله هو المخوف ، أعنى أن يخاف العبد الحجاب عنه ، ويرجو القرب منه ، وهذه خشية العلماء ؛ حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، ولعموم المؤمنين أيضًا حظٌّ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد فلا جرم يضعف ، ويزول على قرب » .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (رقم ٢٦٥٤) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، في كتاب الدعوات ، رقم (٣٥٢٢) ، وابن أبي شيبة (٦/ ١٦٨) ط الرشد، وأحمد (٦/ ٣٠٢، ٣١٥) ، والطيالسي (١٦٠٨) ، وأبو يعلى (٦٩١٩) ، وحسنه لغيره الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩١) ومن شواهده ؛ ما رواه أحمد (٤/ ١٨٢)عن النواس ، (٦/ ٩١) عن عائشة .

قَالَ : « **إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ ، وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ** ». فَتَلاَ مُعَاذٌ ـ أحد رجال السند : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨] . نسأل الله ﷻ أن يثبت قلوبنا .

فكَمْ من غنيٍّ أصبح فقيرًا ، وكَمْ من فقير أصبح غنيًّا ،وكم من عزيز أصبح ذليلاً ، وكم من ذليل أصبح عزيزًا ، وكم من طائع أصبح شقيًّا ، وكم من شقيٍّ أصبح تقيًّا ؛ فلا تأمن مكر الله ، واعْلَم بأنَّ قلبك كالريشة في مهبِّ الريح تقلبها الريحُ في الساعة آلاف المرات ؛ فقلبك في مجلس علمٍ على حال ، فإنْ خرجت وجلست مع صحبة ؛ يتحول قلبك إلى حالٍ آخر ؛ فإن جلست أمام فيلم أو مسلسل ؛ يتحول قلبك إلى حال الثالث .. وهكذا ؛ فالقلب يتقلَّب !! ومكمن الخطر أن الفتن لا تعرض على السمع والبصر وفقط ؛ بل تُعْرض على القلوب ، كما في «**صحيح مسلم**» من حديث حذيفة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا ، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ** »(١) . نسأل الله أن يثبت قلوبنا على الإيمان وعلى الحق .

إذًا الأمْنُ من مَكْر الله دليلُ خسران ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] .

أما الخوفُ من مَكْر الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فهو علامةٌ من علامات الصدق ،

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب « الإيمان » ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٤) .

وعلامة من علامات الإيمان ؛ لأنَّ الخوف ثمرةٌ من ثمرات الإيمان ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥] .

وها هو سيد الخلق ، وإمام الصدق ﷺ لا يأمن مكر الله وعذابه ؛ ففي « **الصَّحِيحَيْنِ** »[١] من حديث عَائِشَةَ ؓ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، أَنَّهَا قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ ، قَالَتْ : وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ، أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا ، رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ ، عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ ، قَالَتْ : فَقَالَ : « **يَا عَائِشَةُ ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا : هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا** ».

ثانيًا : الخوف من سوء الخاتمة :

نسأل الله أن يرزقنا حسن الخاتمة ، والله لقد مزَّق هذا النوع من أنواع الخوف قلوبَ الصديقين ؛ بل قلوب الصالحين ، وقلوب النبيين والمرسلين .

فها هو النَّبِيُّ ﷺ يقول ـ كما في « **صحيح البخاري** »[٢] من حديث خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَفِيهِ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ عُثمان بنْ مظعُون[٣] ؓ قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ ـ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ بَايَعَتْ رَسُولَ ﷺ : « رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ الله » فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ الله قَدْ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب «تفسير القرآن» (رقم ٤٨٢٨، ٤٨٢٩) ، ومسلم ، كتاب «صلاة الاستسقاء»، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر (٨٩٩/ ١٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الجنائز » ، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (١٢٤٣) ، وانظر : ٧٠٠٣، ٧٠٠٤) .

(٣) وهو أول من لُقِّب بالسلف بالصالح ، وقد شهدًا بدرًا ؛ قال الذهبي في « السير » (٢/ ٣١٥) : « عثمان بن مظعُون .. أبو السائب ؛ من سادة المهاجرين ، ومن أولياء الله المتقين ، الذين فازوا في حياة نبيهم ، فصلَّى عليهم . وكان أبو السائب ؓ أول من دفن بالبقيع » .

أَكْرَمَهُ ؟ » فَقُلْتُ : بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ الله؟ فَقَالَ : «**أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَالله إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ ، وَالله مَا أَدْرِي ، وَأَنَا رَسُولُ الله ، مَا يُفْعَلُ بِي** ».

فرسولُ الله ﷺ ، لا يدري ما يفعل به ، وما هذا إلا لصدق الخوف من سوء العاقبة ، أليس هو القائل ـ بأبي هو وأمي وروحي ـ كما في « **الصحيحين** » من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : « **إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا** » (١).

وهذا معاذُ بن جبل ؛ إمام العلماء ، وسيد الأتقياء ، وحبيب رسول رب الأرض والسماء ، الذي أقسم له رسول الله ، وقال : « **يَا مُعَاذُ ، والله إِنِّي لأُحِبُّكَ** » ، لَمَّا ابتلي بطاعون عمواس في بلاد الشام ،ونام على فراش الموت ، وهو في ريعان شبابه ؛ قال لأصحابه (٢): « انظروا هل أصبح الصَّباح ، فنظروا ، وقالوا : ليس بعد ـ لم يصبح الصَّباح ـ فسكت ؛ ثم قال : هل أصبح الصَّباح ، قالوا : ليس بعد ، ثم قالوا : ماذا تريد ؟ فقال معاذ بن جبل : « أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار » ، ثم بكى ،وقال : « اللَّهُمَّ إنك تعلم أني كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك ، اللَّهُمَّ إنك تعلم أني ما أحببت الدنيا لغرس الأشجار ، أو لكري ـ لجري ـ لحفر ـ الأنهار ، ولكن لظمأ الهواجر ـ في الحر الشديد ـ ومكابدة الساعات ـ لمكابدة الليل ـ ومزاحمة العلماء بالركب عند

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) ، ومسلم ، في كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابه رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٣) واللفظ له .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٢٧) ،وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٩) ، وابن عساكر (٥٨/ ٤٥٠) .

حِلَق الذكر » ، ثم فاضت روحه ، وهو يردِّدُ كلمة التوحيد رضي الله عنه .

ولما نام سفيان الثوري على فراش الموت بكى ، فدخل عليه أحد الناس ليعوده ، فسمع بكاءه ؛ فقال : يا أبا عبد الله أتخشى ذنوبك ، فأخذ عودًا صغيرًا من الأرض وقال : « لا والله لذنوبي أهون عندي من مثل هذا ، ثم بكى وعلا صوته ، وقال : ولكني أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت » (١) .

فسفيان الثوري ؛ إمام الزهد ، والعدل ، والعلم ، والورع ، يخشى أن يسلب الإيمان قبل الموت ، وهو على فراش الموت ؛ لما دخل عليه حماد ابن سلمة رحمه الله وقال : « أبشر يا أبا عبد الله ! إنك مقبل على من كنت ترجوه ، وهو أرحم الراحمين ؛ فبكى سفيان ، وقال: أسألك بالله يا حماد أتظن أن مثلي ينجو من النار » .

وهذا الشافعيُّ ، إمام العلم ، لَمَّا نام على فراش الموت دخل عليه تلميذه المزني ؛ وقَالَ : كيف أصبحْتَ يا أبا عبد الله ؛ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، وللإخوان مفارقًا ،ولعملي ملاقيًا ،ولكأس المنية شاربًا ، وعلى الله واردًا ، ولا أدري أتصير روحي إلى الجنة فأهنئها ، أم إلى النار فأعزيها (٢) .

وهذا الإمام أحمد ـ إمام أهل السنة ـ يقول : « الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب ؛ فلا أشتهيه » (٣) .

فالخوف من سوء الخاتمة مزَّق قلوب الصادقين والصديقين ؛ فهذا نبينا صلى الله عليه وسلم كان يقف بين يدي الله يصلي ، وهو يبكي من شدة الخوف من الله ـ تبارك وتعالى ـ كما في الحديث الصحيح : عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : « أَتَيْتُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢) ،وفي «أخبار أصبهان» (١٩٢٣) . وانظر: «السير» (٧/ ٢٥٨) ، و« تاريخ الإسلام » (٤/ ٧٧) كلاهما للذهبي رحمه الله .

(٢) أخرجه البيهقيُّ في « الزهد » (٥٨١) ، وابن عساكر (٥٠/ ٣٣١) .

(٣) « صفة الصفوة » لابن الجوزي (١/ ٢٥٦) ، و« السير » للذهبي (١١/ ٢١٥) .

النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ » يَعْنِي: يَبْكِي [(١)] ، والمرجل : القِدْر إِذَا صار يغلي ؛ صوت غليانه .

ثالثًا : الخوفُ من عذاب الله في الآخرة :

وقد خافه الصالحون ؛ بل والأنبياء والمرسلون ؛ فقال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام:١٥] .

وفي وصف أهل الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد:٢١] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء:٥٧] ؛ لذا ؛ خوف الله به العباد ؛ كي يحذروه ؛ فقال : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر:١٦] ، وفي هذا المقام آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى عن أهل الإيمان : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور:٣٧] . وقال : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان:٧] ، وقال : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٠] ، وأثنى الله ثناءً عاطرًا على من حقَّقَ هذه الخصلة ؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦] .

روى مسلمٌ في «الصحيح» [(٢)] **عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : فَقَدْتُ رَسُولَ الله ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ ، فَالْتَمَسْتُهُ ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ ، وَهُوَ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ**

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك في « الزهد » (١٠٩) ، وأبو عبيد القاسم في « فضائل القرآن » (١٣٩) ، وأحمد (٤/ ٢٥ ، ٢٦) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب البكاء في « الصلاة » (٩٠٤) ، والنسائي في كتاب « السهو » ، باب البكاء في الصلاة (٣/ ١٣) وصححه النووي في « الرياض » (رقم ٤٥٥) وابن رجب في « فتح الباري » (٥/ ١٣٥) ، وابن حجر في « الفتح » (٢/ ٢٠٦) والألباني في « صحيح النسائي » .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ، (٤٨٦) .

مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

وهذا عمر الفاروق ﷺ ؛ ففي « صحيح البخاري » [(١)] أَنَّ عُمَرَ بنَ الخطاب قَالَ لَمَّا طُعِنَ : « وَالله لَوْ أَنَّ لِي طِلاَعَ الأَرْضِ ذَهَبًا لاَفْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ الله ﷻ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ » .

وفي « الزهد » لأحمد [(٢)] عن كعب قال : قال لي عمر بن الخطاب ﷺ يومًا وأنا عنده : يا كعبُ ، خوِّفنا » قال : فقلت : يا أمير المؤمنين : أوليس فيكم كتاب الله وحكمة رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى ، ولكن يا كعب ، خوفنا ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، اعمل عمل رجل لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبيًّا لازدرأت عملك مما ترى » .

وهذا عمر بن عبد العزيز دخل على امرأته ـ فاطمة ـ فطرح عليها خلق ساجٍ عليه ، ثم ضرب على فخذها ؛ فقال : « يا فاطمة لنحن ليالي دابق أنعم منا اليوم ، فذكَّرها ما قد نسيت من عيشها ، فضربت يده ضربة فيها عنف تنحيها عنها ، وقالت : لعمري لأنت اليوم أقدر منك يومئذٍ ؛ فقام وهو يقول بصوتٍ حزين : يا فاطمة ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يومٍ عظيم ، فبكت فاطمة ، وقالت : « اللهم أعذه من النار » [(٣)] .

وبكى الحسن البصري ، فقيل : ما يبكيك ؟ قال : « أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يُبالي » [(٤)] .

وقال الحسن [(٥)] : « لقد مضى بين يديكم أقوامٌ لو أن أحدهم أنفق عدد

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب « فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب (٣٦٩٢) .

(٢) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٢١) ، وعبد الرزاق في « التفسير » (٢/ ٣٨٣) ،وابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٤٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٦٩) ، وابن عساكر (٥٠/ ١٦٦) .

(٣) أخرجه الفسوي في « المعرفة » (١/ ٥٦٩) ومن طريقه ابن عساكر (٧٠/ ٣٢) .

(٤) « صفة الصفوة » (٣٥٨) ، و« الإحياء» (٥/ ١٦٢، ١٦٣) .

(٥) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٦٠) .

هذا الحصى لخشي ألا ينجو من عظم ذلك اليوم » .

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » (١) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ** ـ وفي رواية : جمرتان ـ **يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ** ».

فمن صور الخوف :

الخوف من عذاب الله في الآخرة ؛ فالطعام في النار نار ، والشراب في النار نار ، والثياب في النار نار .

طعامهم زقوم ، وطعامهم غسلين ، شرابهم حميم ؛ قال تعالى : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد:١٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف:٢٩] ، حتى الثياب تفصَّل لهم في النار من النار ؛ قال تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [الحج:١٩] ، وأشدُّ أنواع العذاب ؛ أن يحال بينك ، وبين النظر إلى وجه العزيز الوهاب ـ تبارك وتعالى ـ وهو قَوْلُ ربنا : ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة:٧٢] ، أي: أكبر من كلِّ ما في الجنة من ألوان النعيم ، وتلك هي السعادة ؛ فإن النظر إلى المنعم لا إلى الإنعام .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « الرقاق » ، باب صفة الجنة ، رقم (٦٥٦١) واللفظ له : (٦٥٦٢) ، ورواه مسلم ، في كتاب « الإيمان » باب أهون أهل النار عذابًا ، رقم (٢١٣) ، ولفظ : « جمرتان » عند الشيخين كذلك .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « الرقاق » ، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٤٩) ، ومسلم ، في كتاب «الجنة وصفة نعيمها» ، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة رقم (٢٨٢٩) .

وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالُوا : يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا ».

وَلله دَرُّ القَائِل [١] :

قليلٌ مِنكَ يَكْفِينِي ... وَلَكِنْ قَلِيلُكَ لا يُقَالُ لَهُ قَلِيلُ

وقال المتنبي [٢] :

وقنعت باللقيا وأول نظرة ... إن القليل من الحبيب كثير

فلا شك أن أخطر عقوبة أن يحرم العبد من النظر إلى وجه الله ـ تبارك وتعالى ـ في جنات النعيم ؛ لأن أعلى نعيم في الجنة ، هو التمتع بالنظر إلى وجه الله سبحانه ؛ قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] ، والنبيُّ ﷺ يقول ؛ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**» [٣] : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **قَالَ الله : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ** : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧]».

فيا أيها الأفاضل ؛ ما سكن الخَوفُ قلبًا ، إلا ودلَّ صاحبه على كلِّ خير ، وكلُّ قلبٍ ليس فيه خوف الله ـ تبارك وتعالى ـ فهو قلبٌ خرب ، وحقيقة الخوف ألا تخاف مع الله أحدًا ،ورحم الله عمر بن عبد العزيز إذ يقول : « من

---

(١) انظر : «الإتقان» للسيوطي (١/ ٥٥٧) ، و«معاهد التنصيص على شواهد التلخيص» للعباسي (٣٣٩) ونسبه لأبي نصر أحمد الميكالي ؛ وسيأتي .

(٢) « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي » (٥٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب بدء الخلق ، باب صفة الجنة ، رقم (٣٢٤٤) ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها (رقم ٢٨٢٤) .

خاف الله أخاف الله منه كلَّ شيء ،ومن لم يخف الله خاف من كلِّ شيء »[1] .

فالخوف : خوفٌ من مكر الله ، وخوفٌ من أن يحالَ بينك وبين النظر إلى وجه الله ـ تبارك وتعالى ـ في جنات النعيم ؛ نسأل الله ﷻ أن يملأ قلوبنا بالخوف منه .

فهذه العبادة لا يجوز البتة أن تُصْرَفَ إلا لله ـ سبحانه ـ بل هي ثمرة من ثمرات الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] ؛ فالخوف دليلٌ على كمال الإيمان ، وحسن الإسلام ، وسبب لسعادة العبد في الدارين ،والأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة ؛ نسأل الله أن يسعدنا بتحقيق هذه الخصلة الكريمة ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

(١) أخرجه البيهقيُّ في « الشعب » (٩٧٢) ، وراجع « الضعيفة » (٤٨٥) فقد روي مرفوعًا !

النوعُ الثالثُ مِن أنواعِ العبادةِ: الرجاءُ

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١٠] » .

الشرح

الرَّجَاءُ : مَصْدرُ قولهم : « رجوت » ، وهي التي تدلُّ على الأمل ، الذي هو نقيض اليأس ، قال الراغب : « والرجاء : ظنٌّ يقتضي حصول ما فيه مسرة » [١].

قال ابن القيم رحمه الله : قيل في حدِّ الرَّجَاءُ : هو النظر إلى سعة رحمة الله ـ جَلَّ وَعَلاَ [٢].

وقال في موضع آخر[٣] : « وأما حبس الرجاء : أن يخرج إلى الأمن ؛ فهو أن لا يبلغ به الرجاء إلى حدٍّ يأمن معه العقوبة ؛ فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؛ وهذا إغراق في الطرف الآخر ؛ بل حد الرجاء : ما طيَّب لك العبادة ، وحملك على السير » .

ومن فقه المصنف أن يُقرن الرجاء بالخوف ؛ فالخوف والرجاء جناحان يطير بهما السالكون إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ للوصول إلى كلِّ مقام محمود [٤]،

---

(١) « المفردات » للراغب (١٩٤) ، و« لسان العرب »(٥/ ١٦٣ مادة رجا) .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/ ٣٦) ط دار الكتاب العربي .

(٣) « المدارج » (٢/ ٣٩٤) .

(٤) قال الغزالي في « الإحياء » (٤/ ٢٠٥) ، في كلمات جميلةٍ : « إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفًا بمكاره القلوب ،ومشارق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ، ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم ـ مع كونه محفوفًا بلطائف الشهوات =

ولا يمكن أبدًا أن يحلق طائرٌ جَبَّار في الفضاء بجناح واحدٍ ، ولو نجح في ذلك وقتًا ، وإن طال ؛ فإنه حتمًا سيسقط ؛ لينكسر جناحُه الآخر ؛ فإن غلب عندك جانب الخوف فقط دون الرجاء ؛ فهذا خطأ ، وإن غلب جانب الرجاء فقط دون الخوف ؛ فهذا أيضًا خطأ ، نعم .. إن غَلَبَ الخوف على الرجاء ، ولم يذكر العبد نفسه بالرجاء قط ، ربما وصل إلى حالةٍ من القنوط ، واليأس ، والخوف ، والقلق ، وإن غَلَبَ جانبُ الرجاء المذموم ـ الذي سأبينه بعد قليل ـ دون عملٍ وقع في الخطأ كذلك ؛ لأنه سيخرج من الدنيا بلا حسنة ولا طاعة مع ظنه أنه يرجو الله ﷻ [(١)] .

وهنا أقول : الرجاء ينقسم إلى أقسام ، وانتبهوا لهذا التأصيل جدًّا ؛ لأن كثيرًا من المسلمين الآن ، لا يُحْسِنُ أن يفهم منزلة الرجاء .

فما هي أقسام الرجاء ؟

الرجاء ثلاثة أقسام : نوعان محمودان ، ونوعُ غرورٍ مذمومٍ [(٢)] .

القسم الأول : رجاءُ رجلٍ يعمل بطاعة الله ، على نورٍ من الله ؛ فهو راجٍ لثواب الله ؛ كما قال ابن القيم رحمه الله .

القسم الثاني : رجاءُ رجلٍ أذنب ، وكُلُّنا ذلك المذنب ؛ لكنه تاب إلى الله ـ

= وعجائب اللذات إلا سياط التخويف ، وسطوات التعنيف » .

ونقل ابن القيم عن أبي علي الروذباري قوله : « الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ،وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت » (« المدارج » ٢/ ٣٦) .

(١) راجع هذه المسألة في « الإحياء » (٤/ ٢٣٨) ، باب بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما ؛ فقد قال : « والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح ؛ لأنه أجلب للمحبة ، وغلبة الخوف قبل الموت أصلح ؛ لأنه أحرق لنار الشهوات ، وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ؛ ولذلك قال ﷺ : « **لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ** » . ا.هـ والحديث في « صحيح مسلم » (٢٨٧٧) عن جابر ، وراجع « بدائع الفوائد » لابن القيم (٣/ ٥٢٢) ، و«المدارج» (١/ ٥١٧) .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/ ٣٦) ، (١/ ٢٠٥) ط دار الكتاب .

جَلَّ وَعَلاَ ـ واستغفر الله ﷻ ؛ فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه ، وأورثته هذه المعصية انكسارًا ، وذلاًّ لله ـ سبحانه ـ ودفعته إلى الطاعة دفعًا ، وهذا كلام ابن القيم في موضعٍ آخر : رب طاعةٍ أدخلت صاحبها النار ، ورب معصية أدخلت صاحبها الجنة ؛ فربَّ طاعةٍ أورثته عجبًا ،وكبرًا ، وغرورًا ومنًّا على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ونسي أن الله جَلَّ وَعَلاَ ـ هو الذي تفضَّل عليه وأعانه ووفقه ؛ فاستحق النار !!

وربَّ معصيةٍ أدخلت صاحبها الجنة ؛ لأنها أورثته ذلاًّ وانكسارًا ، وتوبةً بعد توبة ،وقربةً بعد قربَة ، وطاعة بعد طاعة ، حتى أوقفته على باب التوبة ، وأدخلته الجنة بفضل الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

القسم الثالث هو المذموم : رجَاءُ رجلٍ متمادٍ في المعاصي والذنوب والخطايا ، تاركٍ للعمل والطاعة ، وهو يرجو رحمة الله ﷻ بلا عمل ؛ فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب !!

قال الحسن البصري رحمه الله (١) :« إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، يقول أحدهم : إني أحسن الظن بربي ، وكذب ، ولو أحسن الظن لأحسن العمل » ثم قرأ : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ [فصلت:٢٣] .فلو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة .

فمن علامة الشقاء أن يعصي العبد ربه ، ويرجو أن ينجو من الهلاك !!

أما علامة صحة الرجاء ؛ في حسن الطاعة ، وأن يخاف العبد مع ذلك ألا يقبل الله منه .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « المقصود من الرجاء أنَّ من وقع منه تقصير ؛

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الوجل والتوثق بالعمل » رقم (٢) ، وابن الجوزي في « كشف المشكل » (٨٨١) ، والشجري في « الأمالي » (١/ ١٩٧) .

فليُحْسن ظنَّه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه ،وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها ، وأما من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع ؛ فهذا في غرور »[1].

إذًا لو سأل سائل ، وقال : ما الفرقُ بين التمني والرجاء ؟ فالجواب : أن التمني يكون مع الكسل ، وترك العمل ، ولا يسلك صاحبه سبيل الجِدِّ والاجتهاد ، ومع ذلك يرجو رحمة الله ؛ أما الرَّجاء ؛ فهو رجاءٌ وطمعٌ في رحمة الله مع العمل ، أو مع التوبة ، والاستغفار ، وعدم التفريط ؛ فشتان شتان بين الرجاء وبين التمني [2]؛ ولِمَ لا ؟ والرجاء هو حافز المؤمنين ، والأماني هي شغل الفارغين ؛ وقد أخبر الله عن هؤلاء الذين جعلوا الجنة حكرًا عليهم بلا إيمان ولا عمل ؛ فقال: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة:١١١] .

حقيقة الرجاء :

قال ابن القيم رحمه الله [3]: « الرجاء هو عبوديةٌ وتعلُّقٌ بالله من حيثُ اسْمهُ : المحسِنُ الْبرُّ ؛ فذلك التعلُّق والتعبد بهذا الاسم ، والمعرفة بالله ؛ هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري ؛ فقوَّة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ، وغلبةِ رحمته غضبه ، ولولا روح الرجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح ، وهدِّمت صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيرًا ؛ بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة ، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفنُ الأعمال في بحر الإرادات .

ولي من أبيات :

---

(١) « فتح الباري » (١١/ ٣٠١) .

(٢) انظر « المدارج » (٢/ ٣٥) ط التوفيقية، و« الروح» (٢٤٥) ط الكتب .

(٣) « مدارج السالكين » (٢/ ٤٢) باختصار.

لـولا التعلُّـق بالرجـاء تقطعـتْ نفـسُ المحـبِّ تحسُّرًا وتمزقًـا
لولا الرجا يحدو المطيَّ لمَّا سرت بحُمولها لـديارهم ترجـو اللقـا

فتأمل هذا الموضع حقَّ التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة ؛ فكلُّ محبةٍ فهي مصحوبة بالخوف والرجاء . وعلى قدْر تمكنها من قَلْب المحب يشتد خوفه ورجاؤه ، ولكنَّ خوْف المحب لا يصحبه وحشة بخلاف خوف المسيء ، ورجاء المحب لا يصحبه علة بخلاف رجاء الأجير ، وأين رجاء المحب من رجاء الأجير ؟! وبينهما كما بين حاليهما » .

وقال [1] : « الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ، ويُطَيِّب لها السير » فالرجاء عبادةٌ عظيمة من أعمال القلوب ، وركنٌ من أركان العبادة .

ولقد أثنى الله على أصحاب هذه المنزلة في كتابه في آياتٍ عدَّة ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٨] ، وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠] .

ومن أعظم آيات الرجاء ، قول الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣] .

---

(١) « المدارج » (٢/ ٣٥) .

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : قَالَ الله تَعَالَى : « **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي، فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»(٢) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ** ».

والنزول في الحديث نزولٌ يليق بكمال الله وجلاله .

وَفِي « الصَّحِيحَيْنِ »(٣) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ : «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا ؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي؛ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ؛ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «التوحيد» ، باب قول الله ﷻ :﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران:٢٨] ، رقم (٧٤٠٥) ، ومسلم ، في كتاب « الذكر » ، باب الحث على ذكر الله تعالى ، رقم (٢٦٧٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « التوحيد » ، باب قول الله ﷻ :﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥] ، رقم (٧٤٩٤) ، ومسلم ، في كتاب « صلاة المسافرين » ، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل رقم (٧٥٨) ، واللفظ له .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « التوحيد » ، باب قول الله ﷻ :﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [الفتح:١٥] (٧٥٠٧) ، ومسلم ، كتاب «التوبة » ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٨) واللفظ له .

الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ » .

وَفِي « **الصَّحِيحَيْنِ** » [١] من حديثِ عُمَرَ ﷺ قَالَ : قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ ؛ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : « **أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟** » قُلْنَا : لاَ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ ؛ فَقَالَ : « **الله أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا** » .

لذا ؛ قال أَحَدُ الصالحين ، الذين فهموا قضية الرجاء بعمل صالح ، وَطَمِعَ في الرحمة بعد ذلك ؛ قال : « اللهم إنك تعلم أن أمي هي أرحم الناس بي ، وأنا أعلم أنك أرحم بي من أمي ، وأمي لا ترضى لي الهلاك والعذاب ؛ أفترضاه لي أنت وأنت أرحم الراحمين » !! هذا هو الذي فهم قضية الرجاء ؛ فهو يعمل ويطمع في رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ معًا .

وفي « سنن الترمذي » [٢] ـ بسندٍ حسنٍ لشواهده ـ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي ، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي ، غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً** » .

قال سفيان الثوريُّ [٣] : « مَنْ أذنب ذنبًا فعلم أن الله تعالى قدَّره عليه ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « الأدب » ، باب رحمة الولد وتقبيله ، حديث رقم (٥٩٩٩) ، ومسلم ، في كتاب التوبة ، باب سعة رحمة الله ، رقم (٣٧٥٤) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، في كتاب « الدعوات » ، باب فضل التوبة والاستغفار ، رقم (٣٥٤٠) ، وله شواهد ؛ كما في « المسند » لأحمد (٥/ ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٦٧) عن أبي ذر مرفوعًا ؛ وحسَّنه لشواهده العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٢٧) ، وهو في «صحيح الجامع» (٤٣٣٨) .

(٣) «قوت القلوب » لأبي طالب المكي (١/ ٣٠٤) ، و « الإحياء » للغزالي (٤/ ١٤٥) ط المعرفة .

ورجا غفرانه، غفر الله له ذنبه».

وهذا الإمام الشافعي رحمه الله يقول في مرض موته(١):

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلتُ الرَّجا مني لعفوك سُلَّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

ومن أجمل الأحاديث التي توضح هذه المسألة؛ ما رواه الترمذي في «السنن»(٢) وابن ماجه -وجود سنده النووي- من حديث أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟». قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لاَ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ». والراجي إذا صدق في الرجاء وجده عند ظنه به، والخائف إذا صدق في اللجأ إليه وجده مؤمنًا من الخوف(٣).

قال -جَلَّ وَعَلاَ-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]؛ أي: لا رجاء إلاَّ من الله -جَلَّ وَعَلاَ- لا ترج من ملكٍ مقرب، ولا من نبيٍّ مرسل.

لا تسل نبيًّا، ولا وليًّا، وإنما سل الربَّ العلي -جَلَّ وَعَلاَ- قال الحبيب النبيُّ لابن عباس -وهو غلام صغير!!: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»(٤). هكذا علَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والأمة من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، قال أحدُ

---

(١) «طبقات الشافعية» (١/ ٢١١)، و«تاريخ دمشق» (٥١/ ٤٣٠)، و«السير» للذهبي (١٠/ ٧٦).

(٢) سبق؛ وهو في «الصحيحة» (١٠٥١).

(٣) «المدارج» (٣/ ٣٢٤).

(٤) تقدم.

المتقدمين : « اللهم إليك تقصدُ رغبتي ،وإياك أسأل حاجتي ، ومنك أرجو نجاح طلبتي ، وبيدك مفاتيح مسألتي ، لا أسأل الخير إلا منك ، ولا أرجوه من غيرك ، ولا أيأس من روحك بعد معرفتي بفضلك »[(١)].

إذًا لابد من الخوف والرجاء ؛ وقد جمع الله بين هذا وذاك في كتابه المجيد ؛ فقال سبحانه : ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ ﴾[غافر:١ـ ٣] . فلابد من أن تسير إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بهذين الجناحين ؛ جناح الخوف ،وجناح الرجاء ، فإن غلب عليك جانب الخوف ، فذكِّر نفسك بباب الرجاء ،وإن غلب عليك بابُ الرجاء فذكِّر نفسك بباب الخوف ؛ حتى تصل إلى رضوان الله ـ تبارك وتعالى ـ والله نسأل أن يرزقنا رضاه والجنة ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

وللرجاء ثمرات كثيرة :

منها : إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه ، ويستشرفه من إحسانه ، وأنه لا يستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين .

ومنها : أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ، ويسألوه من فضله ، لأنه الملك الحق الجواد ، أجود من سئل ، وأوسع من أعطى ، وأحب ما إلى الجواد أن يرجَى ، ويؤمل ، ويسأل ، والسائل راج وطالب . فمن لم يرج الله يغضب عليه فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء . وهي التخلص به من غضب الله .

ومنها : أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله ، ويطيب له المسير ، ويحثه عليه ، ويبعثه على ملازمته ، فلولا الرجاء لما سار أحد ، فإن الخوف وحده لا يحرك العبد ، وإنما يحركه الحب ،ويزعجه الخوف ، ويحدوه الرجاء .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية» (٩/ ٣٣٣) .

ومنها : أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة ، ويلقيه في دهليزها ، فإنه كلَّما اشتد رجاؤه وحصل له على ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالى ، وشكرًا له ، ورضًا به وعنه .

ومنها : أنه يبعثه على أعلى المقامات ، وهو مقام الشكر ، الذي هو خلاصة العبودية ، فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره .

ومنها : أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها ،والتعلق بها ، فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى ، متعبد بها ، داع بها ؛ قال الله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٨٠] .فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي ، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء ، وتعطيل للدعاء بها .

ومنها : أن المحبة لا تنفك عن الرجاء ـ كما تقدم ـ فكلٌّ واحدٍ منها يَمُدُّ الآخر ويقويه .

ومنها : أن الخوف مستلزم للرجاء ،والرجاء مستلزم للخوف ؛ فكل راج خائف ،وكل خائف راج ، ولأجل هذا حَسُن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف ؛ قال تعالى :﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح:١٣] ؛ قال كثير من المفسرين : المعنى: ما لكم لا تخافون لله عظمة ؟ قالوا : والرجاء بمعنى الخوف .

والتحقيق : أنه ملازم له ؛ فكلٌّ راج خائف من فوات مرجوه ، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط ؛ قال تعالى :﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية:١٤] ، قالوا في تفسيرها : لا يخافون وقائع الله بهم ، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم .

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه، وهذا أحد الأسباب والحِكَم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار؛ فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مَخُوفهم.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به؛ لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء ـ من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ـ ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة ـ كما تقدم بيانه ـ فإذا فنى عن ذلك وغاب عنه. فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات. إلى فوائد أخرى كثيرة: يطالعها مَنْ أحسن تأمله وتفكره في استخراجها، وبالله التوفيق [1].

*****

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨ـ٥٠).

النوع الرابعُ من أنواع العبادة : التَوكُل

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

«**وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى :** ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] ، **وَقَوْلُهُ:** ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] » .

الشرح

تَعْرِيفُ التَّوَكُّلِ : التَّوكُّلُ ؛ كما عرَّفه سعيد بن جبير ؛ هو : «**جماع الإيمان**»[(١)] .

وقال **الجُرجاني**[(٢)] : « التوكل هو الثقة بما عند الله ، واليأس عما في أيدي الناس » .

قال ابن رجب[(٣)] : « وحقيقة التوكل : هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ،ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلِّها ، وكِلَةُ الأمور كلها إليه ،وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ، ولا يضر ولا ينفع سواه » .

وهذا تعريفٌ شاملٌ جامعٌ رائعٌ ؛ **قال ابن القيم**[(٤)] : « وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب ، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها ،وإلا فهو بطالة ، وتوكُّلٌ فاسد » .

إذًا الأخذ بالأسباب من التوكل ؛ بل هو من كمال التوكل ، ودليل على الإيمان .. ربما يقول قائل : قرأتُ لابن القيم نفسه أن التوكل هو رفض

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في « تفسيره » (٣/ ١٢٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف» (٦/ ٧٦) وهناد في « الزهد » (٥٣٤) ، وعبد الله بن أحمد في « السنة » (٧٧٦) ، وابن أبي الدنيا في « التوكل » (٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٧٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٣٢٣) .

(٢) « التعريفات» (٧٤) .

(٣) «جامع العلوم والحكم » (٤٩٧) .

(٤) «مدارج السالكين » (٢/ ١١٢) ط التوفيقية.

الأسباب [١]! نعم .. لا تعارض .. لكن انتبه ، ولا تتعجل حتى تفهم مراد الشيخ رحمه الله، وما نقله عن أهل العلم في ذلك ؛ فهو يقصد برفض الأسباب : أن ترفض الأسباب بقلبك ، وأن تتعلق بالأسباب بجوارحك ؛ فالتوكُّلُ رفض الأسباب بقلبك ، وأن تتعلق بالأسباب بجوارحك ؛ لأننا على يقينٍ أن الأسباب وحدها لا تضر ، ولا تنفع ، ولا ترزق ، ولا تمنع ، إلا بأمر مسبب الأسباب ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وهذا هو الفارق الكبير بين المؤمن وغير المؤمن ؛ فغير المؤمن يأخذ بالأسباب فقط ، ويعتمد على الأسباب ، ويتوكَّلُ على الأسباب ، ولا يرى أمامه ولا من خلفه ، ولا عن يمينه ،ولا عن شماله إلا الأسباب ؛ فهو يعبد الأسباب !!

أما المؤمن ؛ فهو يأخذ بالأسباب ، وقلبه متعلق بمسبب الأسباب ؛ فهو لا يعبد السبب أبدًا ، إنما يعبد مسبب السبب ـ تبارك وتعالى .

قال ابن رجب [٢] : « واعلم أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدَّر الله سبحانه المقدورات بها ، وجرت سنته في خلقه بذلك ؛ فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكُّل ، فالسعيُ في الأسباب بالجوارح طاعة له ، والتوكل بالقلب عليه إيمانٌ به ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾[النساء:٧١] ، وقال : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾[الأنفال:٦٠] ، وقال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[الجمعة:١٠] .

---

(١) فقد نقل الإمام ابن القيم أقوالاً في معنى التوكل ، كما في « المدارج » (٢/ ١١١) ومنها : « التوكل عمل القلب » ، و « التوكل : انطراح القلب بين يدي الرب » ، و « هو ترك كل سبب يوصلك إلى مسبب ، حتى يكون الحق هو المتولي لذلك » قال : « وهذا صحيح من وجه ، باطل من وجه .. ».

(٢) «جامع العلوم والحكم » (٤٩٨) .

قال سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ اللَّهُ [(١)]: « مَنْ طعن في الاكتساب ـ وفي رواية: التكسب ـ فقد طعن في السنة ،ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان » .

فالأخذ بالأسباب سنة النبيِّ ﷺ ، والتوكل على الله حال النبيِّ ﷺ ، فمن كان على حال النبي ﷺ ، فلا يتركن سُنَّة النبيِّ ﷺ [(٢)] .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه **أحمد في «مسنده» والترمذي وابن ماجه في «سننيهما» والنسائي في «الكبرى»** وغيرهم ـ بسندٍ صحيح ـ من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ﷺ قال : « **لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً ، وَتَرُوحُ بِطَانًا** »[(٣)] . تغدو ـ أي: تخرج في الغدوة ، في الصباح الباكر ـ خماصًا ، بطونها فارغة ، وتروح بطانًا ، أي : ترجع وقت الرواح ،وقد رزقها الله ـ سبحانه ـ الذي قال : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود:٦] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ [الطلاق:٣] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢ ،٣] ، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٩٥) ، والبيهقي في « الشعب» (١٢٨٩) ، وابن الجوزي في « تلبيس إبليس » (٣٤٤) .

(٢) « جامع العلوم والحكم » (الحديث التاسع والأربعون) (٤٩٨) ط الرسالة ، و « المدارج » (٢/ ١١٢، ١١٣) ، وانظر : « الشعب » (١٢٨٨) وفيه : « سئل ابن سالم بالبصرة أنحن مستعبدون بالكسب أو بالتوكل ؟ قال ابن سالم : التوكل حال رسول الله ﷺ والكسب سنة رسول الله ﷺ .. » وقد أخرجه كذلك ابن الجوزي في « التلبيس » (٣٤٤) .

(٣) أخرجه أحمد في « مسنده » كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة ، باب أول مسند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/ ٣٠، ٥٢) ، والترمذي ،كتاب الزهد ، باب في التوكل على الله (٣٢٣٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » وهو في « السلسلة الصحيحة » برقم (٣١٠) (ج١ص٦٢٠) .

مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾[الذاريات:٢٢، ٢٣] .

قال البيهقي (١) : «وليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب؛ بل فيه ما يدلُّ على طلب الرزق ؛ لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق ،وإنما أراد ـ والله تعالى أعلم ـ لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ، ورأوا أن الخير بيده ومن عِنْدِه لم ينصرفوا إلا سالمين غانمين كالطير ؛ تغدو خماصًا وتروح بطانًا ، لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ، ويغشون ويكذبون ولا ينصحون ، وهذا خلاف التوكل» انتهى.

وكان يُقال : « اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله ، وتوكَّلْ توكُّلَ رجلٍ لا يصيبه إلا ما كتبه الله له » (٢).

وقيل لحاتم الأصم (٣) : «بم حققت التوكُّلَ؟ قال: عَلى خصالٍ أربع: علمت أن رزقي لا يأكله غيري ؛ فاطمأن قلبي ،وعلمتُ أن عملي لا يتقنه غيري ، فانشغلتُ به ،وعلمت أن الموت ينتظرني ؛ فأعددتُ الزاد للقاء الله ، وعلمت أن الله مطلعٌ عليَّ ؛ فاستحييتُ أن يراني على معصية » .

فالتوكل عبادةٌ قلبيةٌ جليلة ، لا يتم إيمان العبد إلا إذا حققها ،كما في قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ** ﴾[المائدة:٢٣] .

ومن جميل ما جاء في هذا الباب ؛ **ما رواه البخاريُّ في « صحيحه »** عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: « **أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ : ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ ، فَقَالَ :**

---

(١) « شعب الإيمان» (٢/ ٦٦) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٩٢) عن مسلم بن يسار ، و(٨/ ٢٣٩) ، عن يوسف بن أسباط يقول : « كان يقال .. ».

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٧٣) ، والخطيب في « تاريخه » (٨/ ٢٤٣) ، والبيهقي في « الشعب » (١٢٧٤) بتصرف . وقد سبق بنا في هذا الكتاب .

كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ، قَالَ : فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ ، قَالَ : كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً ، قَالَ : صَدَقْتَ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ عَلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلاً ، فَقُلْتُ : كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً ، فَرَضِيَ بِكَ ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا ، فَقُلْتُ : كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ، فَرَضِيَ بِذَلِكَ ، وَإِنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا ، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا ، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ ، فَقَالَ : وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ ، قَالَ : هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ ؟ قَالَ : أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ ، قَالَ : فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا »[١].

ويتضح من هذا الحديث أن هذا الرجل من بني إسرائيل مع توكُّلِه الكامل على الله ﷻ ، إلا أنه أخذ بالأسباب حتى يفي بما جعل الله تعالى كفيلاً وشهيدًا عليه فيه من قضاء دينه في أجله ؛ بل بذل أقصى ما يستطيعه من الأخذ بالأسباب ؛ فلو أنه لم يحضر الخشبة ، ولم ينقرها ، ويضع المال فيها ، ما

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب الكفالة ، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها (٢٢٩١) ـ معلقًا ـ ووصله في موطن آخر برقم (٢٠٦٣ ـ مختصرًا) كتاب البيوع ، باب التجارة في البحر ، وأخرجه موصولاً كذلك : أحمد في « المسند » (٢/ ٣٤٨) ، والنسائي في « الكبرى » (تحفة الأشراف : ١٢/ ١٦) .

استطاع أحدٌ أن يلومه على تهاونه ،ولم يؤنبه أحدٌ بتهمة أنه متواكل ؛ بل لقد أخذ بكامل الأسباب الممكنة ، ثم توكَّل على ربه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن يقضي عنه دينه .. مَنْ منا يقدم على تنفيذ مثل هذه الفكرة ؛ ربما تخطر على باله ، أَمَّا أَنْ يُقْدم على تنفيذها ؛ فإنَّ هذا هو التوكُّل الحقيقي مع الأخذ بالأسباب ، فكان من تمام أخذه للأسباب أن جعل مع المال صحيفة ذكر فيها اسم صاحب الدَّيْنِ ، حتى إذا وقع المالُ في يد غيره ، وكان عنده أمانة ، فسوف يوصِّله إلى صاحبه ،وهذا كلُّه آخذًا بالأسباب ؛ **وقد ذكر الحافظ ابنُ حجر في «الفتح» قائلاً:** (قوله : « وصحيفة منه إلى صاحبه » في رواية أبي سلمة : « وَكَتَبَ إِلَيْهِ صَحِيفَةً : مِنْ فُلاَنٍ ، إِنِّي رَفَعْتُ مَالَكَ إِلَى وَكِيلِي الَّذِي تَوَكَّلَ بِي ») [(١)] ؛ فإن وقعت في يدٍ أمينة ، وإلا فقد أدى ما عليه ، ثم تابع أخذه للأسباب ؛ فخرج إلى البحر بعد ذلك ينتظر أول سفينةٍ تُقِلُّه حتى يذهب فيؤدي ما عليه ، وذهب ولم يسأل مُسْلِفهُ : هل وصلك شيءٌ أم لا ؟ فهو لم يكن يتوقع أن يصله المال بالضرورة ، ولكنه أخذ بالأسباب ،وتوكَّلَ على الله تعالى ، فإذا لم يقع ما يريد فليس العيبُ في الوكيل ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بل العيبُ إما أن يكون في عدم استفراغ الجهد في الأخذ بالأسباب ،أو في عدم صدق التوكُّلِ على الله ـ تعالى .

وتدبر هذه الحادثة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وكان على المنبر واقفًا ، فنادى على جيشه الذي كان يقاتل في بلاد العراق في فتوح فارس ، فعلم عمر مكمن الخطر ، لكن هل كان ﷺ يعلم أن الله سيبلِّغ صوته إلى مَنْ في أرض المعركة ،وأرض المعركة فيها صهيلُ خَيْلٍ ، وصليلُ سَيْفٍ ، وصراخُ مقتولٍ ، وتألُّم مجروحٍ ، وصيحةُ محمِّس ، وهيعةُ مخوِّف ؛ فلا يَظُنُّ من يقف على أرض

---

(١) «فتح الباري» (٤/ ٥٥١) ، طبعة دار الريان للتراث .

المعركة أن لو نادى بشيءٍ ما سَوْف يُسمع ويُجاب إلى ندائِه ؛ لذلك فإن المتَّبع في الأوامر العسكرية في أرض المعركة حتى يومنا هذا أن كلَّ من يسمع الأمر من القائد بفعلٍ ما يرددُ الأمر بأعلى صوته حتى يسمع من حوله ، فيقومون بدورهم بترديد الأمر ، ولكن عمر رضي الله عنه مع ذلك أخذ بالسبب الذي يملك ـ **والقصة أوردها عبد الله بن أحمد في « زيادات الفضائل » ، والبيهقي في «الدلائل » ، وفي «الاعتقاد»** ، **وابن الأثير في كتابه الماتع «أسد الغابة في معرفة الصحابة» وغيرهم** من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن أبيه عمر رضي الله عنه : (أنه كان يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ، فعرض له في خطبته أن قال : يا ساريةُ ، الجبلَ الجبلَ ، من استرعى الذئب ظلم . فالتفت الناسُ بعضهم إلى بعض ؛ فقال عليٌّ : ليخرجن مما قال : فلما فرغ من صلاته قال له عليٌّ: ما شيء سنح لك في خطبتك ؟ قال : وما هو ؟ قال : قولك يا ساريةُ ، الجبلَ الجبلَ ، من استرعى الذئب ظلم ، قال : وهل كان ذلك مني؟ قال : نعم ، قال : وقع في خَلَدي أن المشركين هزموا إخواننا فركبوا أكتافهم ، وأنهم يمرون بجبل ، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوا ، وقد ظفروا ،وإن جاوزوا هلكوا ،فخرج مني ما تزعم أنك سمعته ، قال : فجاء البشير بالفتح بعد شهر ، فذكر أنه سمع في ذلك اليوم ، وفي تلك الساعة ، حين جاوزوا الجبل ، صوتًا يشبه صوت عمر : يا ساريةُ ، الجبلَ الجبلَ ،قال : فعدلنا إليه ، ففتح الله علينا)[1] ، هذا هو التوكل .. أن تأخذ بالأسباب ما استطعت ،

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زيادات الفضائل» (٣٥٥) ، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٣٧٠) ، وفي «الاعتقاد» (٤٣٠) ، وأبونعيم في « الدلائل » (٥٢٦) ، والآجري في « الشريعة » (١٤٢١ـ ١٤٢٣) ، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (٢٥٣٧) وابن الأثير في « أسد الغابة » (١/ ٤٠٨، ٨٢٣) من طريق : الغافقي عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب فذكره . قال الحافظ ابن كثير في « التاريخ » (٧/ ١٣٥) : « وهذا إسناد جيد حسن » ، وحسنه الحافظ في « الإصابة » (٣/ ٤٠) ترجمة سارية ، وانظر « الصحيحة » (١١١٠) .

ثم بعد ذلك تتوكَّل على الله ـ تعالى ـ في بلوغ ما تريده .

وقد عقد ابن القيم في كتابه النفيس « زاد المعاد » [١] فصلاً أورد فيه عدة من الأحاديث التي تثبت الحث على التداوي ، ثم قال [٢]: « وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي ، وأنه لا ينافي التوكل ، كما لا ينافيه دفع داء الجوع ، والعطش ، والحر ،والبرد بأضدادها ؛ بل لا تتم حقيقةُ التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا ، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل ،كما يقدح في الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن معطِّلها أن تركها أقوى في التوكل ؛ فإنَّ تركها عجزًا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ،ودفع ما يضرُّه في دينه ودنياه ، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطِّلاً للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكُّلًا ، ولا توكُّله عجزًا ».

الفرق بين التوكل والتواكل :

إنَّ الأَخْذَ بِالأَسْبَابِ مَعَ تَفْوِيضِ أَمْرِ النَّجَاحِ لله تَعَالَى وَالثِّقَةِ بِأَنَّهُ ﷻ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ، هُوَ مِنَ التَّوَكُّلِ المأمُورِ بِهِ ، أَمَّا القُعُودُ عَنِ الأَسْبَابِ وَعَدَمُ السَّعْيِ فَلَيْسَ مِنَ التَّوَكُّلِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ اتِّكَالٌ أَوْ تَوَاكُلٌ حَذَّرَنَا مِنْهُ رَسُولُ الله ﷺ ، وَنَهَى عَنِ الأَسْبَابِ المُؤَدِّيَةِ إِلَيْهِ ، مِصْدَاقُ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ : « **يَا مُعَاذُ ، تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله ؟**» قَالَ (مُعَاذٌ) : قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « **فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله ﷻ أَلاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** » قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَفَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟

---

(١) (٤/ ١٣) ط الرسالة .

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٥) .

قَالَ : « لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا »(١) .

وَهُنَا يَضَعُ الرَّسُولُ ﷺ قَاعِدَةً جَلِيلَةً ، هِيَ أَنَّ كُلَّ مَا يُؤَدِّي إِلَى تَرْكِ العَمَلِ أَوْ مَا يَكُونُ مَظِنَّةً لِلاتِّكَالِ أَوِ التَّوَاكُلِ لَيْسَ مِنَ التَّوَكُّلِ فِي شَيْءٍ ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَا يُؤَكِّدُ هَذِهِ الحَقِيقَةَ ، فَفِي الحِوَارِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ المُصْطَفَى ﷺ وَعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ ـ هَذَا الحِوَار ـ **كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ** : قَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ الله ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ ، مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلاَّ الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ ، بَشَّرَهُ بِالجَنَّةِ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » ، قَالَ (عُمَرُ): فَلاَ تَفْعَلْ ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا ، فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ** »(٢) . وَيُفْهَمُ مِنَ الحَدِيثِ وَالَّذِي قَبْلَهُ أَنَّ الاتِّكَالَ يَعْنِي تَرْكَ العَمَلِ وَعَدَمَ الأَخْذِ بِالأَسْبَابِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ التَّوكُّلِ فِي شَيْءٍ .

والفارقُ الجَوْهَرِيُّ بين حَالِ أمتنا الآن وحَالِ سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ أنهم بذلوا واجتهدو وتركوا الدعة والراحة والكسل !! وسنأخذ مثالاً واحدًا لنبين هذا الفرق بين الحالين ؛ فانظر إلى قول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠] ؛ فالسلف ما تركوا بابًا من الأبواب ، ولا فنًّا من الفنون ، ولا علمًا من العلوم ، إلا وأسهموا فيه بما يشفي احتياجهم إليه ، ثم مع ذلك عمدوا إلى العبادات ؛ فكان لهم فيها أفضل النصيب ، وأوفر الحظ ، فلما علم الذي كَلَّفهم أنهم بذلوا وسعهم ، واستنفذوا طاقتهم واستطاعتهم : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] ، لما علم منهم ذلك أَوَّلًا لم

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان (٣٠) .

(٢) انظر : « صحيح مسلم » (رقم ٣١ ،كتاب الإيمان) ـ نقلاً عن « نضرة النعيم » (١٣٧٨، ١٣٧٩) .

يكلِّفهم إلا بما يطيقون ؛ فقال جَلَّ من قائل : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] ، وقال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق:٧] ، وقد علم منهم أنهم بذلوا كُلَّ وسعهم ، وكُلَّ ما آتاهم ؛ فعندها لما قالوا : ﴿ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٤] ، جاءهم الردُّ على الفور : ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤] ، هذا حالهم .. وحالنا الآن ـ إلا من رحم ربي سبحانه وتعالى ـ لا يخفى على أحد ! إنه سبات عميق ، وصمتٌ مريب ، لا يرضي السميع القريب ، وفي قول الله تعالى : ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ عملٌ بالاستطاعة بما يحبُّ كلُّ واحدٍ منهم أن يبذل ؛ نسأل الله أن يردَّ المسلمين إليه ردًّا جميلاً .

مواطن التوكل :

إِنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى الله ﷻ مَطْلُوبٌ فِي كُلِّ شُئُونِ الحَيَاةِ ، بَيْدَ أَنَّ هُنَاكَ مَوَاطِنَ كَثِيرَةً وَرَدَ فِيهَا الحَضُّ عَلَى التَّوَكُّلِ وَالأَمْرُ بِهِ لِلْمُصْطَفَى ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ ذَكَرَ الفَيْرُوزُآبَادِيُّ مِنْ ذَلِكَ :

١ـ إِنْ طَلَبْتُمُ النَّصْرَ وَالفَرَجَ فَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٠]

٢ـ إِذَا أَعْرَضْتَ عَنْ أَعْدَائِكَ فَلْيَكُنْ رَفِيقُكَ التَّوَكُّلَ : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء:٨١] .

٣ـ إِذَا أَعْرَضَ عَنْكَ الخَلْقُ فَاعْتَمِدْ عَلَى التَّوَكُّلِ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [التوبة:١٢٩] .

٤ـ إِذَا تُلِيَ الْقُرْآنُ عَلَيْكَ أَوْ تَلَوْتَهُ فَاسْتَنِد عَلَى التَّوَكُّلِ : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] .

٥ـ إِذَا طَلَبْتَ الصُّلْحَ وَالإِصْلاَحَ بَيْنَ قَوْمٍ لاَ تَتَوَسَّلْ إِلَى ذَلِكَ إِلاَّ بِالتَّوَكُّلِ: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال:٦١] .

٦ـ إِذَا وَصَلَتْ قَوَافِلُ الْقَضَاءِ فَاسْتَقْبِلْهَا بِالتَّوَاكُّلِ : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:٥١].

٧ـ إِذَا نَصَبَتِ الأَعْدَاءُ حِبَالاَتِ الْمَكْرِ فَادْخُلْ أَنْتَ فِي أَرْضِ التَّوَكُّلِ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس:٧١] .

٨ ـ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ مَرْجِعَ الكُلِّ إِلَى الله وَتَقْدِيرَ الكُلِّ فِيهَا فَوَطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى فَرْشِ التَّوَكُّلِ : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣] .

٩ـ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الله هُوَ الْوَاحِدُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، فَلاَ يَكُنِ اتِّكَالُكَ إِلاَّ عَلَيْهِ : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد:٣٠] .

١٠ـ إِذَا كَانَتِ الْهِدَايَةُ مِنَ الله ، فَاسْتَقْبِلْهَا بِالشُّكْرِ وَالتَّوَكُّلِ : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم:١٢] .

١١ـ إِذَا خَشِيتَ بَأْسَ أَعْدَاءِ الله وَالشَّيْطَانِ وَالْغَدَّارِ فَلاَ تَلْتَجِئْ إِلاَّ إِلَى بَابِ الله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٩٩] .

١٢ـ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ الله وَكِيلَكَ فِي كُلِّ حَالٍ ، فَتَمَسَّكْ بِالتَّوَكُّلِ فِي كُلِّ حَالٍ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء:٨١] .

١٣ـ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ الْفِرْدَوْسُ الأَعْلَى مَنْزِلَكَ فَانْزِلْ فِي مَقَامِ التَّوَكُّلِ : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٤٢] .

١٤ـ إِنْ شِئْتَ أَنْ تَنَالَ مَحَبَّةَ الله فَانْزِلْ أَوَّلاً فِي مَقَامِ التَّوَكُّلِ : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩] .

١٥ـ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَكُونَ الله لَكَ ، وَتَكُونَ لله خَالِصًا فَعَلَيْكَ بِالتَّوَكُّلِ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] ، ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[النمل:٧٩] [١] .

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » [٢] من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله الأنصاري رضي الله عنه قَالَ : غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ فَأَدْرَكَنَا رَسُولَ الله ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا ، قَالَ : وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ رَجُلاً أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي فَلَمْ أَشْعُرْ إِلاَّ وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ ، فَقَالَ لِي : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟** » قَالَ : قُلْتُ : « **الله** » ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي قَالَ : قُلْتُ : « **الله** » قَالَ : « **فَشَامَ السَّيْفَ ؛ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ** » ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ .

فهذا هو سيد المتوكلين ، نسأل الله أن يحشرنا معه في جنات النعيم ؛ بمنه وجوده ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

وخذ هذه البشارات لمن حقق التوكل على رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق:٣] ، وقال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] ،

---

(١) « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز » للفيروزآبادي (٢/ ٣١٣ـ ٣١٥) نقلاً عن « نضرة النعيم » (١٣٨٠ ، ١٣٨١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب من علّق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة (٢٩١٠) ، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة الخوف (٨٤٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل:٩٩] ، وفي وصف أهل الجنة ، يقول سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[العنكبوت:٥٨، ٥٩] .

وفي « **الصَّحِيحَيْنِ** » [(١)] عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعَشَرَةُ ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الْخَمْسَةُ ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ ، هَؤُلاَءِ أُمَّتِي ، قَالَ : لاَ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ ، قَالَ : هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ ، وَهَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ ، قُلْتُ : وَلِمَ ؟ قَالَ : كَانُوا لاَ يَكْتَوُونَ ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** » فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ ، فَقَالَ : ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، قَالَ : « **اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ** » ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ ، قَالَ : ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، قَالَ : « **سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ** ».

وقد ذم الله قومًا زعموا أنهم متوكلون ،وفي الوقت نفسه تركوا العمل ومدُّوا أيديهم للسؤال !!

ففي «**صحيح البخاري**» [(٢)] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : « كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ ، وَيَقُولُونَ : نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ ؛ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[البقرة:١٩٧] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ، (٦٥٤١) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[البقرة:١٩٧] رقم (١٥٢٣).

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى(١): « ينبغي للناس كلهم يتوكلون على الله ﷿ ولكن يعوِّدن أنفسهم بالكسْب ؛ فمن قال بخلاف هذا القول ؛ فهذا قول إنسان أحمق » .

وقال : « الاستغناء عن الناس بطلب العمل أعجب إلينا من الجلوس وانتظار ما في أيدي الناس »(٢) .

وبعد هذا التأصيل المهم لقضية التوكل أختم ـ بالإضافة إلى ما سبق بحديثين عن فضل التوكل وفضل المتوكلين وعلى رأسهم سيد المتوكلين ﷺ .

ففي « **صحيح البخاري** » (٣) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم ﵇ حين أُلقي في النار ، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣] .

وفي « **الصَّحِيحَيْنِ** » (٤)مِنَ حديث أَبِي بَكْرٍ ﵁ قَالَ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا ؛ فَقَالَ : « **مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا** » .

فوحقُّه لأسلِّمن لأمره ... في كلِّ نازلة وضيق خناق

موسى وإبراهيم لمَّا سلَّما ... سَلِمَا من الإغراق والإحراق

نسأل الله أن يرزقنا التَّوكل عليه ، والثقة فيه وحده ، إنه على كلِّ شيء قدير .

---

(١) كما في « الآداب الشرعية » (٣/ ٢٧٠) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب تفسير القرآن ، باب ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ﴾ [آل عمران:١٧٣] ، (٤٥٦٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم ، (٣٦٥٣) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر ﵁ (٢٣٨١) .

النوع الخامس والسادس والسابع من أنواع العبادة

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ ، وَالرَّهْبَةِ ، والخُشُوعِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠] » .



الشرح

تعريفُ الرغبة والرهبة :

قال الراغبُ [(١)] : « أصْلُ الرَّغبة : السعة في الشيء .. فإذا قيل : رغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ [القلم:٣٢] ، وإذا قيل : رغب عنه اقتضى صرْف الرغبة عنه والزهد فيه ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة:١٣٠] » .

وقال ابن الأثير [(٢)] : « يُقال : رغب يرغبُ رغبة ، إذا حرص على الشيء ، وطمع فيه ، والرغبة : السؤال والطلب » .

الفرق بين الرغبة والرجاء :

والفرق بينهما أن الرجاء طمع ، والرغبة : طلبٌ ، فإذا رجا الشيء طلبه ، فالرجاء طمع ؛ فإذا قوي الطمع صار طلبًا وهو الرغبة [(٣)] .

ولقد رغَّب الله عبادهُ في طاعته ، وأمرهم بها ؛ فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح:٧، ٨] ، أي : اجتهد في العبادة وأنت

---

(١) « المفردات » (٢٠٤) مادة رغب .

(٢) « النهاية في غريب الحديث والأثر » (١/ ٦٦٨) .

(٣) « مدارج السالكين » (٢/ ٥٤) منزلة الرغبة .

هادئ البال ، وقيل : اجتهد في الدعاء .

قال السعديُّ رحمه الله[(١)] : « أي : أعظم الرغبة في إجابة دعائك ، وقبول دعواتك . ولا تكن ممن إذا فرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم ، وعن ذكره ، فتكون من الخاسرين . وقد قيل : إن معنى هذا : فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها ، فانصب في الدعاء . وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك » .

والناس صنفان :راغبٌ ، وراهبٌ أي : راغبٌ فيما عند الله من الثواب والنعيم المقيم ، وراهبٌ ، أي : خائف من عذاب الله وعقابه : وكثيرًا ما يجمع القرآن بينهما ، بين الرغبة والرهبة ، والطمع والخوف ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة:١٦] ، وفي الحديث[(٢)] : « رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ » . أي : طمعًا في ثوابك ، وخوفًا من عقابك .

فهيا ـ أيها المسلم ـ ارغب فيما عند الله ؛ فما عند الله خيرٌ وأبقى ، وأكثر من الطاعات والقربات التي تقربك من الجنة ،وتبعدك عن النار .

وكُنْ ـ دائمًا ـ راغبًا فيما أعده الله للطائعين ، وراهبًا مما أعده الله للعاصين .

فالرهبة : هي الخوف ، وترهب الرجل إذا صار راهبًا يخشى الله .

قال الراغب[(٣)] : « الرهبةُ والرُّهبُ مخافةٌ مع تحرزٍ واضطراب ؛ قال تعالى : ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً ﴾ [الحشر:١٣] ، وقال تعالى : ﴿ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ﴾ [القصص:٣٢] ، أي الفزع » .

قال ابن عثيمين[(٤)] : «والرهبة : الخوف المثمر للهرب من المخوف ؛ فهي

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن / تفسير الشرح » .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الوضوء ، باب فضل من بات على الوضوء (٢٤٧) ، ومسلم ، كتاب الذكر ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٠) .

(٣) « المفردات » (٢٠٩، ٢١٠) .

(٤) « شرح الأصول الثلاثة » (٩٥) .

خوفٌ مقرون بعمل » .

والرهبةُ عبادةٌ لا تنبغي إلا لله ﷻ ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠] ، أي : لا ترهبون إلا إياه سبحانه وتعالى ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [القصص:٥١] .

ألا فليرهب العبد مما عنده سبحانه من العذاب والنكال الذي لا يطاقُ بحالٍ من الأحوال !! قف أيها العاصي على ما أعده الله للعصاة حتى تتحقَّق رهبتك ، وتعلم عاقبة من خالف أمر الله وأمر رسوله ﷺ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴾ [الطور:٧، ٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر:٤٧، ٤٨] .

فهيا ـ أيها العبد ـ كن خائفًا مستجيرًا تائبًا مستغفرًا راغبًا راهبًا ، فالرغبة والرهبة طريق موصلٌ إلى محبة الله ورضوانه ، وأمنٌ من الفزع الأكبر يوم القيامة ؛ فمن خاف الله في الدنيا أمَّنه الله في الآخرة ، نسأل الله أن يجعلنا من الآمنين يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

تعريف الخشوع:

قيل : هو الخوف الدائم في القلب لا يفارقه أبدًا .

وقيل : هو التواضع .

وقيل : هو التذلل والخضوع .

وقيل : هو الحزن . وقيل : أَصْل الخشوع : السُّكون ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [طه:١٠٨] ؛ فالخاشع ساكن إلى طاعة الله تعالى [١] .

---

(١) « معالم التنزيل » (١/ ٨٩) للبغوي ، وانظر : « اللسان » لابن منظور (٤/ ١٠٠) مادة خشع .

وكلُّ هذه الأقوال متقاربة ؛ كما قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى[١] .

وقال العلامة ابن القيم في « المدارج»[٢] : « والخشوع في أصل اللغة : الانخفاض ، والذل ، والسكون ؛ قال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه:١٠٨] ، أي : سكنت ، وذلَّت ، وخضعت ، ومنه وصف الأرض بالخشوع ، وهو يبسها ،وانخفاضها ، وعدم ارتفاعها بالري والنبات ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت:٣٩]

والخشوع : قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل ، والجمعية عليه . وقيل: الخشوع : الانقياد للحق ، وهذا من موجبات الخشوع .

فمن علاماته : أن العبد إذا خولف ورُدَّ عليه بالحق ، استقبل ذلك بالقبول والانقياد . وقيل : الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب .

ثم قال : « والحق : أن الخشوع معنىً يلتئمُ من التعظيم ، والمحبة ، والذل ، والانكسار » .

والخُشوع في القرآن له وجوه :

أحدها : الذلُّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه:١٠٨]

والثاني : سكون الجوارح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:٢] .

والثالث : الخوف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠] .

---

(١) (« التفسير » لسورة الأنبياء:٩٠) .

(٢) « مدارج السالكين »(١/ ٤٩٥، ٤٩٦) ط التوفيقية .

والرابع : التواضع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥] [(١)]. وسيد الخاشعين هو محمد ﷺ ، خشع قلبه ، وخشعت جوارحه ، وكان يقول في ركوعه : « **اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ ، وَبِكَ آمَنْتُ ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي ، وَبَصَرِي ، وَمُخِّي ، وَعِظْمِي ، وَعَصَبِي** » [(٢)].

فمن صفات عباد الرحمن الخشوع والخضوع والإخبات والمسكنة لله ﷻ.

قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥] ؛ أي : إلا على الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطواته ، المصدقين بوعده ووعيده .

قال الطبريُّ في « تفسيره » [(٣)] : (... قال ابن زيد : « الخشوع : الخوف والخشية لله ، وقرأ قول الله : ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الشورى:٤٥] قال : « قد أذلهم الخوف الذي نزل ربهم ، وخشعوا له » .

وأصْلُ الخشوع : التواضع والتذلل والاستكانة ، ومنه قول الشاعر :

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

يعني : والجبال خشع متذللة لعظم المصيبة بفقده) انتهى .

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:١، ٢]

قال الحسن : « كان خشوعهم في قلوبهم ، فغضوا بذلك أبصارهم ، وخفضوا به الجناح » [(٤)] ؛ فالخشوع في الصلاة علامة الفلاح .

---

(١) « نزهة الأعين النواظر » لابن الجوزي (٢٧٦) نقلاً عن « نضرة النعيم » (١٨٢٦) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب صلاة النبيِّ ﷺ ودعائه بالليل (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه ـ وهو سياق طول .

(٣) (« جامع البيان » تفسير سورة البقرة:٤٥) .

(٤) عند الطبري في « التفسير » (٢٥٢٥٠) وانظر : « تفسير ابن كثير » (تفسير المؤمنون:٢) .

نعم .. الخشوعُ صفةٌ لأهل الإيمان ؛ فما أحلاها وأجملها ؟! أن يكون المرء خاشع القلب والجوارح ،خائفًا متذللاً لخالقه .

وإذا خشع القلب خشعت الجوارح [١] ، وسوف يرفع الخشوع من هذه الأمة حتى لا ترى فيهم خاشعًا ، ونحن في زمان قلَّ فيه الورع ، وقلَّ فيه الخشوع !!

وإنك لتجد الرجل عليه أثر الخشوع ، ساكن الجوارح تصنعًا ورياءً ، وما في قلبه ذرة خوف ولا تواضع ! فنعوذ بالله من خشوع النفاق ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

قال حذيفة ﷺ :« ولتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ويكون أول نقضها الخشوع حتى لا ترى خاشعًا » [٢] .

بل ؛ وفي «**سنن الترمذي**» و«**الدارمي**» [٣] من حديث أبي الدرداء وفيه : « قال عبادة بن الصامت : إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس ، الخشوع ، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعًا » . ترى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع !!

---

(١) قال أحد السلف : «من دخل الخشوع قلبه ظهر الوقار على جوارحه » أخرجه الشجري في «الأمالي» (١٦٥) .

(٢) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٢٠٠٢) ، والآجري في «الشريعة» (١٦) ، والداني في « السنن الواردة في الفتن » (٢٢٥) ، (٢٧٣) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب العلم ، باب ما جاء في ذهاب العلم (٢٦٥٣) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » والدارمي (٢٨٨) ، والطحاوي في «المشكل» (١/ ٣١٣) ، والحاكم (١/ ١٧٩) **وله شاهدٌ** عن عوف بن مالك ؛ أخرجه أحمد (٦/ ٢٦، ٢٧) ، وشاهدٌ عن شداد بن أوس ؛ أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٢٩٥) ، وأبو الشيخ في « طبقات المحدثين » (٤٣٦) ، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤٣٤) ، وأبو نعيم في « أخبار أصبهان » (١٩٧٨) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٥٧٦) .

قال المُناويُّ[(١)] : « أول ما يرفع من الناس الخشوع ،أي : خشوع الإيمان الذي هو روح العبادة ، وهو الخوف أو السكون أو معنى يقوم بالقلب ، فيظهر عنه سكون الأطراف . قال بعضهم : الزم الخشوع ، فإن الله تعالى ما أوجدك إلا خاشعًا ، فلا تبرح عما أوجدك عليه ؛ فإن الخشوع حالة حياء ، والحياء خير كلُّه » انتهى .

فليحرص العبد على التخلق بهذا الخلق الكريم ، خلق أهل الصلاح ، وقد أثنى الله عليهم كذلك ثناءً عاطرًا ؛ فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ ثم قال : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥] ، والخشوع علامة الفلاح ، كما تقدم في قوله الله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:١، ٢][(٢)] .

---

(١) « فيض القدير » (٣/ ٧٨، ٨٨) ، و« التيسير بشرح الجامع الصغير » (١/ ٧٩٣) ط الرياض .

(٢) وقد عقد ابن القيم في «المدارج» (١/ ٤٩٩، ٥٠٠) فصلاً في الخشوع في الصلاة ؛ فقال : «فإن قيل : ما تقولون في صلاة مَنْ عدم الخشوع هل يعتد بها أم لا ؟ قيل : أما الاعتداد بها في الثواب ، فلا يعتد له فيها إلا بما عقل فيه منها ، وخشع فيه لربه ،وفي « **مسند أحمد** » و « **سنن أبي داود** »[(*)] من حديث عمار بن ياسر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها** » .

وقد علَّق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم ، فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح ، ولو اعتدَّ له بها ثوابًا لكان من المفحلين . وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا ، وسقوط القضاء ، فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعًا ، وكانت السنن والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها . وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها ، وعدم تعقلها ؛ فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها ، ...» إلى آخر كلامه الماتع ، فليراجع لأهميته .

============

(*) أخرجه أبو داود ، كتاب « الصلاة » ، باب ما جاء في نقصان الصلاة (٧٩٦) ، وأحمد (٤/ ٣٢١) ، وحسنه الألباني في « صحيح أبي داود » ، و« صحيح الجامع » (١٦٢٦) .

وفي « **صحيح مسلم** »[(١)] من حديث عثمان ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاةٌ مَكْتُوبَةٌ ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً ، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ** » .

وتدبر هذه الآية الكريمة التي تدعو القلوب إلى الخشوع لربها ، والاستكانة لعظمته ، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك ؛ فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد:١٦] .

قال السعديُّ[(٢)] : « أي : ألم يأت الوقت الذي به تلين قلوبهم ، وتخشع لذكر الله ، الذي هو القرآن ، وتنقاد لأوامره وزواجره ، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ ؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى ، ولما أنزله من الكتاب والحكمة » .

وفي « **صحيح مسلم** »[(٣)] من حديث ابن مسعود ﷺ قال : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد:١٦] ، إلا أربع سنين » .

نعم .. هذه دعوة لأن تخشع القلوب لباريها ، وأن تتواضع لعظمته ، وليعلن العبد العبودية لله ونبذ ما سواه ؛ فنسأل الله أن يرزقنا الخشوع والتعظيم لجلاله ، وأن يهدي قلوبنا ، وأن يشرح صدورنا ، كما نعوذ بالله من خشوع النفاق صغيرهِ وكبيرهِ ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الطهارة » ، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٢٢٨) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (لسورة الحديد :١٦) ، وانظر : « تفسير الطبري » (٧٨٩٤) ط السلام .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب التفسير ، باب في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٣٠٢٧) .

النوع الثامن من أنواع العبادة : الخشية

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« وَدَلِيــلُ الخَشْــيةِ : قَوْلُــهُ تَعَــالَى : ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي ﴾ [البقرة:١٥٠] » .



تَعريفُ الخَشْية :

قَالَ الراغبُ (١): « الخشيةُ : خوفٌ يشوبهُ تَعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علمٍ بما يُخشى منه ، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [البقرة:٢٨] ، وقال : ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴾ [عبس:٨، ٩] ، وقال : ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [ق:٣٣] ، أي : لمن خاف خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه » ا.هـ .

وقال الجُرجاني (٢): « تألُّم القلبِ بسبب توقع مكروه في المستقبل ، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد ، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته » .

إذًا ؛ فالخشية أخصُّ من الخوف ، فهي خوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ ، وعلمٍ بعظمة الله ، وكمال سلطانه (٣) ؛ لذا خُصَّت بالعلماء بالله ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾ [الرعد:٢١] .

وعلى قَدْر المعرفة والعلم تكون الخشية والتعظيم والمحبة والتوقير والإجلال ؛ لذا فإن أشدَّ الناس وأعظم الخلق خشية لربه تعالى ، هو النبيُّ

---

(١) « المفردات » (١٥٥).

(٢) « التعريفات » (١١١) ، ط دار الندى .

(٣) « المدارج » (١/ ٤٨٧) ، ط التوفيقية .

ﷺ؛ فلقد عرف الله حق المعرفة ،وعظم الله حق عظمته ، كما في « الصَّحِيحَيْنِ » [(١)] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه أن النبيَّ ﷺ قال : « **أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ** ».

الأمر بالخشية :

لقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالخشية منه سبحانه ،ونهاهم عن خشية أيِّ أحدٍ سواه ؛ فقال جَلَّ في علاه : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ [البقرة:١٥٠] ، وقال : ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤] .

قال الحافظ ابن كثير [(٢)] : « ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ [البقرة:١٥٠] ، أي : أفردوا الخشية لي ؛ فإنه تعالى هو أهل أن يُخشى منه » .

وقال السعدي [(٣)]: «أمر الله تعالى بخشيته التي هي رأس كلِّ خير ، فمن لم يخش الله لم ينكف عن معصيته ، ولم يمتثل أمره » .

كما أمر الله سبحانه الناس بالخشية ـ وهي تابعةٌ لخشيته تعالى ـ من عظيم يوم القيامة وشدة هوله وكرباته ؛ فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣] .

ففي هذا اليوم الشديد كلُّ أحدٍ لا يهمه إلا نفسه ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٧] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « النكاح » ، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ـ واللفظ له ، ومسلم ، كتاب « النكاح » ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه (١٤٠١) عن أنس . ورواه مسلم ، كتاب « الصيام » ، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته (١١٠٨) ، عن عمر بن أبي سلمة ، ورقم (١١١٠) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) (« التفسير » ١/ ١٨٥) .

(٣) (« تيسير الكريم » آية البقرة:١٥٠) .

مَثِّــل لنفســك أيهــا المغــرور يــوم القيامــة والسـماء تمـور
إذا كـورت شـمس النهـار وأدنيـت حتـى عـلى رؤوس العبـاد تسـير
وإذا النجـوم تسـاقطت وتنـاثرت وتبـدَّلت بعـد الضـياء كـدور
وإذا البحـار تفجَّـرت مـن خوفهـا ورأيتهـا مثـل الجحـيم تفـور
وإذا الجبـال تقلعـت بأصـولها فرأيتهـا مثـل السـحاب تسـير
وإذا العشـار تعطلـت وتخربـت خَلَـتِ الـديار فـما بهـا معمـور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحشرت وتقـول للأمـلاك أيـن نسـير
وإذا تقـاة المسـلمين تزوجـت مـن حـور عـين زانهـن شـعور
وإذا المـؤودة سـئلت عـن شـأنها وبـأيِّ ذنـبٍ قتلهـا ميسـور
وإذا الجليـل طـوى السـماء بيمينـه طـي السـجلِّ كتابـه المنشـور
وإذا الصحائف عند ذاك تساقطت تبـدي لنـا يـوم القصـاص أمـور
وإذا الصـحائف نشِّرت فتطـايرت وتهتكـت للمـؤمنين سـتور
وإذا السـماء تكشـطت عـن أهلهـا ورأيـت أفـلاك السـماء تـدور
وإذا الجحـيم تسـعرت نيرانهـا فلهـا عـلى أهـل الـذنوب زفـير
وإذا الجنـان تزخرفـت وتطيبـت لفتـىً عـلى طـول الـبلاء صـبور
وإذا الجنـين بأمـه متعلـقٌ يخشـى القصـاص وقلبـه مـذعور
هــذا بـلا ذنـبٍ يخـاف جنايـة كيف المصرُّ على الذنوب دهور[(١)]

واعلم أن أهل الخشية من الله هم المنتفعون دائمًا بالذكرى ؛ كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠] ، فلا ينتفع ــ

---

(١) انظر : « التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة » ، للقرطبي (٢٠٨) ط دار الدعوة .

دائمًا ـ بالذكرى إلا من خشي ربه ، وخافه ، وعلم أن هناك عقابًا وثوابًا ، وجنة ونارًا ،وهذا هو الذي يوجب للعبد الانكفاف عن المعاصي والسيئات ، والسعي إلى الخيرات .

ومن علم قدر الخشية كان حقيقًا به أن يلحق بأهلها ،وأن يسعى إلى تحصيلها ، ولِمَ لا يسارع العبدُ إلى طلبها ، والتخلق بخلق أصحابها ، ومن الجمادات جمادات تخشى ربها ؟! قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١] .

فهيا ـ أيها الفاضل ـ اسع لتظفر بهذه المكانة ،وذلك بمعرفة الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، فهيا تعرَّف على صفات الجبروت والعظمة والكبرياء ، وأن من أسمائه القهار الجبار المنتقم ، وهو سبحانه كذلك القريب المجيب اللطيف الرحيم الودود .

هيا تعرَّف على آياته المنثورة في الكون من سمائه إلى أرضه ، ومن عرشه إلى فرشه ؛ من جبالٍ وفجاج ،وأنهار وأمطار .. ولتنظر إلى نفسك أنت ، فنظرك فيك يكفيك لأن تعظم الله وتخشاه ؛ قال جلَّ في علاه : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١] .

فسل الله أن يرزقك خشيته في السر والعلن وفي الغيب والشهادة ، فهي ـ والله ـ أعلى المنازل ، ويكفى في فضلها ومن أعظم ثمراتها ؛ رضا الله على العبد ، وتلك غاية كل مؤمن ،وأعظم وأجل منةٍ ؛ قال تعالى عن أهل الإيمان : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة:٨] .

وأهل الخشية هم الفائزون المغفور لهم الذين أوجب الله لهم جنات النعيم ؛

فقال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك:١٢] ، وقال تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

[ق:٣٣-٣٥]

أرأيت مكانة الخشية وقدرها؟! إنها لمنزلةٌ عظيمةٌ ، وعبوديةٌ جليلةٌ ؛ فعليك ـ أيها المسلم ـ بها ، فإنها غاية لكل شيء ، وهي أعلى مراتب الإحسان ؛ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**» من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الإِحْسَانِ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَخْشَى الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ؛ فَإِنك إِنْ لَا تكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** »[(١)].

وأضربُ نموذجًا واحدًا للخشية ـ وإلا فالموضوع طويلٌ ـ لكنني أجتزئ بهذا المثال لسيد الرجال ﷺ الذي ضرب أعلى المثل في شدة التحري في باب الحلال والحرام خشية من الكبير المتعال ؛ ففي«**الصَّحِيحَيْنِ**»[(٢)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنِّي لأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي ، ثُمَّ أَرْفَعُهَا لآكُلَهَا ، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً ، فَأُلْقِيهَا** ».

فتدبر ـ أخي ـ هذا الصنيع النبوي الطاهر العفيف ، وقارن بينه وبين حال كثيرٍ من الناس في زماننا ترى العجب العجاب ،ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

نعم .. إن من تمام التقوى أن يتقي العبد ربه حتى يترك ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا ،وهذا هو الورع ، والبعد عن الشبهات ؛ فمن اتقى

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (٥٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ، ووجوب الإيمان (١٠) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب اللقطة ، باب إذا وجد تمرة في الطريق (٢٤٣٢) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ (١٠٧٠) .

الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه . فاحرص على تلك الخشية تسعد في الدنيا والآخرة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » [1]: « إن الذي يخشى الله لابد أن يرجوه ، ويطمع في رحمته ، فينيب إليه ، ويحبه ، ويحبُّ عبادته وطاعته ؛ فإن ذلك هو الذي ينجيه مما يخشاه ، ويحصل به ما يحبه » ا . هـ .

*****

(١) « مجموع الفتاوى » (١٦/ ١٧٦) .

النوع التاسع من أنواع العبادة : الإنابة

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر:٥٤] » .



تعريفُ الإنابة :

قال ابن الأثير [١] : « يقال : أناب ينيب إنابةً ، فهو منيب ، إذا أقبل ورجع ، وفي حديث الدعاء : « **وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ** » [٢] .

وقال الراغب في مادة : « نوب » [٣]: « النَّوْبُ : رجوع الشيء مرة بعد أخرى ، يُقال : ناب نوبًا ونوبة ، والإنابة إلى الله تعالى : الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل ؛ قال تعالى : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص:٢٤] ، ﴿ وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا ﴾ [الممتحنة:٤] ، ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ [الزمر:٥٤] ، ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ ﴾ [الروم:٣١] ، وفلان ينتاب فلانًا أي : يقصده مرة بعد أخرى » .

وقال الجرجاني في « التعريفات »[٤]: « الإنابة : إخراج القلب من ظلمات الشبهات .

وقيل: الإنابة : الرجوع من الكلِّ إلى من له الكُلُّ .

وقيل: الإنابة: الرجوع من الغفلة إلى الذكر ، ومن الوحشة إلى الأنس» ا .هـ .

---

(١) « النهاية » (٢/ ٨٠١) ط المعرفة .

(٢) جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب (٣٥) (حديث ٧٤٩٩) ، ومسلم ،كتاب الصلاة وقصرها ، باب صلاة النبيِّ ﷺ ودعائه بالليل (٧٦٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) « المفردات » (٥٠٩) .

(٤) « التعريفات » (ص٤٣) .

وقال ابن القيم في « المدارج »(١): « قال صاحب المنازل : « الإنابة في اللغة: الرجوع ، وهي ههنا الرجوع إلى الحق ، وهي ثلاثة أشياء : الرجوع إلى الحق إصلاحًا ، كما رجع إليه اعتذارًا ، والرجوع إليه وفاء ، كما رجع إليه عهدًا ، والرجوع إليه حالاً ، كما رجعت إليه إجابة » ، ثم شرع ابن القيم قائلاً : « لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته كان من تتمة ذلك ، رجوعه إليه بالاجتهاد ، والنصح في طاعته ؛ كما قال : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان:٧٠] ، وقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾ [البقرة:١٦٠] ، فلا تنفع توبة وبطالة ، فلا بد من توبة وعمل صالحٍ ؛ تركٍ لما يكره ، وفعل لما يحب .. تخلٍّ عن معصيته ، وتحلٍّ بطاعته ...» .

منزلة الإنابة :

يحدثنا ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ عن منزلة الإنابة وهو يتكلَّم عن منزلة التوبة ؛ فيقول : « من نزل في منزلة التوبة ،وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام ، فإذا استقرت قدمهُ في منزلة « التوبة » نزل بعده منزل « الإنابة » وقد أمر الله تعالى بها في كتابه ، وأثنى على خليله بها ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر:٥٤] ، وقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود:٧٥] ، وأخبر أنَّ آياته إنما يتبصَّر بها ويتذكر أهلُ الإنابة ؛ فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٦ـ ٨] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر:١٣] .

وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة ؛ فقال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٤١٦) .

لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق:٣١-٣٤].

وأخبر سُبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة ؛ فقال سبحانه : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر:١٧].

أنواع الإنابة:

ثم تطرق العلامة ابن القيم إلى الحديث عن أنواع الإنابة ؛ فقال [1]:

« **الإنابة إنابتان :**

إنابة لربوبيته ، وهي : إنابة المخلوقات كلِّها ، يشترك فيها المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ؛ قال تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم:٣٣] ؛ فهذا عامٌّ في حقِّ كلِّ داعٍ أصابه ضُرٌّ ـ كما هو الواقع ـ وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام ؛ بل تجامع الشرك والكفر ؛ كما قال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم:٣٣، ٣٤] ، فهذا حالهم بعد إنابتهم .

والإنابة الثانية : إنابةُ أوليائه ، وهي إنابةٌ لإلهيته إنابة عبودية ومحبة ، وهي تتضمن أربعة أمور : محبتهُ ، والخضوع له ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ؛ فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع ، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك .

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم ، والمنيب إلى الله : «المسرع إلى مرضاته ، الراجع إليه كلَّ وقت ، المتقدم إلى محابه» انتهى .

فالإنابة هي أن يُنيب العبدُ إلى سيده وخالقه ، بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ،

---

(١) « المدارج » (١/ ٤١٦).

وهو والوقوف عند حدِّه .

قال ابن عثيمين [١]: « وهي قريبة من معنى التوبة ، إلا أنها أرق منها لما تشعر به من الاعتماد على الله ،واللجوء إليه ،ولا تكون إلا لله تعالى ، ودليلها قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾[الزمر:٥٤] » ا. هـ .

فعن قتادة رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ ﴾[الروم:٣١]، قال :«تائبين» [٢].

وقال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾[سبأ:٩]، قال : « تائب مقبل على الله عز وجل » [٣].

وفي رواية : « المقبل التائب » [٤].

وقال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ ﴾[الروم:٣١]، قال : « المنيب إلى الله : المطيع لله ، الذي أناب إلى طاعة الله وأمره ، ورجع عن الأمور التي كان عليها قبل ذلك ،كان القوم كفارًا ؛ فنزعوا ورجعوا إلى الإسلام » [٥].

حقيقة الإنابة :

قال ابن القيم رحمه الله [٦]: « الإنابة هي عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه ، وحقيقة ذلك : عكوفُ القلب على محبته ، وذكره بالإجلال والتعظيم ، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له ، والمتابعة لرسوله ، ومن لم يعكفْ قلبه على الله وحده ، عكف على التماثيل المتنوعة ،

---

(١) « شرح الأصول الثلاثة » لابن عثيمين (ص٦١) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في « التفسير » كما في « الدر المنثور » (٦/ ٤٣٥) .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في « الدر المنثور » (٦/ ٥٩٦) .

(٤) أخرجه الطبري (٢٨٥٤١) .

(٥) أخرجه الطبري (٢٧٧٩٨) .

(٦) « الفوائد» (٢١٧) ط دار الكتب .

كما قال إمام الحنفاء لقومه : ﴿ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٢] » ؛ فالإنابةُ هي معلمٌ عظيمٌ على صلاح العبد ، وقربه من ربه ، وهي دليلٌ على سلامة القلب ، وكمال الإيمان ، وحسن الإسلام ،وهي طريقٌ موصلٌ لجنات النعيم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق:٣١-٣٥] .

فهنيئًا لك أيها المنيب .. أيها التائب المجيب المقبل على الرحيم القريب .

وأنت أيها البعيد: أسرع وأنب إلى العزيز الحميد ، وتضرع إلى الله أن يرزقك الإنابة لتنال السعادة في الدنيا والآخرة ، وكان من دعاء النبيِّ ﷺ ؛ كما في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو يَقُولُ : «**رَبِّ أَعِنِّي وَلاَ تُعِنْ عَلَيَّ ، وَانْصُرْنِي وَلاَ تَنْصُرْ عَلَيَّ ، وَامْكُرْ لِي وَلاَ تَمْكُرْ عَلَيَّ ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الهُدَى إِلَيَّ ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَي عَلَيَّ ، ربِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا ، لَكَ ذَكَّارًا ، لَكَ رَهَّابًا ، لَكَ مِطْوَاعًا ، لَكَ مُخْبِتًا ، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا ، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي ، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي ، وَأَجِبْ دَعْوَتِي ، وَثَبِّتْ حُجَّتِي ، وَسَدِّدْ لِسَانِي ، وَاهْدِ قَلْبِي ، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**» .

فنسأل الله أن يجعلنا من عباده المنيبين الخاشعين التائبين ، وأن يرزقنا الفوز بالجنة والنجاة من النار ، وأن يحشرنا مع سيد المنيبين إليه نبيِّنا محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد ، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

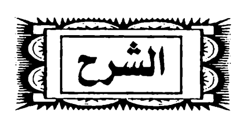
---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧) ، وأبو داود ،كتاب الصلاة ، باب ما يقول الرجل إذا سلَّم (١٥١٠) ، والترمذي ،كتاب الدعوات ، باب في دعاء النبيِّ ﷺ (٣٥٥١) وقال : «هذا حديث حسنٌ صحيح» واللفظ للترمذي ، وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب دعاء الرسول ﷺ (٣٨٣٠) .
والحديث صححه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٤٨٥) ، و« ظلال الجنة » (٣٨٤) .

النوع العاشر من أنواع العبادة : الاستعانة

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« **وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾** [الفاتحة:٥] ، وَفِي الحَدِيثِ : **وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ** »[١].



تعريفُ الاستعانة :

قال ابن منظور رحمه الله [٢] : « العَوْنُ : الظهير على الأمر .. تقول : أعنته إعانة ، واستعنته واستعنت به فأعانني ،وتعاونوا عليَّ واعتونوا : أعان بعضهم بعضًا ، وتعاونًا : أعان بعضنا بعضًا ،والمعونة : الإعانة ، ورجل معوان : حسن المعونة ، وكثير المعونة للناس ، واستعنت بفلان ، فأعانني وعاونني ، وفي الدعاء : « **ربِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ** » [٣] ، قال الليث : كل شيء أعانك فهو عونٌ لك ، كالصوم عون على العبادة ، والجمع الأعوان » ا.هـ مختصرًا .

وفي الشرع ؛ **قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى** [٤] : « والاستعانة :طلب العون ، والمخلوق يُطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه منها ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة:٢] ، وأما مالا يقدر عليه إلا الله ، فلا يطلب إلا من الله » ا .هـ المراد .

وأضاف العلامة ابن القيم إضافة جميلة لمعنى الاستعانة ؛ حيث قال في

---

(١) **حديثٌ صحيحٌ** : وقد سبق .

(٢) «لسان العرب» (٩/ ٤٨٤، ٤٨٥ ـ مادة عون) ، وانظر « القاموس المحيط » (١٥٧١) ، و«مختار الصحاح » (٢١٨) .

(٣) **حديثٌ صحيحٌ** : وقد مرَّ في الباب المتقدم .

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٣، ١٠٤) .

« المدارج »[١] :

« والاستعانة تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه ؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه ، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه ،ولعدم من يقوم مقامه ، فيحتاج إلى اعتماده عليه ،مع أنه غير واثق به » .

حاجة العبد إلى الاستعانة بالله دون ما سواه :

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ **في « جامع العلوم والحكم »**[٢] : « وأما الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ ـ دون غيره من الخلق ؛ فلأن العبد عاجزٌ عن الاستقلال بجلب مصالحه ،ودفع مضاره ، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عَزَّوَجَلَّ ؛ فمن أعانه الله فهو المعان ، ومن خذله الله فهو المخذول ،وهذا تحقيق قول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ؛ فإن المعنى لا تحوُّل للعبد من حالٍ إلى حال ، ولا قوة له على ذلك إلا بالله ، وهذه كلمةٌ عظيمةٌ ، وهي كنز من كنوز الجنة ؛ فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات ، وترك المحظورات ، والصبر على المقدورات كلِّها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة ، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عَزَّوَجَلَّ ؛ فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كلِّه أعانه ، وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلاَ تَعْجِزْ»**[٣] .

ومن ترك الاستعانة بالله ، واستعان بغيره ، وكله الله إلى من استعان به فصار مخذولاً .

---

(١) «مدارج السالكين » (١/ ٧٦) .

(٢) «جامع العلوم والحكم » (ص٣٤٥، ٣٤٦) ط ابن رجب (الحديث ١٩) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب القدر ، باب في الأمر بالقوة ، وترك العجز ، والاستعانة بالله ، وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : «لا تستعن بغير الله ، فيكلك الله إليه» .

ومن كلام بعض السلف : «يا رب ، عجبت لمن يعرفك يرجو غيرك ! عجبت لمن يعرفك كيف يسْتعين بغيرك؟!» .

أنواع الاستعانة :

يقول العلامة ابن عثيمين رحمه الله[1] : « الاستعانة طلب العون وهي أنواع :

الأول : الاستعانة بالله وهي : الاستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه ،وتفويض الأمر إليه ، واعتقاد كفايته ، وهذه لا تكون إلا لله تعالى ، ودليلها قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] ، ووجه الاختصاص: أن الله تعالى قدَّم المعمول ﴿ إِيَّاكَ ﴾ وقاعدة اللغة التي نزل بها القرآن: أن تقديم ما حقُّه التأخير يفيدُ الحصر والاختصاص ، وعلى هذا يكون صرف هذا النوع لغير الله تعالى شركًا مخرجًا عن الملة .

الثاني : الاستعانة بالمخلوق على أمر يقدر عليه ؛ فهذه على حسب المستعان عليه ؛ فإن كانت على برٍّ ؛ فهي جائزة للمستعين مشروعة للمعين؛ لقوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٢] .

وإن كانت على إثم ، فهي حرام على المستعين والمعين ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة:٢] .

وإن كانت على مباح ؛ فهي جائزة للمستعين والمعين لكن المعين قد يثاب على ذلك ثواب الإحسان إلى الغير ، ومن ثم يكون في حقه مشروعة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:١٩٥] .

الثالث : الاستعانة بمخلوق حيٍّ حاضر غير قادر ؛ فهذه لغو لا طائل تحتها مثل أن يستعين بشخص ضعيف على حمل شيء ثقيل .

---

(١) « شرح الأصول الثلاثة » (ص٦٢، ٦٣) .

الرابع : الاستعانة بالأموات مطلقًا أو بالأحياء على أمر غائب لا يقدرون على مباشرته ؛ فهذا شرك ؛ لأنه لا يقع إلا من شخص يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًّا في الكون .

الخامس : الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله تعالى وهذه مشروعة بأمر الله تعالى في قوله : ﴿ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:١٥٣] » . انتهى .

أقسام الناس في الاستعانة :

قال ابن القيم رحمه الله[1] : «الناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام :

القسم الأول : وهو أجلُّها وأفضلُها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ؛ فعبادة الله غاية مرادهم ، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، ويوفقهم للقيام بها .

القسم الثاني : وهو المعرضون عن عبادته والاستعانة به ، فلا عبادة ولا استعانة ؛ بل إن سأله أحدهم واستعان به ، فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه ؛ فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ، ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء . وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة ، فأعطاه إياها ، ولكن لما لم تكن عونًا على مرضاته ، كانت زيادة له في شقوته ، وبعده عن الله وطرده عنه .. **فليعلم العاقل أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه ؛ بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته ، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه ،وإذا منعه يكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ، فيمنعه حمايةً وصيانةً وحفظًا لا بخلاً .**

---

(١) « المدارج » (١/ ٧٩ـ ٨٣) باختصار .

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة ، وهؤلاء نوعان :

أحدهما : القدرية ، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل ، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ،وتعريف الطريق ،وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل ، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها .

النوع الثاني : من لهم عبادات وأوراد ، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له ؛ بل كالعدم الذي لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول على المحرك الأول ، فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك ، ومن السبب إلى المسبب ، ومن الآلة إلى الفاعل ، فضعفت عزائمهم ،وقصرت هممهم ، فقلَّ نصيبهم من « إياك نستعين » ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف . فهؤلاء لهم نصيبٌ من التوفيق والنفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم . ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم . ولو توكَّل العبدُ على الله حقَّ توكُّله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأمورًا بإزالته لأزاله .

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ،ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه ، فتوكل عليه ، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ،وأنزلها به ، فقضيت له ، وأسعف بها ، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق ، أو أحوالاً من كشفٍ وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لا عاقبة له ، فإنه من جنس الملك الظاهر ، والأموالُ لا تستلزم الإسلام فضلاً عن الولاية والقرب من الله » ا .هـ المراد ملخصًا .

لطائف حول تفسير قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ **:**

قال شيخ المفسرين الإمام الطبريُّ ـ رحمه الله تعالى : في «جامع البيان» :

ومعنى قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وإياك ربَّنا نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك ، وفي أمورنا كلِّها لا أحدًا سواك ، إذا كان من يكفر بك يستعين في أموره مَعْبُودَهُ الذي يعبده من الأوثان دونك ، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة ...

عن عبد الله بن عباس : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : « إياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلِّها » .

فإن قال قائل : وما معنى أمْرِ الله عِبادَهُ بأن يسألوه المعونة على طاعته ؟ أَوَ جائزٌ وقد أمرهم بطاعته أن لا يعينهم عليها ؟ أم هل يقول قائل لربه : إياك نستعين على طاعتك ، إلا وهو على قوله ذلك مُعانٌ ، وذلك هو الطاعة ؟ فما وَجْه مسألة العبد ربه ما قد أعطاه إياه ؟

قيل : إن تأويل ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه ،وإنما الداعي رَبَّهُ من المؤمنين أن يعينه على طاعته إياه ، داعٍ أن يعينه فيما بقي من عمره على ما كَلَّفه من طاعته ،دون ما قد تَقَضَّى ومضى من أعماله الصالحة فيما خلا من عمره . وجازت مسألة العبد ربه ذلك ؛ لأن إعطاء الله عبده ذلك مع تمكينه جوارحَهُ لأداء ما كَلَّفَه من طاعته ، وافترض عليه من فرائضه ، فَضْلٌ من الله ـ جَلَّ ثناؤه ـ تفضَّل به عليه ، ولطف منه ، لَطَفَ له فيه ،وليس في تركه التفضُّلَ على بعض عبيده ـ بالتوفيق مع اشتغال عَبْدِهِ بمعصيته ،وانصرافه عن محبته ، ولا في بسطه فَضْلَهُ على بعضهم ـ مع إجهاد العبد نَفْسَهُ في محبته ،ومسارعته إلى طاعته ــ فسادٌ في تدبير ، ولا جور في حكم ، فيجوز أن يجهل جاهلٌ

موضعَ حكم الله في أمْرِهِ عبدَهُ بمسألته عَوْنَهُ على طاعته .

وفي أمر الله ـ جَلَّ ثناؤه ـ عبادَهُ أن يقولوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ بمعنى مسألتهم إياه المعونةَ على العبادة أدلُّ الدليل على فساد قول القائلين بالتفويض من أهل القدر ، الذين أحالوا أن يأمر الله أحدًا من عباده بأمرٍ ، أو يكلفه فرض عمل إلا بعد إعطائه المعونة على فعله وعلى تركه .

ولو كان الذي قالوا من ذلك كما قالوا : لبطلت الرغبة إلى الله في المعونة على طاعته ؛ إذ كان ـ على قولهم مع وجود الأمر والنهي والتكليف ـ حقًّا واجبًا على الله للعبد إعطاؤه المعونة عليه : سأله ذلك عبدُه أو ترك مسألة ذلك ، بل ترك إعطائه ذلك عندهم منه جور . ولو كان الأمر في ذلك على ما قالوا ، لكان القائل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إنما يسأل ربه أن لا يجور .

وفي إجماع أهل الإسلام جميعًا ـ على تصويب قول القائل : اللَّهم إنا نستعينك . وتخطئتهم قول القائل : اللَّهم لا تَجُرْ علينا ـ دليلٌ واضحٌ على خطأ ما قال الذين وصفت قولهم ؛ إذ كان تأويل قول القائل عندهم : اللَّهم إنا نستعينك ، اللَّهم لا تترك معونتنا التي تركُكها جور منك .

فإن قال قائل : وكيف قيل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فقدم الخبر عن العبادة ، وأخرت مسألة المعونة عليها بعدها ؟وإنما تكون العبادة بالمعونة ؛ فمسألة المعونة كانت أحقَّ بالتقديم قبل المُعَان عليه من العمل والعبادة بها ، قيل : لما كان معلومًا أن العبادة لا سبيل للعبد إليها إلا بمعونة من الله ـ جَلَّ ثناؤه ـ وكان محالاً أن يكون العبد عابدًا إلا وهو على العبادة مُعَانٌ ، وأن يكون مُعانًا عليها إلا وهو لها فاعل ؛ كان سواءً تقديمُ ما قدم منهما على صاحبه ، كما سواءٌ قولُكَ للرجل ـ إذا قضى حاجتك فأحسن إليك في

قضائها : قضيت حاجتي فأحسنت إليَّ ، فقدمت ذكر قضائه حاجتك . أو قلت : أحسنت إليَّ فقضيت حاجتي ، فقدَّمت ذكر الإحسان على ذكر قضاء الحاجة ؛ لأنه لا يكون قاضيًا حاجتك إلا وهو إليك محسن ، ولا محسنًا إليك إلا وهو لحاجَتك قاضٍ . فكذلك سواءٌ قول القائل : اللَّهم إنا إياك نعبد فأعِنَّا على عبادتك ، وقوله : اللَّهم أعنا على عبادتك فإنا إياك نعبد .

قال أبو جعفر : وقد ظنَّ بعض أهل الغفلة أن ذلك من المقدَّم الذي معناه التأخير ،كما قال امرؤ القيس :

ولو أنَّ ما أَسْعَى لأدنى مَعِيشةٍ كفَاني وَلَمْ أَطْلب قليلٌ من المال

يريد بذلك : كفاني قليل من المال ولم أطلب كثيرًا ،وذلك ـ من معنى التقديم والتأخير ، ومن مشابهة بيت امرئ القيس ـ بمعزل ، من أجل أنه قد يكفيه القليلُ من المال ، ويطلبُ الكثير ، فليس وجود ما يكفيه منه بموجب له ترك طلب الكثير . فيكون نظير العبادة التي بوجودها وجود المعونة عليها ، وبوجود المعونة عليها وجودها ، فيكون ذكر أحدهما دالاًّ على الآخر ، فيعتدل في صحة الكلام تقديمُ ما قدم منهما قبل صاحبه أن يكون موضوعًا في درجته ، ومرتبًا في مرتبته .

فإن قال : فما وجه تكراره ﴿ وَإِيَّاكَ ﴾ ، مع قوله : ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ وقد تقدم ذلك قبل ﴿ نَعْبُدُ ﴾ وهلا قيل : إياك نعبد ونستعين ، إذ كان المخبر عنه أنه المعبود هو المخبرُ عنه أنه المستعان ؟ قيل له : إن الكاف التي مع « إيا » ، هي الكاف التي كانت تتصل بالفعل ، أعني بقوله : ﴿ نَعْبُدُ ﴾ لو كانت مؤخرةً بعد الفعل . وهي كنايةُ اسم المخاطب المنصوب بالفعل ، فَكُثِّرتْ بـ « إيا » متقدمة ؛ إذ كانت الأسماء إذا انفردت بأنفسها لا تكون في كلام العرب على

حرف واحد ، فلما كانت الكاف من « إياك » هي كناية اسم المخاطَب التي كانت تكون كافًا وحدها ،متصلةً بالفعل إذا كانت بعد الفعل ، ثم كان حَظُّهَا أن تعاد مع كل فعل اتصلت به ، فيقال : اللَّهم إنا نعبدك ونستعينك ونحمدك ونشكرك ، وكان ذلك أفصح في كلام العرب من أن يقال : اللَّهم إنا نعبدك ونستعين ونحمد ، كان كذلك إذا قُدِّمت كنايةُ اسم المخاطب قبل الفعل موصولة بـ « إيا » ، كان الأفصح إعادتها مع كل فعل . كما كان الفصيح من الكلام إعادتها مع كل فعل ، إذ كانت بعد الفعل متصلة به ، وإن كان ترك إعادتها جائزًا . وقد ظن بعض من لم ينعم النظر أن إعادة ﴿ وَإِيَّاكَ ﴾ مع ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾ بعد تقدمها في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ بمعنى قول عدي بن زيد العبادي :

وجاعل الشمس مِصْرًا لا خفَاء به ... بين النَّهارِ وبينَ اللَّيلِ قَدْ فُصِلا

وكقول أعشى همدان :

بين الأشجِّ وبين قيسٍ باذُخٌ ... بَخْ بَخْ لوالده وللمولود

وذلك مِنْ قائله جهل : من أجل أن حظ : ﴿ إِيَّاكَ ﴾ أن تكون مكررة مع كل فعل لما وصفنا آنفًا من العلة ، وليس ذلك حكم « بَيْنَ » لأنها لا تكون إذا اقتضت اثنين إلا تكريرًا إذا أعيدت ؛ إذا كانت لا تنفرد بالواحد . وأنها لو أفردت بأحد الاسمين في حال اقتضائها اثنين كان الكلام كالمستحيل ؛ وذلك أن قائلاً لو قال : الشمس قد فَصَلَتْ بين النهار ، لكان من الكلام خلْفًا لنقصان الكلام عما به الحاجة إليه من تمامه الذي يقتضيه « بين » .

ولو قال القائل : اللَّهم إياك نعبد لكان ذلك كلامًا تامًّا . فكان معلومًا بذلك أن حاجة كل كلمة كانت نظيرة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى ﴿ إِيَّاكَ ﴾ كحاجة ﴿ نَعْبُدُ ﴾

إليها ، وأن الصواب أن تكون معها ﴿ إِيَّاكَ ﴾ ؛ إذ كانت كل كلمة منها جملة خبر مبتدأ ، وبينا حُكْم مخالفة ذلك حكم « بين » فيما وَفَّق بينهما الذي وصفنا قوله » . انتهى كلام الطبري .

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «المدارج»** [١] : «وَتَقْدِيمُ الْعِبَادَةِ عَلَى الاسْتِعَانَةِ لِمَا يَلِي :

١ـ لأَنَّ الْعِبَادَةَ غَايَةُ الْعِبَادِ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا . والاسْتِعَانَةُ وَسِيلَةٌ إِلَيْهَا ، وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ قَبِيلِ تَقْدِيمِ الْغَايَاتِ عَلَى الوَسَائِلِ .

٢ـ لأَنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِأُلُوهِيَّتِهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ .

٣ـ وَلأَنَّ تَقْدِيمَ العِبَادَةِ عَلَى الاسْتِعَانَةِ يَتَنَاسَبُ مَعَ تَقْدِيم اسْمِ « الله » عَلَى لَفْظِ « الرَّبِّ » الْمَذْكُورَيْنِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ .

حَيْثُ إِنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قِسْمُ الرَّبِّ ، فَكَانَ مِنَ الشَّطْرِ الأَوَّلِ ، الَّذِي هُوَ ثَنَاءٌ عَلَى الله تَعَالَى ، لِكَوْنِهِ أَوْلَى بِهِ ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قِسْمُ الْعَبْدِ فَكَانَ مِنَ الشَّطْرِ الَّذِي لَهُ ،وَهُوَ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

٤ـ وَلأَنَّ العِبَادَةَ الْمُطْلَقَةَ تَتَضَمَّنُ الاسْتِعَانَةَ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ ، فَكُلُّ عَابِدٍ لله عُبُودِيَّةً تَامَّةً ، مَسْتَعِينٌ ، وَلاَ يَنْعَكِسُ الأَمْرُ؛ لأَنَّ صَاحِبَ الأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ قَدْ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى شَهَوَاتِهِ ، فَكَانَتِ العِبَادَةُ أَكْمَلَ وَأَتَمَّ ، وَلِهَذَا كَانَتْ قِسْمَ الْمَوْلَى عَجَلَّ .

٥ـ وَلأَنَّ الاسْتِعَانَةَ جُزْءٌ مِنَ الْعِبَادَةِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ (فَقُدِّمَ الْكُلُّ عَلَى الْجُزْءِ) .

٦ـ وَلأَنَّ الاسْتِعَانَةَ طَلَبٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، وَالْعِبَادَةُ طَلَبٌ لَهُ فَقُدِّم مَا هُوَ لَهُ عَلَى مَا هُوَ مِنْهُ .

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٧٧، ٧٨) بتصرف واختصار .

٧- وَلأَنَّ الْعِبَادَةَ لاَ تَكُونُ إلاَّ مِنْ مُخْلِصٍ ، وَالاسْتِعَانَةُ تَكُونُ مِنْ مُخْلِصٍ وَمِنْ غَيْرِ مُخْلِصٍ ،وَمِنْ ثَمَّ قُدِّمَ مَا هُوَ مَحْضُ الإخْلاَصِ .

٨ - وَلأَنَّ العِبَادَةَ حَقُّ الله الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى العَبْدِ ، وَالاسْتِعَانَةُ طَلَبُ العَوْنِ عَلَى الْعِبَادَةِ ، وَذَلِكَ بَيَانٌ لِصَدَقَتِهِ الَّتِي تَصَدَّقَ بِهَا عَلَيْكَ ، وَأَدَاءُ حَقِّهِ أَهَمُّ مِنَ التَّعَرُّضِ لِصَدَقَتِهِ (فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الأَهَمِّ عَلَى الْمُهِمِّ) .

٩- وَلأَنَّ الْعِبَادَةَ شُكْرٌ لِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ ، والله يُحِبُّ أَنْ يُشْكَرَ ، وَالإِعَانَةُ فِعْلُهُ بِكَ وَتَوْفِيقُهُ لَكَ ، فَإِنِ الْتَزَمْتَ عُبُودِيَّتَهُ ،وَدَخَلْتَ تَحْتَ رِقِّهَا أَعَانَكَ عَلَيْهَا ، فَكَانَ الْتِزَامُهَا ، والدُّخولُ تحتَ رِقِّهَا سَبَبًا لِنَيْلِ الإِعَانَةِ ، وَكُلَّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَتَمَّ عُبُودِيَّةً كَانَتْ الإِعَانَةُ لَهُ مِنَ الله أَعْظَمَ ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ فِي تَقْدِيمِ العِبَادَةِ تَقْدِيمٌ لِلسَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ .

١٠- وَلأَنَّ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ لله ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ بِهِ ، والَّذِي لَهُ مُقَدَّمٌ عَلَى مَا بِهِ ، لأَنَّ مَا لَهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ ، والَّذِي (يَكُونُ) بِهِ مَتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ ، وَمَا تَعَلَّقَ بِمَحَبَّتِهِ ، أَكْمَلُ مِمَّا تَعَلَّقَ بِمُجَرَّدِ مَشِيئَتِهِ ، إِذِ الْكَوْنُ كُلُّهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ كَذَلِكَ ، وَالْمَلاَئِكَةُ وَالشَّيَاطِينُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالكُفَّارُ وَالطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِمَحَبَّتِهِ طَاعَاتُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ ، فَالْكُفَّارُ أَهْلُ مَشِيئَتِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ أَهْلُ مَحَبَّتِهِ ، وَلِهَذَا لاَ يَسْتَقِرُّ فِي النَّارِ شَيْءٌ لله أَبَدًا ،وَكُلُّ مَا فِيهَا فَإِنَّهُ بِهِ تَعَالَى وَبِمَشِيئَتِهِ » .

وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في « التفسير »[1]: « إن قيل : لم قدَّم المفعول على الفعل ؛ قيل له : قُدِّم اهتمامًا ، وشأنُ العرب تقديم الأهمِّ ، يذكر أن أعرابيًّا سبَّ آخر ، فأعرض المسبوب عنه ؛ فقال له السابُّ : إياك أعني ؛ فقال له الآخر : وعنك أعرض ؛ فقدما الأهمَّ وأيضًا لئلا يتقدم ذكر العبد

(١) «تفسير القرطبيِّ» (لسورة الفاتحة:٥) .

والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز: نعبدك ونستعينك ـ ولا : نعبد إياك ، ونستعين إياك ، فيقدم الفعل على كناية المفعول ،وإنما يتبع لفظ القرآن . وقال الحجاج :

إيـاك أدعـو فتقبَّـل مَلَقِـي واغفـر خطايـاي وكثـر ورقـي

ويروى : وثمِّر .

وأما قول الشاعر :

إليك حتى بَلغَتْ إياكَا

فشاذٌ لا يقاس عليه . والورقُ بكسر الراء من الدراهم ،وبفتحها : المال ، وكُرِّر الاسم لئلا يتوهم : إياك نعبد ونستعين غيرك » .

وقال ابن كثير رحمه الله(١) : «وإنما قدم : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؛ لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام ، والحزم تقديمُ ما هو الأهم فالأهم ، والله أعلم » .

وقال السعديُّ رحمه الله(٢) : « وقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، أي : نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة ؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر ، وهو إثبات الحكم للمذكور ،ونفيه عما عداه ، فكأنه يقول : نعبدك ،ولا نعبد غيرك ، ونستعين بك ، ولا نستعين بغيرك ، وتقديم العبادة على الاستعانة ، من باب تقديم العام على الخاص ، واهتمامًا بتقديم حقه تعالى على حق عبده ، و« **العبادة** » اسم جامع لما يحبُّه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، و « **الاستعانة** » هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ،ودفع المضار ، مع الثقة به في تحصيل ذلك .

والقيام بعبادة الله ، والاستعانة به هما الوسيلة للسعادة الأبدية ، والنجاة من جميع الشرور ؛ فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما ، وإنما تكون العبادة

---

(١) «تفسير ابن كثير» (لسورة الفاتحة:٥) .

(٢) «تفسير السعدي » (لسورة الفاتحة:٥) .

عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصودًا بها وجه الله ، فبهذين الأمرين تكون عبادة ، وذكر « الاستعانة » بعد « العبادة » مع دخولها فيها ، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى ؛ فإنه إن لم يُعِنْه الله ، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر ،واجتناب النواهي » ا .هـ .

فأقولُ : الاستعانة عبادةٌ من العبادات التي يجب صرفها لله وحده ، فإن صرفت لغير الله كان ذلك شركًا أكبر ، يخرج صاحبه من الملة ، وليس أدلَّ على ذلك من الآية المتقدمة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي : لا نعبد إلا أنت ، ولا نستعين إلا بك ؛ فالعبادة والاستعانة مقصورة على الله دون أحدٍ غيره، فحَصَر العبادة والاستعانة على الله وحده بتقديم المفعول على الفعل ، وكانت هذه العبادات شعارًا للأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيد النبيين محمد ﷺ ، حين كذبه قومه وآذوه ، فاستعان الله عليهم وعلى كذبهم وافتراءاتهم ؛ قال تعالى : ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١١٢] .

وهذا نبيُّ الله يعقوب يقول : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨]

فيا أيها العبد : عليك بالاستعانة بالله وحده ، ولا تستعن إلا به سبحانه ، فلقد قلَّت الاستعانة بالخالق عند كثيرٍ من الناس ، وراحوا يستعينون بمن سواه ،ويثقون في الشرق الملحد تارة ،وفي الغرب الكافر تارة أخرى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد قلنا بأن الاستعانة على أحدٍ من الناس فيما يستطيعه وفي ما يقدر عليه ويستطيع القيام به ، فهذه من الأمور المباحة (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » كما قال النبيُّ ﷺ [١] .

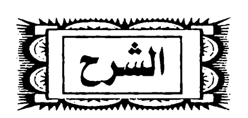
---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الذكر » ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩) .

النوع الحادي عشر من أنواع العبادة: الاستعاذة

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق:١] و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١] ».



تعريفُ الاستعاذة لغةً :

قال الراغب في « المفردات » [١] ـ مادة عوذ : «العَوْذُ: الالتجاء إلى الغير ، والتعلّق به ، يُقال : عاذ فلانٌ بفلان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ [مريم:١٨] ، وأعذته بالله أعيذه ، قال : ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ [آل عمران:٣٦] ، أي : نلتجئ إليه» .

وقال ابن منظور في « اللسان » [٢]: « عاذ به يعوذ عوذًا ومعاذًا : لاذ به ، ولجأ إليه واعتصم . ومعاذ الله أي : عياذًا بالله ؛ قال الله ﷻ : ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [يوسف:٧٩] ، أي: نعوذ بالله معاذًا ، أن نأخذ غير الجاني بجنايته ، والمعاذ : المصدر ، والمكان والزمان أي : قد لجأت إلى ملجأ ، ولذت بملأذ . وقال الليث: فلان عوذٌ لك ، أي: ملجأ ، وقد عوذه ، يقال : عوذت فلانًا بالله وأسمائه وبالمعوذتين إذا قلت أعيذك بالله وأسمائه من كلِّ ذي شرٍّ وكل داءٍ حاسد وعين » .

وشرعًا : **يقول الحافظُ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى** [٣]: « والاستعاذة هي

---

(١) (« المفردات » ٣٥٥) .

(٢) («لسان العرب » ٩/ ٤٦٤) .

(٣) («مقدمة التفسير » ١/ ١٥، ١٦) ط المكتبة القيمة .

الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شرِّ كل ذي شر ، والعياذة تكون لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب جلب الخير ؛ كما قال المتنبي :

يا من أعوذُ به فيما أؤمله ومن أعوذ به ممن أحاذره
لا يجبر الناسُ عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

ومعنى : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » أي : أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه ؛ فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ؛ ولهذا أمر الله بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ،وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل ؛ لأنه شرير بالطبع ،ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه ، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة ، قوله في الأعراف : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] ، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر . ثم قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] ، وقال تعالى في سورة « قد أفلح المؤمنون » : ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٦ـ ٩٨] ، وقال تعالى في «حم السجدة» : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٤ـ٣٦]» .

وقد بحث العلامة ابن القيم أحكام الاستعاذة في ثلاثة فُصول تابعة لتفسيره

لسورتي الفلق والناس ، في كتابه القيم « بدائع الفوائد » .

الفصل الأول (**في معنى الاستعاذة**)

حيث قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى [(١)]: « اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها تدلُّ على التحرز والتحصن والنجاة . وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا . كما يسمى ملجأ ووزرًا .

وفي الحديث أن ابنة الجون . لما أدخلت على النبيِّ ﷺ فوضع يده عليها ، قالت : أعوذ بالله منك ؛ فقال لها : « **لَقَدْ عُذْتِ بِمُعَاذٍ الْحَقِي بِأَهْلِكِ** » [(٢)].

فمعنى أعوذ : ألتجئ وأعتصم وأتحرز ، وفي أصله ، قولان :

أحدهما : أنه مأخوذٌ من الستر .

والثاني : أنه مأخوذٌ من لزوم المجاورة ، والقولان حق . والاستعاذة تنتظمهما معًا ؛ فإن المستعيذ مستتر بمعاذه ، متمسك به ، معتصم به . قد استمسك قلبه به ولزمه ، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفًا وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه . فإنه يلقي نفسه عليه ، ويستمسك به أعظم استمساك ؛ فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه ، وفر إليه ، وألقى نفسه بين يديه ، واعتصم به ، واستجار به ، والتجأ إليه .

وبعد ؛ فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات ،وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم ، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذٍ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب ، والافتقار إليه ، والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة ، ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته ، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك ، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك لا بمجرد الصفة

---

(١) «بدائع الفوائد » (٢/ ٣٦٤ ـ٣٦٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الطلاق ، باب من طلق وهل يواجه امرأته بالطلاق (٥٢٥٧) ، ومسلم ، كتاب الأشربة ، باب إباحة النبيذ الذي لم يشتد (٢٠٠٧) عن سهل بن سعد .

والخبر ، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعِنِّين لم تخلق له شهوة أصلاً ، فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه ، فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق .

ثم قال: فإن قلت : فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل . كقوله : فاستعذ بالله ، ولم تدخل في الماضي والمضارع ، بل الأكثر أن يقال : أعوذ بالله وعذت بالله دون أستعيذ واستعذت ، قلت : السين والتاء دالة على طلب . فقوله : أستعيذ بالله أي : أطلب العياذ به ؛ كما إذا قلت : أستخير الله أي: أطلب خيرته وأستغفره ،أي أطلب مغفرته وأستقيله ، أي: أطلب إقالته . فدخلت في الفعل إيذانًا لطلب هذا المعنى من المعاذ . فإذا قال المأمور : أعوذ بالله . فقد امتثل ما طلب منه ؛ لأنه طلب من الالتجاء والاعتصام ، وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام وبين طلب ذلك ، فلما كان المستعيذ هاربًا ملتجئًا معتصمًا بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك ؛ فتأمله . وهذا بخلاف ما إذا قيل : استغْفِر الله ، فقال : أستغفر الله ؛ فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله ، فإذا قال : أستغفر الله كان ممتثلاً؛ لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي ، وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين . فيقول : أستعيذ بالله أي طلب منه أن يعيذني ، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه ، **فالأول** : يخبر عن حاله وعياذه بربه ، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه . **والثاني** : طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول : أطلب منك أن تعيذني ؛ فحال الأول أكمل . ولهذا جاء عن النبيِّ ﷺ في امتثال هذا الأمر : « **أَعُوذُ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**[1] ـ **وَأَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب (٦١١٥) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة ، باب من يمتلك نفسه عند الغضب (٢٦١٠).

التَّامَّاتِ [(١)] **- وَأَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ** » [(٢)] ، دون أستعيذ ؛ بل الذي علمه الله إياه أن يقول : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق:١] ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١] ، دون أستعيذ فتأمل هذه الحكمة البديعة .

فإن قلت : فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به ؛ فقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق:١] و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس:١] ، ومعلوم أنه إذا قيل : قل: الحمد الله ، وقل: سبحان الله ، فإن امتثاله أن يقول : الحمد لله ، وسبحان الله ، ولا يقول : قل سبحان الله ؟

قلْتُ : هذا هو السؤال الذي أورده أبيُّ بنُ كعب على النبيِّ ﷺ بعينه ، وأجابه عنه رسول الله ﷺ ؛ فقال البخاريُّ في **«صحيحه»** : حدَّثنا قتيبة ثنا سُفْيَانُ عن عاصم وعبدة عن زرٍّ قَالَ : سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ ؟ فَقَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ : «قِيلَ لِي : فَقُلْتُ» ؛ فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ . ثم قال : حَدَّثَنَا عليُّ بن عبد الله ثنا سُفْيَانُ ثنا عَبْدَةَ بْنُ أَبِي لُبَابَةَ عن زرِّ بن حبيش ، وحدَّثنا عَاصِمُ عن زِرٍّ قال : سَأَلْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ قُلْتُ : أَبَا الْمُنْذِرِ إِنَّ أَخَاكَ ابْنَ مَسْعُودٍ ، يقول كذا ، وكذا ، فقال : إني سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ : «قِيلَ لِي . **فَقُلْتُ : قُل**» فَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ [(٣)] .

قلت : مفعول القول محذوف ، وتقديره : قيل لي: قل ، أو قيل لي هذا اللفظ . فقلت كما قيل لي . وتحت هذا من السر أن النبيَّ ﷺ ليس له في القرآن إلا بلاغه ، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه ؛ بل هو المبلغ له عن الله ، وقد قال الله له : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق:١] ، فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول : ﴿ قُلْ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٧٠٨) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم (٢٢٠٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب سورة الفلق والناس (٤٩٧٦، ٤٩٧٧) .

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] ، كما قال الله ، وهذا هو المعنى الذي أشار النبيُّ ﷺ إليه بقوله : «**قيل لي فقلت**» أي: إني لست مبتدئًا ؛ بل أنا مبلغ أقولُ كما يقال لي ، وأبلغ كلام ربي كما أنزله إليَّ؛ فصلوات الله وسلامه عليه ، لقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وقال كما قيل له ؛ فكفانا وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول : هذا القرآن العربي ، وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به ، ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول ، وأنه ﷺ بلَّغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى أنه لما قيل له : قل قال هو : قل ؛ لأنه مبلغ محض ، وما على الرسول إلا البلاغ .

الفصل الثاني (في المستعاذ به)

قال ابن القيم رحمه الله [(١)]: في المستعاذ به ، وهو الله وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس إله الناس ، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به ، ولا يستعاذ بأحدٍ من خلقه ؛ بل هو الذي يعيذ المستعيذين ، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره ،وقد أخبر تعالى في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادتْهُ طغيانًا ورهقًا ؛ فقال حكاية عن مؤمني الجن : ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦] ، جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرضٍ قَفْر ، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه ، فيبيت في أمنٍ وجوارٍ منهم حتى يصبح ، أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقًا ، أي: طغيانًا وإثمًا وشرًّا . يقولون : سُدْنا الإنس والجن ، والرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم ، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانًا لما كان محظورًا من الكبر والتعاظم ، فظنوا أنهم سادوا الإنسان والجن ، واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله

---

(١) « بدائع الفوائد» (٢/ ٣٦٧، ٣٦٨) .

غير مخلوقة بأن النبيَّ ﷺ استعاذ بقوله : «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ**» (١) وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبدًا ، ونظير ذلك قوله : «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ بِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**» (٢) ، فدلَّ على أن رضاه وعفوه من صفاته ،وأنه غير مخلوق ، وكذلك قوله : « **أَعُوذُ بِعِزَّةِ الله وَقُدْرَتِهِ** » (٣) ، وقوله : « **أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ** » (٤) .

وما استعاذ به النبيُّ ﷺ غير مخلوق ؛ فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو صفة من صفاته . وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله ، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس ، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة ، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها . وقد قررنا في مواضع متعددة ، أن الله سبحانه يُدْعى بأسمائه الحسنى ، فيسأل لكلِّ مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه ،وقد قال النبيُّ ﷺ في هاتين السورتين : « **إِنَّهُ مَا تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِمَا** » (٥) .

---

(١) سبق آنفًا .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب ما يُقال في الركوع والسجود (٤٨٦) .

(٣) سبق آنفًا .

(٤) جزءٌ من دعاء الطائف المشهور ، وقد أخرجه الطبراني في « الدعاء » (١٠٣٦) ،وابن عساكر في « تاريخه » (٤٩/ ١٥٢) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (١٨٣٩) من طريق ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال : فذكره . قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥): « رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ،وبقية رجاله ثقات » وله شاهدٌ مرسل عن محمد ابن كعب ؛ لعلَّه به يُحَسَّن .

أخرجه الطبري في « تاريخه » (١/ ٥٥٤) من طريق : ابن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب مرسلاً ، وقد أورده من طريق ابن إسحاق ابن كثير في « البداية والنهاية » (٣/ ١٣٥) ، وراجع « الضعيفة » (٢٩٣٣) ، و «ضعيف الجامع » (١١٨٢) .

(٥) أخرجه النسائي ، كتاب الاستعاذة (٨/ ٢٥١) ، بلفظ : « **ما تعوذ بمثلهن أحد** » ، وفي رواية : « **لم يتعوذ الناس بمثلهن** » من حديث عقبة بن عامر الجهني مرفوعًا ، وصححه الألباني في « صحيح النسائي » =

فلابد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيًا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه ، أو رفعه ،وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث وهو الشيء المستعاذ منه ، فتتبين المناسبة المذكورة ؛ فنقول : في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين : إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ،ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها ، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالاً بصاحبه ، وإما شر واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مكلف ، أو غير مكلف ، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان ، أو ليس نظيره ، وهو الجني ، وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى وغيرها ، فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلِّها بأوجز لفظ وأجمعه وأدلِّه على المراد وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما ؛ فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة :

أحدها : شر المخلوقات التي لها شر عمومًا .

الثاني : شر الغاسق إذا وقب .

الثالث : شر النفاثات في العقد .

الرابع : شر الحاسد إذا حسد . فنتكلَّم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد والتحرز منها قبل وقوعها وبماذا تدفع بعد وقوعها ؟ وقبل

= و« صحيح الجامع » (٧٩٥٠) ، ورواه أبو داود ، كتاب « الصلاة » ، باب في المعوذتين (١٤٦٣) عن عقبة بلفظ : « **فما تعوذ متعوذ بمثلهما** » ، وصححه الألباني في « صحيح أبي داود » ، و« صحيح الجامع » (٧٩٤٩) ، ورواه أحمد (٤/ ١٤٤) ، والنسائي (٨/ ٢٥١، ٢٥٢) عن ابن عابس الجهني ـ وهو عقبة بن عامر ـ بلفظ : « **ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون** » ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (١١٠٤) ، وانظر : « صحيح مسلم » ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة المعوذتين (٨١٤).

الكلام في ذلك ، لابد من بيان الشر ما هو وما حقيقته ؟ فنقول : الشر يقال على شيئين على الألم وعلى ما يفضي إليه ، وليس له مسمى سوى ذلك ، فالشرور هي الآلام وأسبابها ، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور ، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة ، لكنها شرور ، لأنها أسباب الآلام ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها . فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة ، وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ، ولابد ما لم يمنع السببية مانع ، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده ،كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوى للأضعف ، وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض ، وأسباب الضعف والقوة ، والمقصود : أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما هي شر ، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة ، وهي بمنزلة طعام لذيذٍ شهيٍّ ، لكنه مسموم ، إذا تناوله الآكل لذَّ لآكله ، وطاب له مساغه ،وبعد قليل يفعل به ما يفعل ، فهكذا المعاصي والذنوب ، ولابد حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده ، وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته ؛ فإن الله إذا أنعم على عبدٍ بنعمة حفظها عليه ، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد:١١] ، ومن تأمل ما قصَّ الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب ذلك جميعه ؛ إنما هو مخالفة أمره وعصيان

رسله ، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره ، وما أزال الله عنهم من نعمة وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ؛ كما قيل :

إذا كنت في نعمة فارعها   فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته ، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره ، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه ، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس ، ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له .

والمقصود: أن هذه الأسباب شرورٌ ولابد ،وأما كون مسبباتها شرورًا فلأنها آلام نفسية وبدنية ؛ فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات ، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حقَّ التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب ، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمرًا كان مفعولا ، فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله ، وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والاطلاع على عالم البقاء ؛ فحينئذ يقول : ﴿ يَـٰلَيۡتَنِى قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر:٢٤] ، ﴿ يَـٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٦] ، ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبيِّ ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين ؛ فكلُّ ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه ؛ فهو إما مؤلم ، وإما سبب يفضي إليه ، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع ، وأمر بالاستعاذة منهن وهي: «عذاب القبر ، وعذاب النار ، فهذان أعظم المؤلمات ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال» [(١)] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام (٨٣٢) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٩) عن عائشة ، وانظر: «صحيح البخاري» برقم (١٣٧٧) ، ومسلم (٥٨٨/ ١٣٠) عن أبي هريرة عن ابن عباس ، وانظر : « صحيح مسلم » (٥٩٠) .

وهذان سبب العذاب المؤلم ؛ فالفتنة سبب العذاب ، وذكر الفتنة خصوصًا وعمومًا ، وذكر نوعي الفتنة ، لأنها إما في الحياة ،وإما بعد الموت ؛ ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة ، وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ ، فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها ، وهذا من آكد أدعية الصلاة حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يَدْع به في التشهد الأخير ، وأوجبه ابن حزم في كلِّ تشهد ؛ فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته ، ومن ذلك قوله : « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ** »(١) .

فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان ؛ فالهم والحزن قرينان ، وهما من آلام الروح ومعذباتها ، والفرق بينهما أن الهمَّ توقع الشر في المستقبل والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح ، فإن تعلق بالماضي سمي حزنًا ، وإن تعلق بالمستقبل سمي همًّا ، والعجز والكسل قرينان وهما من أسباب الألم ؛ لأنهما يستلزمان فوات المحبوب ، فالعجز يستلزم عدم القدرة ، والكسل يستلزم عدم إرادته ، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لوحصل ، والجبن والبخل قرينان ؛ لأنهما عدم النفع بالمال والبدن وهما من أسباب الألم ، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة ، والبخل يحول بينه دونها أيضًا ، فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام ، وضلع الدين وقهر الرجال قرينان وهما مؤلمان للنفس معذبان لها ، **أحدهما :** قهر بحق وهو ضلع الدين .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب من غزا بصبي للخدمة (٢٨٩٣) وقريب منه عند مسلم ، كتاب « الذكر » ، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره (٢٧٠٦) .

والثاني : قهر بباطل وهو غلبة الرجل ، وأيضًا فضلع الدين قهر بسببٍ من العبد في الغالب ، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره ، ومن ذلك تعوذه ﷺ : «**مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ**» (١) . فإنهما يسببان الألم العاجل ، ومن ذلك قوله : «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**» (٢) . فالسخط سبب الألم ، والعقوبة هي الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها .

فصل

والشرُّ المستعاذ منه نوعان : **أحدهما** : موجود يُطلب رفعه . **والثاني** : معدوم يُطلب بقاؤه على العدم وأن لا يوجد ،كما أن الخير المطلق نوعان : **أحدهما** : موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه . **والثاني** : معدوم فيطلب وجوده وحصوله . فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين وعليها مدار طلباتهم ، وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ [آل عمران:١٩٣] ، فهذا الطلب لدفع الشر الموجود ، فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه ، ثم قال : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣] ؛ فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه ؛ فهذان قسمان ، ثم قال : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران:١٩٤] ؛ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه ، ثم قال : ﴿ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران:١٩٤] ، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو خزي يوم القيامة ، فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام ، مرتبة أحسن

(١) تقدم في حديث « **اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال** » ، وهو في « الصحيحين » عن عائشة .

(٢) تقدم وهو في : « صحيح مسلم » (٤٨٦) ، عن أبي هريرة عن عائشة مرفوعًا .

ترتيب، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا ، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت ، ثم اتبعا بالنوعين في الآخرة ، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله وأن لا يخزيهم يوم القيامة ، فإذا عرف هذا ؛ فقوله ﷺ في تشهد الخطبة : « **وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا** »(١) ، يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم لكنه فيها بالقوة فيسأل دفعه وأن لا يوجد ، وأما قوله : « **وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا** » ففيه قولان :

أحدهما : أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت ، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود ، فطلب دفع الأول ورفع الثاني .

والقول الثاني : أن سيئات الأعمال هي التي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها ، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضًا دفع المسبب ، والأول دفع السبب فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه ، وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه ، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها ،وعلى الثاني يكون من باب إضافة المسبب إلى سببه والمعلول إلى علته ، كأنه قال من عقوبة عملي . والقولان محتملان ، فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به ، فإن مع كل واحد منهما نوعًا من الترجيح ، فيترجح الأول بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس ، فشر النفس يولِّد الأعمال السيئة ؛ فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة ، وهذان جماع الشرِّ وأسباب كلِّ ألم ، فمتى عوفي

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب النكاح ، باب في خطبة النكاح (٢١١٨) ، والترمذي ، كتاب النكاح ، عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في خطبة النكاح (١١٠٥) ، والنسائي ، كتاب الجمعة ، باب كيفية الخطبة (٣/ ١٠٥) ، وابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب خطبة النكاح (١٨٩٢) ، وأحمد (١/ ٣٩٢)، وصححه العلامة الألباني في « خطبة الحاجة » .

منهما عوفي من الشر بحذافيره ، ويترجح الثاني بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل ، وأسبابها شر النفس ، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها ، والقولان في الحقيقة متلازمان ، والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر» . انتهى المراد .

وَمُلَخَّصُ الباب فيما قَالَهُ شيخُنا ابنُ عثيمين رحمه الله حيثُ قال [(١)] :

« **الاستعاذة** : طلب الإعاذة ، والإعاذة الحماية من مكروه ، فالمستعيذُ مُحْتَمٍ بمن استعاذ به ومعتصم به ، والاستعاذة أنواع :

الأول : الاستعاذة بالله تعالى وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كلِّ شيء حاضر أو مستقبل ، صغير أو كبير ، بشر أو غير بشر ، ودليلها قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق:١، ٢] ، إلى آخر السورة وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ إلى آخر السورة .

الثاني : الاستعاذة بصفةٍ من صفاته ككلامه وعظمته وعزته ونحو ذلك ، ودليلُ ذلك قوله ﷺ : « **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ** » [(٢)] ، وقوله : « **أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي** » [(٣)] ، وقوله في دعاء الألم : « **أَعُوذُ بِعِزَّةِ الله وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ** » [(٤)] ، وقوله : « **أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ** » [(٥)] ، وقوله ﷺ حين نزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ

---

(١) « شرح الأصول الثلاثة » (٦٣-٦٥) .

(٢) تقدم ، وهو في « صحيح مسلم » .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٧٤) ، والنسائي ، كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من الخسف (٨/ ٢٨٢) ، وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب ما يدعو به الرجل ، باب إذا أصبح وإذا أمسى (٣٨٧١) ، وصححه الألباني في « صحيح النسائي ، وأبي داود » وغيرهما .

(٤) تقدم ، وهو في « صحيح مسلم » .

(٥) تقدم ، وهو في « صحيح مسلم » .

عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام:٦٥] ، فقال : « **أَعُوذُ بِوَجْهِكَ** » [١] .

الثالث : الاستعاذة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ ؛ فهذا شرك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن:٦] .

الرابع : الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها فهذا جائز ، ودليله قوله ﷺ في ذكر الفتن : « **مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ** » [٢] متفق عليه .

وقد بين ﷺ هذا الملجأ والمعاذ بقوله : « **فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ** » الحديث رواه مسلم [٣] ، وفي « **صحيحه** » [٤] أيضًا عن جابر رضي الله عنه أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتى بها النبيُّ ﷺ فعاذت بأمِّ سلمة .. الحديث ، وفي « **صحيحه** » [٥] أيضًا عن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال : « **يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ** » الحديث .

ولكن إن استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاذته بقدر الإمكان ، وإن استعاذ ليتوصل إلى فعل محظور أو الهرب من واجب حرم إيواؤه». انتهى كلامه رحمه الله .

فأقُولُ : إن الاستعاذة عبادةٌ لا يجوزُ صرفُها لغير الله تعالى ، فإذا صرفت لغيره كان ذلك شركًا أكبر يستحق صاحبه الخلود في النار .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام:٦٥] ، (٤٦٢٨) عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠١) ، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٧) .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٩) .

(٥) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨١) .

قال ابن القيم [١] : « فالله وحده الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به ، ولا يستعاذ بأحدٍ من خلقه ، وقد أخبر تعالى في كتابه عن من استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانًا ورهقًا ؛ فقال تعالى حكاية عن مؤمني الجن : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن:٦] ».

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ [٢] :

« أي : كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البراري وغيرها » كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من فوقهم منهم زادوهم رهقًا أي : خوفًا وإرهابًا وذعرًا حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا ؛ كما قال قتادة : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي : إثمًا ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة .

وقال السديُّ :

كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها ، فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي .

قال قتادة : فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك .

وقال ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة قال :

« كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد ، وكان الإنس إذا نزلوا واديًا هرب الجن ، فيقول سيد القوم : نعوذ بسيد أهل هذا الوادي ، فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم ، فدنوا من الإنس

---

(١) « بدائع الفوائد » (٢/ ٣٦٧) ط التوفيقية .

(٢) « التفسير » (٤/ ٤١٤) ، وانظر : « تفسير الطبري » (١٠/ ٨٢٤١_٨٢٤٣) .

فأصابوهم بالخبل والجنون ؛ فذلك قول الله : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن:٦] » انتهى .

وأختم بما قال القرطبي في « تفسيره » [1] : « ولا خفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك » .

*****

(١) « التفسير » (١٩/ ٨) ، ط ابن خلدون .

النوع الثاني عشر من أنواع العبادة : الاستغاثة

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٩] ».



تعريفُ الاستغاثة :

لغة : هي طلب الغوث ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾[الأنفال:٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [الكهف:٢٩] ، وقوله : ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾[القصص:١٥] .

وكقول هاجر أم إسماعيل : « **فَهَلْ عِنْدَكَ غُوَاثٌ** » [١] ؛ قال ابن الأثير [٢]: « الغوث بالفتح كالغِياث بالكسر ، من الإغاثة : الإعانة » .

لفتة : الغوْث يُقال في النُّصْرة والإعانة ، والغيث يقال في المطر ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾[الحديد:٢٠] [٣].

والاستغاثة شرعًا : **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله [٤]: «الاستغاثة : طلب الغوث ؛ وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار: طلب النصر ، والاستعانة : طلب العون» .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤) في سياق طويل عن ابن عباس ، وفيه أنها قالت حين أشرفت على المروة وسمعت صوتًا : « **قد أسمعت إن كان عندك غواث** » ، ورواه برقم (٣٣٦٥) وفيه : « **أغث إن كان عندك خير** » .

(٢) « النهاية » (٢/ ٣٢٦) .

(٣) انظر : « المفردات » للراغب (٣٦٨) ، و« لسان العرب » (١٠/ ١٣٩) .

(٤) « مجموع الفتاوى » (١/ ١٠٣) .

الاستغاثة والدعاء :

بوَّب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه المنير « التوحيد » بابًا بعنوان : « من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره » .

فقال صاحب « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » (١) ـ بعدما نقل قول شيخ الإسلام في معنى الاستغاثة ـ قال : « وقال غيره : الفرقُ بين الاستغاثة والدعاء : أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ، والدعاء أعمُّ من الاستغاثة ،لأنه يكون من المكروب وغيره ، فعطْفُ الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص .

فبينهما عمومٌ وخصوص مطلق ، يجتمعان في مادة ، وينفرد الدعاء عنها في مادة . فكلُّ استغاثةٍ دعاء ، وليس كلُّ دعاء استغاثة » .

ثم نقل قول ابن القيم رحمه الله (٢): « ومن أنواعه ـ أي الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم ،وهذا أَصْلُ شرك العالم ؛ فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ، فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها » .

أقسام الاستغاثة :

قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣):

« الأول : الاستغاثة بالله عز وجل ، وهذا من أفضل الأعمال وأكملها، وهو دأب الرسل وأتباعهم ، ودليله ما ذكره الشيخ رحمه الله: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ (٤) فَٱسۡتَجَابَ

---

(١) « فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد » (ص١٧٥) ط ابن رجب .

(٢) « مدارج السالكين » (١/ ٣٤٦) ط دار الكتاب .

(٣) « شرح الأصول » (٦٥، ٦٦) .

(٤) أي : تستجيرون به من عدوكم ، وتدعونه للنصر عليهم ؛ كما قال الطبري في « تفسيره » (ص ٣٧٨٠) ط دار السلام .

لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩] ، وكان ذلك في غزوة بدر حين نظر النبيُّ ﷺ ، إلى المشركين في ألف رجل وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فدخل العريش يناشد ربه ﷻ رافعًا يديه مستقبل القبلة يقول : «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي ، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**» [١] . وما زال يستغيثُ بربه رافعًا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأخذ أبو بكر رضي الله عنه رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبيَّ الله ، كفاك مناشدتك ربك ؛ فإنه سينجز لك ما وعدك» فأنزل الله هذه الآية .

الثاني : الاستغاثة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على الإغاثة فهذا شرك ؛ لأنه لا يفعله إلا من يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًّا في الكون فيجعل لهم حظًّا من الربوبية ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢] .

الثالث : الاستغاثة بالأحياء العالمين القادرين على الإغاثة ؛ فهذا جائز كالاستعانة بهم ؛ قال الله تعالى في قصة موسى : ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص:١٥].

الرابع : الاستغاثة بحي غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفية مثل أن يستغيث الغريق برجل مشلول ؛ فهذا لغوٌ وسخريةٌ بمن استغاث به ؛ فيمنع منه لهذه العلة ، ولعلة أخرى وهي الغريق ربما اغتر بذلك غيره فتوهم أن لهذا المشلول قوة خفية ينقذ بها من الشدة» ا.هـ .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣) .

الاستغاثة بغير الله شرك :

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في «مجموع الفتاوى» [١] عمن قال : يجوز الاستغاثة بالنبيِّ ﷺ في كل ما يستغاث الله تعالى فيه : على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالى ـ في طلب الغوث ، وكذلك يستغاث بسائر الأنبياء والصالحين في كل ما يستغاث الله تعالى فيه .

وأما من توسل إلى الله تعالى بنبيه في تفريج كربة فقد استغاث به ، سواء كان ذلك بلفظ الاستغاثة ، أو التوسل ، أو غيرهما مما هو في معناهما ، وقول القائل : أتوسل إليك يا إلهي برسولك ! أو أستغيث برسولك عندك ، أن تغفر لي ، استغاثة بالرسول حقيقة في لغة العرب وجميع الأمم .

قال : ولم يزل الناس يفهمون معنى الاستغاثة بالشخص ، قديمًا وحديثًا ، وأنه يصحُّ إسنادهما للمخلوقين ، وأنه يستغاث بهم على سبيل التوسل ، وأنها مطلقة على كل من سأل تفريج الكربة بواسطة التوسل به ، وأن ذلك صحيح في أمر الأنبياء والصالحين .

قال : وفيما رواه الطبرانيُّ [٢]: عن النبيِّ ﷺ : أن بعض الصحابة ﷺ قال : استغيثوا برسول الله ﷺ من هذا المنافق ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « **إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي ، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِالله** » .

إنَّ النبيَّ ﷺ لو نفى عن نفسه أنه يستغاث به ، ونحو ذلك ، يشير به إلى

(١) « مجموع الفتاوى » (١/ ١٠١ وما بعدها) .

(٢) أخرجه الطبرانيُّ ؛ كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٤٦) وقال الهيثميُّ: «رواه الطبرانيُّ ، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث » ، والراجح ضعفه ، لذا ضعفه الشيخ ابن باز ؛ كما في « التعليقات البازية على كتاب التوحيد » (٢٣) ، وانظر : « الردُّ على البكري » لابن تيمية (١/ ٣٠٧) ، ومفاده: أن معناه موافق للمعاني الشرعية ، قلْتُ : وهو عند أحمد (٥/ ٣١٧) لفظ : «لا يقام لي وإنما يقام لله » وفيه ابن لهيعة ، ورجل مبهم .

التوحيد ، وإفراد الباري بالقدرة : لم يكن لنا نحن أن ننفي ذلك ، ونجوز أن نطلق أن النبيَّ ﷺ والصالح يستغاث به ، يعني في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ،ولا يحتاج أن يقول على سبيل أنه وسيلة وواسطة ،وأن القائل لا يستغاث به متنقصًا له ، وأنه كافر بذلك ؛ لكنه يعذر إذا كان جاهلًا ، فإذا عرف معنى الاستغاثة ثم أصر على قوله بعد ذلك ، صار كافرًا .

والتوسل به استغاثة به كما تقدم ؛ فهل يعرف أنه قال أحد من علماء المسلمين : أنه يجوز أن يستغاث بالنبيِّ ﷺ والصالح ، في كل ما يستغاث به الله تعالى ؟ وهل يجوز إطلاق ذلك ؟ كما قال القائل .

وهل التوسل بالنبيِّ ﷺ ، أو الصالح أو غيرهما إلى الله تعالى في كل شيء ، استغاثة بذلك المتوسل به ؟ كما نقله هذا القائل عن جميع اللغات وسواء كان التوسل بالنبيِّ ﷺ أو الصالح استغاثة به ، أو لم يكن ، فهل يعرف أن أحدًا من العلماء قال : إنه يجوز التوسل إلى الله بكل نبيٍّ وصالح ؟ فقد أفتى الشيخ عزُّ الدين ابن عبد السلام في فتاويه المشهورة : أنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبيِّ ﷺ ، إن صحَّ الحديث فيه ؛ فهل قال أحد خلاف ما أفتى به الشيخ المذكور ؟

وبتقدير أن يكون في المسألة خلاف ، فمن قال: لا يتوسل بسائر الأنبياء والصالحين ، كما أفتى الشيخ عز الدين ؟ هل يكفر كما كفره هذا القائل ؟ ويكون ما أفتى به الشيخ كفرًا ؛ بل نفس التوسل به لو قال قائل : لا يتوسل به ، ولا يستغاث به ، إلا في حياته وحضوره ، لا في موته ومغيبه ، هل يكون ذلك كفرًا ؟ أو يكون تنقصًا ؟

ولو قال : مالا يقدر عليه إلا الله تعالى لا يستغاث فيه إلا بالله ، أي :لا يطلب

إلا من الله تعالى هل يكون كفرًا ، أو يكون حقًّا ؟ وإذا نفى الرسول ﷺ عن نفسه أمرًا من الأمور لكونه من خصائص الربوبية هل يحرم عليه أن ينفيه عنه أم يجب ، أم يجوز نفيه ؟ أفتونا رحمكم الله ـ بجوابٍ شافٍ كافٍ ، موفقين مُثابين ـ إن شاء الله تعالى .

الجواب : الحمد لله رب العالمين ، لم يقل أحدٌ من علماء المسلمين : أنه يستغاث بشيء من المخلوقات ؛ في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، لا بنبيٍّ ، ولا بملك ، ولا بصالح ، ولا غير ذلك . بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام : أنه لا يجوز إطلاقه .

ولم يقل أحد : أن التوسل بنبيٍّ ، هو استغاثة به ؛ بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور ، كقول أحدهم : أتوسل إليك بحق الشيخ فلان ، أو بحرمته ، أو أتوسل إليك باللوح والقلم ،أو بالكعبة ، أو غير ذلك ، مما يقولونه في أدعيتهم ، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور ؛ فإن المستغيث بالنبيِّ ﷺ طالب منه وسائل له ،والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل ، وإنما يطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به .

والاستغاثة: طلب الغوث ، وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار : طلب النصر، والاستعانة: طلب العون ، والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه منها ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال:٧٢] .

وكما قال : ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص:١٥] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٢] .

وأما ما لا يقدر عليه إلا بالله ، فلا يطلب إلا من الله ، ولهذا كان المسلمون لا يستغيثون بالنبيِّ ﷺ ويستسقون به ، ويتوسلون به ؛ كما في « صحيح

البخاري » [(١)] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس ، وقال : « اللهم إنا كُنَّا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون » .

وفي « **سنن أبي داود** » [(٢)] : أن رجلاً قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : إنا نستشفع بالله عليك ، ونستشفع بك على الله ؛ فقال : « **إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، شَأْنُ الله أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ** » فأقره على قوله نستشفع بك على الله ، وأنكر عليه قوله: نستشفع بالله عليك .

وقد اتفق المسلمون على أن نبينا شفيع يوم القيامة ، وأن الخلق يطلبون منه الشفاعة ، لكن عند أهل السنة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأما عند الوعيدية ، فإنما يشفع في زيادة الثواب .

وقولُ القائل : أن من توسل إلى الله بنبيٍّ ، فقال : أتوسل إليك برسولك فقد استغاث برسوله حقيقة ، في لغة العرب وجميع الأمم قد كذب عليهم ، فما يُعْرف هذا في لغة أحدٍ من بني آدم ؛ بل الجميع يعلمون أن المستغاث مسئولٌ به مدعو ، ويفرقون بين المسئول والمسئول به ؛ سواء استغاث بالخالق أو بالمخلوق ؛ فإنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على النصر فيه ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أفضل مخلوق يستغاث به في مثل ذلك .

ولو قال قائلٌ لمن يستغيث به : أسألك بفلان ،أو بحق فلان ، لم يقل أحد:

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الاستسقاء» ، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (١٠١٠) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب في الجهمية (٤٧٢٦) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ١٢٨) ، والبزار ؛ كما في « البحر الزخار » (٢٩٠٧) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٤٦٦) ، والآجري في « الشريعة » (٢٩٥) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٢/ ٥٥٥) ، وأبو عوانة في « مستخرجه » (٢٠٢٥) ، وضعفه الألباني في « المشكاة » (٥٧٢٧) .

إنه استغاث بما توسل به ؛ بل إنما استغاث بمن دعاه ، وسأله ؛ ولهذا قال المصنفون في شرح أسماء الله الحسنى : إن المغيث بمعنى المجيب ، لكن الإغاثة أخصُّ بالأفعال ، والإجابة أخص بالأقوال .

والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ ؛ سواء سمي استغاثة أو لم يسم ـ لا نعلم أحدًا من السلف فعله ،ولا روى فيه أثرًا ،ولا علم فيه إلا ما أفتى به الشيخ من المنع ، وأما التوسل بالنبيِّ ﷺ ؛ ففيه حديث في « **السنن** » **رواه النسائيُّ والترمذيُّ وغيرهما**[1] : أن أعرابيًّا أتى النبيَّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إني أصبتُ في بصري ، فادع الله لي ، فقال له النبيُّ ﷺ : « **تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ قُلْ : اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ، يَا مُحَمَّد إِنِّي أَتَشَفَّعُ بِكَ فِي رَدِّ بَصَرِي ، اللَّهُمَّ شَفِّعْ نَبِيَّكَ فِيَّ** » وقال : « **فَإِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فَمِثْلُ ذَلِكَ** » فردَّ الله بصره . فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به .

وللناس في معنى هذا قولان :

أحدهما : أن هذا التوسل هو الذي ذكر « عمر بن الخطاب رضي الله عنه » لما قال : كنا إذا أجدبنا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فقد ذكر عمر رضي الله عنه : أنهم كانوا يتوسلون به في حياته في الاستسقاء ، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته ، وتوسلهم به هو استقاؤهم به ؛ بحيث يدعو ويدعون معه ، فيكون هو وسيلتهم إلى الله ، وهذا لم يفعله الصحابة بعد موته ولا في مغيبه ، والنبيُّ ﷺ كان في مثل هذا شافعًا لهم ، داعيًا لهم ؛ ولهذا قال في حديث

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب أحاديث شتى ، باب (١٩) (حديث ٣٥٧٨) وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، والنسائي في « الكبرى » (١٠٤٩٥) ، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في صلاة الحاجة (١٣٨٥) ، وأحمد (٤/ ١٣٨) ، وعبد بن حميد (٣٧٩) ، وابن خزيمة (١٢١٩) ،وصححه الألباني في « المشكاة » (٢٤٩٥) ، و « صحيح الترمذي » وغيرهما .

الأعمى [(١)] : « اللهم فشفعه فيَّ » ؛ فعلم أن النبيَّ ﷺ شفع له ؛ فسأل الله أن يشفعه فيه .

والثاني : أن التوسل يكون في حياته ، وبعد موته ، وفي مغيبه وحضرته ، ولم يقُلْ أحدٌ أنَّ من قال بالقول الأول فقد كفر ، ولا وجه لتكفيره ؛ فإن هذه مسألة خفية ، ليست أدلتها جلية ظاهرة ، والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين ضرورة ، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ، ونحو ذلك .

واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء وما لا يشرع ؛ كاختلافهم هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح ، وليس هو من مسائل السب عند أحدٍ من المسلمين .

وأما من قال : أن من نفى التوسل الذي سماه استغاثة بغيره كفر ، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله ، فأظهر من أن يحتاج إلى جواب ، بل المكفر بمثل هذه الأمور ، يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله ، من المفترين على الدين ، لاسيما مع قول النبيِّ ﷺ : « **مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ : كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا** » .

وأما من قال مالا يقدر عليه إلا الله لا يستغاث فيه إلا به ، فقد قال الحق ؛ بل لو قال كما قال أبو يزيد : « استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق » ، وكما قال الشيخ أبو عبد الله القرشي : « استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون » ، لكان قد أحسن ؛ فإن مطلق هذا الكلام يُفْهِم الاستغاثة المطلقة ، كما قال النبيُّ ﷺ لابن عباس : « **إِذَا سَأَلْتَ**

---

(١) تقدم آنفًا .

فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله » (١) .

وإذا نفى الرسول عن نفسه أمرًا كان هو الصادق المصدوق في ذلك ، كما هو الصادق المصدوق في كلِّ ما يخبر به من نفي ، وإثبات ، وعلينا أن نصدقه في كلِّ ما أخبر به ،من نفي ، وإثبات ، ومن ردَّ خبره تعظيمًا له ، أشبه النصارى ، الذين كذبوا المسيح في إخباره عن نفسه بالعبودية ، تعظيمًا له ، ويجوز لنا أن ننفي ما نفاه ، وليس لأحدٍ أن يقابل نفيه بنقيض ذلك البتة ، والله أعلم » .

وأضاف شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مسألة الاستغاثة بالنبيِّ ﷺ قائلاً (٢) :

الحمد لله : قد ثبت بالسنة المستفيضة ، بل المتواترة ، واتفاق الأمة : أن نبينا ﷺ الشافع المشفع ، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة ، وأن الناس يستشفعون به يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم وأنه يشفع لهم .

ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد .

وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين ، وهؤلاء مبتدعة ضلال ، وفي تكفيرهم نزاع وتفصيل .

وأما من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمِّي هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه ؟ .

وأما من أقر بشفاعته ، وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به ؛ كما رواه البخاريُّ **«صحيحه»** (٣) عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : «اللهم إنا كنا

---

(١) سبق ، وهو صحيح .

(٢) « الفتاوى » (١/ ١٠٨ـ ١١٣) .

(٣) سبق .

نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا ؛ فيسقون» .

وفي « **سنن أبي داود** »[(١)] وغيره أن أعرابيًّا قال للنبيِّ ﷺ : يَا رَسُولَ الله ، جُهِدَتِ الأَنْفُسُ ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ ، وَنُهِكَتِ الأَمْوَالُ ، وَهَلَكَتِ الأَنْعَامُ ، فَاسْتَسْقِ الله لَنَا ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى الله وَنَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ** » وَسَبَّحَ رَسُولُ الله ﷺ ؛ فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « **وَيْحَكَ إِنَّهُ لاَ يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، شَأْنُ الله أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ** » ، وذكر تمام الحديث ، فأنكر قوله : «نستشفع بالله عليك» ، ولم ينكر قوله : «نستشفع بك على الله» ؛ بل أقره عليه ، فعلم جوازه ، فمن أنكر هذا فهو ضال مخطئ مبتدع ، وفي تكفيره نزاع وتفصيل .

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ، ولكن قال: لا يدعى إلا الله ، وأن الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله لا تطلب إلا منه ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ، وإنزال المطر ، وإنبات النبات ، ونحو ذلك : فهذا مصيب في ذلك ؛ بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضًا ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥] ، وقال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦] ، وكما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر :٣] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٢٦] ، وقال : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠] .

---

(١) تقدم ، وهو صحيح .

فالمعاني الثابتة بالكتاب والسنة يجب إثباتها ، والمعاني المنفية بالكتاب والسنة يجب نفيها ، والعبارة الدالة على المعاني نفيًا وإثباتًا إن وجدت في كلام الله ورسوله ﷺ وجب إقرارها . وإن وجدت في كلام أحدٍ وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه ، وإلا رجع فيه إليه .

وقد يكون في كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح ، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله ، فهذا يرد عليه فهمه ؛ **كما روى الطبراني في « معجمه الكبير »** [(١)] أنه كان في زمن النبيِّ ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « **إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي ، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِالله** » ؛ فهذا إنما أراد به النبيُّ ﷺ المعنى الثاني . وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ؛ كما في « **صحيح البخاري** » [(٢)] عن ابن عمر قال : ربما ذكرت قول الشاعر، وأنا أنظر إلى وجه النبيِّ ﷺ يستسقي ، فما ينزل حتى يجيش له ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل !

وهو قول أبي طالب ، ولهذا قال العلماء المصنفون في أسماء الله تعالى : يجب على كلِّ مكلَّف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله ، وأن كل غوث فمن عنده ،وإن كان جعل ذلك على يدي غيره، فالحقيقة له سبحانه وتعالى ولغيره مجاز .

---

(١) تقدم ، وهو في سنده ابن لهيعة .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الاستسقاء» ، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (١٠٠٨، ١٠٠٩) .

قالوا : من أسمائه تعالى: المغيث والغياث ، وجاء ذكر المغيث في حديث أبي هريرة ، قالوا : واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال **أبو عبد الله الحليمي** : الغياث هو المغيث ، وأكثر ما يقال: غياث المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ، ومجيبهم ومخلصهم ، وفي خبر الاستسقاء في «**الصحيحين**» (١) : « **اللَّهُمَّ أَغِثْنَا ، اللَّهُمَّ أَغِثْنَا** » يقال : أغاثه إغاثة وغياثًا وغوثًا ، وهذا الاسم في معنى المجيب والمستجيب ؛ قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٩] ، إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال ، والاستجابة أحق بالأقوال. وقد يقع كلٌّ منهما موقع الآخر .

قالوا : الفرق بين المستغيث والداعي ؛ أنَّ المستغيث ينادي بالغوث ، والداعي ينادي بالمدعو والمغيث ، وهذا فيه نظر . فإن من صيغة الاستغاثة : يا لله للمسلمين ، وقد روي عن معروف الكرخي بأنه كان يكثر أن يقول: وا غوثاه ، ويقول : إني سمعت الله يقول : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٩].

وفي الدعاء المأثور (٢): « **يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَلاَ إِلَى أَحَدٍ مِنَ خَلْقِكَ** » .

والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة ، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة ، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة ؛ ففي الحديث : «**أَعُوذُ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة (١٠١٤)، ومسلم ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧) .

(٢) أخرجه النسائيُّ في « الكبرى » (٦/ ١٤٧) ، والحاكم (١/ ٧٣٠) ، وصححه على شرط الشيخين ، والطبراني في «الدعاء» (١٠٤٦) ، والبيهقي في «الشعب» (٧٦٠) عن أنس ﷺ ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٢٢٧) ، و « صحيح الجامع » (٥٨٢٠) .
قلت: وليس فيه : «ولا إلى أحد من خلقك» .

بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»[١] ، وفيه[٢] : «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَبِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** ».

ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله : « **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ** » قالوا : والاستعاذة لا تصلح بالمخلوق .

وكذلك القسم قد ثبت في «**الصحيحين**»[٣] أن النبيَّ ﷺ قال : « **مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِف بِالله أَوْ لِيَصْمُتَ** » ، وفي لفظٍ[٤]: « **مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ** » رواه الترمذيُّ وصححه .

ثم قد ثبت في «**الصحيح**»[٥] الحلف « بعزة الله » و« لعمر الله » ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذي نهي عنه ، واستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم ،ومن نازع في هذا المعنى ؛ فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به ، وإما مخطئٌ ضال .

وأما بالمعنى الذي نفاه رسول الله ﷺ ؛ فهو أيضًا مما يجب نفيها ، ومن

---

(١) تقدم .

(٢) تقدم في الباب المتقدم .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب أيام الجاهلية (٣٨٣٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (١٣٤٦/ ٣) .

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب الأيمان والنذور ، باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥١) ، والترمذي ، كتاب النذور والأيمان ، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (١٥٣٥) ، وأحمد (٢/ ٣٤، ٥٨) ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٢٠٤٢) وغيرها .

(٥) انظر: «صحيح البخاري» (٦٦٦٢) كتاب الأيمان والنذور ، باب قول الرجل : لعمر الله ، وساق جزءً من حديث الإفك ، وباب (١٢) باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته من كتاب الأيمان (« الفتح » ١١/ ٥٥٤) ط الريان ، ومسلم (٢٢٠٢) وفيه: « **أعوذ بعزة الله وقدرته** » .

أثبت لغير الله مالا يكون إلا الله ؛ فهو أيضًا كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها .

ومن هذا الباب ، قولُ أبي يزيد البسطامي : « استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق » ، وقول الشيخ أبي عبد الله القرشي المشهور بالديار المصرية : « استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون » .

وفي دعاء موسى عليه السلام : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى ، وأنت المستعان وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك » ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الإطلاق وكان مختصًّا بالله : صحَّ إطلاقُ نفيه عما سواه ، ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوَّز مطلق الاستغاثة بغير الله ، ولا أنكر على من نفى مطلق الاستغاثة عن غير الله .

وكذلك الاستغاثة أيضًا فيها ما لا يصلح إلا لله ، وهي المشار إليها بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥] ؛ فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله ، وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه.

وكذلك الاستنصار ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ [الأنفال:٧٢] ، والنصر المطلق هو خَلق ما به يُغلَبُ العدو ولا يقدر عليه إلا الله .

ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة ؛ فإنه يكون إما كافرًا ، وإما فاسقًا ، وإما عاصيًا ، إلا أن يكون مؤمنًا مجتهدًا مخطئًا فيثاب على اجتهاده ، ويغفر له خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة ، فإن الله يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] ، وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة ، بالكتاب والسنة فخالفها : فإنه يعاقب بحسب ذلك إما بالقتل وإما بدونه ، والله أعلم » ا. هـ .

النوع الثالث عشر من أنواع العبادة :الذبح

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« وَدَلِيلُ الذَّبْحِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] ، وَمِنَ السُّنَّة : « **لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ** » [(١)].

الشرح

تعريفُ الذبح :

لغةً :أَصْلُ الذَّبْحِ : الشَّقُّ [(٢)].

قال الراغبُ [(٣)]: « أَصْلُ الذبح شق حلْق الحيوانات ، والذِّبْحُ : المذبوح ؛ قال تعالى : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات:١٠٧] » ا . هـ .

يعني : كبش إبراهيم عليه السلام ، وهو الكبش الذي فُدي به إسماعيل بن خليل الله صلى الله عليه وسلم [(٤)].

وقال في «اللسان» [(٥)] : «الذبح بالكسر: ما يذبح من الأضاحي وغيرها من الحيوان ، وبالفتح : المفعل منه » .

وشرعًا : ما يذبحه الإنسان متقربًا به إلى الله عز وجل من أضحية وعقيقة أو هدي أو إطعام وغير ذلك .

والمراد بالنسك في الآية : الذبح [(٦)].

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الأضاحي ، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (١٩٧٨) .

(٢) « النهاية » لابن الأثير (١/ ٥٩٩) ، و« اللسان» لابن منظور (٥/ ٢٣) .

(٣) « المفردات » (١٨٢) .

(٤، ٥) « اللسان » (٥/ ٢٣) .

(٦) وهذا قولُ جمهور السلف ؛ كمجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، راجع أقوالهم=

قال الحافظ ابن كثير في « تفسيره » : «وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢] ، يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك ؛ فإن صلاته لله ، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢] ، أي : أخلص له صلاتك وذبحك ؛ فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى .

قال مجاهد في قوله : ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ : « النسك : الذبح في الحج والعمرة » ، وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير ﴿ وَنُسُكِي ﴾، قال : « وذبحي » وكذا قال السدي والضحاك »[(١)] انتهى المراد .

وقال السعديُّ[(٢)] : «قوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ أي : ذبحي ، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ، ودلالتهما على محبة الله تعالى ، وإخلاص الدين له ، والتقرب إليه بالقلب ، واللسان ، والجوارح ، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس ، من المال ، لما هو أحب إليها ، وهو الله تعالى ، ومن أخلص في صلاته ونسكه ، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله وأقواله » .

شرف هذه العبادة :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٣)] : « قوله تعالى للرسول ﷺ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢] ، أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين

= بأسانيدها في « تفسير » أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، للآية (الأنعام :١٦٢، ١٦٣) .

(١) « تفسير ابن كثير » (لسورة الأنعام:١٦٢، ١٦٣) .

(٢) السعديُّ في « تفسيره » لسورة الأنعام .

(٣) « مجموع الفتاوى » (١٦/ ٥٣١) بتصرف .

العظيمتين ، وهما الصلاة والنسك ، الدالتان على القرب والتواضع ، والافتقار وحسن الظن ، وقوة اليقين ،وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عدته وأمره وفضله وخُلْفه ، عَكْس حال أهل الكبر والنُّفرة ،وأهل الغني عن الله الذين لا حاجة في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها ، والذين لا ينحرون له خوفًا من الفقر ، وتركًا لإعانة الفقراء ، وإعطائهم ، وسوء الظَّنِّ منهم بربهم ، ولهذا جمع بينهما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والنسك : هي الذبيحة لله تعالى ، ابتغاء وجهه ؛ فإنها أجلُّ ما يتقرب به إلى الله تعالى ، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب ؛ لأن فعل ذلك سببٌ للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى إياه من الكوثر والخير الكثير.

وأجلُّ العبادات البدنية : الصلاة ، وأجلُّ العبادات المالية : النحر . وما يجتمع للعبد في الصلاة ، لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات ، كما عرفه أرباب القلوب الحية ، وأصحاب الهمم العالية ، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن : أمر عجيب ، وكان ﷺ كثير الصلاة لربه ، كثير النحر » انتهى .

وقال[1] : « ولهذا كان من الأفعال ما لا يقصد فيه إلا مجرد الذل لله ، والعبادة له ، ومن ذلك : الذبح ؛ لأن إراقة الدم أبلغ في الخضوع والعبادة له ، ولهذا كان من كان قبلنا لا يأكلون القربان ؛ بل تأتي نار من السماء فتأكله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٧/ ٤٨٤) بتصرف يسير .

﴿قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٨٣] .

وكذلك كانوا إذا غنموا غنيمة جمعوها ثم جاءت النار فأكلتها ، ليكون قتالهم محضًا لله ، لا للمغنم ، ويكون ذبحهم عبادة محضة لله ، لا لأجل أكلهم ، وأمة محمد ﷺ وسَّع الله عليهم لكمال يقينهم وإخلاصهم ، وأنهم يقاتلون لله ، ولو أكلوا المغنم ،ويذبحون لله ولو أكلوا القربان ، ولهذا كان عُبَّاد الشياطين والأصنام يذبحون لها الذبائح أيضًا ؛ فالذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له » انتهى المراد .

حرمة الذبح لغير الله ولعن فاعله :

لما كان الذبح عبادة لله ، وقربة يتقرب بها العبد لسيده ومولاه ،حرم صرفها لغيره ، ومن صرفها لغير مستحقها وهو الله سبحانه ، وتقرب بالذبيحة لغيره من صنم أو كوكب أو رجل صالح فقد أشرك مع الله آلهة أخرى!!

قال الإمام النوويُّ ـ رحمه الله تعالى [(١)] في شرحه حديث: « **لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله** » : «وأما الذبح لغير الله ، فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى ؛ كمن ذبح للصنم ، أو الصليب ، أو لموسى ، أو لعيسى ـ صلى الله عليهما وسلم ـ أو للكعبة ، ونحو ذلك ، فكلُّ هذا حرامٌ ، ولا تحل هذه الذبيحة ، سواء كان الذابح مسلمًا ،أو نصرانيًّا ، أو يهوديًّا ،نصَّ عليه الشافعي ،واتفق عليه أصحابنا ، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له ، كان ذلك كفرًا ، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًا » انتهى .

وقال شيخ الإسلام [(٢)] : « الذبح للمعبود : غاية الذل والخضوع له ؛ ولهذا لم

---

(١) « شرح مسلم » للإمام النووي (١٣/ ١٤١) ، كتاب الأضاحي .

(٢) « مجموع الفتاوى » للشيخ ابن تيمية (١٧/ ٤٨٤، ٤٨٥) .

يجز الذبح لغير الله ، ولا أن يسمَّى غَيْرُ الله على الذبائح ، وقد لعن النبيُّ ﷺ من ذبح لغير الله ... » .

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله (١) :

« الذبح لغير الله شركٌ أكبر ؛ لأن الذبح عبادة كما أمر به في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢] ، وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]

فمن ذبح لغير الله فهو مشرك شركًا مخرجًا عن الملة والعياذ بالله، سواء ذبح ذلك لملكٍ من الملائكة ، أو لرسولٍ من الرسل ، أو لنبيٍّ من الأنبياء ، أو لخليفة من الخلفاء ، أو لوليٍّ من الأولياء ، أو لعالمٍ من العلماء ؛ فكلُّ ذلك شرك بالله عز وجل ومخرجٌ عن الملة ،والواجب على المرء أن يتقي الله في نفسه ،وأن لا يوقع نفسه في ذلك الشرك الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢] .

وأما الأكل من لحوم هذه الذبائح فإنه محرم ؛ لأنها أُهِلَّ لغير الله بها وكل شيء أُهِلَّ لغير الله به ، أو ذُبح على النصب ؛ فإنه محرم كما ذكر الله ذلك في سورة المائدة في قوله ـ تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ [المائدة:٣] ؛ فهذه الذبائح التي ذبحت لغيْر الله من قسم المحرمات لا يحل أكلها» انتهى.

---

(١) « فتاوى أركان الإسلام » (ص١٤٧) ط دار الثريا للنشر .

أنواع الذبح وأقسامه :

قال العلامة ابن عثيمين ـ رحمه الله تعالى [(١)]: «ويقع الذبح على وجوه :

الأول : أن يقع عبادة بأن يقصد به تعظيم المذبوح له والتذلل له والتقرب إليه ؛ فهذا لا يكون إلا لله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى ، وَصَرْفُهُ لغير الله شركٌ أكبر ، ودليله ما ذكره الشيخ رحمه الله وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] .

الثاني : أن يقع إكرامًا لضيف ، أو وليمة لعرس ، أو نحو ذلك ؛ فهذا مأمورٌ به ؛ إما وجوبًا أو استحبابًا ؛ لقوله ﷺ : « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ** » [(٢)]. وقوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف : « **أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ** » [(٣)] .

الثاني : أن يقع على وجه التمتع بالأكل ، أو الاتِّجار به ، ونحو ذلك ؛ فهذا من قسم المباح ؛ فالأصل فيه الإباحة ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس:٧١، ٧٢] وقد يكون مطلوبًا أو منهيًّا عنه ، حسبما يكون وسيلة له » ا.هـ.

*****

(١) « شرح الأصول الثلاثة » (٦٦، ٦٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره (٦٠١٨) ، ومسلم ، كتاب اللقطة ، باب الضيافة ونحوها (٤٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب ما جاء في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة:١٠] (٢٠٤٨) ، ومسلم ،كتاب النكاح ، باب الصداق وجواز كونه تعليم القرآن وخاتم حديد (١٤٢٥) .

النوع الرابع عشر من أنواع العبادة : النذر

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« وَدَلِيلُ النَّذْرِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان:٧] ».



تعريفُ النذر :

قال الراغبُ [١]: « النذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمرٍ ، يُقالُ : نذرت لله أمرًا ؛ قال تعالى : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾[مريم:٢٦] ، وقال : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ ﴾[البقرة:٢٧٠] » ا. هـ .

وقال ابن منظور[٢]:« النذر : النحْبُ ، وهو ما ينذره الإنسان فيجعله على نفسه نحبًا واجبًا ».

وقال الجُرجاني [٣]: « إيجاب عين الفعل المباح على نفسه تعظيمًا لله تعالى » .

وقال ابن الأثير ـ مضيفًا [٤]:« يُقالُ نذرت أنذرُ ، وأنذُر نذرًا إذا أوجبت على نفسك شيئًا تبرعًا من عبادة ، أو صدقة ، أو غير ذلك .

وقد تكرر في أحاديثه ذكر النهي عنه ، وهو تأكيد لأمره ،وتحذير عن التهاون به بعد إيجابه ، ولو كان معناه الزجر عنه حتى لا يفعل لكان في ذلك إبطالُ حكمه ، وإسقاط لزوم الوفاء به ، إذ كان بالنهي يصير معصية ، فلا

---

(١) « المفردات » (٤٨٩) .

(٢) « اللسان » (١٤/ ١٠٠) .

(٣) « التعريفات » (٢٦٤) .

(٤) « النهاية » (٢/ ٧٢٨) .

يلزم ، وإنما وجْهُ الحديث أنه قد أعلمهم أن ذلك أمرٌ لا يجر لهم في العاجل نفعًا ، ولا يصرف عنهم ضرًّا ، ولا يردُّ قضاءًا ، فقال : لا تنذروا على أنكم قد تدركون بالنذر شيئًا لم يقدِّره الله لكم ، أو تصرفونه به عنكم ما جرى به القضاء عليكم ، فإذا نذرتم ولم تعتقدوا هذا فاخرجوا عنه بالوفاء ، فإن الذي نذرتموه لازم لكم » انتهى .

قال الحافظ في « الفتح » (١): « **والنذر في اللغة** : التزام خير أو شر .

وفي الشرع : التزام المكلف شيئًا لم يكن عليه منجزًا أو معلقًا » .

الوفاء بالنذر :

إذا نذر المسلم شيئًا ، وأوجبه على نفسه لله تعالى ، سواء كان هذا الشيء طاعة أو مباحًا ، فيجب عليه الوفاء به .

قال ابن قدامة في « المغني » (٢): « الأصل في النذر : الكتاب والسنة والإجماع ، **أما الكتاب** : فقول الله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ [الإنسان:٧] ، وقال : ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج:٢٩] .

وأما السنة : فروت عائشة قالت : قال رسولُ الله ﷺ : « **مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله فَلاَ يَعْصِهِ** » (٣).

وعن عمران بن حصين عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « **خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ يَنْذُرُونَ وَلاَ يوفُونَ ، وَيَخُونُونَ ، وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ**

---

(١) « الفتح » (١١/ ٥٨١) .

(٢) « المغني » كتاب النذور (١٣/ ٣٧٢ وما بعدها) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر في الطاعة (٦٦٩٦) .

السِّمَنُ »[١]. رواهما البخاري .

وأجمع المسلمون على صحة النذر في الجملة ،ولزوم الوفاء به .

ثم قال ابن قدامة :

فصل : ولا يستحب ؛ لأن ابن عمر روى عن النبيِّ ﷺ أنه نهى عن النذر وأنه قال : « **إِنَّهُ لاَ يَأْتِي بِخَيْرٍ ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ** ». متفق عليه [٢].

وهذا نهي كراهة لا نهي تحريم ؛ لأنه لو كان حرامًا لما مدح الموفين به ؛ لأن ذنبهم في ارتكاب المحرم أشد من طاعتهم في وفائه ، ولأن النذر لو كان مستحبًّا لَفَعَلَهُ النبيُّ ﷺ وأفاضل أصحابه » .

ثم فَصَّل ابن قدامة أنواع النذور بقوله :

« وجملته أن النذر سبعة أقسام :

أحدها : نذر اللجاج والغضب ،وهو الذي يخرجه مخرج اليمين للحث على فعل شيء ، أو المنع منه غير قاصد به النذر ،ولا القربة ؛ فهذا حكمه حكم اليمين .

والقسم الثاني : نذر طاعة وتبرر ؛ فهذا يلزم الوفاء به للآيتين والخبرين ، وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : التزام طاعة في مقابلة نعمة استجلبها أو نقمة استدفعها ؛ كقوله : إن شفاني الله ، فلله عليَّ صوم شهر ، فتكون الطاعة الملتزمة مما له أصل في الوجوب بالشرع كالصوم والصلاة والصدقة والحج ؛ فهذا يلزم الوفاء به

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الشهادات ، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٦٥١) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ﷺ (٢٥٣٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب القدر ، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر (٦٦٠٨) ، ومسلم ، كتاب النذر ، باب النهي عن النذر ، وأنه لا يرد شيئًا (١٦٣٩) .

بإجماع أهل العلم .

النوع الثاني : التزام طاعة من غير شرط ، كقوله ابتداء : لله عليَّ صوم شهر فيلزمه الوفاء به ،وفي قول أكثر أهل العلم .

النوع الثالث : نذر طاعة لا أصل لها في الوجوب ؛ كالاعتكاف وعيادة المريض ، فيلزم الوفاء به عند عامة أهل العلم .

القسم الثالث : النذر المبهم ، وهو أن يقول : لله عليَّ نذر ؛ فهذا تجب به الكفارة في قول أكثر أهل العلم .

القسم الرابع : نذر المعصية ، فلا يحل الوفاء به إجماعًا ، ولأن النبيَّ ﷺ قال : «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله فَلاَ يَعْصِهِ» ؛ ولأن معصية الله لا تحلُّ في حال [١] .

القسم الخامس : المباح ، كلبس الثوب ، وركوب الدابة ،وطلاق المرأة على وجه مباح ؛ فهذا يتخير الناذر فيه بين فعله ، فيبر بذلك .. ونقل ابن قدامة قول مالك والشافعي أنه لا ينعقد نذره ، لما روى ابن عباس قال : « بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَالُوا : أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ وَلاَ يَسْتَظِلَّ وَلاَ يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مُرُوهُ فَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَجْلِسَ ، وَلْيَتَكَلَّمْ ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ » رواه البخاريُّ [٢] ، ولم يأمره بكفارة .. ثم رجَّح ابنُ قدامة أن عليه كفارة لأدلة أخرى ساقها ـ رحمه الله تعالى .

القسم السادس : نذر الواجب ، كالصلاة المكتوبة ؛ فقال أصحابنا : لا ينعقد

---

(١) وقد ذكر ابن قدامة قولين في هل تجب الكفارة على من نذر معصية أو لا ؟ والجمهور على أنه لا كفارة ، ما قال الحافظ في « الفتح » (١١/ ٥٩٥ـ ٥٩٨) واحتج الجمهور بقصة أبي إسرائيل وأعلَّ الحديث الوارد ، بلفظ : « لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين » قال : وحكى الترمذي عن البخاري أنه قال : « لا يصح » وأوجب الكفارة شيخ الإسلام ابن تيمية كما في « الفتاوى » (٢٥/ ٢٧٦، ٢٧٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٦٧٠٤) .

نذره ، وهو قول أصحاب الشافعي ؛ لأن النذر التزام ، ولا يصح التزام ما هو لازم له ،ويحتمل أن ينعقد نذره موجبًا كفارة يمين إن تركه كما لو حلف على فعله ، فإن النذر كاليمين ، وقد سماه النبيُّ ﷺ يمينًا ، وكذلك لو نذر معصية أو مباحًا لم يلزمه ، ويكفر إذا لم يفعله .

القسم السابع : نذر المستحيل ، كصوم أمس ، فهذا لا ينعقد ولا يوجب شيئًا ؛ لأنه لا يتصور انعقاده ولا الوفاء به ، ولو حلف على فعله لم تلزمه كفارة ؛ فالنذر أولى ...» انتهى ملخصًا .

« فكما قلنا: إنه يُكره أو يحرم ــ على قول بعض علمائنا ــ الابتداء بالنذر لعدم تحمُّل المسلم ما قد يعجز عن الوفاء به ، ولكن إذا نَذَرَ المسلم ،وَجَب عليه الوفاء بهذا النذر، وذلك ما لم يكن في معصية الله ، فأصبح هذا النذر معلَّقًا في رقبته ، ودَيْنًا عليه حتى يوفِّيه ،وذلك ظاهر صريح في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وإجماع السلف الصالح.

قال تعالى مادحًا عباده المؤمنين ، الذين يخافونه ويخافون الآخرة ، أنهم يوفون بالنذر ؛ قال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان:٧]

قال ابنُ كثير رحمه الله **في «تفسيره»: «أي: يتعبَّدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر » .**

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج:٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ [البقرة:٢٧٠] .

قال ابنُ كثير رحمه الله **: « يخبر الله تعالى بأنه أعلمُ بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات ومن النفقات والمنذورات ، وتضمَّن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء**

للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده »[(١)].

وقال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله ، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلةً في المسجد الحرام ، قال : « **أَوْفِ بِنَذْرِكَ** »[(٢)].

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ** »[(٣)].

فلفظ : «**فَلْيُطِعْهُ**» أمرٌ من النبيِّ ﷺ ، والأمر في أصله يفيد الوجوب ، ففي الحديث دليلٌ على وجوب الوفاء بالنذور ما لم تكن في معصية .

من شروط النذر :

إذا أراد المسلم أن ينذر ، فعليه أن يتحرَّى عدة شروط قبل الشروع في التلفظ بهذا النذر حتى يكون نذْره صحيحًا وعقيدته سليمة ، ومن هذه الشروط ما يلي :

الشرط الأول : أن يكون طاعة لله تعالى :

فإن الأصل في النذر أنه قُرْبةٌ إلى الله وعبادةٌ له ؛ فلا تصح العبادة إلا في طاعة الله ﷻ ، أما المعصية فلا يُتقرَّب بها إلى الله تعالى ؛ بل إنها تُبْعِد عن طريق الله ﷻ.

ودليل هذا الشرط : ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ : « **لاَ نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ وَلاَ فِي قطعيةِ رحمٍ** »[(٤)].

---

(١) انظر : «تفسير ابن كثير ، سورة البقرة ».

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان والنذور ، باب (إذا نذر أو حلف ألا يكلِّم إنسانًا في الجاهلية ثم أسلم) (٦٦٩٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر في الطاعة (٦٦٩٦) ، وباب النذر فيما لا يملك وفي معصيته (٦٧٠٠) .

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب « الأيمان » (٣٢٧٤) ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٨٧٢) وحسنه في «صحيح أبو داود» .

الشرط الثاني : أن يكون مما يُطيقهُ العبد :

فكما قرَّرْنا سابقًا أن الشريعة الإسلامية لا تُحمِّل المسلم فوق طاقته ، ولا تكلِّفه إلاَّ ما يستطيع ، وترفع عنه كلَّ حرجٍ ، فالله سبحانه وتعالى رؤوفٌ بالعباد رحيمٌ بهم ، ولذلك يجب على المسلم ألاَّ يُحمل هو نفسه ما لا يطيقه ، فإذا أراد أن يَنْذِر فيراعي إمكانياته وطاقته ، ولا يُكلِّف نفسه فوق ما تتحمّل .

والدليل على ذلك : عن عقبة بن عامر ﷺ قال : نذرَتْ أُخْتي أن تمشي إلى بيت الله ، فأمرتني أن أَسْتَفْتِي لها الرسول ﷺ ، فاستفتيتُه ؛ فقال : **«لِتَمْشِ وَلْتَرْكَبْ»**[1] .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ ، فَقَالُوا : أَبُو إِسْرَائِيلَ ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فَلاَ يَقْعُدَ ، وَلاَ يَسْتَظِلَّ ، وَلاَ يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ** »[2] .

الشرط الثالث : أن يكون فيما يملك :

يجب على المسلم إذا أراد أن ينذر لله تعالى ، أن ينذر في شيءٍ يملكه ، فلا ينذر فيما لا يملك ، فهذا مبدأ إسلامي عام ، أن الإنسان لا يحكُم ولا يتصرَّف ولا يبيع ما ليس ملكه ، فلذلك لا ينذر إلا فيما يملك .

والدليل على ذلك : قول النبيِّ ﷺ : « **لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ ، وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ العَبْدُ** »[3] .

فكَوْنُ النبيِّ ﷺ ينهى عن الوفاء بالنذر في المعصية وفيما لا يملك الإنسان ، ففيه دلالةٌ على تحريمه ابتداءً (أي تحريم النذر بالمعصية ، أو فيما لا يملك الإنسان) .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإحصار وجزاء الصيد ، باب من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٨٦٦) ، ومسلم ، كتاب النذر ، باب من نذر أن يمشي إلى الكعبة (١٦٤٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٦٧٠٤) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب « النذر » ، باب لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك العبد (١٦٤١) .

الشرط الرابع : ألا يكون في موضعٍ كان يعبد فيه غير الله تعالى :

إن الشريعة الإسلامية الغراء دائمًا تنأى بالمسلم عن كل ما يَخْدِش عقيدته أو يُلَوِّث توحيده أو يجرح إيمانه ، وهناك قاعدة أصولية في هذا الدين تسمَّى (سد الذرائع) أي قَفْل وغلْق كل باب قد يأتي منه ما يُعكِّر صفو توحيد المسلم ، أو يُوقعُه في معصية الله ﷻ .

ومن أجل ذلك كان محرَّمًا على المسلم أن ينذر نذرًا في مكان كان يعبد فيه غير الله تعالى ، وذلك حتى لا يَتَشَبَّه بهؤلاء المشركين ، ومن ناحيةٍ أخرى حتى لا يُعيد فتْحَ هذا الباب مرة أخرى بعد أن أغلقه الله ، فيحي فِعْل الشركيَّات في هذا الموضع من جديد .

ودليل ذلك : عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ ، أَنْ رَجلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبلاً بِبُوَانَةَ - اسم مَوْضِعٍ - فَقَالَ : « **أَكَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ ؟** » فَقَالُوا : لاَ ، قَالَ : « **هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ ؟** » فَقَالُوا : لاَ ، قَالَ: « **أَوْفِ بِنَذْرِكَ فَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله ، وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ** »(١) .

فكون النبيِّ ﷺ يسأله هذين السؤالين ، ففيه دلالة على أنه يحرم الوفاء بالنذر في هذه الأماكن (مكان كان يُعْبَدُ فيه غير الله ، ومكان كان عيدًا من أعياد المشركين) .

الشرط الخامس : ألا يعتقد النَاذِرُ تأثير النذر في حصول الشيء وعَدَمِه :

من عقيدة المسلم أن الأمورِ كلَّها بيد الله ،وأنه مُصرِّف الأمور ،وليس لأحدٍ تَدَخُّلٌ في ملك الله وأقدار الله تعالى ؛ فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ،

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الأيمان والنذور (٣٣١٣) ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٨٧٢) ، و«صحيح الجامع» (٢٥٥١) .

فالنفع والضُّر بيده ، والمنْع والعطاء من عنده .

ولذلك لا يجوز للمسلم حين ينذر نذْره أن يعتقد أن لهذا النذر تأثيرًا على أقدار الله تعالى أو في دَفع الضُّر أو جَلْب منفعةٍ ؛ بل ينذر نذره على سبيل التَّقَرب لله تعالى فقط .

ودليلُ ذلك : عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **إِنَّ النَّذْرَ لاَ يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلاَ يُؤَخِّرُهُ ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنَ الْبَخِيلِ** » [1] .

النذر لغير الله شرك :

إذا كان النذر لله تعالى عبادةً ونوعًا من أنواع التَّقرب إلى الله ، فإن صَرْفه لغير الله تعالى شركٌ أكبر يُخْرِج من الملة ، ويُوجِب لصاحبه النار ؛ لأن كل ما شأنه عبادة لا يجوز بحالٍ من الأحوال أن يُصْرَفَ لغير الله تعالى ، ومن المؤسف حقًّا أن نرى مثل هذه العبادات تُصرف لغير الله تعالى ، وذلك في كثير من بلاد المسلمين ، مما يجعل القلب يتمزَّق حزنًا وألمًا على حال المسلمين وما وصلوا إليه ، رغم ما أتاحه الله لنا من وسائل من الممكن أن تكون سببًا في محو الجهل ، والقضاء على كلِّ أسباب الشرك ، فبعض الناس يَنْذِر للأموات ولأصحاب القبور والأولياء والصالحين ، ينذرون لهم المال والذبائح والولائم إذا حدث لهم كذا وكذا ، وهذا لا ينبغي أن يحدث في بلاد المسلمين خاصَّة وأنه شركٌ أكبر .

قال فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين ، في فتوى حول هذا الموضوع : « وأما من نذر لهم ـ يعني للقبور ـ وذَبَح لهم ، أو استغاث بهم ؛ فإن هذا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «القدر» ، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر (٦٦٠٨) ، و كتاب الأيمان والنذور ، باب الوفاء بالنذر (٦٦٩٢) ، ومسلم ، كتاب النذر ، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا (١٦٣٩) .

شركٌ أكبر مُخْرِجٌ من الملة ، يكون صاحبهُ به كافرًا مُخَلَّدًا في النار »[١].

ولكن يجب أن نشعر بالذنب والتَّقصِير تجاه هؤلاء الناس من المنتسبين للإسلام ، فلقد قصَّرنا في حقِّهم الكثير والكثير، ولسوف نُسأل عنهم يوم القيامة ، فلم نُؤدِّ واجبنا على الوجه الأكمل ، ولم نَسْلُك كل طريقٍ في توعية المسلمين ونشر العلم بينهم وتبصيرهم بأمور دينهم ، خاصَّةً وأن معظم مَنْ يقوم بهذه الشِّرْكيَّات ويقع فيها يكون عن جهل منه ، فمن الناس من لم يسمع كلمة «التوحيد» ، ولا يعرف ما معنى كلمة « شرك » ، ولم يَفْقَهْ معنى «الكفر» .

فهؤلاء الناس لهم حقوقٌ علينا ، فيجب أن نَهُبَّ ونَشَمِّرَ عن ساعد الجدِّ لنَشْر دين الله تعالى في أنحاء المعمورة ، ولنُوصِّل التوحيد والعقيدة لكلِّ مسلم على وجه الأرض ؛ فهذا هو منهج الرسول ﷺ ، وهذه هي دعوته ، فمن أراد أن يكون من ورثة الأنبياء ، وأن يعمل بعملهم ويشتغل بوظيفتهم ، فعليه الاشتغال بهذا التوحيد ونشره في أرجاء المعمورة ،وليسكنه في قلب كلِّ مسلم ومسلمةٍ ، حتى نلقى الله ﷻ وقد أدَّيْنا الأمانة ، ونصحنا لأمة محمد ﷺ »[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى[٣] : «...والنذر للمخلوقات أعظم من الحلف بها ؛ فمن نذر لمخلوق لم ينعقد نذره ولا وفاء عليه باتفاق العلماء ، مثل من ينذر لميت من الأنبياء والمشايخ وغيرهم ، كمن ينذر للشيخ جاكير وأبي الوفاء أو المنتظر أو للست نفيسة أو للشيخ رسلان أو غير هؤلاء ،

---

(١) انظر : « المجموع الثمين في فتاوى ابن عثيمين » (١/ ١٠٥) .

(٢) نقلاً عن « العقيدة الصافية » (٢٧٠ـ ٢٧٥) ط دار طيبة .

(٣)« مجموع الفتاوى » (٣٣/ ١٢٣) .

وكذلك من نذر لغير هؤلاء زيتًا أو شمعًا أو ستورًا أو نقدًا : ذهبًا أو دراهم ، أو غير ذلك ، فكلُّ هذه النذور محرمة باتفاق المسلمين ، ولا يجب ؛ بل ولا يجوز الوفاء بها باتفاق المسلمين ،وإنما يوفى بالنذر إذا كان لله ﷻ ، وكان طاعة ، فإن النذر لا يجوز إلا إذا كان عبادة ، ولا يجوز أن يُعبد الله إلا بما شرع ، فمن نذر لغير الله ، فهومشرك أعظم من شرك الحلف بغير الله ، وهو كالسجود لغير الله » ا.هـ .

وقال أيضًا [(١)] : « وأما النذر ؛ فهو نوعان : طاعة ومعصية ، فمن نذر صلاة أو صومًا أو صدقة فعليه أن يوفي به ، وإن نذر ما ليس بطاعة مثل النذر لبعض المقابر والمشاهد وغيرها زيتًا أو شمعًا ، أو نفقة ، أو غير ذلك ، فهذا نذر معصية ،وهو شبيه ـ من بعض الوجوه ـ النذر للأوثان ، كاللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؛ فهذا لا يجوز الوفاء به بالاتفاق .. وإذا صرف الرجل ذلك المنذور في قربة مشروعة مثل أن يصرف الدهن في تنوير المساجد التي هي بيوت الله، ويصرف النفقة إلى صالحي الفقراء كان هذا عملاً صالحًا يتقبله الله منه ، مع أن أَصْل « عقد النذر » مكروه ... » ا.هـ.

وقال الصنعانيُّ [(٢)]: « وأما النذور المعروفة في هذه الأزمنة على القبور والمشاهد والأموات فلا كلام في تحريمها ؛ لأن الناذر يعتقد في صاحب القبر أنه ينفع ويضر ، ويجلب الخير ، ويدفع الشر ، ويعافي السليم ، ويشفي السقيم ،وهذا هو الذي كان يفعله عباد الأوثان بعينه ، فيحرم كما يحرم النذر على الوثن ،ويحرم قبضه ، لأنه تقرير على الشرك ، ويجب النهي عنه ، وإبانة

(١) « مجموع الفتاوى » (٣٥/ ٣٥٤) .

(٢) « سبل السلام » (٤/ ١٤٤٨) .

أنه من أعظم المحرمات ،وأنه الذي كان يفعله عبَّاد الأصنام ، لكن طال الأمد حتى صار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا ، وصارت تعقد اللواءات لقباض النذور على الأموات ، ويجعل للقادمين إلى محل الميت الضيافات ، وينحر في بابه النحائر من الأنعام ،وهذا هو بعينه الذي كان عليه عباد الأصنام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون » ا . هـ [1] .

(١) راجع بحثًا مستقلاً بعنوان : « فقه النذور » ط مكتبة التوحيد .

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بِالأَدِلَّةِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

« الأَصْلُ الثَّانِي : مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلاَمِ بِالأَدِلَّةِ ، وَهُوَ : الاسْتِسْلاَمُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، وَهُوَ ثَلاَثُ مَرَاتِبَ : الإِسْلاَمُ ، وَالإِيمَانُ ، وَالإِحْسَانُ . وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ . فَأَرْكَانُ الإِسْلاَمِ خَمْسَةٌ : شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ ».

الشرح

الأَصْلُ الثَّانِي مِنَ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ :

معرفة دين الإسلام بالأدلة القرآنية والنبوية ، ثم عرَّف المُصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالى الإسلام ؛ فقال : « الإِسْلاَمُ هُوَ : الاسْتِسْلاَمُ للهِ - تَبارَكَ وَتَعَالَى - بِالتَّوْحِيدِ ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ ، وَهُوَ ثَلاَثُ مَرَاتِبَ : الإِسْلاَمُ ، وَالإِيمَانُ ، وَالإِحْسَانُ » .

والإسلام - أيها الأفاضل - هو : المنةُ العُظْمى ، والنعمةُ الكُبْرى ، وهو الدِّين الذي ارتضاه الله لأهلِ سماواته وأرضه . ولا يوجد عند الله - تبارك وتعالى - دينٌ إلا الإسلام ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] ، فماذا فقد مَنْ وجد الإسلام ؟ وماذا وجد مَنْ فقد الإسلام ؟ وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] .

واعلم أنَّ الإسلام دين جميع الأنبياء والمرسلين : فالإسلام دين نوح ؛ قال -

تعالى - في سورة يونس : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾[يونس:٧١] ، إلى قوله ﷻ حكايةً عن نوح : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[يونس:٧٢] .

والإسلام دين إبراهيم ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧، ١٢٨]

والإسلام دين موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - قال الله تعالى حكاية عنه في سورة يونس : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس:٨٤] .

والإسلام دين عيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:٥٢]

والإسلام دين يوسف - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - قال تعالى حكاية عنه : ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[يوسف:١٠١] .

والإسلام دين سليمان - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - قالت ملكة سبأ : ﴿ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[النمل:٢٩-٣١].

والإسلام دين الجن المؤمن ؛ قال الله - تعالى - حكايةً عن الجن : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا

ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[الجن:١٤، ١٥].

والإسلام دينُ لبنة التمام، ومسك الختام، المصطفى ﷺ؛ الذي أنزل الله عليه قوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣]؛ فالإسلام دين الله ـ تبارك وتعالى ـ الذي ارتضاه لأهل سماواته، وأهل أرضه ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾[آل عمران:٨٣]، وهذا الاستسلام استسلام قدريٌّ لا ثواب فيه، لكن الإسلام الذي يرتضيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هو الإسلام الشرعيُّ الاختياري الذي يثاب العبد عليه؛ فالفقر نوعان [1]: فقر اضطراريٌّ، وفقر اختياريٌّ، أما الفقر الاضطراريُّ؛ فهو: فقر جميع المخلوقات إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ فكلُّ مخلوقٍ في الكون فقيرٌ إلى الله بالذات.

أما الفقر الاختياريُّ؛ فهو فقر أوليائه، من أنبيائه ورسله، وموحِّديه في كلِّ زمان ومكان، وعلى قَدْر فقرك ـ من هذا النوع ـ يكون قربك، وتكون عبوديتك لله ـ تبارك وتعالى ـ وهو الإسلام الذي عرَّفه المصنفُ بقوله: « **الإِسْلاَمُ هُوَ: الاسْتِسْلاَمُ لله ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ** ». هذا هو الإسلام في الجملة: أن تقر لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بالوحدانية، وأن تفرده وحْدَه ـ سبحانه وتعالى ـ بالعبادة ـ كما ذكر في آيات كثيرة قبل ذلك ـ تنقاد له سبحانه بالطاعة، وهي أن تمتثل أمره، وأن تجتنب نهيه، وأن تقف عند حدوده ﷻ، وأن تتبرأ من الشرك وأهله؛ قال تعالى: ﴿ قَدْ

---

(١) انظر كلامًا نفيسًا لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في ذلك، في « طريق الهجرتين » (ص٢٣ ـ ٢٧ ط دار ابن القيم).

كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤] ، وهذه ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها ؛ قال تعالى : ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [آل عمران:٩٥] ؛ فلا يصحُّ لك ـ أبدًا ـ إسلام ، إلا بالبراءة من الآلهة ، والأنداد ، والأرباب ، والطواغيت.. إلا بالتخلية قبل التحلية ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة:٢٥٦] . وهنا قَدَّم الله الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ؛ فالكفر بالطاغوت هو التخلية ، وهو شقُّ النفس ـ كما سيأتي الآن في بيان معنى الشهادة ـ فلابد أن تُخلِّي القلب من كلِّ شريك ، من الآلهة المكذوبة ؛ ليصبح القلب خاليًا لعبادة الله ـ تبارك وتعالى ـ وحده ؛ فقدم الله الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ؛ إذ لا يمكن أبدًا أن يجتمع الإيمان بالطاغوت مع الإيمان بالله في قلبٍ واحدٍ أبدًا !! وإنما لا بد أن يطْرُدَ أحدُهما الآخرَ ، إما أن يستقر في القلب إيمانٌ بالله وحده بلا منازع أو شريك ـ وهذا لا يكمل أبدًا ، إلا إذا تبرأت من كُلِّ إلهٍ باطل مكذوب ـ وإما أن يطْرُدَ الكفرُ ـ والعياذ بالله ـ الإيمان من القلب .

إذًا : لابد من التخلية قبل التحلية ، وهذا هو معنى (لا إله إلاَّ الله) فـ (لا إله) نفيٌ ، و(إلاَّ الله) إثبات .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى[1]: (النفي المحض ليس توحيدًا) فإن قلت : لا إله ؛ فهذا نفي محض ، نفيت به وجود إله أصلاً ، بخلاف التوحيد وهو:

(١) « البدائع » لابن القيم (١/ ١٤١ مكتبة نزار) .

(لا إله إلاَّ الله) .

ثم قال ابن القيم : (وكذلك الإثبات بدون النفي ليس توحيدًا ؛ فلا يكون التوحيد إلاَّ متضمنًا للنفي والإثبات معًا ، وهذا هو حقيقة التوحيد) أي : كلامهما في وقتٍ واحدٍ ، ومعنى : « لا إله إلاَّ الله » ، أي: لا معبود بحق إلاَّ الله ؛ فهي تنفي الآلهة ، والأنداد ، وتثبت التوحيد الخالص بأقسامه الثلاثة لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وحده لا شريك له ، فلا يجوز أن تصرف العبادة بجميع صورها الظاهرة والباطنة إلا لله ﷻ وحده .

ولا يجوز البتة أن توجَّه إلى أيِّ إله من الآلهة المكذوبة المدعاة الباطلة وما أكثرها !! فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله ﷻ فقد وقع في الشرك .

فالعبادة ليست أمرًا على هامش الحياة ،ولكنها الصيحة الأولى في كل رسالة والدعوة الأولى لكلِّ نبوة ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] .

فلا تصحُّ الأعمال ابتداءً إلا بالبراءة من عبادة كلِّ ما يُعبد من دون الله ؛ كما قال ﷻ : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦] . فلا صحة للأعمال إلا بالتوحيد الخالص وإلا لفسد العمل وبطل ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨] .

فالإيمان الحقيقي أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه ، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله ، وتنفيها عن كل معبودٍ سواه . وسيأتي ذلك كلُّه مفصلاً في الباب القادم إن شاء الله .

ثم ذكر المصنف أن الإسلام « ثَلاَثُ مَرَاتِبَ : الإِسْلاَمُ ، وَالإِيمَانُ ، وَالإِحْسَانُ » ، وهذه المراتب مأخوذةٌ من كلام رسول الله ﷺ في حديثٍ

طويلٍ ساقه المصنف رحمه الله في مرتبة الإحسان ؛ لكنني سأذكره الآن لحاجتنا إليه هنا ، ولا حرج أن أقدم أيضًا للحديث بالمقدمة البديعة ، التي ذكرها **الإمام مسلم** رحمه الله في « **صحيحه** » ؛ فقال مسلمٌ رحمه الله [(١)]: حَدَّثَنَا أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ كَهْمَسٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ : كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ ، فَقُلْنَا : لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما دَاخِلاً الْمَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ ، وَقُلْتُ : أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ - ينادي على ابن عمر رضي الله عنهما - إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ » - يعني : يبحثون عن غوامض العلم وخوافيه ودقائق مسائله - «وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَيَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ » - يعني : مستأنف لا يعلمه الله ، إلا بعد وقوعه وحدوثه ! فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ : إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ : أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ ، لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، ثُمَّ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ : « بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ**

---

(١) في « الصحيح » كتاب « الإيمان » ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨) .

الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً» ، قَالَ : صَدَقْتَ. قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ ؟ قَالَ : « **أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** »، قَالَ : صَدَقْتَ قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ : « **أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ : « **مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** » قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا ؟ قَالَ : « **أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ** » قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي : « **يَا عُمَرُ ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟** » قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ : « **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ** ».

إذًا بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ الإسلام يتكوَّنُ من هذه المراتب : « الإسلام ، الإيمان ، الإحسان » ، وقد شرحنا هذا الحديث شرحًا مستفيضًا ـ بحمد الله وتوفيقه ـ في كتابنا « جبريل يسأل والنبيُّ يجيب » ، والله نسأل أن يتوفانا على التوحيد ، وأن يحشرنا مع سيد الموحدين محمد ﷺ .

*****

١ـ الشهادتان

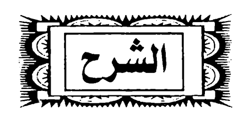
قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

« **فَدَلِيلُ الشَّهَادَة ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨] ، **وَمَعْنَاهَا: لاَ مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلاَّ الله ! « لَا إِلَه » ؛** نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله « **إِلَّا الله** » ؛ **مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ لله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ .**

وتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوضِّحُهَا ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦ـ ٢٨] ، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤] .

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] .

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله : طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَر ، وأَنْ لا يُعْبَدَ الله إِلاَّ بِمَا شَرَعَ ».



١ ـ الشهادتان :

والتي شرع المصنفُ رحمه الله في بيانها ،وبيان أدلتها ؛ تلك الأركان التي بيَّنها نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ؛ كما في « **الصحيحين** » من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالْحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ** » (١) .

فالركن الأول من هذه الأركان هو : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ .

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ طيب الله ثراه (٢) : « إن دين الله الذي هو الإسلام مبنيٌّ على أصلين ؛ الأول : أن نعبد الله عز وجل وحده لا شريك له ، والثاني : أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ ، وهذان الأصلان هما حقيقة قولنا : نشهد أن لا إله الله ، وأن محمدًا رسول الله ؛ فبالشهادة الأولى يعرف المعبود عز وجل ، وبالشهادة الثانية يعرف الطريق الموصل إلى المعبود عز وجل » ؛ لأن كل الطرق إلى الله تعالى مسدودة ، إلا من طريق النبيِّ محمد ﷺ .

إذًا هذا الركن لا يصحُّ إسلام المرء إلا به ، وهو : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .

والشهادة ؛ أن تقر بلسانك بكلمة التوحيد ، وأن تصدِّقها بقلبك ، وأن تترجم هذه الشهادة بمقتضياتها ؛ بأعمالك وجوارحك ، وقد أصَّلنا قبل ذلك أن الإيمانَ قولٌ باللسان ، وتصديقٌ بالجنان ،وعملٌ بالجوارحِ والأركانِ .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب « الإيمان » باب دعاؤكم إيمانكم ، رقم (٨) ، ومسلم في كتاب «الإيمان» باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام ، رقم (١٦) .

(٢) انظر رسالة « العبودية » لشيخ الإسلام ، بتصرفٍ في المعنى .

وهنا لفتةٌ مهمة ألا وهي: إن أفرد لفظُ الإسلام ؛ دخل فيه الدين كَلُّه كما ذكرنا ،ويدخل فيه الإيمان ، ويدخل فيه الإحسان ، وإن أُفرد الإيمان ؛ فيدخل فيه أيضًا الدين كلُّه كما سأبين ـ إن شاء الله تعالى ـ وإن ذُكر الإسلام والإيمان معًا ؛ فالإسلام يرادُ به أعمال الظاهر ، والإيمان يُرادُ به أعمال الباطن عند كثيرٍ من أهل العلم ـ رحم الله الجميع ـ إذًا ؛ الركن الأول هو إفراد الله ﷻ وحده بالعبادة ، والإقرار له ـ تبارك وتعالى ـ بالعبادة والألُوهية .

فكما سبق أن كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » نفي وإثبات « لا إله » نفيٌ للأرباب ، والأنداد ، والآلهة ، والطواغيت ، و«إلا الله » : إثباتٌ لتوحيد الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات .

وقد ذكرتُ قبل ذلك أن تقسيم التوحيد إلى هذه الأقسام ، إنما هو تقسيم نظريٌّ لمجرد الدراسة فقط ، وإلا فإن التوحيد كُلٌّ لا يتجزأ ، ولا ينفصل قسمٌ منه عن الآخر أبدًا ، فَكَلِمَةُ التوحيد إفراد الله ــ تبارك وتعالى ــ وحده بالعبادة ؛ بلا منازع ، أو شريك .

واستدلَّ المصنفُ استدلالاً رقيقًا جميلاً جدًّا بقول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾

[الزخرف:٢٦ـ ٢٧]

فهنا استدل المصنف على النفي والإثبات بهذه الآية ، وهو استدلالٌ غايةٌ في الجمال ؛ فقوله : ﴿ بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ نفيٌ لكلِّ هذه الآلهة التي تُعبد من الله ـ تبارك وتعالى ـ من الأقمار ، والنجوم ، والأصنام ، ثم يثبت العبادة لله وحده ؛ فيقول : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ، أي : فطرني على التوحيد ، والإيمان ، وهو وحْدَه الذي يهديني إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ إثباتٌ

للعبادة والألوهية لله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده . ولنا في إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الأسوة والقدوة ؛ كما قال ربنا : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[الممتحنة:٤] .

واعلم أن مَنْ أفرد الله وحده بالعبادة ، ولم يؤمن برسول الله ﷺ فقد كفر ؛ قال الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[النساء:١٥٠، ١٥١] .

إذًا ؛ لابد من الإيمان بالله ، والإيمان بمحمدٍ رسول الله ﷺ ؛ فمَنْ آمَنْ بالله ، وآمن بجميع الأنبياء والمرسلين ، وكفر بسيد النبيين والمرسلين محمد ﷺ ؛ فقد كفر ؛ فمن المعلوم ـ كما ذكرتُ قبل ذلك ـ أن الله ما أرسل إلى قوم نوح إلا نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومع ذلك لما كذَّبه قومه ؛ قال الله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥] .

ومن المعلوم أن الله ما بعث إلى قوم لوط إلا لوطًا عليه السلام ؛ فلما كذبه قومه ؛ قال الله ـ تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٦٠] .

ومن المعلوم أن الله ما بعث إلى قوم عاد إلا هودًا عليه السلام فلما كذب قوم عاد هودًا ؛ قال الله ـ تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٢٣] .

وما بعث إلى قوم ثمود إلا صالحًا عليه السلام ؛ فلما كذبه قومه ؛ قال الله ـ تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٤١].

فمن كذَّب نبيًّا واحدًا من الأنبياء ؛ فقد كذَّب جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، ومن كفر بنبيٍّ فقد كفر بجميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين ؛ قال الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [البقرة:٢٥٣] .

فنحن لا نفرق بين أحدٍ من المرسلين في أَصْل الإيمان ، لكننا نُفَضِّل بعضهم على بعض ؛ كما بيَّن ربنا عَجَّلَ وبيَّن نبينا ﷺ ؛ كما في «**صحيح مسلم**»[١] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ** » .

وقد فضَّل الله نبينا ﷺ على أولي العزم الخمسة ؛ بل وعلى الخليل الكريم إبراهيم ـ عليهم جميعًا الصلاة والسلام ـ فهو ﷺ سيد الأنبياء ، وإمام الأصفياء الأتقياء ؛ بل هو الإمام الأعظم ؛ كما قال الإمام الحافظ ابن كثير[٢] : «الذي إن وجد في أيِّ عصرٍ لوجب على أهل ذلك الزمان أن يؤمنوا به ، وأن يتبعوه ، ولو كان نبيًّا من الأنبياء ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١] ؛ فهو ﷺ الواجب الطاعة ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « المساجد ومواضع الصلاة »(٥٢٣) عن أبي هريرة مرفوعًا ، وهذا لفظه . وانظر «صحيح البخاري» (٤٣٨) ،ومسلم (٥٢١) عن جابر مرفوعًا .

(٢) « تفسير ابن كثير » (١/ ٣٥٧) ط المكتبة القيمة .

المقدَّم على الأنبياء كلِّهم ، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ، وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جَلَّ جَلَالُهُ لفصل القضاء بين عباده ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له ، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه ، فيكون هو المخصوص به ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨] ».

وفي «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ** ».

فهذا الركن لا يصحُّ أبدًا لإنسانٍ على وجْهِ الأرض دين إلا به ، وهذه الشهادة ليست كلمةً يرددها اللسان دخانًا يطير في الهواء ؛ بل لابد من إقرار اللسان ، وتصديق الجنان ، وعمل الجوارح والأركان ؛ فكلمة الشهادة إن رددها إنسانٌ ربما تعصم ماله ، وتعصم دمه في الدنيا ، لكن إن رددها بلسانه ،وكذَّبها بقلبه ، وأنكرها بأعماله وجوارحه ؛ فقد وقع في نفاق الاعتقاد ، إن أظهر خلاف ما يبطن ، أو إن أبطن خلاف ما يردده لسانه ،وقد ردَّدها المنافقون في عهد رسول الله ﷺ ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١] .

فلابد ـ إذًا ـ من أن نعي ؛ أن الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ليس مجرد كلمةٍ ترددها الألسن فحسب ؛ بل لا بد من القيام بمستلزماتها ، وشروطها ، وأركانها ، والإقرار بها ، والعمل بمقتضياتها ..

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ (١٥٣) .

هذا هو التوحيد الذي ينجو به صاحبه في الدنيا والآخرة ، **وهذا هو الذي قال فيه ابن رجب ـ رحمه الله تعالى :** « التوحيد ، هو السبب الأعظم ؛ فمن فقده فقد المغفرة ، ومن جاء به ، فقد أتى أعظم أسباب المغفرة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] ؛ فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض ـ وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها ـ خطايا ، لقيه الله بقرابها مغفرة ، لكن هذه مع مشيئة الله ﷻ ؛ فإن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه بذنوبه ، ثم كان عاقبته أن لا يخلَّد في النار ؛ بل يخرج منها ، ثم يدخل الجنة ، قال بعضهم : الموحِّد لا يلقى في النار كما يلقى الكفار، ولا يلقى فيها ما يلقى الكفار ، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار ؛ فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه لله فيه ، وقام بشروطه كلِّها بقلبه ولسانه وجوارحه ، أو بقلبه ولسانه عند الموت ، أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلِّها ، ومنعه من دخول النار بالكلية ؛ فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه ، أخرجت منه كلَّ ما سوى الله محبة وتعظيمًا وإجلالًا ومهابةً وخشيةً ورجاءً وتوكلاً ، وحنيئذٍ تُحرق ذنوبه وخطاياه كلُّها ، ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبتها حسنات كما سبق ذكره في تبديل السيئات حسنات ؛ فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم ، فلو وضع ذرة منها على جبال الذنوب والخطايا لقلبها حسنات »[1]. انتهى .

*****

(١) « جامع العلوم والحكم » (الحديث ٤٢) (ص٦٨٧) ط دار ابن رجب .

٢ـ الصَّلاةُ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

« وَدَلِيلُ الصَّلاَةِ والزَّكَاةِ ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] ».

الشرح

فالركْنُ الثَّاني من أَرْكانِ هذا الإِسْلام العظيم بعد الشهادتين : الصَّلاة . وهي : الركنُ العمليُّ الأول من أركان الدين ، والصلاة عبادة بدنية ، والزكاة عبادة مالية .والصلاة من أعظم المنن بعد نعمة الإخلاص بالتوحيد .. تلكم المنة التي امتن الله بها على عباده المؤمنين خضوعًا لجلاله ،وخشوعًا لعظمته ، وتواضعًا لكبريائه .. ولم يفترض عليهم بعد توحيده ، والتصديق برسله ، وما جاء من عنده فريضة أَوَّلَ من الصلاة . وأخبر سبحانه أن ذلك أمره لهم وللأنبياء والأمم قبل أن يبعث محمدًا ﷺ [١]، ومن هذه الأدلة التي تدلُّ على ذلك ؛ ما ذكره المصنف هنا ، والله ـ تبارك وتعالى ـ يأمر أمة محمد ﷺ بالصلاة في كثيرٍ من مواضع القرآن الكريم ؛ فيقول ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٣] ، وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:١٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام:٧٢] ، وقال تعالى :

---

(١) « تعظيم قدر الصلاة » (١/ ٨٥) ، ط مكتبة الدار .

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم:٣١] ، ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء:١٠٣] ، ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج:١٩ـ٢٥] .

وقرن الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه بين الصلاة والزكاة في اثنتين وثمانين آية . فإن للصَّلاةِ في الإسْلامِ مَنْزلةً لا تعدلُها مَنْزلةُ أيةِ عبادةٍ أُخْرى ؛ فهي عِمادُ الدِّين ، ورأسُ الإسلام وعمودُه ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : « **رَأْسُ الأَمْرِ ؛ الإِسْلاَمُ ، وَعَمُودُهُ ؛ الصَّلاَةُ**[1] **، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ ؛ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله** »[2] .

وهي صلةٌ بين العبدِ وربه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وهل يقطعُ هذه الصلةَ عبدٌ يعرف قَدْرَ الألوهية وحقيقة العبودية ؟!

وهي الهديَّةُ الربانية ، والمِنْحَةُ الإلهية التي مَنَحها الله لحبيبهِ وأُمَّتِه ليلةَ المعراج الزكيَّة .

وهي آيةُ وعلامةُ محبةِ العبدِ لربِّه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ودليلُ تقديرِهِ لِفَضْلِه ، وبرهانُ شُكْرِهِ لِنعمِه وإحسانِه .

---

(١) أي : ما يعتمد عليه الدين ، وهو له بمنزلة العمود من البيت (عبد الباقي) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) ، والترمذي ، كتاب «الإيمان» ، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب « الفتن » ، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣) ، والنسائي في « الكبرى » (١١٣٣٠) ، وعبد بن حميد (١١٢) من طريق : عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ مرفوعًا ، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣٧) من طريق : شعبة عن الحكم عن عروة بن النزَّال عن معاذ به ، وأخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » (٧/ ٤٢٦) ـ معلقًا ـ من طريق : عبد الرحمن بن غنم عن معاذ به .

قلت : وقد حسَّنه العلامة الألباني رحمه الله في غير مصنفٍ له ؛ كالإرواء (٤١٣) ، و « صحيح الجامع » (٥١٣٦) ، وصححه بمجموع طرقه في « الصحيحة » (١١٢٢) (٣/ ١٩٦) ، وانظر « علل الدارقطني » (٦/ ٧٣) (٩٨٨) .

وهي قُرةُ عيونِ المؤمنين الصَّادقين ؛ كَمَا كانَتْ قرةَ عيْنِ سيِّد المرْسَلِين الذي قال : « **وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ** »(١) .

وهي راحَةُ وأُنْسُ المحبِّين ؛ كما كان يقولُ الصَّادق الأمين ﷺ لسيِّد المؤذنين : « **أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلاَلُ** »(٢) .

والله إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإنَّا لِمَا حلَّ بكثيرٍ من الناس لمحزونون ؛ فلقد أهملَ كثيرٌ ممن ينتسبون إلى الإسلام الصلاة وضيعوها ؛ بل ويرونها عِبْئًا ثقيلاً على قلوبهم ونفوسهم ، وربما تُذَكِّرُ أحدَهم بهذه المصيبة الكبيرة والداهية العظيمة ، فتراه يلتمسُ لنفسه الأعذار .

فيزعم المسْكِينُ المخذولُ أنه مشغول !!

أو يدَّعي أنه لا يجدُ وقتًا للصلاة !!

وهو الذي يُضحِّي بأغلى وقتِه لفيلمٍ أو مباراة !!

فما ظنك بالوقْتِ الذي يمنحه لحبيبته التي يَعْشِق القلْبُ لقاءها وَيهْواه !!

أيها العاقل .. أيها اللبيب :

متى ستسمعُ أمرَ ربك : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:٢٣٨] .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨، ٢٨٥) ، والنسائي ، كتاب « عشرة النساء » ، باب حب النساء (٧/ ٦١) ، وفي « الكبرى » (٨٨٨٧) ، والمروزى في « تعظيم قدر الصلاة » (٣٢١) ، (٣٢٢) ، والحاكم (٢/ ١٧٤) من حديث أنس مرفوعًا . وصحح سنده الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٣٤٥) ، وحسنه في « التلخيص » (٣/ ١١٦) ،وصححه العلامة الألباني في « الصحيحة » (برقمين :١١٠٧، ١٨٠٩) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤) ، وأبو داود ، كتاب « الأدب » ، باب في صلاة العتمة (٤٩٨٥) ، والطحاوي في « المشكل » (٤٨٣٤) ، والطبراني في « الكبير » (٦٢١٥) ، والإسماعيلي في « معجمه » (٢١٩) ، والخطيب في « تاريخه » (١٠/ ٤٤٢) ، وانظر « علل الدارقطني » (٤/ ١٢١) (٤٦١) وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٧٨٩٢) .

متى تمتثل أمر ربك : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾[البينة:٥] .

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) عن ابن مسعود قال : قلتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفضلُ ؟ ـ وفي رواية : أَيُّ الأَعْمالِ ـ أَحَبُّ إِلَى الله؟ قَالَ : « **الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا** ».

أيها المسلم الكريم ؛ يا مَن شرح الله صدرك للإسلام ، فوحَّدتَ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وآمنت برسول الله ﷺ ، وأقمت الصلاة ، وعرفت قدرها وشرفها ، اعلم وفقني الله وإياك لمرضاته ، وجعلني وإياك ممن يخشاه ويتقيه حق تُقاته ، أنه لا يجوز لك أن تتخلف عن صلاة الجماعة في بيوت الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ إلا لعذرٍ شرعيٍّ ؛ كمرضٍ ، أو مطرٍ ، أو خوفٍ ، أو نحو ذلك .

فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ لم يُسقط صلاةَ الجماعة عن المسلمين في ساحة القتال وتحتَ بارقة السيوف ، ولو بكيفية معينة معلومة !! ولو كان الأمرُ هينًا لأذن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ لهؤلاء المقاتلين أن يصلُّوا منفردين !! وهو أرْحَمُ الراحمين وأحكم الحاكمين .

ولأذن سيدُ المرسلين ـ وهو أرحمُ البشر أجمعين ـ لعبد الله ابن أم مكتوم الأعمى الذي لا يجد قائدًا يقوده إلى المسجد !

ففي « **صحيح مسلم** » (٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ، إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَسَأَلَ رَسُولَ الله

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « مواقيت الصلاة » ، باب فضل الصلاة لوقتها (٥٢٧) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال رقم (٨٥/ ١٣٧ـ ١٣٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « المساجد ومواضع الصلاة » ، باب : يجب إتيان المسجد على من سمع النداء (٦٥٣) .

ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ ، فَرَخَّصَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمَّا وَلَّى ـ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « **هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلاَةِ ؟** » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « **فَأَجِبْ** ».

وفي رواية أبي داود والنسائي وغيرهما [١] بسندٍ صحيح عَنِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ رضي الله عنه قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ الْمَدِينَةَ كَثِيرَةُ الْهَوَامِّ وَالسِّبَاعِ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **هَلْ تَسْمَعُ حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ ، حَيَّ عَلَى الْفَلاَحِ ؟** » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « **فَحَيَّ هَلًا** ». وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ.

قال الخطابيُّ [٢] : « وفي هذا دليل على أن حضورَ الجماعة واجبٌ ، ولو كان ذلك مندوبًا لكان أهلُ الضرورة والضعف ومَن كان في مثل حالِ ابن أم مكتوم أَولى الناس بالتخلف » .

ومَنْ مِن المؤمنين الصادقين يستغني عن فضل الجماعة ،وفضل المشي إلى بيوت الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ؟!

روى البخاريُّ ومسلمٌ [٣] عَنْ ابنِ عُمر رضي الله عنهما أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **صَلاَةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاَةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً** ».

فما أحوج المؤمن إلى الصلاة لينعم برضوانها ، وليتشرفَ بالوقوف بين يدي ملك الملوك ـ جَلَّ وَعَلاَ .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب التشديد في ترك الجماعة (٥٥٣) ، والنسائي ، كتاب « الإمامة » ، باب المحافظة على الصلوات حيث ينادى بهن (٢/ ١٠٩) ، وفي « الكبرى » (٩٢٦) وابن خزيمة (١٤٧٨) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٧٣) ، وابن قانع في «معجم الصحابة» (١٠٩٦) ، والحاكم (٩٠١) (١/ ٣٧٤) وصححه ، ووافقه الأعظمي في تعليقه على ابن خزيمة ، وحسن سنده النووي في « رياض الصالحين » (١٠٧٤) ،قال : («ومعنى: فَحَيَّ هَلاً » : تعال) . وقال الخطابي في « المعالم » (١/ ١٣٨) : « كلمة حث واستعجال » .

(٢) «معالم السنن » للخطابي (١/ ١٣٨) بتصرفٍ يسير .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الأذان » ، باب فضل صلاة الجماعة (٦٤٥) ، ومسلم ، كتاب « المساجد ومواضع الصلاة » ، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها (٦٥٠) .

وما أحوج المؤمنَ إلى الصلاة ليغسل عن قلبه وروحه وبدنه أدران ما تدنَّس به من الذنوب والمعاصي!! قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى:١٤، ١٥].

وقد ثبت في «**الصَّحِيحَيْنِ**»[(١)] من حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**».

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**»[(٢)] من حديث طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ، وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**» فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ**» قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَصِيَامُ رَمَضَانَ**» قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «**لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ**» قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لاَ إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ**» قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَالله لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**».

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» ـ واللفظ لمسلم ـ من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ الله ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الله أَرْسَلَكَ، قَالَ: «**صَدَقَ**» قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «**الله**»، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ؟ قَالَ: «**الله**»،

---

(١) تقدم، وهو في البخاري (٨) واللفظ له، ومسلم (١٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب «الإيمان»، باب الزكاة من الإسلام (٤٦)، ومسلم، كتاب «الإيمان»، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (١١).

قَالَ : فَمَنْ نَصبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ ؟ قَالَ : «**الله**» قَالَ : فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ ، وَخَلَقَ الأَرْضَ ، وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ ، آلله أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : «**نَعَمْ**» ، قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا ، قَالَ : «**صَدَقَ**» قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ ، آلله أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : «**نَعَمْ**» ، قَالَ وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا ، قَالَ : «**صَدَقَ**» قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ ، آلله أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ : «**نَعَمْ**» ، قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا ، قَالَ : «**صَدَقَ**» ، قَالَ : فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ ، آلله أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ : «**نَعَمْ**» ، قَالَ : وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، قَالَ : «**صَدَقَ**» ، قَالَ : ثُمَّ وَلَّى ، قَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ** »[١] .

فالصلاة هي الركنُ الثاني ، وهي فرضٌ افترضه الله ـ تبارك وتعالى ـ على كلِّ من آمن به ، وآمن برسول الله ﷺ .

ويكفي أن نتدبر حديثَ رسولِ الله ﷺ ، ووددتُ أن لو سمع هذا الحديث كلُّ مسلمٍ ومسلمةٍ على وَجه الأرض ؛ ففي « **صحيح مسلم** » من حديث جابر بن عبد الله ﷺ يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « **إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ** »[٢] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « العلم » باب القراءة والعرض على المحدث (٦٣) ، ومسلم في كتاب « الإيمان » ، باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢) واللفظ له .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب : إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٢) .

وسأعرض الخلاف الوارد في هذه المسألة كما سيأتي ؛ والجمهور على أنه لا يكفر ؛ **قال النووي في « شرحه لمسلم » (٢/ ٧١)** : « وتأولوا قوله ﷺ : « بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة» ، على معنى أنه يستحق بترك الصلاة عقوبة الكافر ، وهي : القتل ، أو أنه محمول على المستحل ، أو على أنه قد يؤول به إلى الكفر أو أن فعله فعل الكفار ، والله أعلم » . انتهى .

وفي « **مسند أحمد** » و « **سنن الترمذي والنسائي** » بسندٍ صحيح من حديث بريدة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ** »[(١)].

مبحثٌ مختصرٌ في حكم تارك الصلاة :

وُيَفرَّقُ في هذا الموضع بين حكم من ترك الصلاة جاحدًا لفرضيتها وحكم من تركها تكاسلاً وتهاونًا على التفصيل التالي :

١ـ **تارك الصلاة جحودًا** : من ترك الصلاة جاحدًا لوجوبها ، أو جحد وجوبها ولم يترك فعلها في الصورة ؛ فهو كافرٌ مرتدٌّ بإجماع المسلمين . ويستتيبه الإمام ؛ فإن تاب وإلا قتله بالردة ، وترتب عليه جميع أحكام المرتدين (فلا يغسل ، ولا يكفن ، ولا يدفن بين المسلمين ، ولا يرثه أحد ، ولا يرث أحدًا[(٢)] ؛ فأما إن كان قريب العهد بالإسلام ، أو نشأ ببادية بعيدة عن المسلمين بحيث يجوز أن يخفى عليه وجوبها ؛ فلا يُكفر بمجرد الجحد ؛ بل نُعرِّفه بوجوبها ؛ فإن جحد بعد ذلك كان مرتدًا !!

٢ـ **تارك الصلاة تكاسلاً وتهاونًا من غير جحدها** : لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من غير عذر شرعي من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس ، وأخذ الأموال ، ومن إثم الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وأنه متعرض لعقوبة الله ، وسخطه ،

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٦، ٣٥٥) ، والترمذيُّ في كتاب الإيمان ، باب ما جاء في ترك الصلاة (٢٦٢١) وقال : « وفي الباب عن أنس وابن عباس ، ثم قال : « هذا حديث حسن صحيح غريب » ، والنسائي ، كتاب « الصلاة » (١/ ٢٣٢، ٤٦٢) ، وفي « الكبرى » (٣٢٩) ،وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة (١٠٧٩) ،وابن معين في « تاريخه » ـ رواية الدوري ـ (١٢٠٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٦) ، وابن حبان (١٤٥٤) ، والدارقطني (٢) ، والحاكم (١١) ، وهو في « صحيح الجامع » برقم (٤١٤٣) .

(٢) انظر : «المغني» لابن قدامة (٣/ ١٨٠ وما بعدها) ط الحديث . باب الحكم فيمن ترك الصلاة .

وخزيه في الدنيا والآخرة !!

ثم اختلف أهل العلم في حكمه على قولين :

الأول : أنه فاسقٌ عاصٍ مرتكبٌ لكبيرة ، وليس بكافر :

وبه قال الأكثرون ، وهو مذهبُ الثوري ، وأبي حنيفة ، وأصحابه ، ومالك ، والشافعي ـ في المشهور عنه ـ وأحمد في إحدى الروايتين ؛ فهو قول أكثر الفقهاء ؛ كما قال ابن قدامة في « المغني » .

الثاني : أنه كافرٌ خارجٌ عن ملة الإسلام :

وهو مذهب سعيد بن جبير ، والشعبي ، والنخعي ، والأوزاعي، وابن المبارك ، وإسحاق ، وأصح الروايتين عن أحمد ، وأحد الوجهين في مذهب الشافعي ، وكثير من علماء أهل الحديث ، وحكاه ابن حزم عن عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة ، وغيرهم من الصحابة ﷺ[1] .

فأنا أقول لأيِّ مسلم يُضَيِّع الصلاة : هل تقبل أن تكون محل خلاف بين أهل العلم ؟! فمنهم من يكفرك ، ومنهم من يُفَسِّقك !! يكفي أن تَذْكُر حديثَ رسولِ الله ﷺ ـ الذي تقدم : « **إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاَةِ** » .

يا أخي : الصلاة صلة ؛ فلا تقطع هذه الصلة ، فأنت في أمسِّ الحاجة الآن في عصر الماديات والشهوات إلى صلةٍ تربطك بربك وخالقك ـ سبحانه وتعالى .

---

(١) راجع في ذلك « حكم تارك الصلاة » للعلامة ابن القيم ، و « فتح الباري » لابن رجب (١/ ١٠) ، و« تعظيم قدر الصلاة » للمروزى (٢/ ٨٧٧) ، باب ذكر إكفار تارك الصلاة ، ورسالة «حكم تارك الصلاة» للألباني ـ رحم الله الجميع .

وتدبَّر حديثَ النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في « **الصَّحِيحَيْنِ** »[١] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟** » قَالُوا : لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ، قَالَ : « **فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو الله بِهَا الْخَطَايَا** ». من مِنَّا لا يحتاج إلى هذا الغسيل اليومي ؟ وإلى هذا الطهر اليومي ؟ وما أكثر الذنوب ، وما أكثر المعاصي ، وما أكثر الشهوات والشبهات ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ نسأل الله العصمة والنجاة من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وفي « صحيح مسلم »[٢] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ** » قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : « **إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ** » .

وفي «صحيح مسلم»[٣] أيضًا من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « **مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ الله ، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً ، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً** » .

وفي « صحيح البخاري »[٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **الْمَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ مَا لَمْ يُحْدِثْ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، وَلاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا دَامَتِ الصَّلاَةُ تَحْبِسُهُ ، لاَ يَمْنَعُهُ أَنْ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « مواقيت الصلاة » ، باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨) ، ومسلم ، كتاب « المساجد ومواضع الصلاة » ، باب المشي إلى الصلاة (٦٦٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « الطهارة » ، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب « المساجد ومواضع الصلاة » ، باب المشي إلى الصلاة (٦٦٦) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الأذان » ، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل الصلاة (٦٥٩) .

يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ الصَّلاَةُ » ؛ بل كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يعتبرون المتخلِّف عن صلاة الجماعة في المساجد من المنافقين ، الذين عُلِم نفاقُهم بوضوحٍ وجلاء ؛ ففي « **صحيح مسلم**» من حديث عَبْدِ الله بنِ مسعود ﷺ قَالَ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى الله غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَي بِهِنَّ ؛ فَإِنَّ الله شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى ، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى ، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ الله لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً ، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً ، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ »[(١)] .

وأُحَذِّر من ترك صلاة الفجر ، والعشاء ، وصلاة العصر على وَجْه الخصوص؛ فإن كثيرًا من الناس قد ينشغلُ عن صلاة الفجر؛ لأنه يغطُّ في سباتٍ عميق ، ولو فتشنا الآن عن المساجد في صلاة الفجر لبكينا دمًا بدل الدمع ؛ لأن المساجد في صلاة الصبح تشكو حالها ، وتشكو المسلمين إلى ربها ـ تبارك وتعالى ـ ثم في صلاة العصر كم من الموظفين يرجع من العمل ، وينام حتى يخرج وقتها ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ وقد ينشغل كثيرٌ من الناس عن صلاة العشاء بالمسلسلات والأفلام والمباريات!! وقد يمنح أحدهم وظيفته ، أو أهله وأولاده الساعات الطويلة ، أو يمنح مخطوبته الأوقات المديدة ! وأنا أقول :

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « المساجد » ، باب صلاة الجماعة (٦٥٤) .

تَـأْتِي لِلصَّـلَاةِ فِي فُتُـورٍ وَكَأَنَّـكَ قَـدْ دُعِيـتَ إِلَى الـبَلَاءِ

وَإِنْ أَدَّيْتَهَـا جَـاءَتْ بِـنَقْصٍ لِمَا قَـدْ كَانَ مِنْكَ مِنْ شِرْكِ الرِّيَـاءِ

وَإِنْ تَخْلُـو عَـنِ الإِشْرَاكِ فِيهَـا تُـدَبِّرُ لِلأُمُـورِ بالارتِقَـاءِ

وَيَـا لَيْـتَ التَّـدَبُّرَ فِي مُبَـاحٍ وَلَكِـنْ فِي المَشَـقَّةِ والشَّـقَاءِ

وَإِنْ كُنْـتَ المُصَـلِّي يَوْمًـا بَـيْنَ خَلْقِـه أَطَلْـتَ رُكُوعَهَـا بِالانْحِنَـاءِ

وَتَعْجَـلُ خَـوفَ تَـأْخِيرٍ لِشُـغْلٍ وَكَـأَنَّ الشُّـغْلَ أَوْلَى مِـنْ لِقَـاهُ

وَإِنْ كُنتَ المُجَالِسَ يومًا لأُنْثَى قَطَعْـتَ الوقْـتَ مِـنْ غَـيْرِ اكْتِفَـاءِ

أَيَـا عبـدُ لا يُسَـاوي اللهُ مَعَـكَ أُنْثَـى تُنَاجِيهـا بِحُـبٍّ أو صَـفَاءِ

ولا حول ولا قوة إلا بالله !! والحديث عن هذا الركن حديثٌ طويلٌ ؛ لأن القلب ـ وربِّ الكعبة ـ يتقطع كمدًا ، وينزف دمًا على واقع كثيرٍ ممن ينتسبون الآن إلى الإسلام ممن ضيعوا الصلاة ، **ولا أتردَّدُ أن أعاتب الأمة في هذا المقام ؛ فأقول** : في الوقت الذي تُشَيِّد فيه الأمةُ الجامعات ، وتشيِّدُ فيه المصانع والعمارات والأسواق التجارية الضخمة .. بكلِّ أسف قد لا يفكر مُصَمِّمُو البناء والقائمون على تشييده أن يضعوا بيتًا لله ــ تبارك وتعالى ــ في مقدمة هذا الصرح الجامعي ، أو أن يضعوا وقتًا للصلاة مع جدول الدراسة السنوي ؛ ليخرج الطالب والطالبة للصلاة مع أساتذتهم إذا سمعوا المؤذن يؤذن ؛ ليخرج الجميع ممتثلين أمر الله ، وأمر رسولِ الله ﷺ ، وليسجدوا وليركعوا لله ــ تبارك وتعالى ـ ليكونوا من المفلحين في الدنيا والآخرة ؛ **فأنا أقرر وأسجِّل بكلِّ أسفٍ** ؛ أن المناهج العلمية الحديثة ربما تعلِّم أبناءنا ، وربما ترفع مستوياتهم العلمية في مجالات شتَّى في الطب ، والهندسة ؛ في الذرة ، والكيمياء ؛ في العلوم ،

والجيولوجيا ؛ لكنها بكلِّ أسفٍ لا تُحْسِنُ أن تعلِّم عيونهم الدموع ، ولا قلوبهم الخشوع ؛ فلابد من المحافظة على فريضة الصلاة ، ولابد من المحافظة على أوقات الصلاة ، فالصلاةُ هي الركنُ العمليُّ الأول من أركان الإسلام بعد النطق بالشهادتين ؛ فبمجرد أن تردد بلسانك الشهادتين ، عليك بعد ذلك مع أول وقت من أوقات الصلاة ، أن تترجم ترجمة عملية إسلامك ، واستسلامك ، وانقيادك ، وإذعانك لله ، وامتثالك لأمره ، واجتنابك لنهيه ، ووقوفك عند حدِّه ، حين تسمع النداء : حيَّ على الصلاة ، تقول بلسان الحال : « سمعنا وأطعنا » ؛ حتى ولو كنت رجلاً أعمى ، فاقِدَ البصرِ لا تجدُ من يقودك ؛ فإنْ سمعْتَ المؤذن وأنت على هذه الحال وجب عليك أن تُلَبِّي أمر الله ، وداعي الله ، وفي بيت الله ـ تبارك وتعالى ـ كما سبق في حديث ابن أم مكتوم الثابت في « **صحيح مسلم** » وغيره وقد سبق .

واللهُ سبحانه لم يرخِّص للمجاهدين في أرض المعركة ، أن يسقطوا الصلاة ؛ بل أمرهم وشرع لهم صلاة الخوف ، حتى لو كانوا في الميدان ، وعند التقاء الصفوف ! أفيشرع الله للمجاهدين وبارقة السيوف على رؤوسهم ؟! ـ وما أعظمها من فتنة ـ لم يرخِّص الله لهم أن يسقطوا مِنْ على عاتقهم الصلاة ، أو أن يؤخِّروها ؛ أفبعد ذلك يرخص الله لمن جلسوا أمام المباريات ، والمسلسلات ، والأفلام ، أَوْ لامرأةٍ انشغلَتْ بإعدادِ الطعام لزوجها ، أَوْ لأولادها حتى يخرج وقت الصلاة؟! لا والله؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء:١٠٣] ، قال البخاريُّ : « أي : موقتًا ، وقَّتَهُ عليهم » (١).

وأعيذُ نفسي وإخواني وأخواتي جميعًا من قولِ ربِّي ـ تبارك وتعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ

---

(١) « صحيح البخاري » ، كتاب « مواقيت الصلاة » ، باب مواقيت الصلاة وفضلها (باب ١) .

بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩] ، والغيُّ ؛ كما رواه البخاري في «التاريخ الكبير» تعليقًا[(١)] من حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : «الغي نهر في جهنم» ، وقال الله عز وجل : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون:٤، ٥] .

ومن رحْمَةِ الله تبارك وتعالى أنه قال : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : الذين هم في صلاتهم ساهون ! وإلا لهلكنا جميعًا ؛ فعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : قلْتُ لأبي ، أرأيت قول الله عز وجل : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أهي تَرْكُها؟ قال : لا ، ولكِنْ تأخيرها عن وقتها .

وفي رواية : قلْتُ لسعدٍ : أهو ما يحدِّث به أحدُنا نفسَه في صلاته ؟ قال : لا ، ولكنَّ السَّهو أن يؤخرها عن وقتها[(٢)] .

نعم .. الويل للذين يؤخرون الصلاة المكتوبة ، حتى تخرج عن وقتها !! أعاذنا الله وإياكم من الشرور كلِّها ، وأعاننا جميعًا لما فيه رضاه .

فالصلاة ـ أيها الأحبة ـ هي الركنُ العمليُّ الأول من أركان الإسلام بعد النطق بالشهادتين .

*****

---

(١) أخرجه البخاريُّ في « التاريخ الكبير » (٢٩٣٠معلقًا).
وجاء ذلك عن ابن مسعود عند الطبري (١٨/ ٢١٨) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ٢٢٧) ، والحاكم (٢/ ٤٦) بسندٍ منقطع .

(٢) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » (٣٧٩١٦، ٣٧٩١٧) عن سعدٍ موقوفًا .ورواه الطبري (٣٧٩٣٣) ، والبزار في « مسنده » (١١٤٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧) عن سعدٍ مرفوعًا . وقد ضعَّف البيهقي وأبو زرعة والحاكم رفعه ، وقالوا : «الصحيح الوقف» ؛ كما في «علل الحديث» (١/ ٥٣٩) ، و«تفسير ابن كثير » (الماعون:٤، ٥) .

٣ـ الزَّكَاةُ

تعريفُ الزكاةِ لغةً: قال ابنُ قدامة في «المغني»[(١)] : «قال ابن قتيبة : الزكاة من الزكاء والنماء والزيادة ، سميت بذلك ؛ لأنها تثمر المال وتنميه ، يقال: زكا الزرع إذا كثر ريعه ،وزكت النفقة إذا بورك فيها .

وهي في الشريعة : حقٌّ يجب في المال ، فعند إطلاق لفظها في الشرع تنصرف إلى ذلك ، والزكاة أحد أركان الإسلام » ا.هـ ؛ وقد قال تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣] ، وقال : ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٤١] .

ومن هنا أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ من أموال الأغنياء حقًّا للفقراء ؛ فقال : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] ، وقد ذكرتُ من قبل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴾ [المعارج:١٩ـ ٢٤] . والحقُّ المعلومُ هو : الزكاة المفروضة . والمعنى ؛ كما قال ابن جرير الطبريُّ في « تفسيره »[(٢)] : «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : يا محمد خُذْ من أموال هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم فتابوا منها صدقةً تطهرهم من دنس ذنوبهم ﴿ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ يقول : « وتنميهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها إلى منازل الإخلاص » .

فالله سبحانه يأمر نبيه ﷺ بأن يأخذ من أموالهم أي : من أموال الأغنياء ، صدقةً معلومةً مفروضة ، وأن يردَّ هذه الصدقة على فقرائهم ، ولاحِظُوا أن الزكاة ليست طهرًا ، أو تزكيةً لنفس الفقير من الحقد على الأغنياء فحسب ؛

---

(١) « المغني » (٣/ ٣٣٥) ط دار الحديث .

(٢) « تفسير الطبري» (لسورة التوبة:١٠٣) .

بل هي تطهيرٌ لنفس الغنيِّ قبل أن تكون تطهيرًا لنفس الفقير : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] ؛ فالزكاة تطهِّر الأغنياء ، والفقراء على السواء ، تطهر وتزكِّي قلوب ونفوس الأغنياء من الشحِّ ، والبخل ، والإمساك ، والحرص ، والطمع ، وعبادة المال ، وتطهر وتزكِّي بها نفوس الفقراء من الحقد ، والحسد ، والضغينة ؛ فلا شك أن الفقير الذي لا يجد لقمة الخبز ، حين يرى الغنيَّ كلَّ يوم يُلْقي في سلَّة القاذورات ، والمهملات ! كميات كبيرة من الطعام ، ليس من الخبز فقط ؛ بل ومن اللحم ، والأرز ، لاشك أن قلبه ستغلي فيه مراجل الغل ، والحقد ، والحسد ؛ فهذا تشريع الحكيم الخبير ـ تبارك وتعالى ـ حين يأمر الغني أن يخرج من ماله جزءًا مفروضًا عليه ، يريد الله بذلك أن يطهر ،وأن يزكي قَلْب ونفس الغني ، وكذلك يطهر ، ويزكي بها قلب ونفس الفقير ؛ ولقد أخبر الله تعالى أن المال فتنة !! فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾[التغابن:١٥] .

ومن جميل ما قرأتُ ؛ **ما رواه الإمام أحمد في « مسنده » والترمذي في** «سننه» من حديث أبي كَبْشَةَ الأَنْمَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **ثَلاَثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ** » قَالَ : « **مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ الله عِزًّا ، وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ**» قَالَ : « **إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا ؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً ؛ فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ؛ فَهُوَ نِيَّتُهُ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقًّا ؛ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ،**

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا ؛ فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ؛ فَهُوَ نِيَّتُهُ ؛ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ » [١] . ؛ فالمال ظلٌّ زائلٌ ، وعاريةٌ مسترجعةٌ .

فجعل الله ـ تبارك وتعالى ـ في مال الغني حقًّا للفقير ، وفي« **الصَّحِيحَيْنِ** » [٢] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ مُعَاذًا قَالَ : بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْيَمَنِ ، قَالَ : « **إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ؛ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ** » .

إذًا ؛ الزكَاةُ ركنٌ ثالثٌ من أركان الدين ، وهي واجبة بالكتاب والسنة والإجماع [٣]، وتارك الزكاة بُخْلاً وشحًّا وجهلاً أو متأولاً ؛ فهو عاصٍ آثم ، وعلى وليِّ الأمر أن يأخذها منه قهرًا وقسرًا ، وأن يقاتله على ذلك ؛ كما قاتل الصديق رضي الله عنه المرتدين ومانعي الزكاة ، وقال قولته الخالدة [٤]: « والله لأقاتلن من فرَّقَ بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالاً [٥] ـ وهو الحبل الذي يربط به عنق البعير ـ كانوا يؤدونه لرسول الله [٦] لقاتلتهم

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) والترمذيُّ ، كتاب « الزهد » ، باب ما جاء مثل أربعة نفر (٢٣٢٥) ، وابن ماجه ، كتاب « الزهد » ، باب النية (٤٢٢٨) ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسنٌ صحيح » ، وهو في « صحيح الجامع » برقم (٣٠٢٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الزكاة » ، باب وجوب الزكاة (١٣٩٥) ، ومسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩) .

(٣) « المغني » (٣/ ٣٣٥) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الزكاة » ، باب وجوب الزكاة (١٣٩٩، ١٤٠٠) ، ومسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة (٢٠) واللفظ لمسلم .

(٥) وفي رواية : « عناقًا » .

(٦) قال أبو عبيد : « صدقة العام » ، (« المغني » ٣/ ٣٣٦) .

على منعه » أي : بالسيوف . فلا فرق بين الزكاة والصلاة ، وقد ذكرتُ ـ قبل ذلك ـ أن الله قرن الزكاة مع الصلاة في اثنتين وثمانين آية من كتاب الله ـ تعالى .

فالزكاة ركنٌ من أركان الدين ، لا يصحُّ الدين إلا بها ؛ فمن أنكر وجوبها ، وأنكر فرضيتها ؛ فقد كفر بإجماع المسلمين ، وهو مرتدٌّ ، ولا خلاف بين العلماء في ذلك ؛ لأنه مكذِّبٌ لله ورسوله ولإجماع المسلمين [(١)].

ولقد عظم الله الوعيد على الشح في إخراجها ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وفي « صحيح البخاري » [(٢)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَنْ آتَاهُ الله مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ـ يَعْنِي شِدْقَيْهِ ـ ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ** » ثُمَّ تَلاَ : ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] .

*****

---

(١) أما من أنكر وجوبها جهلاً بها ، إما لحداثة عهده بالإسلام ، أو لأنه نشأ ببادية نائية عن الأمصار عرف وجوبها ولا يحكم بكفره ، لأنه معذور ، بخلاف من كان مسلمًا ناشئًا ببلاد الإسلام بين أهل العلم ، فهو مرتد ـ كما سبق ـ تجري عليه أحكام المرتدين (« المغني » ٣/ ٣٣٦، ٣٣٧) ، و « الشرح الممتع » (٢/ ٥٥٠كتاب الزكاة) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الزكاة » ، باب إثم الزكاة (١٤٠٣).

مصارف الزكاة

لقد بيَّن ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ مَصَارِف الزَّكاة في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة:٦٠] .

أما نسبتها : فمن المعلوم أنها اثنان ونصف في المائة ، يعني : يجب عليك ـ أيها المسلم ـ إن بلغ المال معك النصاب ، وهو ما يساوي قيمة « ستة وثمانين جرامًا من الذهب » على الراجح من قول جماهير أهل العلم ، وحال عليه حولٌ هجريٌّ كامل ، وجب عليك أن تخرج الزكاة في هذا المال .

ولتفصيل الحديث عن زكاة الزرع وزكاة الثمار وغيرها من أنواع وأصناف الزكوات مواضع أخر في كتب الفقه فليرجع إليها .

وأسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفقنا جميعًا لأداء هذا الحق ؛ إذ إنني أدين لله لو أخرج كلُّ غنيٍّ من الأمة الحق الذي عليه ؛ ما وجدنا فقيرًا واحدًا بين أظهر المسلمين ، أما وقد انتشر الفقر بهذه الصورة ؛ فإن شحًّا ، وبخلاً ، وجشعًا ، وطمعًا قد وقع فيه كثيرٌ من أصحاب الأموال ؛ نسأل الله أن يطهرنا جميعًا .

وأذكِّر نفسي وإخواني بهذه الكلمات ؛ **فأقول** :

دَعِ الحِرصَ عَلَى الدُّنْيَا ... وَفِي العَيْشِ فَلاَ تَطْمَعْ
وَلاَ تَجْمَعْ مِنَ المَالِ ... فَمَا تَدرِي لِمَنْ تَجْمَعْ
فَإِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ ... وَسُوءُ الظَّنِّ لاَ يَنْفَعْ
فَقِيرٌ كُلُّ مَنْ يَطْمَع ... غَنِيٌّ كُلُّ مَنْ يَقْنَعْ[1]

*****

(١) انظر: كتاب «عقلاء المجانين» لابن حبيب (٢٧) .

النَّفَسُ تَجْـزَعُ أَنْ تكـونَ فَقِـيرةً وَالفَقْـرُ خَـيْرٌ مِـنْ غِنًـى يُطْغِيهَـا
وَغِنَـي النُّفـوسِ هُـو الكفَـافُ فـإِنْ أَبَـتْ فَجَمِيـعُ مَـنْ فِي الأَرْضِ لاَ يَكْفِيهَـا

*****

هِـي القَنَاعَـةُ فالزَمْهَـا تَعِشْ مَلِكًـا لَـو لَمْ يَكُـنْ مِنْهَـا إِلاَ راحَـةُ البَّـدَنِ
وَانْظُـر لِمَـنْ مَلَـكَ الـدُّنْيا بِأَجْمَعِهَـا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيرِ القُطْن والكَفَنِ [(١)]

فوائد الزكاة الفردية والاجتماعية وحِكَمها ما يلي [(٢)]:

أولًا : إتمام إسلام العبد وإكماله ؛ لأنها أحد أركان الإسلام ، فإذا قام بها الإنسان تم إسلامه وكمل ، وهذا لا شك أنه غاية عظيمة لكلِّ مسلم ؛ فكلُّ مسلم مؤمن يسعى لإكمال دينه .

ثانيًا : أنها دليلٌ على صدق إيمان المزكي ، وذلك أن المال محبوب للنفوس ، والمحبوب لا يبذل إلا ابتغاء محبوب مثله أو أكثر ؛ بل ابتغاء محبوب أكثر منه ، ولهذا سمِّيت صدقة ؛ لأنها تدلُّ على صدق طلب صاحبها لرضى الله ﷻ.

ثالثًا : أنها تزكِّي أخلاق المزكي ، فتنشله من زمرة البخلاء ، وتدخله في زمرة الكرماء ؛ لأنه إذا عود نفسه على البذل ، سواء بذل علم ، أو بذل مال ، أو بذل جاه ، وصار ذلك البذل سجية له وطبيعة، حتى إنه يتكدر إذا لم يكن ذلك اليوم قد بذل ما اعتاده ،كصاحب الصيد الذي اعتاد الصيد تجده إذا كان ذلك اليوم متأخرًا عن الصيد يضيق صدره ، وكذلك الذي عود نفسه على الكرم يضيق صدره ، إذا فات يومٌ من الأيام لم يبذل فيه ماله أو جاهه أو منفعته .

رابعًا : أنها تشرح الصدر ؛ فالإنسان إذا بذل الشيء ، ولا سيما المال يجد في

---

(١)«غرر الخصائص الواضحة» (١٦١) نسبه لإبراهيم بن حفصة قال ذلك لابنه . وانظر: «التذكرة» للقرطبي (٨) ، و«المستطرف» (١٦٠) .

(٢)« الشرح الممتع » (٣/ ٥٤٧_٥٤٩) .

نفسه انشراحًا ، وهذا شيء مجرَّب ، ولكن بشرط أن يكون بذله بسخاء وطيب نفس ، لا أن يكون بذله وقلبه تابعًا له ، وقد ذكر ابن القيم في « زاد المعاد » أن البذل والكرم من أسباب انشراح الصدر ، لكن لا يستفيد منه إلا الذي يعطي بسخاء وطيب نفس ، ويخرج المال من قلبه قبل أن يخرجه من يده ، أما من أخرج المال من يده ، لكنه في قرارة قلبه فلن ينتفع بهذا البذل .

خامسًا : أنها تلحق الإنسان بالمؤمن الكامل ؛ فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فكما أنك تحب أن يبذل لك المال الذي تسدُّ به حاجتك ، فأنت تحب أن تعطيه أخاك ، فتكون بذلك كامل الإيمان .

سادسًا : أنها من أسباب دخول الجنة ؛ فإن الجنة ، لمن أطاب الكلام ، وأفشى السلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام ، وكلُّنا يسعى إلى دخول الجنة .

سابعًا : أنها تجعل المجتمع الإسلامي كأنه أسرة واحدة ، يضفي فيه القادر على العاجز ، والغنيُّ على المعسر ؛ فيصبح الإنسان يشعر بأن له إخوانًا يجب عليه أن يحسن إليهم كما أحسن الله إليه ؛ قال تعالى :﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص:٧٧] ، فتصبح الأمة الإسلامية وكأنها عائلة واحدة ، وهذا ما يعرف عند المتأخرين بالتكافل الاجتماعي ، والزكاة هي خير ما يكون لذلك ؛ لأن الإنسان يؤدي بها فريضة ، وينفع إخوانه .

ثامنًا : أنها تطفئ حرارة ثورة الفقراء ؛ لأن الفقير قد يغيظه أن يجد هذا الرجل يركب ما شاء من المراكب ، ويسكن ما يشاء من القصور ، ويأكل ما يشتهي من الطعام ، وهو لا يركب إلا رجليه ، ولا ينام إلا على الأسبال ، وما أشبه ذلك ، لا شك أنه يجد في نفسه شيئًا . فإذا جاد الأغنياء على الفقراء

كسروا ثورتهم وهدؤا غضبهم ، وقالوا: لنا إخوان يعرفوننا في الشدة فيألفون الأغنياء ويحبونهم .

تاسعًا : أنها تمنع الجرائم المالية مثل السرقات والنهب والسطو ، وما أشبه ذلك ؛ لأن الفقراء يأتيهم ما يسد شيئًا من حاجتهم ، ويعذرون الأغنياء بكونهم يعطونهم من مالهم ، يعطون ربع العشر من الذهب والفضة والعروض ، والعشر أو نصفه في الحبوب والثمار ، وفي المواشي يعطونهم نسبة كبيرة ، فيرون أنهم محسنون إليهم فلا يعتدون عليهم .

عاشرًا : النجاة من حرِّ يوم القيامة ؛ فقد قال النبيُّ ﷺ : « **كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** »[(١)] .

وَقَالَ فِي الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: « **وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ** »[(٢)] .

الحادي عشر : أنها تلجئ الإنسان إلى معرفة حدود الله وشرائعه ؛ لأنه لن يؤدي زكاته إلا بعد أن يعرف أحكامها وأموالها وأنصابها ومستحقها ، وغير ذلك مما تدعو الحاجة إليه .

الثاني عشر : أنها تزكي المال يعني تنمي المال حسًّا ومعنًى ؛ فإذا تصدَّق الإنسان من ماله فإن ذلك يقيه الآفات ، وربما يفتح الله له زيادة رزق بسبب هذه الصدقة ؛ ولهذا جاء في الحديث : « **مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ** »[(٣)]، وهذا شيءٌ مشاهدٌ أن الإنسان البخيل ربما يُسلَّط على ماله ما يقضي عليه أو على

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٧) ، وابن خزيمة (٢٤٣١) ، وهو في « صحيح الجامع » (٤٥١٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الأذان » ، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦٦٠) ، ومسلم ، كتاب « الزكاة » ، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب « البر والصلة » ، باب استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨) .

أكثره باحتراق ، أو خسائر كثيرة ، أو أمراض تلجئه إلى العلاجات التي تستنزف منه أموالاً كثيرة .

الثالث عشر : أنها سبب لنزول الخيرات ، وفي الحديث : « **مَا مَنْعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ** »(١).

الرابع عشر : « **إِنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ** »(٢) كما ثبت ذلك عن الرسول ﷺ .

الخامس عشر : أنها تدفع ميتة السوء .

السادس عشر : أنها تتعالج مع البلاء الذي ينزل من السماء ، فتمنع وصوله إلى الأرض .

السابع عشر : أنها تكفر الخطايا ؛ قال الرسول ﷺ : « **الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ** »(٣). اهـ .

*****

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب « الفتن » ، باب العقوبات (٤٠١٩) ،وهو في « الصحيحة » (١٠٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٨٠١٤) عن أبي أمامة ،ورواه في « الأوسط » (٣٤٥٠) ، عن معاوية ابن حيدة ، وله طرق أخرى ، صحَّحه بها الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٩٠٨) ، و «صحيح الجامع » (٤٠٥٢) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب « أبواب الصلاة » ، باب ما ذكر في فضل الصلاة (٦١٤) ، ورواه أيضًا ، كتاب « الإيمان » ، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) ، وابن ماجه ، كتاب « الفتن » باب في كف اللسان في الفتنة (٢٩٧٣) ، وأحمد (٥/ ٢٣١) ، وصححه الألباني في « الإرواء » (٢/ ١٣٨) .

٤ـ الصِّيَامُ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« وَدَلِيلُ الصِّيَامِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣] » .

الشرح

تعريفُ الصيام لغةً: قال ابنُ قدامة في « المغني » (١):

« الصِّيامُ في اللغة: الإمساك ؛ يُقَالُ : صام النهار إذا وقف سير الشمس ؛ قال الله تعالى إخبارًا عن مريم : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾ [مريم:٢٦] ، أي: صمتًا ؛ لأنه إمساك عن الكلام ، وقال الشاعر :

خَيْلٌ صيامٌ وخَيْل غيرُ صائمةٍ تَحْت العجاج وأُخرى تعلك اللجما

يعني بالصائمة: الممسكة عن الصهيل .

والصَّوْمُ في الشَّرْعِ : عبارةٌ عن الإمساك عن أشياء مخصوصة في وقتٍ مخصوصٍ ، يأتي بيانه إن شاء الله تعالى ، وصَوْم رمضان واجب ، والأَصْل في وجوبه : الكتاب والسنة والإجماع » انتهى .

فالركنُ الرابع من أركان الإسلام ، هو الصيام ؛ قال الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣] ، أي : فُرض عليكم الصيام ، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ

---

(١) « المغني » (٤/ ١١٥) .

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وهذه اللام: لام الأمر، والإيجاب، والإلزام؛ فشَهْرُ رمضان فَرَضَ الله - تبارك وتعالى - صيامه على كلِّ مؤمن ومؤمنة، حرٍّ، بالغٍ، عاقلٍ، صحيح، مقيم، على تفصيلٍ معلومٍ للجميع؛ فصيامُ رمضان ركنٌ من أركان الإسلام، وقد ذكرنا - مرارًا - حديث ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ** »[1].

والحديث عن فضل الصيام حديثٌ طويلٌ، يكفي أن نذكِّر بأن الغاية من الصيام هي تحقيق التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقد ذكرتُ - قبل ذلك - أن مادة التقوى مأخوذة من وقى، والوقاية: هي حفظُ الشيءِ مما يؤذيه ويضره، وأصْلُ التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه؛ فتقوى العبد للرَّبِّ - تبارك وتعالى - أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وعذابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته، واجتناب معاصيه[2]؛ هذه الوقاية هي: فعل الطاعات، واجتناب المعاصي.

إذًا العلة والغاية التي من أجلها فرض الله الصوم على المؤمنين الموحدين هي: أن يحققوا التقوى، والتقوى وصية الله للأولين، والآخرين من خلقه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، ووصى بها رسولُ الله ﷺ الأمة جميعًا؛ كما في حديث الْعِرْبَاضِ ابْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً

---

(١) تقدم؛ وهو في « الصحيحين ».

(٢) « جامع العلوم والحكم » (٣٩٨).

بَلِيغَةً ؛ ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ؛ فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ** »[(١)] ، وأوصى بها أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه ؛ فقال في خطبته : « أما بعد ؛ فإني أوصيكم بتقوى الله ، وأن تُثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهلِ بيته ؛ فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠] »[(٢)] .

ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر ، دعاه ، فوصَّاه بوصيةٍ ، وأول ما قال له : «اتق الله يا عمر»[(٣)] . وأوصى بها عمر بن الخطاب ولده عبد الله رضي الله عنهما ؛ فقال : « أما بعد ؛ فإني أوصيك بتقوى الله ، فإن من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، فاجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك »[(٤)] . وأوصى بها عمر بن عبد العزيز أحد إخوانه ؛ فقال[(٥)] : « أوصيك بتقوى الله التي لا يَقبلُ غيرَها ، ولا يَرحم إلا أهلَها ، ولا يُثيب إلا عليها ؛ فإن الواعظين بها كثير ، وإن

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧) ، والترمذيُّ ، كتاب « العلم » ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٢٦٧٦) ، وقال : « هذا حديث حسنٌ صحيح » ، وأبو داود ، كتاب « السنة » ، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) ، وابن ماجة في « المقدمة » باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢/ ٤٤) ، وهو في « صحيح الجامع » ، برقم (٢٥٤٩) ، و« الإرواء »(٢٤٥٥) . وقال أبو نعيم : «هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين » ، انظر : « جامع العلوم والحكم» (ص١٠٩ ط الرسالة) .

(٢) عند الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٨٣) ، وهو في ابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/ ٩١) ط الرشد ، و« الشعب » للبيهقي (٧/ ٣٦٣) .

(٣) أخرجه ابن المبارك ، وابن أبي شيبة وهناد ؛ كما في « الكنز » (١٢/ ٥٣٤) ، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٦) و « معرفة الصحابة » (١/ ١٢٩) وابن عساكر (٣٠/ ٤١٤) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « التقوى » كما في « الدر المنثور» (١/ ٥٣٣) ،وانظر : « الكنز » (١٦/ ١٨٣) .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا ـ كما في « الدر المنثور» (٣/ ٥٦) ،والذهبي في « التذكرة » (٤/ ١٤٠١) ، و«تاريخ الإسلام » (٩/ ٤٥١) ـ وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٥٧) ، وابن عساكر (٤٥/ ٢٠٣) .

العاملين بها قليل ، جعلنا الله وإياك من المتقين » .

وأوصى بها ابن السماك أحد إخوانه ؛ فقال : « أما بعد ؛ أوصيك بتقوى الله ، الذي هو نجيُّك في سريرتك ، ورقيبك في علانيتك ، فاجعل الله من بالك ، على كل حالك ، في ليلك ونهارك ، وخفِ الله بقدر قُربه منك ، وقدرته عليك ، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ، ولا من ملكه إلى ملك غيره ، فليعظم منه حَذَرُك ، وليكثر منه وَجَلُك ، والسلام »[(١)] .

والحديث عن التقوى حديثٌ طويلٌ جليلٌ جميلٌ .

إذًا ؛ الغايةُ من الصوم التقوى ؛ فما فرض الله الصوم علينا لنجوع ، أو لنعطش ، أو ليترك أحدنا امرأته بين يديه في الحلال الطيب !! وإنما لنخرج من هذه المدرسة الرمضانية الكبرى بتقوى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وذكرتُ قبل ذلك أن التقوى هي غاية العبادة ؛كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١] . فإذا كانت الغاية من خلق الخلق: العبادة ؛ فإن الغاية من العبادة هي التقوى : وقد بين الله أن غاية الخلق العبادة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

فالغاية من الصيام هي التقوى ؛ كما في « **الصَّحِيحَيْنِ** » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **قَالَ الله : كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله** (*) **مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، لِلصَّائِمِ**

---

(١) راجع هذه الآثار وغيرها عند ابن رجب الحنبلي رحمه الله في « جامع العلوم » (الحديث الثامن عشر) .
وأثر ابن السماك عند أبي نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠٦) .

(*) في رواية : « عند الله يوم القيامة » .

فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا : إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » [(١)] .

وأختم بهذا الحديث في «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » [(٢)] .

ويا له من فضل !! ووردت زيادة : (وما تأخر) ولكنها ليست في لفظ «الصَّحِيحَيْنِ» ، وهي زيادة حسَّنها بعض أهل العلم [(٣)] .

والحديث عن الصوم ؛ فضله ، وأحكامه ، وآدابه طويل ، ليس هذا محلُّ بسطه . نسأل الله أن يرزقنا صيام رمضان أعوامًا عديدة ، وأزمنةً مديدة ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الصوم» ، باب هل يقول الصائم إني صائم إذا شُتم (١٩٠٤) ، ومسلم ، كتاب « الصيام » ، باب فضل الصيام (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الإيمان » ، باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان (٣٨) ، ومسلم ،كتاب « صلاة المسافرين » ، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠) .

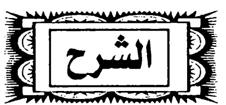
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٥) ،وابن عساكر (٢/ ٢٤٤) ـ معجمه ـ بزيادة (وما تأخر) من طريق: حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا . وتوبع محمد بن عمرو من يحيى بن أبي كثير عند الطيالسي في « مسنده » (٢٣٦٠) ، ومن الزهري كما عند ابن المقرئ في « معجمه » (٦٠٦) ، والنسائي في « الكبرى » (٣٤٠٥) . قال ابن مفلح في « الفروع » (٤/ ٤١٦) : « وحماد له أوهام ، ومحمد تكلم فيه » وقال الأرناؤوط : « زيادة « وما تأخر » شاذة تفرَّد بها حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو » (تعليقه على « المسند ») .

قلتُ : وقد رواه سبعة من الرواة ويزيد كلُّهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ « الصحيحين » دون هذه الزيادة ، ورواه سبعة آخرون وأكثر عن مالك عن الزهري عن حميد عن أبي هريرة مرفوعًا . راجع في إيراد هذه الروايات « المسند الجامع »، ولكن رواية الزهري ويحيى ابن أبي كثير التي وافقت رواية محمد بن عمرو بالزيادة قد روياه في أغلب الروايات بدونها مما يدل على أنها غير محفوظة عنهما ، وقد تابعهما على عدم ذكرها يحيى بن سعيد الأنصاري عند أحمد (٢/ ٢٣٢) وغيره ، كلُّ هذا مما حدا بالحافظ ابن عبد البر أن يستنكر هذه الزيادة في بحثٍ موسع له في « التمهيد » (٧/ ١٠٥) لكن الحافظ ابن حجر رأى خلاف ذلك ، وأن سند أحمد يُحسَّن بماله من متابعات ! ولكن هذه المتابعات هي على النحو الذي ذكرناه من أن المشهور عن الزهري بدونها ـ كما ذكر ذلك الحافظ نفسه ـ في « الفتح » (٤/ ١٣٨، ١٣٩) ، وله وجه آخر ضعيف عند الخطيب في « تاريخه » (٦/ ١٨١) ، وانظر: « ضعيف الجامع » (٦٣٢٥) .

٥ـ الحَجُ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

«**وَدَلِيلُ الحَجِّ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى** : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧] ».



تعريفُ الحجِّ لغةً: قال ابن قدامة في « المغني » [١] :

« **الحجُّ في اللُّغةِ** : القصد ، وعن الخليل قال : الحج كثرة القصد إلى من تعظمه .

وفي الحج لغتان : الحَج ، والحِج بفتح الحاء وكسرها .

والحجُّ في الشرع : اسمٌ لأفعالٍ مخصوصةٍ (بقَصْدِ البيت الحرام لأداء شعائر مخصوصة في وقت مخصوص) وهو أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام .

والأَصْل في وجوبه : الكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب : فقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧] . وقال تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦] .

وأما السنة : فقول النبيِّ ﷺ : «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ** ـ وذكر فيها : **الْحَجّ** » [٢] .

---

(١) « المغني » (٤/ ٢٩٨، ٢٩٩) .

(٢) تقدم .

وروى مسلمٌ [١] بإسناده عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: « **أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا** » فَقَالَ رَجُلٌ : أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله ؟ فَسَكَتَ ، حَتَّى قَالَهَا ثَلاثًا ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ** ـ ثُمَّ قَالَ : **ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ** ». وأجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع في العمر مرة واحدةً » . انتهى .

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى وجوب الحج على الفور على المستطيع ؛ خلافًا للشافعي وغيره [٢] .

واحتجوا بما في « **مسند أحمد** » وغيره ـ بسندٍ حسن ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه ﷺ قال : « **تَعْجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ** ـ يَعْنِي الْفَرِيضَةَ ـ **فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لاَ يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ** » [٣] ـ وتقدم آنفًا حديث النبيِّ ﷺ : « **أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا** » فمَنْ مَنَّ الله عليه بالاستطاعة ، بالزاد والراحلة ـ يعني : بتكاليف السفر للحج ـ فلا ينبغي أن يتأخر ، ولا يجوز له أن يتوانى ؛ لأن الحجَّ ركنٌ من أركان الإسلام للمستطيع القادر ، ومن شروط وحدود الاستطاعة بالنسبة للمرأة المسلمة ؛ أن يخرج معها محرم من محارمها [٤] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الحج » ، باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) وهو في البخاري (٧٢٨٨) مختصرًا .

(٢) «المغني» (٤/ ٣٤٠ـ مسألة ٥٤١) لابن قدامة ، و «المجموع» (٧/ ١٠٣) للنووي ، و «بداية المجتهد» (١/ ٣٤٧، ٤٣٨) .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤، ٣١٣، ٣٥٥) ، ورواه أيضًا (١/ ٢٢٥)، وأبو داود ، كتاب المناسك ، باب من أراد الحج فليتعجل (١٧٣٢) ، وابن ماجه ،كتاب المناسك ، باب الخروج إلى الحج (٢٨٨٣) بلفظ : «من أراد الحج فليتعجل ؛ فإنه قد يمرض المريض ،وتضلُّ الضالة ، وتعرض الحاجة» ، وهو في « صحيح الجامع » برقم (٢٩٥٧) ، (٦٠٠٣) ، (٦٠٠٤) ، و « صحيح أبي داود » (١٥٢٤) .

(٤) وهذا رأي الحنابلة والحنفية خلافًا للشافعي ومالك إذا كانت هناك رفقة مأمونة تسافر المرأة معهم =

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» [1] من حديث ابن عباس قال : سَمِعْتُ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ : «**لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحْرَم ، وَلاَ تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ** »، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً ، وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ لَهُ رَسُولَ الله ﷺ : « **انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ** ».

وبعض أهل العلم كما تقدم عن الشافعي وغيره قال : بأنه قد يجوز الحج على التراخي ؛ لأن النبيَّ ﷺ قد أجَّل الحج بعد فتح مكة ، لكن أقول : الأصل في الأمر النبوي أن يكون على الفور ؛ لقوله : «**فَحُجُّوا** » و« **فَلْيَتَعَجَّل** » فإذا لم يكن المسلم قد أدى هذه الفريضة ، وهذا الركن العظيم ، وقد رزقه الله ﷻ الاستطاعة ؛ فواجب عليه أن يُعَجِّل قبل أن ينزل به مرض ، أو قبل أن يضيع مال ، أو قبل أن ينشغل بشاغل ؛ أسألُ الله أن يشغلنا جميعًا بطاعته ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

= راجع « الأم » للشافعي (٢/ ٢٩١ط الوفاء) (باب حج المرأة والعبد) ، و « المجموع (٧/ ٨٧) ، و« بداية المجتهد » (١/ ٤٣٨).

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الجهاد والسير ، باب من اكتتب في جيش فخرجت امرأته حاجَّة أو كان له عذر هل يؤذن له (٣٠٠٦) ، ومسلم كتاب « الحج » ، باب سفر المرأة مع محرم إلى الحج وغيره (١٣٤١ واللفظ له).

المتابعة بين الحج والعمرة

وليس في جواب النبيِّ ﷺ في الحديث المتقدم حين سأله السائل عن الحج فقال له: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ» فليس فيه ما يفيد أن الحج مرة واحدة في العمر، وإنما هذا التقييد يكون صحيحًا، بالنسبة لحجة الإسلام، التي هي الركن الخامس من أركان الإسلام، وإلا فالنبيُّ ﷺ أمر بالمتابعة بين الحج والعمرة؛ كما رواه **الترمذيُّ وغيره** عن ابن مسعود رضي الله عنه، **ورواه النسائي وغيره** عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**»[(١)]. بل إن الرواية الأخرى التي **رواها الطبراني في «الأوسط» بسندٍ صحيح بشواهده** عن ابن عباس وجابر ابن عبد الله رضي الله عنهم مرفوعًا: «**أَدِيمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**»[(٢)]، وهذه الرواية تفيد الأمر بالمداومة على الحج والعمرة؛ **قال المُناويُّ**[(٣)]: «قَوْلُهُ: «**أَدِيمُوا**» أي: واظبوا وتابعوا

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب «مناسك الحج»، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة (٥/ ١١٥))، وفي «الكبرى» (٣٥٩٧) والترمذي، كتاب «الحج»، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة (٨١٠)، وأحمد (١/ ٣٨٧)، وابن خزيمة (٢٥١٢)، من حديث ابن مسعود. وله شاهدٌ عن ابن عباس؛ أخرجه النسائي (٥/ ١١٥)، وفي «الكبرى» (٣٥٩٦) وله شواهد أخرى يصح بها.
قال الترمذيُّ: «حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح غريب»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٩٠١)، و«الصحيحة» (١٢٠٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٨١٤)، (٤٩٧٧)، والدارقطني في «الأفراد» كما في «الجامع الصغير» للسيوطي، وعند ابن عدي في «كامله» (٦/ ٢١٩) من وجه آخر عن جابر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٣)، وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (١١٨٥).

(٣) «فيض القدير» (١/ ٢٣٤) ط المكتبة التجارية.

ندبًا ، وأتُوا بها على الدوام ، والمواظبة لوجه الله ، « **فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ** » أي: يُنَحِّيَانِ الفقر ، وكلٌّ منهما على حِدَتِهِ ينفي الفقر ؛ ففي خبر : « **ما أمعر حاج قط** »[1] أي : ما افتقر ولا احتاج ، وتخلفه في بعض الأفراد لعارض ، « **والذُّنوب** » أي : ويمحوان الذنوب ، بمعنى أنه سبحانه وتعالى يكفرها بهما .

أما الحج ؛ فيكفر الصغائر والكبائر ، وأما العمرة ؛ فيظهر أنها إنما تكفر الصغائر .

ثم شبه ذلك تشبيهَ معقولٍ بمحسوس بقوله: **(كما ينفي الكيرُ خَبثَ الحديد)** وسخه الذي تخرجه النار ؛ فإنه في كلِّ مرة يخرج منه خبث ، فلا ينفي خبثه إلا تتابُع دخولِه وتكرُّرِهِ ، وخصَّ الحديد الذي هو أشد المنطبعات صلابة ، وأكثرها خبثًا ، إشارة إلى أن الفقر وإن اشتد ، والذنوب وإن خبثت وعظمت يزيلهما المداومة على النسكين » ا. هـ.

قُلْتُ: وقولُ المناوي : « وتخلفه في بعض الأفراد لعارض » يريد به : إن تخلف نفي الفقر عن الحاج أو المعتمر لا يكون إلا لعارض ؛ كما نقول في المشهور بين الناس : لكل قاعدة شواذ ؛ فيكون هذا مما شذ عن القاعدة .

وقال رحمه الله[2]: « **تابعوا بين الحج والعمرة** ؛ أي: إذا حججتم فاعتمروا ، وإذا اعتمرتم فحجُّوا » .

(فإنهما ينفيان الفقر والذنوب) وإزالته للفقر كزيادة الصدقة للمال ؛ كذا

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٥٢١٣) ، وابن عساكر (١٦/ ٤٤٥) ، والبزار ،والبيهقي ؛ كما في « الدر المنثور » (١/ ٥٠٩) عن جابر . ورواه الفاكهي في « أخبار مكة » (٨٨٢) عن أبي هريرة . وورد عن ابن المنكدر قوله كما في « المصنف »لابن أبي شيبة (١٥٧٤٩) ، وورد عن عمر أيضًا عند عبد الرزاق (٨٨١٨) ، وقد ضعف المرفوع الألباني في «الضعيفة» (٢٠٠٠)، و«ضعيف الترغيب » (٧١٠) ، و«ضعيف الجامع » (٥٠٢٠) .

(٢) « فيض القدير » (٣/ ٢٢٥، ٢٢٦) .

قال الطيبيُّ ، وقال في المطامح : يحتمل كون ذلك لخصوصية علمها المصطفى ﷺ ، وكونه إشارة إلى أن الغِنَى الأعظم هو الغِنى بطاعة الله ، ولا عطاء أعظم من مباهاة الله بالحاج الملائكة . «**كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ والذَّهبِ والفِضَّةِ**» .

مَثَّلَ متابعتهما في إزالة الذنوب ، بإزالة النار الخبث ؛ لأن الإنسان مركوز في جبلَّته القوة الشهوية والغضبية ، ومحتاج لرياضة تزيلها ، والحج جامع لأنواع الرياضات : من إنفاق المال ، والجوع ، والظمأ ، واقتحام المهالك ، ومفارقة الوطن ، والإخوان وغير ذلك » ا.هـ .

وقال السنديُّ في « شرح النسائي » [(١)]: « قوله : **(تابعوا بين الحج والعمرة)** أي : اجعلوا أحدهما تابعًا للآخر واقعًا على عَقِبِهِ أي : إذا حججتم فاعتمروا ، وإذا اعتمرتم فحجوا ؛ فإنهما متابعان » ا.هـ .

وأختم هذا الباب بهذا الحديث الرقراق ؛ **كما في الحديث المتفق عند البخاري ومسلم** [(٢)] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قَالَ : « **مَنْ حَجَّ لله ، فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ** » .

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» [(٣)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ ، لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ** » .

أقول : وللحج أحكام وآداب موضعها كتب الفقه لعلمائنا ـ رحمهم الله تعالى ـ وأسأل الله أن يرزقنا حجًّا مبرورًا ، وسعيًا مشكورًا ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

---

(١) « شرح النسائي » (٥/ ١١٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الحج » ، باب فضل الحج المبرور (١٥٢١) ، ومسلم ، كتاب « الحج » ، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٥٠) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «العمرة» ، باب وجوب العمرة وفضلها (١٧٧٣) ، ومسلم كتاب «الحج » ، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٩) .

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

« المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ ؛ وَهُوَ : بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ؛ فَأَعْلاَهَا قَوْلُ لاَ إِله إِلاَّ الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ .

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ ؛ «أَنْ تُؤمَن بالله ، وَمَلائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَومِ الآخِرِ ، وَتُؤمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة:١٧٧] ، وَدَلِيلُ الْقَدَرِ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩] » .

الشرح

تعْرِيفُ الإِيمانِ :

في هذه الفقرة يتكلَّم المصنفُ رحمه الله عن المرتبة الثانية من مراتب الدين ؛ ألا وهي مرتبة الإيمان .

والإيمانُ لغةً : التصديق والإقرار ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت:٢٦] . وقال الله تعالى ـ حكايةً عن إخوة يوسف : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾[يوسف:١٧] ، وما أنت بمصدق لنا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوي» [(١)]: «الإيمان هو الإقرار ،

---

(١) « مجموع الفتاوى » (٧/ ٦٣٨، ٦٣٩) .

لا مجرد التصديق ،والإقرار ضمن قول القلب هو التصديق ، وعمل القلب الذي هو الانقياد ـ تصديق الرسول فيما أخبر ، والانقياد له فيما أمر ، كما أن الإقرار بالله هو الاعتراف به والعبادة له » .

وردَّ من وجوه عدَّة على من ادعى الترادف بين الإيمان والتصديق ؛ كما في « فتاواه » أيضًا المجلد السابع [١] .

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله [٢]: « الإيمان في اللغة : يقول كثيرٌ من الناس : إنه التصديق ؛ فصدقت وآمنت معناهما واحدٌ لغة ، وقد سبق أن هذا القول لا يصحُّ ؛ بل الإيمان في اللغة : الإقرار بالشيء عن تصديق به ، بدليل أنك تقول : آمنتُ بكذا ، وأقررت بكذا ، وصدقت فلانًا ، ولا تقول : آمنت فلانًا .

إذًا ؛ فالإيمان يتضمن معنى زائدًا على مجرد التصديق ، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار ، والإذعان للأحكام .. أما مجرد أن تؤمن بأن الله موجود ؛ فهذا ليس بإيمان حتى يكون مستلزمًا للإذعان والقبول » .

وشرعًا : اعتقادُ القلب ، وقولُ اللسان ،وعمل الجوارح والأركان ، وهو بضع وسبعون شعبة ،أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ـ كما ذكر المصنف رحمه الله .

قال الطحاويُّ في «عقيدته» [٣]: « والإيمان هو الإقرار باللسان ،

---

(١) « مجموع الفتاوى » (٧/ ٢٨٩ـ٢٩٣) .

(٢) « شرح العقيدة الواسطية » (١/ ٥٤، ٥٥) ط ابن الجوزي .

(٣) « شرح الطحاوية » لابن أبي العز الحنفي (١٧٦، ١٧٧) ط دار أولى النهى .

تنبيه : وفي قول الطحاوي في تعريفه للإيمان نظر ؛ إذ إن قوله يوافق المرجئة في قولهم : «الإيمان : إقرارٌ=

والتصديق بالجنان ،وجميع ما صحَّ عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كلُّه حق ، والإيمان واحد ، وأهله في أصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ، ومخالفة الهوى ، ومخالفة الأولى » .

قال ابن أبي العز في شرحه : « اختلف الناس فيما يقع اسم الإيمان اختلافًا كثيرًا ، فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق ابن راهويه ، وسائر أهل الحديث ، وأهل المدينة ، وأهل الظاهر ، وجماعة من المتكلمين إلى أنه تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان » . انتهى المراد .

قال الآجري في « الشريعة » [1] : « اعلموا ـ رحمنا الله تعالى وإياكم ـ أن الذي عليه علماء المسلمين ؛ أن الإيمان واجب على جميع الخلق ، وهو تصديق بالقلب ،وإقرار باللسان ،وعمل بالجوارح ، ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق ، إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقًا ، ولا تجزئ معرفة بالقلب ،ونطق باللسان ، حتى يكون عمل بالجوارح ، فإذا كملت فيه هذه الخصال الثلاث كان مؤمنًا ،دل على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين » .

أركان الإيمان :

والإيمان له أركان ؛ كما في حديث جبريل الطويل ؛ الذي رواه الإمام مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وقد ذُكر الحديث بطوله عند شرح الإسلام ، وسيأتي عند المصنف قريبًا ، لكنني أقف هنا فقط عند سؤال جبريل للنبيِّ ﷺ بقوله : مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلائِكَتِهِ** ،

= باللسان ، وتصديق بالجنان » ا.هـ فالعمل داخل في مسمى الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ـ كما سبق تقريره ـ قال الإمام البخاري في « صحيحه » (باب ١٨) : « باب من قال : إن الإيمان هو العمل ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢] » .

(١) «الشريعة» (ص٩٦) ط دار الحديث .

وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ - وَفِي رِوَايَةٍ : « ولقائه » - وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »(١) .

وللإيمان طعمٌ ؛ ففي «صحيح مسلم» من حديث الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال : «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا ، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً »(٢) .

وله حلاوة ؛ ففي «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ - وفي رواية: «طَعْمَ الإِيمَانِ» - أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ »(٣) .

وله نُورٌ ؛ فقد روى أبو نعيم في « الحلية » ، والديلمي في « مسنده » بسندٍ حسنٍ من حديث عليٍّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَال : « مَا مِنَ القُلُوبِ قَلْبٌ إلا ولهُ سحَابةٌ كسحَابةِ القمرِ ، بينما القمرُ مُضيءٌ إذْ علَتهُ سَحَابةٌ ، فأظلمَ ، إذْ تجلَّتْ عنه ، وَأَضَاءَ ، وبينما الرجُلُ يُحدث إذ عَلَتْهُ سَحَابةٌ فنَسِي إذ تجلَّت عنه فَذَكَرَ »(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبرى ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه (٨) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولاً فهو مؤمن ، وإن ارتكب المعاصيَ الكبائر (٣٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الإيمان» ، باب حلاوة الإيمان (١٦) ، ومسلم ،كتاب «الإيمان» ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣) .

(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٦) ، وفي « معرفة الصحابة » (٤٤١١) وقال : « هذا حديثٌ غريب » ، والطبراني في « الأوسط » (٥٢٢٠) ، وأبو عبد الله بن منده في كتاب « الروح » ؛ كما في «شرح حديث النزول» (٩٧) ، و«الفتاوى» (٥/ ٤٥٥) ، وكما في « نظم الدر في تناسب الآيات والسور » للبقاعي (تفسير النور : ٢٦) ، والديلمي ؛كما في « الكنز » (١٣/ ١٤٥) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١/ ٣٩٨) : «رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه أزهر بن عبد الله ، قال العقيلي : حديثه غير محفوظ عن ابن عجلان ، وهذا الحديث يعرف من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي موقوفًا ، وبقية رجاله موثقون » .
وحسن الحديث العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٢٦٨) وهو في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٨٢) .

تجلَّت أي : ظهرت ، يعني: تعتري قَلْبَ المؤمن في بعض الأحيان سحابةٌ من سحب المعصية ؛ فكما تحجب السحابةُ نور القمر عن أهل الأرض ، كذا تحجبُ سُحبُ المعاصي والذنوب نورَ الإيمان في القلب ؛ فيبقى في ظلمة ووحشة ، فإذا سعى لزيادة رصيده الإيماني ، واستعان بالله انقشعت تلك السحب وعاد نور قلبه يضيء ، فإذا انقشعت سحابةُ السماء ؛ وصَلَ نورُ القمر إلى الأرض ، وكذا إذا انقشعت سحب المعاصي والذنوب بالتوبة والأوبة إلى علام الغيوب ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ عاد الإيمان إلى الإشراق مرة أخرى في قلب العبد المؤمن .

وفي «**مسند أحمد**»[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا ، والراجح أنه يصحُّ موقوفًا على حذيفة ، ويَضْعُف مرفوعًا ، ومدار تضعيف علمائنا لهذا الحديث على الليث بن أبي سليم ، والليث متكلَّم فيه ، ولفظهُ :« القلوب أربعة ؛ قلب أجرد ـ وهذا هو الشاهد الذي أودُّ أن أذكره ـ قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، فقلْبُ المؤمن سراجه فيه نوره (قلبٌ تجرَّد من الشرك ، والشك ، والغل ،والحقد ، والحسد ، وأشرق فيه نور الإيمان ، وأنار فيه

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » (٣/ ١٧) ، قال الهيثمي في « المجمع » : «رواه أحمد والطبراني في «الصغير» (١٠٧٥) ، وفي إسناده ليث بن أبي سليم » والراجح ضعفه ،وقد أثنى عليه غير واحد ، ولعل هذا مما حدا بالحافظ ابن كثير أن يجود سند هذا الحديث ؛ فقال : « وهذا إسناد جيد حسن » انظر : « تفسير ابن كثير » (لسورة البقرة:٢٠ ، وسورة النور:٣٥) وجوده السيوطي في « الدر المنثور » (تفسير البقرة :٨٨) .

قلت : وقد خولف الليث من الأعمش ـ ولا شك أن رواية الأعمش أرجح ؛ فرواه عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة موقوفًا ؛ أخرجه أحمد في «السنة» (٨٢٠) ، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥٠) ، و«المصنَّف» (٦/ ١٦٨) ؛ لذا ضعف المرفوع العلامة الألبانيُّ في «الضعيفة» (٥١٥٨) والموقوف على حذيفة فيه علتان :

الأولى : ضعف الليث.

والثانية: الانقطاع بين أبي البختري وحذيفة .

مصباح التوحيد ، فذلك قلب المؤمن) وقلبٌ أغلف على غلافه ؛ فقلْبُ الكافر ، وقلبٌ منكوسٌ فقلبُ المنافق عَرَفَ ثُمَّ أنكر ، وقلبٌ مُصْفَحٌ ؛ فقلْبٌ فيه إيمان ونفاق فمَثَلُ الإيمان فيه ، كمثل البقْلَة يمدُّها الماء الطيب ، وَمَثَلُ النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيْحُ والدَّمُ ، فأيُّ المدَّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » .

إذًا الإيمان له حقيقة ، وله طعم ، وله حلاوة ، وله نور ؛ نسأل أن ينور قلوبنا وقبورنا ،وأن يرزقنا حلاوة وطعم الإيمان ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

الإيمان يزيد وينقص :

وهذا أصْلٌ آخر من أصول أهل السنة ، أن الإيمان يزيد وينقص ، وهذا هو معتقد النبيِّ ﷺ ، ومعتقد الصحابة ﷺ ، ومعتقد السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم أجمعين [(١)].

وقد ترجم الإمام البخاريُّ رحمه الله في كتاب الإيمان بابًا بعنوان : «باب زيادة الإيمان ونقصانه» ؛ فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ؛ قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾[الفتح:٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾[الكهف:١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا ﴾[المدثر:٣١] .

وقال ﷺ كما في «**مستدرك الحاكم**» بسندٍ حسن من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الإيمانَ لَيخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثوبُ ، فَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَى : أن يُجَدِّدَ الإِيمانَ فِي قُلُوبِكُمْ** » [(٢)].

---

(١)راجع « شرح أصول الاعتقاد » للالكائي (٢/ ١٠ـــ١٤ط الحديث) ، و « الشريعة » للآجري (٨٨ـ٩٥ط الحديث) ، و « الفتاوى » لشيخ الإسلام (٣/ ١٧٧) .

(٢)أخرجه الحاكم (١/ ٤٥) وقال : «هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ، ورواته مصريون ثقات» ، وأقره =

قال المناويُّ في «فيض القدير» [(١)]: « **إنَّ الإيمانَ لَيخلَقُ** » أي : يكاد أن يبلى «**فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ**» أيها المؤمنون «**كَمَا يَخْلَقُ الثوبُ**» وصفه على طريق الاستعارة شبه الإيمان بالشيء الذي لا يستمر على هيئته ، والعبد يتكلم بكلمة الإيمان ، ثم يدنسها بسوء أفعاله ، فإذا عاد واعتذر فقد جدد ما أخلق ، وطهر ما دنس «**فَاسْأَلُوا اللهَ أن يُجَدِّدَ الإيمانَ فِي قُلُوبِكُمْ**» حتى لا يكون لقلوبكم وجهة لغيره ، ولا رغبة لسواه ، نعم .. قد يضعف الإيمان حتى يكون خلقًا مثل الثوب البالي ؛ فعلى المسلم أن يسأل الله تعالى أن يجدد له إيمانه » .

ودونك أركان الإيمان بالتفصيل :

أولاً : الركن الأول من أركان الإيمان
الإيمان بالله تعالى

فالإيمانُ بالله تبارك وتعالى ، هو أول أركان الإيمان ، ولا أبالغ إن قلتُ : إنَّ القرآن الكريم كُلَّه من أول سورة الفاتحة إلى سورة الناس يتكلَّم في هذا الركن ؛ ألا وهو ركنُ الإيمان بالله تبارك وتعالى ، فالقرآن الكريم ؛ إما حديثٌ عن ذات الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أو حديثٌ عن أسمائه الحسنى ، أو حديثٌ عن صفاته العلا ، أو حديثٌ عن أهل الإيمان الذين حققوا الإيمان ، وما أعدَّ الله لهم في الدنيا من عزٍّ وكرامة ونصر وتأييد ، وفي الآخرة من نعيم ، وهو جزاء توحيده ، وإما حديثٌ عمن أعرضوا عن قضية الإيمان ؛ ألا وهم الكفار ، أو المنافقون ، وعما أعد الله ﷻ لهم في الدنيا من خزيٍ ، وفي الآخرة من عذاب الجحيم ؛ فهذا جزاء من خرج عن حكم التوحيد ، وإما حديثٌ عن

= الذهبيُّ ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١/ ٢١٢) : « رواه الطبراني في « الكبير » ، وإسناده حسن » وقال العراقيُّ في « أماليه » : « حديث حسن من طريقيه » ؛ كما في « فيض القدير » (للمناوي ٢/ ٣٢٣) ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » برقم (١٥٨٥) ، وفي « صحيح الجامع » رقم (١٥٩٠) .

(١) « فيض القدير » (٢/ ٣٢٣) .

الأمم الظالمة ،أو عن الأمم الموحدة ، وإما كان أمرًا أو نهيًا ، أو حدًّا لتحقيق مقتضيات الإيمان ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ؛ فالقرآن كلُّه في قضية الإيمان بالله تبارك وتعالى [(١)] ؛ بل ما خلق الله الخلق ، وما أنزل الكتب ، وما أرسل الرسل ، وما خلق الجنة والنار ؛ إلا من أَجْل قضية الإيمان .. إلا من أَجْلِ أن يُفردَ الخلقُ الحقَّ تبارك وتعالى وحْدَهُ بالعبادة ؛ هذه هي صيحة كُلِّ رسول ؛ بل هي دعوة كُلِّ نبيٍّ ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل:٣٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥] .

إذًا ؛ قضيةُ الإيمان بالله تبارك وتعالى هي القضية الأولى ، وهي الغاية الأولى التي من أجلها خلق الله تعالى الخلق ، وأنزل جميع الكتب ، وأرسل كلَّ الأنبياء والرسل ؛ من أجل أن يحققَ الخلقُ الإيمان بالحق تبارك وتعالى ، وأن يفردوه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وحده بالإلهية والعبادة .

والحديث عن قضية الإيمان بالله ، حديثٌ طويلٌ جليلٌ ماتعٌ كريمٌ عظيم ؛ لأن الحديث يستمدُّ عظمته من عظمة المادة التي هي موضوعه ؛ لذا فقضية الإيمان بالله هي أعظم القضايا على الإطلاق ، وهي أشرف المسائل باتفاق ، وأستطيع أن أتحدث في هذه القضية عن عدة محاور بإيجازٍ شديدٍ [(٢)] :

---

(١) قال ابن أبي العز الحنفي في «شرح الطحاوية» (٢٣) بعد ذكره لهذا التفصيل الماتع عن ما تضمنه القرآن : « فالقرآنُ كلُّه في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ توحيد ، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ توحيد ، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الذين فارقوا التوحيد ... » ا.هـ .

(٢) فقد مرَّ الحديث عن ذلك بالتفصيل .

المحور الأول : الأدلة على وجود الله تعالى :

والأدلة على وجود الحق ـ تبارك وتعالى ـ كثيرةٌ ؛ منها أدلة عقلية ، ومنها أدلة نقلية ،ومنها أدلة حسية ، ومنها أدلة فطرية :

١ ـ الأدلة الفطرية على وجود الله تعالى :

لقد فطر الله الخلق كلَّ الخلقِ على توحيده تبارك وتعالى ـ كما قال تعالى : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠] .

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتِجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ** »[١] .

إذًا ؛ خلق الله الخلق جميعًا مجبولين على فطرة التوحيد والإيمان ، ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف:١٧٢] ، ثم بعد ذلك تجتال الشياطين من الخلق أعدادًا كبيرةً ، فتحول بينهم وبين تحقيق قضية الإيمان بالله تبارك وتعالى ؛ كما ثبت ذلك **في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في «صحيحه»**[٢] من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ : « **أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي ، حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ...** » إلى آخر هذا الحديث الجميل .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب « الجنائز » ، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥) ،ومسلم ، كتاب « القدر » ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب « صفة القيامة والنار » ، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهلُ الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) .

٢ـ الأدلة العقلية على وجود الله تعالى :
أما الأدلة العقلية على وجود الله ؛ فما أعظمها وما أكثرها .

وما أروع استدلال هذا الأعرابي الذي لم يدخل إلى جامعة من الجامعات ، أو كلية من الكليات ، وإن كان قد تخرج من جامعة الفطرة ؛ فقال حين سُئل : ما الدليلُ على وجود الله ؟ فقال : « البعرة تدلُّ على البعير ، والأثر يدل على المسير ؛ فسماءٌ ذات أبراج ، وأرضٌ ذات فجاج ،وبحار ذات أمواج ، أفلا يدلُّ كلُّ ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟!! » (١).

وقد مرَّ معنا استدلال الإمام أحمد بالبيضة ، واستدلال الإمام الشافعي بورقة التوتة ، واستدلال أبي حنيفة بالسفينة ... إلى آخر هذه الأدلة العقلية التي لا يجد العقل مجالاً بعدها إلا أن يذعن للخالق تبارك وتعالى ؛ قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥] ، فمن أنصف من نفسه دلَّه العقل دلالةً قطعية على وجود رب البرية سبحانه .

٣ـ الأدلة النقلية على وجود الله تعالى :
أما الأدلة النقلية ؛ فما أكثرها ـ كذلك ـ وما أعظمها ؛ اقرأ آياتٍ كثيرةً جليلةً من كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ لتتعرف على الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنتدبر قول الله ﷻ : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل:٦٠، ٦١] الآيات ـ إلى قوله : ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ

(١) سبق في مطلع الكتاب .

﴿ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل:٦٤] .

٤ـ الأدلة الحسية على وجود الله تعالى :

وما أكثر هذه الأدلة ؛ فلازلنا نرى أن كثيرًا من الناس يتضرَّعون إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء ، ويجيبهم ربُ الأرض والسماء !! ومن ذلك قولُ الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ﴾ [الأنبياء:٨٣، ٨٤] ، وغيرها من الآيات [(١)] .

وتدبر حديث الأعرابي الجميل الذي أخرجه البخاريُّ ومسلم [(٢)] من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، هَلَكَ الْمَالُ ، وَجَاعَ الْعِيَالُ ، فَادْعُ الله لَنَا أَنْ يَسْقِيَنَا ، قَالَ : فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ ، وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ ، قَالَ : فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الْجِبَالِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ ، حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ، قَالَ : فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ وَفِي الْغَدِ وَمِنْ بَعْدِ الْغَدِ وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الْجُمُعَةِ الأُخْرَى ، فَقَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ أَوْ رَجُلٌ غَيْرُهُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ ، وَغَرِقَ الْمَالُ ، فَادْعُ الله لَنَا ، فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ ، وَقَالَ : « **اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا** » قَالَ : فَمَا جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ ـ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلاَّ تَفَرَّجَتْ حَتَّى صَارَتِ الْمَدِينَةُ فِي مِثْلِ الْجَوْبَةِ ، حَتَّى سَالَ الْوَادِي ـ وَادِي قَنَاةَ ـ شَهْرًا ـ قَالَ : فَلَمْ يَجِئْ

---

(١) انظر : « شرح الواسطية » للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (١/ ٥٥ـ ٥٩) ط ابن الجوزي ، و « رسائل في العقيدة » (١٣، ١٤) له أيضًا .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاستسقاء ، باب من تمطَّرَ في المطر حتى يتحادر على لحيته (١٠٣٣) ، ومسلم ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب الدعاء في الاستسقاء (٨٩٧) .

أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلاَّ حَدَّثَ بِالْجَوْدِ .

هذا هو الوجه الأول من أوجه دلالة الحس على وجود الله تعالى ؛ وهو إجابة الداعين ، وغوث المكروبين .

أما الوجه الثاني ؛ فآيات الأنبياء ومعجزاتهم :

ومعجزاتُ الأنبياء والرُّسل الحِسِّية التي رآها كثيرٌ من الناس ، وكثير من الخلق ، ممن بعث الله ـ تبارك وتعالى ـ إليهم أولئك الأنبياء والمرسلين ؛ فما أكثرها ، وما أعظمها ، وهي دليلٌ ساطع ، وبرهانٌ قاطع على وجود مرسلهم وهو الله تعالى ؛ فعيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ كان يبرئ الأكمه ، والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ؛ فالله الذي أرسله أمده بذلك ، والقوم يرون هذا الإعجاز ، وهذه المعجزات بأعينهم !!

وهذا نبيُّ الله موسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يضربُ البحر بعصاه ، فينفلق ، فيصبح كُلُّ فرقٍ كالطود العظيم ، أي : كالجبل الشامخ ، ويجعل الله ـ تبارك وتعالى ـ بين هذين الماءين الثابتين طريقًا يَبَسًا ثابتًا ـ مع أنه من المعلوم يقينًا بالفطرة وبالسنن الكونية أن قانون الماء: الاستطراق ؛ بمعنى: أنك لو ضربت البحر بعصا ستشق العصا الماء ، لكن سرعان ما يلتئم الماء . فنبيُّ الله موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يضرب البحر بعصاه ،ويظلُّ الماء هكذا إلى أن يأمر ربنا تبارك وتعالى الماء أن يعود إلى سيرته الأولى ، ليُهلك فرعونَ وملأه ؛ فتلك آية من آيات الله ـ تبارك وتعالى ـ ورأى فرعونُ وقومُه هذه المعجزة الخالدة بأعينهم !!

ونبينا محمد ﷺ يطلبُ منه قومه (من قريش) آيةً ؛ فيطلبُ نبينا ﷺ من ربه تبارك وتعالى أن يشق له القمر نصفين ؛ استجابةً من رسول الله ﷺ لطلب المشركين في مكة ، وانشق القمر ـ بالفعل ـ نصفين ، ويرى المشركون

القمر ، وقد انشق في كبد السماء [(١)] ، ويسجل الله هذه المعجزة في القرآن إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ؛ قال تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر:١] ، وما أكثر الآيات والمعجزات الحسية التي أجراها ربُّ الأرض والسماوات على يد نبينا ﷺ ، وعلى يد إخوانه من النبيين والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

المحور الثاني :الإيمان بربوبية الله تعالى :

ومعنى أن نؤمن بربوبية الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن نعتقد أن الله ﷻ وحده هو الخالق ، الرازق ، المدبر ، المصرف لأمر الكون ؛ قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٤] ؛ فهو وَحْدَهُ ﷻ الَّذِي يُعْطِي وَيَمْنَعُ ،وَيَرْزُقُ وَيَدْفَعُ ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ ، وَيُمِيتُ وَيُحْيِي ، لا يشاركه أحدٌ في فعله سبحانه وتعالى .

معنى الربِّ :

قال في « القاموس المحيط » : «الربُّ باللام : لا يُطْلَقُ لغير الله ﷻ ، وقد يخفف ، ثم قال : وربُّ كل شيءٍ ، مالُكُه ومستحقُّه ، أو صاحبه » [(٢)] .

قال ابن القيم في « المدارج » [(٣)] : « فاسم « الرب » له الجمع الجامع لجميع

---

(١) كما في « الصحيحين » البخاري ،كتاب المناقب ، باب سؤال المشركين أن يريهم النبيَّ ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر ، برقم (٣٦٣٦) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب انشقاق القمر (٢٨٠٠) ، من حديث ابن مسعود قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقتين ؛ فقال رسول الله ﷺ : « **اشهدوا** » ، وفي رواية لمسلم : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين ، فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فوق الجبل ؛ فقال رسول الله ﷺ : «**اللهم اشهد**» ، وفي رواية عن أنس : « أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر ، مرتين ».أخرجه البخاريُّ (٣٦٣٧) ، ومسلم (٢٨٠٢) واللفظ له .

(٢) « القاموس المحيط » للفيروزآبادي ، باب الباء ، فصل الراء (ربب) (١١١) ط مؤسسة الرسالة .

(٣) « مدارج السالكين » (١/ ٣٤) .

المخلوقات ، فهو ربُّ كل شيءٍ وخالقه ، والقادر عليه ، لا يخرج شيء عن ربوبيته ، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته ، وتحت قهره » وقد سبق بسط هذا بما فيه الكفاية .

المحور الثالث : الإيمان بإلهية الله تعالى :

بمعنى أن نفرد الله سبحانه وتعالى وحْدَه بالعبادة ؛ فتوحيد الإلهية هو : توحيد العبادة ، والعبادة ـ كما سبق وذكرتُ ـ معناها الذلُّ والانكسار ، ويقال : طريق مُعَبَّد أي : مذلل وطئته الأقدام [١] .

والطريق حتى يكون حسن التذليل ينبغي أن تتوفر فيه صفتان : **أن يكون ممهدًا** ؛ بحيث يسير عليه السائر بسهولةٍ ويُسْر ، **وأن يكون صلبًا** ؛ بحيثُ يتحمل شدة وثِقَل السائرين فوقه ،وهكذا العبادة يجبُ أن لا يجد العبد صعوبة في تنفيذ أوامر الله تعالى ؛ بل يكون تمرير الأوامرِ على السلم ، وتنفيذه للأمر وتركه ، كلُّ ذلك يكون بسهولة ويسر ، ثم يكون العبد راضيًا عن ربه سبحانه وتعالى بأن يقابل جميع الابتلاءات برضا نفس ، وهذا ما يقابل صفة الشدة في الطريق المعبد .

معنى الله :

قال في « القاموس المحيط » : « أَلَهَ » إلاهةً وأُلوهةً وألوهيةً : عبد عبادةً ، ومنه لفظ الجلالة ، واختلف فيه على عشرين قَوْلاً ، وأَصَحُّها أَنَّه عَلَمٌ غير مُشْتق ، وأَصْلُه إلهٌ ، كفعال بمعنى مألوه ، وكل ما اتُّخِذ معبودًا ، إلهٌ عند مُتَّخِذِه » [٢] ؛ كقوله : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣] ، ونحوه .

---

(١) راجع رسالة « العبودية » لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (٦) ، و « مجموع الفتاوى » (١٠/ ١٥٢) ، و «زاد المعاد » لابن القيم (١/ ٢٢٨) و « المدارج » (١/ ٧٤) .

(٢) « القاموس المحيط » للفيروز آبادي (١٦٠٣) ، باب الهاء ، فصل الهمزة « أَلَهَ » بتصرف .

معنى الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله » :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم:٢٤، ٢٥] . هذه الكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله ، ومعناها : لا معبود بحقٍّ إلا الله ، ولا يستحق العبادة أحدٌ إلا الله ﷻ ، وهذه الكلمة إذا استقرت في قلب المؤمن ، والمراد بالاستقرار أن الشجرة لا تثمر ثمرة طيبة إلا إذا استقرت في التربة ، أما إذا لم تستقر ، وظلَّ الزارع ينقلها كل يوم ، أو كل ساعة ، أو حتى كل أسبوع ، أو أكثر من ذلك أو أقل ، فإذا لم تستقر الشجرة في التربة ؛ فلن تثمر ثمرة ، وإن أثمرت فلن تكون هذه الثمرة طيبة ؛ كذلك التوحيد والإيمان إذا لم يستقر في قلب المؤمن الموحِّد ، تدبر - معي - ما رواه الشيخان من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ : « **لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ** » [١]؛ فالمؤمن الذي يشهد أن لا إله إلا الله كلَّما ارتكب معصية خلع عن نفسه صفة الإيمان ، ثم لا يلبث أن يستغفر الله تعالى ويتوب إليه ، نادمًا على ما اقترف من ذنب ، متحسرًا على ما كسبت يداه ، فيغفر له الله تعالى ، فيرجع إلى حظيرة العبودية ، وإلى شجرة الإيمان ، وزمرة المؤمنين ، فإذا كان هذا رأيه فلن تثمر شجرة الإيمان في قلبه ، حتى يغلب نفسه ، ويحملها على الإقلاع عن الذنوب ، ويظل يرعاها ويسوسها

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب « الأشربة » ، باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[المائدة:٩٠] (٥٥٧٨) ، ومسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (٥٧) ، ورواه البخاري ، كتاب « الحدود » ، باب السارق حين يسرق (٦٧٨٢) عن ابن عباس .

بين المحايلة تارة ، والشدة تارة أخرى ؛ حتى تصل فروع شجرة الإيمان إلى السماء ﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، ثم تثمر تلك الشجرة ، فتكون ثمرتها طيبة ، وهي الجنة بإذن الله تعالى ، وكلَّما طالت مدةُ رعاية الشجرة ، وكلَّما طال عمرها ،كلَّما طابت الثمرة وأصبحت أطيب ؛ لذلك كان خير الناس من طال عمره وحسن عمله ؛ كما رواه **أحمد والترمذيُّ** [١] من حديث عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ ﷺ : أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ : « **مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ** ».

وفي رواية أخرى [٢] ـ صحيحة ـ عن عبد الله بن بسر: « **طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ** » ؛ فمعنى «لا إله إلا الله» : لا معبود بحق إلا الله ، والعبادة المقصود بها تحقيق كمال الحب لله تعالى ، مع كمال الذلِّ له ؛ فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له .

المحور الرابع : الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا :

وقد ذكرتُ قبل ذلك أننا حين نقسم التوحيد إلى أقسام ثلاثة ؛ إلى توحيد الربوبية ، والإلهية ، والأسماء والصفات ؛ فإن هذا تقسيم نظريٌّ للدراسة النظرية فقط ، وإلا فالتوحيدُ كلٌّ لا يتجزأ .

ومعنى إفراد الله بالأسماء والصفات : أن نؤمن بالأسماء الحسنى ،

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب « الزهد » ، باب ما جاء في طول العمر للمؤمن (٢٣٢٩) ، وأحمد (٤/ ١٨٨، ١٩٠) ، وله شاهدٌ من حديث أبي بكرة ؛ أخرجه الترمذي (٢٣٣٠) ، وأحمد (٥/ ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٥٧) ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (١٨٣٦) ، و « صحيح الجامع » (٣٢٩٦).

(٢) عند البغوي في «الجعديات» (٣٤٣١) ، و « شرح السنة » (١/ ٣٠٥) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٣٥٦) ، وابن عساكر (٤٦/ ٣١١، ٣١٢) ، وأبي نعيم في «الحلية» (٦/ ١١١) وهو صحيح ، وعند ابن المبارك في « الزهد » (١٣٤٠) عن أبي هريرة مرفوعًا ؛ وسنده ضعيف ، كما قال الألباني في « الصحيحة » (١٨٣٦) .

والصفات العلا ، التي أثبتها الله تبارك وتعالى لذاته في قرآنه ، وأثبتها له أعرف الناس به ؛ عبْدُهُ ورسولُهُ المصطفى مُحَمَّدٌ ﷺ ؛ كما جاء في القرآن والسنة ، من غير تحريفٍ ، ولا تعطيلٍ ، ولا تكييفٍ ، ولا تمثيلٍ ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل:٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١] ؛ فهو أحدٌ في ذاته ، وصفاته ، وأسمائه ، وأفعاله ، ومن أجمل ما قرأتُ في هذا الباب ؛ ما رواه البخاريُّ من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **قَالَ اللهُ : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا** »(١).

هذا هو الركن الأول من أركان الإيمان ؛ ألا وهو الإيمان بالله تبارك وتعالى .

ولستُ هنا بصدد الحديث عن هذا الركن العظيم بلغة البسط والإسهاب ؛ فلهذا موضعه من كتب العقيدة لعلمائنا الكرام ؛ ولكنه عرضٌ سريعٌ حتى يستوعبه القارئ العادي ؛ والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال .

*****

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « التفسير » ، باب ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ [البقرة:١١٦] ، (٤٤٨٢) ، وأخرجه أيضًا ،كتاب « التفسير » ، باب سورة الإخلاص (٤٩٧٤) ، وباب قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ (٤٩٧٥) عن أبي هريرة مرفوعًا .

ثانيًا : الركن الثاني من أركان الإيمان
الإيمان بالملائكة

تعريفُ الملائكة لغةً :

قال ابن الأثير في «النهاية»[(١)] : «والملائكة : جمع ملأكٍ ، في الأصل ، ثم حُذفت همزته ، لكثرة الاستعمال ؛ فقيل : مَلَكٌ ، وقد تحذفُ الهاء ؛ فيُقال : ملائك .

وقيل : أصْلُه: مَأْلك ؛ بتقديم الهمزة ، من الأُلوك : الرسالة ، ثم قُدِّمت الهمزة وجُمع » .

واصطلاحًا : هم عالمٌ غيبيٌّ ،خُلقوا للعبادة والطاعة ، ليسوا آلهةً ولا أربابًا ، وليس لهم من خصائص الربوبية ، والألوهية شيء ، وهم عبادٌ مكرمون ، مربوبون ؛ لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ، مفطورون على الطاعة ، والعبادة ،والتسبيح ، لا يسأمون ، ولا يفترون ، ولا يملُّون أبدًا ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠] ، خلقهم الله من نور ، كما خلق الجن من نار ، وكما خلق الإنسان من طين .

كما في«صحيح مسلم»[(٢)] من حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال : «**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**» أي : من الطين .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾

---

(١) «النهاية»(٢/ ٦٧٩) .

(٢) أخرجه مسلم ،كتاب «الزهد والرقائق» ، باب في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦) .

لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبياء:٢٦ـ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]

وجوب الإيمان بالملائكة :

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان بالله تعالى ، لا يصحُّ إيمانُ العبد إلا إن آمن به ؛ قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ...﴾ الآية [البقرة:٢٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ الآية [البقرة:١٧٧] ؛ فجعل الله سبحانه وتعالى من الإيمان : الإيمان بملائكته ، وسمَّى من آمن بهم مؤمنين ؛ كما جعل من كفر بهم كافرين ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:١٣٦] .

ويلاحظ أن الإيمان بالملائكة في غالب النصُوص جاء بعد الإيمان بالله ؛ ومقدَّمٌ على الإيمان بالكتب والرسل عليهم السلام ؛ فهم الواسطة بين الله ورسله الذين ينزلون بالوحي من الله على من يشاء .

فإنكار عالم الملائكة كفرٌ بلا نزاع ؛ لا يصحُّ إيمان العبد إلا بالإيمان بهم ؛ فهو ركنٌ عظيمٌ من أركان الإيمان ودعائمه .

أصناف الملائكة ، ووظائفهم : وقد دلَّ الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ؛ **فمنهم الموكَّلُ** بنزولِ الوحي من الله تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله ؛ وهو جبريل الروح الأمين ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد

الملائكة وكبيرهم ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير:٢٠، ٢١]، فقد نزل بالقرآن على محمد ﷺ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣ـ ١٩٥]، **ومنهم الموكَّل** بالنفخ في الصور؛ وهو إسرافيل عليه السلام. وقد وردت أحاديث ثابتة تدلُّ على صاحب الصور [(١)].

وقال الطبريُّ [(٢)]: (والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **إِنَّ إِسْرَافِيلَ قَدِ الْتَقَمَ الصُّورَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ لِيَنْفُخَ** »)، **ومنهم الموكَّل** بقبض أرواح العباد؛ وهو ملك الموت مع أعوانه من الملائكة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة:١١]، وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام:٦١]، **ومنهم الموكَّل** بحفظ العبد؛ قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١].

والمعقبات: هم ملائكة الله تبارك وتعالى، يحفظون العبد من بين يديه، ومن خلفه؛ فإذا جاء قدر الله تبارك وتعالى، ونزل، خلوا بينه وبين العبد [(٣)].

ومنهم الموكَّل بالقطر وتصريفه إلى حيث أمره عز وجل؛ كما في «**صحيح مسلم**» [(٤)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: « **بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ**،

---

(١) انظر: «الصحيحة» (١٠٧٨، ١٠٧٩).

(٢) «تفسير الطبري» (لسورة الأنعام:٧٣) (٣٢٣٠).

وقد نقل بعضهم الإجماع على أن إسرافيل هو صاحب الصور، انظر: «الفتح» (١١/ ٣٧٦).

(٣) وقد جاءت في ذلك آثار؛ انظرها في «تفسير الطبري» (لسورة الرعد:١١)، (٢٠٠٦، ٢٠٠٧)، وعزاها السيوطي في «الدر» لعبد الرزاق وابن أبي حاتم وغيرهما.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الزهد، باب الصدقة في المساكين (٢٩٨٤).

فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ ... » .

ومن الملائكة من وُكِّل بحفظ أعمال العبد ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٦-١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٠-١٢] .

روى الطبريُّ في «تفسيره» (١) **عن قتادة** : قال : تلا الحسن ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق:١٧] ، قال : فقال : «يا ابن آدم بُسطت لك صحيفة ، ووكِّل بك ملكان كريمان ؛ أحدهما عن يمينك ،والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ؛ فاعمل بما شئت أقْلل أو أكثر ، حتى إذا مت طُويت صحيفتك ، فجُعِلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول : ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء:١٣] ، حتى بلغ : ﴿ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤] ، عَدَلَ والله عليك من جعلك حسيب نفسك» .

ومنهم الموكل بأرحام النساء ؛ فكلُّ أرحام النساء وكَّل الله لها ملكًا من الملائكة ؛ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ اللهَ ﷻ وَكَّلَ فِي الرَّحِمِ مَلَكًا ، يَقُولُ : يَا رَبِّ نُطْفَةٌ ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ : أَذَكَرٌ ، أَمْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟**

---

(١) أخرجه الطبري في«تفسيره» (لسورة ق:١٧، ١٨) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الزهد» ، باب الصدقة في المساكين (٢٩٨٤) .

فَمَا الرِّزْقُ ، فَمَا الأَجَلُ ، فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ »[1] .

فالملائكة مفطورةٌ على الطاعة والعبادة ، ولها وظائف أخرى كثيرة ، ويجب على كلِّ مؤمن ومؤمنة أن يؤمن بملائكة الله تبارك وتعالى جملة وتفصيلًا ما علمنا اسمه منهم ،وما لم نعلمه ، نؤمن به إجمالاً، وأن نكون على يقينٍ بأنهم كرامٌ معنا ؛ فيجب على المؤمن أن يستحي من الله سبحانه وتعالى، ثم عليه أن يستحي من ملائكة الله تبارك وتعالى التي تسجِّل عليه ، وتُدَوِّن عليه كلَّ شيء ؛ لكن بكلِّ أسفٍ قَلَّ يقيننا إلى حدٍّ مزرٍ ؛ فلو أن المسئولين قد نادوا في كلٍّ وسائل الإعلام ، وألزموا كلَّ مكلَّف أن يذهب إلى أقرب قسم شرطة ، وسوف يقوم المسئولون في قسم الشرطة بتركيب جهازٍ له كمسجل الصوت مثلاً ، ولا يفتح هذا الجهاز إلا بواسطة المسئولين بعد كلِّ أسبوع مثلاً ، وهذا الجهاز يسجِّل عليه كلَّ كلمة ؛ سواء كانت كلمة جميلة أو بذيئة . وكلُّ كلمةٍ طيبة ؛ كالتسبيح أو التهليل أو التكبير أو التحميد سيأخذ عليها جنيهًا واحدًا وكلُّ كلمةٍ سيئة سيعاقبُ عليها بعقوبة معينة ، أنا أسألكم بالله : هل ستتكلَّم إذا رُكِّب لنا هذا الجهاز إلا بالذكر؟ هل سننطق إلا بالتسبيح؟ إن قيل كيف حالك؟ قال:الحمد لله ، كيف فعل ولدك هذا العام ؟ الله أكبر ! ما نتيجة الزرع في هذا الحصاد ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! لن ننطق إلا بالتسبيح والذكر والكلام الطيب ، مع أن ربنا تبارك وتعالى قال : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨] ، ومع ذلك فهذا هو حالنا وإلى الله المشتكى .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الإيمان به ، وبملائكته ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الحيض » ، باب قول الله ﷻ : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج:٥] ، (٣١٨) ، ومسلم ، كتاب «القدر» ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٦) .

ثالثا : الركن الثالث من أركان الإيمان
(الإيمان بالكتب)

تعريفُ الكتب لغةً :

قال ابن الأثير [(١)] : « والكتاب مَصْدَرٌ ، يُقَالُ : كتب يكتب كتابًا وكتابة ، ثم سُمِّي به : المكتوب » .

وفي «**اللسان**» [(٢)] : « الكتاب اسم لما كُتب مجموعًا » .

واصطلاحًا: الإيمان بالكتب : هو التصديق الجازم بالكتب والصحف التي أنزلها الله تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله ، وأنها كلام الله لا كلام غيره ، تكلَّم بها على الحقيقة كما شاء ، وكيف شاء ،وعلى الوجه الذي شاء سبحانه وتعالى ، ذكر الله سبحانه وتعالى لنا منها في القرآن : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وصحف إبراهيم ، وصحف موسى ؛ قال الله سبحانه : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [البقرة:١٧٧] ، أي : بالكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله ؛ وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ وهو القرآن ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦] .

---

(١) «النهاية»(٢/ ٥٢٠) .

(٢) «لسان العرب» (١٢/ ٢٢) .

إذًا ؛ الإيمان بالكتب ركنٌ من أركان الإيمان ، يجبُ علينا ـ نحن الموحدين ـ أن نؤمن بالقرآن ،وأن نؤمن بالتوارة التي أنزلها الله تبارك وتعالى على نبيه موسى ، وأن نؤمن بالإنجيل الذي أنزله الله تبارك وتعالى على نبيه عيسى ، وأن نؤمن بالزبور الذي آتاه الله تبارك وتعالى نبيه داود ؛ قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء:١٦٣]

وأن نؤمن بالصحف التي أنزلها الله تبارك وتعالى على الخليل إبراهيم وصحف نبيه موسى عليهم جميعًا ـ أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ وأن الله سبحانه وتعالى جعل القرآن الكريم مهيمنًا على كلِّ هذه الكتب ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[المائدة:٤٨] .

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ بعد ما ساق الأقوال الواردة في كلمة «مهيمنًا» قال : « وهذه الأقوال كلُّها متقاربة المعنى ؛ فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كلَّه ، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كلِّ كتابٍ قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلَّها ، وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة ؛ فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩]»[1] ا.هـ .

فالقرآن هو أعظم هذه الكتب ، والمصدق لجميعها ، والناسخ والحاكم عليها .

ومن الإيمان بالقرآن أن نعمل بمُحْكَمِهِ ، وأن نؤمن بمتشابهه ؛ قال تعالى :

---

(١) «تفسير ابن كثير» (لسورة المائدة:٤٨) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [آل عمران:٧] ؛ فنحن الموحدين نؤمن بالقرآن الكريم كلِّه ؛ نمتثل أمره ، ونجتنب نهيه ، ونقف عند حدوده ، وهذا المنهج ليس نافلة ، ولا تطوعًا لكلِّ من حقق الإيمان ؛ بل هو شرطٌ للإسلام وحدٌّ للإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥] .

قال الحكميُّ رحمه الله : « فلابد في الإيمان به من امتثال أوامره ، واجتناب مناهيه ، وتحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، والاعتبار بأمثاله ، والاتعاظ بقصصه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والوقوف عند حدوده ، وتلاوته آناء الليل والنهار ، والذب عنه لتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، والنصيحة له ظاهرًا وباطنًا بجميع معانيها ؛ نسأل الله تعالى أن يرزقنا كل ذلك ، ويوفقنا له ويعيننا عليه ، ويثبتنا به ، وجميع إخواننا المسلمين ؛ إنه وليُّ التوفيق » انتهى [١] .

إذًا ؛ لا بد من الإيمان بالقرآن الكريم كلِّه أمرًا أمرًا ، وحدًّا وحدًّا ؛ والعودة إليه وامتثالُ القرآن ، ليس نافلة ولا تطوعًا كما ذكرت ؛ قال تعالى : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾[طه:٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾[الإسراء:٩] .

---

(١) «معارج القبول» (٢/ ٦٧٥) ط ابن القيم .

وأسأل الله أن لا نكون ممن قال الله فيهم : ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠] .

إذًا ؛ الإيمان بالكتب ، وعلى رأسها القرآن الكريم ، ركنٌ من أركان الإيمان ، لا يصح إيمان العبد إلا بالإيمان بها ؛ وهذه صفة المؤمنين المتقين، قال ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:١ـ٤] .

*****

رابعًا : الركن الرابع من أركان الإيمان
الإيمان بالرسل

تعريف الرسول لغةً:

قال في «اللسان» [(١)] : « والإرسال التوجيه ، وقد أُرسل إليه ، والرسول بمعنى الرسالة .

والرسول : معناه في اللغة الذي يُتابع أخبار الذي بعثه أخذًا من قولهم جاءت الإبل رَسْلاً ؛ أي : متتابعة .. ويقال : جاءت الإبل أرسالاً إذا جاء منها رسلٌ بعد رَسَل .. وأرسلت فلانًا في رسالة ؛ فهو مُرسَل ورسول » .

قال الجرجانيُّ في «التعريفات» [(٢)]: « الرسولُ في اللغة : هو الذي أمره المرسل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض . إنسان بعثه الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام » .

وقال الراغب في « المفردات » [(٣)]: « أصل الرِّسْلِ الانبعاث على التؤدة .. فاشتق منه الرسول ، والرسول يُقال تارة للقول المتحمَّل ، وتارة لمتحمل القول والرسالة .

وجمع الرسول : رُسُلٌ ، ورسُلُ الله تارة يراد بها الملائكة ، وتارة يراد بها الأنبياء؛ فمن الملائكة ؛ قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[التكوير:١٩]، ومن الأنبياء ، قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾[آل عمران:١٤٤] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الكهف:٥٦] ؛ فمحمولٌ على رسله من الملائكة والإنس . قولُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون:٥١] ، قيل : عُني به

---

(١) «اللسان» (مادة رسل) (٥/ ٢١٣، ٢١٤) ،ط دار إحياء التراث .

(٢) «التعريفات» ، (ص١٢٤) ، ط دار الندى .

(٣) «المفردات في غريب القرآن» ، (٢٠١) .

الرسول وصفوة أصحابه ، فسمَّاهم رُسلاً لضمِّهم إليه .. » ا .هـ المراد .

أيها الأحبة : لقد خلق الله الخلق ، واصطفى من الخلق الأنبياء ، واصطفى من الأنبياء الرسل ، واصطفى من الرسل ؛ أولي العزم الخمسة ؛ نوحًا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ،ومحمدًا ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ واصطفى من أولي العزم الخمسة : الخليلين ؛ إبراهيم ومحمدًا ، ثم اصطفى محمدًا ﷺ ؛ ففضَّلَهُ وكرَّمه على جميع خلقه ؛ فالرُّسُلُ هم صفوة الخلق ، وصفوةُ البشر ، والله تبارك وتعالى قال : ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِى مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٧٥] ، ويقول : ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ ﴾ [القصص:٦٨] ، ويقول : ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص:٤٧] ، وقد رتَّب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب ؛ أثبت في مقدمتهم الأنبياء ؛ فقال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩] ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى لنا منهم في القرآن خمسةً وعشرين نبيًّا ورسولاً ، ذكرهم الله بأسمائهم ، ولم يذكر مجموعةً كبيرةً أخرى من الرُّسل بأسمائهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ [النساء:١٦٤] ؛ فقصَّ الله علينا بعض أسمائهم ، ولم يقص علينا أسماء الآخرين ؛ فيجب علينا ـ نحن المؤمنين ـ أن نؤمن برسل الله على الجملة ، والتفصيل ؛ على التفصيل الذي ذكره ربنا تبارك وتعالى في قرآنه ، وعلى الجملة ؛ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ ؛ فالرسل جميعًا كانوا موكبًا واحدًا ، يحملون دينًا واحدًا ، ومنهجًا واحدًا ، وإن اختلفت الشريعة بينهم اختلافًا يسيرًا ؛ بحسب الحاجة

التي يرسل الله ـ تبارك وتعالى ـ من أجلها النبيَّ أو الرسول ؛ كما قال النبيُّ ﷺ : « **دِينُنَا وَاحِدٌ وَأُمَّهَاتُنَا شَتَّى** »(١) .

فالأصْلُ الذي عليه هؤلاء الرُّسل واحدٌ وهو التوحيد ، وإن كان هناك اختلافٌ في الشرائع والأحكام ؛ كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨] .

لكن قبل أن أبين منهج هؤلاء الرسل الكرام ، أودُّ أن أبين الفرق بين النبيِّ والرسول ؛ لأن المشهور على ألسنة الناس ؛ بل على ألسنة العلماء وطالما قرأناه مرارًا وتكرارًا ، أن النبيَّ هو من أوحى الله إليه بشرع ولم يكَلِّفْه بالبلاغ ، وأن الرسول هو من أوحى الله إليه بشرع وكلَّفه بالبلاغ !! وهذا القول في الحقيقة لا يتفق ، ولا يستقيم لا شرعًا ، ولا عقلاً ؛ لأنه لا يمكن أبدًا أن يوحي الله ـ تبارك وتعالى ـ لنبيٍّ من أنبيائه الكرام وحيًا ؛ ليظلَّ هذا الوحي سجينًا في صدر هذا النبيِّ، وحبيس قَلْب هذا النبيِّ لا يبلغه إلى الخلق؛ فما هي الغاية من بعثة، أو إرسال هذا النبي الكريم ؟! ثم هذا لا يتفق أبدًا مع الشرع ، وقد بين القرآن الكريم أن الله أرسل الأنبياء كما أرسل المرسلين ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج:٥٢] الآية ؛ فالله يثبت الإرسال للرسل والأنبياء .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال :« **عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ** »(٢) .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الفضائل» ، باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥/ ١٤٥) ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الأنبياء إخوة من علات (يعني إخوة لأب) وأمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، فليس بيننا نبي » .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الطب» ، باب من لم يرق (٥٧٥٢) ، ومسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠) .

والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ يخبر عن أنبياء بعثوا في أقوامهم ، فلم يؤمن بهذا النبيِّ من قومه إلا رهط ،ولم يؤمن بهذا النبيِّ من قومه إلا رجل أو رجلان ، ولم يؤمن بهذا النبيِّ من قومه أحد ، ومن الأصول الثابتة أن الله لا يعذب قومًا ، إلا بعد أن يقيم الحجة عليهم ببعثة الأنبياء والمرسلين ؛ قال سبحانه : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾

[النساء:١٦٥]

فلا يصحُّ قول من قال : بأنه لا فرق بين النبي والرسول ؛ كما قالت المعتزلة(١) . ولا يصحُّ كذلك قولُ من قال : بأن النبيَّ ﷺ لم يؤمر بالبلاغ(٢) ، والصواب في المسألة والله تعالى أعلم :

الفرق بين النبيِّ والرسول :

إن من أجمل التعريفات للرسول والنبيِّ ما قال به العلامة الألوسيُّ رحمه الله(٣) ، إذ يقول : «**الرسول هو** : من أوحى الله عز وجل إليه شرعًا جديدًا ، **والنبيُّ هو** : المبعوث لتقرير شرع من سبقه من الرسل » .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية(٤): « فالنبيُّ هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبئ بما أنزل الله به ؛ فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه؛ فهو رسول ، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ،ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة ؛ فهو نبي وليس برسول » . ثم قال : « فأولئك الأنبياء يأتيهم وحيٌ من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم ؛ لكونهم مؤمنين بهم ؛ كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء

(١) انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١٢٤) .
(٢) «شرح الطحاوية» (ص٦٦ دار أولى النهى) .
(٣) «تفسير الألوسي» المسمى «بروح المعاني» (٥/ ٤٤٩) ، وانظر: «الصحيحة» (٦/ ١/ ٣٦٨، ٣٦٩) .
(٤) «النبوات» لشيخ الإسلام (٢/ ٤٧٩ـ ٤٨٢) بتصرف .

عن الرسول ؛ فالنبيُّ مرسل ولكن لا يسمى رسولاً عند الإطلاق ؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه ؛ بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق ؛ كالعالم » .

وقال الزمخشريُّ في «تفسيره» [(١)] : «والفرق بينهما : أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه . والنبي غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله » .

ومثله قول البيضاويِّ في «تفسيره» [(٢)] : « الرسول : من بعثه الله بشريعةٍ مجدِّدة يدعو الناس إليها ، والنبي يعمه ، ومن بعثه لتقرير شرعٍ سابق ؛ كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام ، ولذلك شبه النبيُّ ﷺ علماء أمته بهم » ا.هـ .

قال الألبانيُّ معقبًا [(٣)] : «يشير إلى حديث :«**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل** » ولكنه حديثٌ لا أصل له ، كما نصَّ على ذلك الحافظ العسقلانيُّ والسخاويُّ وغيرهما . ثم إنهم قد أوردوا على تعريفه المذكور اعتراضات يتلخص منها أن الصواب حذف لفظة «مجددة» منه ، ومثله لفظة «الكتاب» في تعريف الزمخشري ؛ لأن إسماعيل عليه السلام لم يكن له كتاب ولا شريعة مجددة ؛ بل كان على شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد وصفه الله عز وجل في القرآن بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ [مريم:٥٤] ، ويبقى تعريف النبيِّ بمن بعث لتقرير شرع سابق ، والرسول من بعثه الله بشريعة يدعو الناس إليها ؛ سواء كانت جديدة ، أو متقدمة ، والله أعلم » .اهـ .

وقد ثبت في «**صحيحي البخاريِّ ومسلم** » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) «تفسير الزمخشري » (٣/ ٣٧) .

(٢) «تفسير البيضاوي » (٤/ ٥٧) .

(٣) «الصحيحة » (٦/ ١/ ٣٦٩) .

النبيَّ ﷺ قال : «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ** » قَالُوا : فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ قَالَ : « **فُوا بِبَيْعَةِ الأَوَّلِ فَالأَوَّلِ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ** » (١) .

ومن المعلوم أن كلَّ أنبياء بني إسرائيل ساسوا ، وحكموا بني إسرائيل بشرع نبي الله موسى ؛ فنبيُّ الله موسى هو الرسول الذي أوحى الله إليه بوحيٍ جديد ، وبعث الله بعده مجموعة كبيرة جدًّا من الأنبياء حكموا بني إسرائيل بشريعة نبي الله موسى ، **إذًا ؛ الرسول : من أوحى الله ﷻ إليه شرعًا جديدًا ، والنبيُّ هو : المبعوث لتقرير شرع من سبقه من الرسل ـ عليهم جميعًا صلاة الله وسلامه** (٢) .

وظائف الرسل :

إنَّ أعظم وظيفة قام بها الرسل والأنبياء هي : الدعوة إلى توحيد رب الأرض والسماء ؛ هذه الوظيفة الأولى لكلِّ نبيٍّ ، وهي الصيحة الأولى لكلِّ رسول ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف:٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف:٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف:٨٥] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٥) ، ومسلم ، كتاب «الإمارة» ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (١٨٤٢) .

(٢) وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة ؛ فإن يوسف كان رسولاً ، وكان على ملة إبراهيم ، وداود وسليمان كانا رسولين ، وكانا على شريعة التوراة ؛ كما قرر ذلك شيخ الإسلام في كتابه القيم «النبوات» (٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٥) ، ط ابن عباس ، وهذا موافق لما قرره العلامة الألباني كما سبق .

وبالجملة ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] .. هذه هي الصيحة الأولى لكلِّ رسالة ، والدعوة الأولى لكل نبوة ؛ دعوة الخلق إلى توحيد الحق تبارك وتعالى ، ثم البشارة والنذارة ؛ فهم يبشرون مَنْ وحَّد الله وآمن بالله ، وينذرون من كفر بالله تبارك وتعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] .

ثم تزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير الأرواح ، هذه من وظيفة الأنبياء والمرسلين ؛ قال الله تبارك وتعالى حكاية عن نبي الله إبراهيم : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩] .

والآيات في هذا كثيرة ؛ فمن وظائفهم إذًا تعليم الخلق توحيد الحق سبحانه ، والأخذ بيد البشرية الضالة عن طريق التوحيد إلى طريق الحق ، وصراط الله المستقيم ، وتزكية نفوس الخلق ، وتهذيب أرواحهم ، وذلك لا يكون أبدًا إلا بامتثال أمر الله ، واجتناب نهيه ، والوقوف عند حدوده تبارك وتعالى .

قال سبحانه : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:١٢٣-١٢٧] .

وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ومن كفر برسول واحدٍ فقد كفر بالجميع :

فالإيمان بهم جميعًا أَصْلٌ من أصول الإيمان بالله تعالى ، وركْنٌ من أركان الدين ، وأَصْلٌ مهم جدًّا في ركن الإيمان بالرسل ؛ فمن آمن بمحمد ﷺ وكفر بعيسى فقد كفر ، ومن آمن بعيسى ﷺ وكفر بمحمد ﷺ فقد كفر؛ لذا من آمن بنبيٍّ واحدٍ وجب عليه أن يؤمن بجميع النبيين والمرسلين؛ قال تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [آل عمران:١٧٩] ، وإلا فإن كُلَّ من كذَّب نبيًّا أو رسولاً واحدًا ؛ فقد كذَّب بجميع إخوانه من الرسل والأنبياء ، تدبر معي قول الله تعالى : ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٠٥] ، مع أن الله ما أرسل إليهم إلا نوحًا عليه السلام، لكن لما كذَّبوا نوحًا كان تكذيبهم إياه تكذيبًا لجميع الرسل والأنبياء ؛ وكقوله : ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٢٣] ، وقوله : ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٤١] ، وقوله: ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[الشعراء:١٦٠] .. وهكذا .

وقد بيَّن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ هذا الحكم الواضح في آيةٍ جليلةٍ من آيات سورة النساء ؛ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَـٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[النساء:١٥٠ـ١٥٢] .

إذًا لابد لكلِّ مؤمن أن يؤمن بجميع الرسل والأنبياء ؛ قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[البقرة:٢٨٥] .

فنحن الموحدين لا نفرق بين أحدٍ من رسل الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ يعني : في أصل الإيمان ؛ وإلا فنحن نفضِّلُ بعضهم على بعض ؛ لتفضيل الله لبعضهم على بعض ؛ قال تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] .

إذًا فالله تبارك وتعالى فضَّل بعضَ الرسلِ على بعضٍ ؛ لكننا لا نفرق بين رسول ورسول في أَصْلِ الإيمان ؛ أي : بالله ـ تبارك وتعالى ـ وبأنبيائه ورسله ـ عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه ـ فالركن الرابع من أركان الإيمان هو الإيمان بالرسل ؛ فنسأل الله أن يحشرنا معهم في جنات النعيم ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

خامسًا : الركن الخامس من أركان الإيمان
الإيمان باليوم الآخر

وسمِّي باليوم الآخر ؛ لأنه آخر أيام الدنيا ، وهو يوم القيامة ، أو لأنه اليوم الذي لا ليل بعده ، لا يصحُّ لأحدٍ إيمان إلا إن حقق الإيمان باليوم الآخر ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [البقرة:١٧٧] ، يبدأ هذا اليوم بالموت ، وبعد الموت بعث ، وبعد البعث حشر ، وبعد الحشر حساب ، وبعد الحساب ميزان ، وبعد الميزان صراط ، وبعد الصراط جنة أو نار !! يبدأ بالموت ؛ كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩] ، والحقُّ أنك تموت ، والله حيٌّ لا يموت .. والحقُّ أن ترى عند الموت ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .. والحقُّ أن يكون قبرك روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران ، ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي : تهرب وتجري وتفر .. تحيد إلى الطبيب إذا جاءك المرض ؛ خوفًا من الموت ، وتحيد إلى الطعام إذا أحسست بالجوع ؛ خوفًا من الموت ، وتحيد إلى الشراب إذا أحسست بالظمأ ؛ خوفًا من الموت !! ثم ماذا ؟! أيها القوي الفتي .. أيها الذكيُّ العبقري .. يا أيها الكبير ، ويا أيها الصغير .. يا أيها الغني ، ويا أيها الفقير .

كُلُّ باكٍ فسيبكى ... وكُلُّ ناعٍ فسينعى

وكُلُّ مذكورٍ سينسى ... وكُلُّ مدخورٍ سيفنى

ليس غير الله يبقى ... من علا فالله أعلى

وخاطب رَبُّنا نَبِينا ﷺ بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ

فَهُمُ ٱلۡخَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٤] .

فهذا اليوم يبدأ بالموت .. يأمر الله تبارك وتعالى إسرافيل بالنفخ في الصور ؛ والنفخة الأولى هي : نفخة الصعق ؛ قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر:٦٨] ، قيل : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، وحملة العرش ، وقيل : الملائكة ، وهناك أقوال كثيرة (١) .. لكن في النهاية سيموت الكلُّ ، ويصعق حتى ملك الموت ، ولا يبقى إلا ملك الملوك جَلَّ جَلَالُهُ .. يُفني الله جميع خلقه ، ثم يقول سبحانه : ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ [غافر:١٦] ، فيجيب نفسه المقدسة بقوله : ﴿ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ ذهب كلُّ ملك وملكه ،وكلُّ جبار ومتكبر ، وانقطعت دعاويهم ! ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] ، ثم بعد ذلك يحيي الله إسرافيل ، ويأمره بالنفخ في الصور نفخة ثانية ؛ ألا وهي : نفخة البعث ؛ قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ؛ وماذا في هذه النفخة ؟ قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٍ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتًا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَـٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:١-٨] .

نعم .. إذا نفخ الملك نفخة البعث ، وهي النفخة الأخيرة ، قام جميع أهل القبور من قبورهم أحياء للحساب والجزاء ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ [يس:٥١] . أي : يسرعون في المشي من القبور إلى أرض المحشر ؛ قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات:١٣،١٤] .

(١) انظر : «التذكرة» للقرطبي (١٦١ ،١٦٢) ط دار الدعوة .

وقد كذَّب المشركون بالبعث ؛ كما قال تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن:٧] ؛ وكقوله تعالى عنهم : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون:٣٧]

براهين البعث :

وقد ذكر لنا الله في القرآن أمثلة عديدة لقضية البعث ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٠] . وقبلها ذكر قصة العزير ؛ ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ الآية [البقرة:٢٥٩] ، والأدلة في ذلك كثيرة ؛ فالله الذي خلق من العدم قادرٌ على أن يعيد من موجود ؛ كما في «صحيح مسلم» عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قال : « **إِنَّ فِي الإِنْسَانِ عَظْمًا لاَ تَأْكُلُهُ الأَرْضُ أَبَدًا ، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ». قَالُوا : أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **عَجْبُ الذَّنَبِ** »[1] ، وعَجْبُ الذَّنب : عبارةٌ عن عظمة دقيقة جدًّا في آخر السلسلة الفقرية ، إذا بلي الجسد كلُّه ، وصار ترابًا ، تبقى هذه العظمة ، يُركِّب الله سبحانه وتعالى حَوْلَها جسدَ صاحبها مرة أخرى ، ليوقف الله العبدَ يوم القيامة ، والأمر يسير على الملك القدير ؛ ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال : « **كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ ، قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ، ثُمَّ اطْحَنُونِي ، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ ، فَوَالله لَئِنْ قَدَرَ الله عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا ، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ**

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الفتن وأشراط الساعة» ، باب ما بين النفختين (٢٩٥٥) (١٤٣) .

بِهِ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ : اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ ، فَفَعَلَتْ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ ، خَشْيَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ ». وَقَالَ غَيْرُهُ : « **مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ** »[1].

فهذا الرجل لم يقل هذا ولم يفعل ذلك كفرًا بالله ، وإنما خوفًا من الله !! فهذا مقامٌ غلب عليه فيه الخوف ، كما غلب على الآخر الفرحُ والدهشة ؛ فقال : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » فلا ينبغي أن نتعجل بإصدار الأحكام على الناس إذا قالوا قولة كُفرية ؛ لأنك لا تعلم أحوال الخلق ، وأحوال العباد ، فربما غلب عليه الخوف ،وربما غلب عليه الفرح فقال ما قال ، حتى تُبين له الحجة ، وحتى يفهم الحجة ، حين ذلك تستطيع أن تسقط عليه الحكم باطمئنان ، أما التعجلُّ بدون فهمٍ دقيق ، ووعي عميق ، فقد يوقعنا في مزلة جائرة ، وهي القول على الله بغير علم !! أسأل الله أن يرزقنا وإياكم الأدب معه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

فالبرهان الأول ؛ إحياء بعض الموتى في دار الدنيا ، ومن أحيا نفسًا واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس ؛ كما قال تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[لقمان:٢٨] .

ومن براهين على البعث : خَلْق السموات والأرض ؛ والأدلة على ذلك كثيرة ؛ كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[يس:٨١] ، وكقوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[غافر:٥٧] .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب حديث الغار (٣٤٨١) ، ومسلم ،كتاب «التوبة» ، باب سعة رحمة الله ﷻ (٢٧٥٦) .

البرهان الثالث :خلق الإنسان ؛ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس:٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... ﴾ [الروم:٢٧] .

البرهان الرابع(١) : إحياء الأرض بعد موتها ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق:١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج:٥، ٦] .

فالبعث حقٌّ .. يبعث الله من في القبور ؛ ليحشر الجميع إلى أرض المحشر ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة:٤٩، ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء:٨٧] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق:٤٤] . فإذا خرج الناس من القبور وجدوا مَلَكًا أرسله المَلِكُ القدير ليقود الخلق جميعًا إلى أرض المحشر ؛ كما قال ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾ [طه:١٠٥-١٠٨] . الآيات .

لا أحد يستطيع أن يتأخر ، ولا أن يتخلف ، أو يتفلَّت ؛ فيخرج الكلُّ وراء هذا الداعى ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر:٨] ،الكل تابعٌ ذليلٌ منقاد ، ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم:٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء:٥٢] ، وقال تعالى مبينًا أنه لا يتخلف

---

(١) راجع «أضواء البيان »للعلامة الشنقيطي(١/ ٢٣، ٢٤، ٤٦، ٤٥، ٦٨) ، (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤) .

أحد : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣-٩٥] .

صفة حشر الناس إلى الله تعالى :

يُحْشَرُ النَّاسُ يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً ؛ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**»(١) من حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً** » قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ ﷺ : « **يَا عَائِشَةُ ، الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ** » ، وفي رواية: «**الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يهِمَّهم ذَاكَ** ». ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس:٣٧] ، أخي: لو تدبرت هذا الحديث لا نخلع قلبك من هول هذا اليوم .. رجلٌ عارٍ أمام امرأةٍ عارية ، لا يلتفت إليها ، ولا تنشغل هي به !! فالأمر أشدُّ من أن يهمه ذلك .

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**»(٢) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ ، وَهُوَ يَقُولُ : « **إِنَّكُمْ مُلاَقُو الله مُشَاةً حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً** ». وفي رواية : قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ ، فَقَالَ : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً** ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤] .

غرلاً : أي : غير مختونين ؛ فمن قطع منه عُضْوٌ يرد في القيامة عليه ، حتى الختان (٣).

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب كيف الحشر ، (٦٥٢٧) ؛ ومسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار » باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب كيف الحشر ، (٦٥٢٤-٦٥٢٦) ، ومسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار »(٢٨٦٠).

(٣) «التذكرة» (ص٢٠٣) .

أصناف الناس على أرض المحشر :

والناس يوم القيامة أصناف : **صنفٌ يحشر على وجهه** ، وهم الكافرون ؛ ففي «**الصَّحِيحَيْنِ**» من حديث أنس ﷺ : أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا نَبِيَّ الله ، يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : « **أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟** ». قَالَ قَتَادَةُ : (بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا)[1] . **وأنا أقول** : بلى وعزة ربنا إنه لقادر ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء:٩٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:١٢٤] .

وصنف آخر كريم : إذا تشققت القبور ، وتصدَّعت الأرضُ عن أهلها ، يخرج هذا الصنف من القبور ؛ فيرى الملائكة في استقباله ؛ اللهم اجعلنا منهم بمنك وكرمك .. لقد أعدَّت لهم الملائكةُ من ركائب الجنة ما لا يعلم جمالها وجلالها إلا من أعدَّها وهو الله سبحانه وتعالى ؛ **فمَنْ هؤلاء السعداء** : إنهم المتقون ؛ فلا يمشي التقيُّ في أرض المحشر على قدميه ؛ وإنما يركبُ من ركائب الآخرة ما الله به عليم ! ربما في الدنيا لا يقدر على أن يركب درَّاجة ، أو أن يركب حمارًا ؛ لكنه في الآخرة وهو التقيُّ النقيُّ الموحِّدُ بالله يركب من ركائب الآخرة ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم:٨٥] ، قال جمهور المفسرين ؛ أي: ركبانًا ، نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء السعداء .

أهوال الموقف :

قال المحاسبيُّ في كتاب «التوهم والأهوال» : « يحشر الله الأمم من الإنس

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التفسير» ، باب قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٣٤] ، (٤٧٦٠) ، ومسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦) .

والجن عراة أذلاء قد نزع المُلْكَ من ملوك الأرض ، ولزمهم الصَّغار بعد عتوهم ، والذلة بعد تجبرهم على عباد الله في أرضه . ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور من غير ريبة ، ولا خطية أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان ، حتى إذا تكاملت عدة الموتى ، وخلت من سكانها الأرض والسماء ؛ فصاروا خامدين بعد حركاتهم ، فلا حس يسمع ، ولا شخص يُرى ، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزليًا واحدًا منفردًا بعظمته وجلاله ، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله ﷻ بالذل والصغار منك ومنهم . فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى ، فطار فؤادك ، وشاب رأسك للنداء ؛ لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء ـ فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك ، فوثبت مغبرًا من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك ، شاخص ببصرك نحو النداء ، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مُغَبَّرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم .

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم ، فتوهم نفسك بعريك ، ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة ، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدّة المنادي ، والخلائق مقبلون نحوه ، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت ، ساعٍ بالخشوع والذلة ، حتى إذا وافيت

الموقف ازدحمت الأمم كلُّها من الجن والإنس عراة حفاة ، قد نـزع المُلْكُ مـن ملوك الأرض ، ولزمتهم الذلة والصَّغار ، فهـم أذل أهـل الجمـع وأصغرهم خلقة وقدرًا بعد عتوّهم وتجبرهم على عباد الله ﷻ في أرضه .

ثم أقبلت الوحوش من البراري ، وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذلِّ يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بليَّة نابتها ، ولا خطيئة أصابتها ، فتوهم إقبالها بذلِّها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور .

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت مـن وراء الخلائـق بالـذل والمسكنة والانكسـار للملـك الجبار ، وأقبلت الشياطين بعد عتُوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه ؛ فسبحان الـذي جمعهـم بعـد طـول الـبلاء واخـتلاف خلقهـم وطبـائعهم ، وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث ، وجمع بينهم النشور .

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها ، واستووا جميعًا في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم ، وطمست الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء نورها . فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم ، فدارت بِعِظَمِهَا من فوق رؤوسهم ، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك ، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام ، فيا هَوْل صوت انشقاقها في سمعك ، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر ؛ فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها ، فأذابها ربُّها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة ؛ كما قال الجليل الكبير : ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن:٣٧] ،

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج:٨، ٩].

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله ﷻ. فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيلاً لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم. فتوهمهم، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك؛ وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد وعظم الأجساد، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفًّا.

حتى إذا وافى الموقف أَهْلُ السموات السبع والأرضين السبع كسيت الشمس حر عشر سنين، وأدنيت من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظِلَّ لأحد إلا ظلَّ عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرها واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضهم بعضًا، وتضايقت؛ فاختلفت الأقدام، وانقطعت الأعناق من العطش، واجتمع حر الشمس، ووهج أنفاس الخلائق، وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على

وجه الأرض ، ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عَزَّوَجَلَّ بالسعادة والشقاء ، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه .

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦] ، قَالَ: «**يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ** ».

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « **إِنَّ الْعَرَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيَذْهَبُ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا ، وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ إِلَى أَفْوَاهِ النَّاسِ أَوْ إِلَى آذَانِهِمْ** ».

وفي «**صحيح مسلم**» (٣) عن الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « **تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ** » قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ : ـ أحد الرواة ، وهو تابعيٌّ : فَوَالله مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ ، قَالَ : « **فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التفسير» ، باب ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦] ، (٤٩٣٨) ، ومسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب صفة القيامة أعاننا الله على أهوالها (٢٨٦٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب قول الله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٤-٦] ، (٦٥٣٢) ، ومسلم ، كتاب «صفة القيامة» ، باب صفة القيامة أعاننا الله على أهوالها (٢٨٦٣) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب صفة القيامة (٢٨٦٤) .

إِلْجَامًا » قَالَ : وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

فتوهم نفسك راجعة لكربك وقد علاك العرق ، وأطبق عليك الغم ، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب ، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء ، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه ، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم .

قال الحسن [(١)] : « ما ظنك بأقوام قاموا لله ﷻ على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ، ولم يشربوا فيها شربة حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش ، واحترقت أجوافهم من الجوع انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية ، قد آن حرها ، واشتد نفحها » ؛ فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلَّم بعضهم بعضًا في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ، ففزعوا إلى آدم ونوح ، ومن بعده إبراهيم ، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم ، كلُّهم يقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، فكلُّهم يذكر شدة غضب ربه ﷻ وينادي بالشغل بنفسه ؛ فيقول: نفسي نفسي ؛ فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم ؛ لاهتمامه بنفسه وخلاصها ، وكذلك يقول الله ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل:١١١] .

فتَوهَّم أصواتَ الخلائق وهم ينادون بأجمعهم ، منفردٌ كلُّ واحدٍ منهم بنفسه ، ينادي : نفسي نفسي ، فلا تسمع إلا قول: نفسي نفسي ، فيا هول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك

---

(١) انظر :«النهاية في الفتن» (١٢١) .

وعقابه ؛ فما ظنك بيومٍ ينادي فيه المصطفى آدم ، والخليل إبراهيم ، والكليم موسى ، والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله ﷻ وعظم قدر منازلهم عند الله ﷻ ، كلٌّ ينادي : نفسي نفسي ، شفقًا من شدة غضب ربه ؛ فأين أنت منهم في إشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم ، وبحزنك وبخوفك ؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبيَّ محمدًا ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها [(١)] ، ثم قام إلى ربه ﷻ واستأذن عليه فأذن له ، ثم خرَّ لربه ساجدًا ، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كلُّه بسمعك وأسماع الخلائق ، حتى أجابه ربه ﷻ إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم [(٢)] .

فعندما يشتد البلاء بالناس في الموقف العظيم ، ويطول بحث العباد عن أصحاب المنازل العالية ليشفعوا لهم عند ربهم ؛ كي يأتي لفصل الحساب ، وتخليص الناس من كربات الموقف وأهواله .

ثم بعد ذلك يأتي الحساب والجزاء ، ويقف الناس بين يدي الملك الحق ليعرض عليهم أقوالهم وأعمالهم .

قال القرطبيُّ في «التذكرة» [(٣)] : « فإذا جاء وقْتُ الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون يذكر أعمال الناس فأُوتوها ؛ فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه فأولئك هم السعداء ، ومنهم من يؤتى

---

(١) راجع أحاديث الشفاعة في «الصحيحين» ؛ البخاري ، كتاب «التوحيد» ، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٧٥٠٩) ، ومسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) وغيرها من المواضع .

(٢) كتاب «التوهم والأهوال» (ص٥) ؛ كما في التذكرة (ص٢٢٨وما بعدها) ، وانظر : كتاب «القيامة الكبرى» للدكتور الأشقر حفظه الله (١٠٠ وما بعدها) .

(٣)«التذكرة» (٢٥١وما بعدها) .

كتابه بشماله أو مِن وراء ظهره وهم الأشقياء ، فعند ذلك يقرأ كلٌّ كتابه. وأنشدوا:

مَثِّل وقوفك يوم العرض عريانًا مستوحشًا قلق الأحشاء حيرانا

والنارُ تلهبُ من غيْظٍ ومن حنقٍ على العصاة وربُّ العرش غضبانا

اقرأ كتابك يا عبدي على مهلٍ فهل ترى فيه حرفًا غير ما كانا

لَّما قرأتَ ولم تنكر قراءته إقرار مَنْ عرف الأشياء عرفانا

نادى الجليل : خذوه يا ملائكتي وامضوا بعبدٍ عصى للنار عطشانا

المشركون غدًا في النار يلتهبوا والمؤمنون بدار الخلد سكانا

فتوهَّم نفسك أخي إذا تطايرت الكتب ، ونصبت الموازين ، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق أين فلان ابن فلان؟ هلمَّ إلى العرض على الله تعالى ، وقد وُكِّلت الملائكة بأخذك فقربتك إلى الله لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذ قرع النداء قلبك ، فعلمت أنك المطلوب ، فارتعدت فرائصك ، واضطربت جوارحك ، وتغيَّر لونك ، وطار قلبك . تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه والوقوف بين يديه ، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم وأنت في أيديهم ، وقد طار قلبك ، واشتد رعبك لعلمك أين يراد بك .

فتوهَّم نفسك وأنت بين يدي ربك في يدك صحيفة مخبرة بعملك ، لا تغادر بليةً كتمتها ، ولا مخبأة أسررتها ، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل ، وقلب منكسر ، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك ، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها ، وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها ، وكم من عملٍ ظننت أنه سلم لك وخلص فردَّه عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أَمَلُكَ فيه عظيمًا ، فيا حسرة قلبك ، ويا أسفك على ما

فرطت فيه من طاعة ربك» ا.هـ .

فالحساب يبدأ يوم القيامة بعرض الصحف ؛ قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة:١٩ـ ٢٩] ، أين المال والجاه والسلطان ؟! الكلُّ هلك ، والكلُّ ضاع ! ولا حول ولا قوة إلا بالله : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:٤٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾[آل عمران:٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩] .

وبعد الحساب يأتي ميزان الأعمال ؛ فالحساب لتقدير الأعمال ، والميزان لبيان مقدارها ؛ ليجازي الله بحسبها [1] ، وما ربك بظلام للعبيد ؛ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[الزلزلة:٧، ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) قال القرطبي في «التذكرة» (٣٠٧): « قال العلماء: وإذا انقضى الحساب كان بعد وزن الأعمال ؛ لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة ؛ فإن المحاسبة لتقدير الأعمال ؛ والوزن لإظهار مقاديرها ؛ ليكون الجزاء بحسبها ، قال تعالى ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾[الأنبياء:٤٧] » ا.هـ

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:٨، ٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١ـ١٠٤] .

قال الحكميُّ [(١)] :

والوزن بالقسط فلا ظلم ولا ... يؤخذ عبدٌ بسوى ما عملا

فبين ناجٍ راجح ميزانه ... ومقرف أَوْبقه عداونه

ونحن الموحدين نؤمن بميزانٍ حِسِّيٍّ له كفتان [(٢)] ، كما هو رأى أهل السنة والجماعة ، لكن لا يعلم عظم الكفتين إلا ربنا سبحانه وتعالى ، ويدلُّ على كونه كفتين حديث البطاقة وفيه: « **فَتُوضَعُ السِّجِلَّات فِي كَفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ** » [(٣)] .

هذا الميزان توزن فيه الأعمال ، ويوزن العبد نفسه بأعماله كذلك ، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم ، **قال الحكميُّ في «معارج القبول»** [(٤)] ـ بعد عرض الأقوال الواردة في ذلك : « قلت : والذي استظهر من النصوص ـ والله أعلم ـ أن العامل وعمله وصحيفة عمله كلُّ ذلك يوزن ؛ لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكلٍّ من ذلك ، ولا منافاة بينها» ؛ فمن ثقلت موازينه ؛ فقد سعد سعادة لا شقاء بعدها أبدًا ، ومن خفت موازينه ؛ شقي

---

(١) انظر : «معارج القبول» (٢/ ٨٤٤) .

(٢) انظر : «التذكرة» (٣١١) ، و« فتح الباري» (١٣/ ٥٤٨) عقب حديث (٧٥٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣، ٢٢١) ، والترمذي ، كتاب «الإيمان عن رسول الله ﷺ » ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد ألا إله إلا الله (٢٦٣٩) وابن ماجه ، كتاب «الزهد» ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠) ، وعبد بن حميد (٣٣٩) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥).

(٤) (٢/ ٨٤٨ ـ ٨٤٩) .

شقاوة ؛ نسأل الله ألا يجعلنا وإياكم جميعًا من أهلها .

وبعد الميزان صراط ؛ وهو جسرٌ على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط [(١)] ؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها : سألْتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨] ، فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : « **عَلَى الصِّرَاطِ** » [(٢)] وفي حديث ثوبان : « **هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ** » [(٣)] .

قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧٢] .

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور ، على أقوال ؛ رجح شارح الطحاوية أنه المرور على الصراط [(٤)] .

فالصراط جسر دقيق جدًّا ، وحاد جدًّا.

قال أبو سعيد : « بلغني أنَّ الجسر أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف » [(٥)] .

وهو مزلة تزلُّ عليه الأقدام ، ولا تثبت إلا لمن ثبت الله أقدامه ؛ ففي «**الصحيحين**» ــ واللفظ للبخاريِّ ــ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِل عن الصراط ؟ فقال : « **مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ ، تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا** :

---

(١) «شرح الطحاوية» (٢٢٩) ط أولى النهى .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة (٢٧٩١) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الحيض» ، باب بيان صفة منيِّ الرجل والمرأة (٣١٥) .

(٤) راجع في هذه المسألة «شرح الطحاوية» (٢٣٠) ، و«التذكرة» (٣٣٠)، و«أضواء البيان» (٤/ ٣٧٦ وما بعدها) .

(٥) عند مسلم ، في «كتاب الإيمان» ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

السَّعْدَانُ ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا »[(١)] الحديث .

قال الحكميُّ في «معارج القبول»[(٢)] :

وينصبُ الجسرُ بلا امتراءِ … كما أتى في مُحْكَمِ الأنباءِ

يجوزُهُ الناسُ على أَحْوالِ … بقدر كسبهم مِنَ الأعمالِ

فبينَ مجتازٍ إلى الجنانِ … ومسرفٌ يُكَبُّ في النيرانِ

وبعد الصراط قنطرة ، قد لا يعرفها كثيرٌ من المسلمين ، لا يمرُّ عليها إلا أهل الإيمان الذين نجاهم الله من الصراط ؛ ليتقاصُّوا مظالم كانت بينهم في الدنيا ؛ لأنه لا يدخلُ الجنَةَ أحدٌ وعليه مظلمةٌ لأحدِ إخوانه من أهل الإيمان أبدًا !!

والحديث الدالُّ على ذلك في «صحيح البخاري» من حديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا »[(٣)] ؛ فكما تذهبُ إلى بيتك لا تحتاج مَنْ يدلُّك عليه ، كذلك ينصرف أهلُ الإيمان بعد هذا القصاص على هذه القنطرة ، كُلٌّ إلى منزلِهِ في الجنة ، لا يحتاج أحدهم أن يسأل ملكًا من

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «التوحيد» ، باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢] ، (٧٤٣٩) ، ومسلم ، في كتاب «الإيمان» ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) .

(٢) « معارج القبول» (٢/ ٨٥٠) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «الرقاق» ، باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٥) .

الملائكة ؟ كما قال ربُّنا : ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد:٦] ؛ قال أكثر أهل التفسير [١] : وإذا دخل أهل الجنة الجنة يقال لهم : تفرقوا إلى منازلكم ؟ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم .

نسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة ؛ فبعد الصراط القنطرة للمؤمنين ، وبعدها الجنة ، أو يكون بعد الصراط النار للكافرين والمشركين والمنافقين ؛ ففي النهاية إما جنة أبدًا ، أو نار أبدًا ، وأبدأ بالحديث عن النار ، ثم أعقب بالحديث عن الجنة ؛ فأسأل الله أن يجعلها خاتمتنا بمنه وكرمه.

أما النار ؛ فالطعام فيها نار ، والشراب فيها نار ، والثياب فيها نار !!

طعامهم زقوم ، وضريع ، وغسلين ، والآيات على ذلك كثيرة ؛ أجتزئ في هذا المقام بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[الحاقة:٣٥-٣٦] ، أي: صديد أهل النار ، وما يسيل من أبدانهم ، وقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية:٥، ٦] . حتَّى الثياب تُفَصَّل لأهل النار من النار ؛ قال تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ [الحج:١٩] ، حتَّى الماء ؛ إذا غُلي الطعام ، واشتعلت النار في البطون استغاثوا ، وطلبوا من ربهم ماءًا ، فأمدهم بماء ، ولكنه كالزيت المغلي يشوي الوجوه ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ ﴾[الكهف:٢٩] ، أي : كالزيت المغلي ﴿ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

---

(١) انظر «التذكرة» للقرطبي (٣٣٧) ، و«حادي الأرواح» (٣٠٨) ، (الباب السابع والثلاثون) .

[الكهف:٢٩] ؛ وقال تعالى : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد:١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ [إبراهيم:١٦، ١٧] ، فإذا شربه قَطَّع أمعاءه !! ؛ بل إن أهون أهل النار عذابًا رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان من نار ، فيغلي منهما دماغه ؛ وهو يرى أنه أشد أهل النار عذابًا ، إلا أنه أهون أهل النار عذابًا ؛ ففي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (١) من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « **إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا ، وَإِنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا** » .

وفي «**صحيح مسلم**» (٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا ، يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ ، يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ** » .

أما الجنة ؛ ففيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطَرَ على قَلْبِ بشر (٣) ، من دخلها ينعم ولا يبأس ، ويخلد ولا يموت ، لا يفنى شباب أهل الجنة ، ولا تبلى ثيابهم ، ولا ينتهي نعيمهم ؛ ففي «**صحيح مسلم**» (٤) من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال : « **مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ : يَنْعَمُ لاَ يَبْأَسُ ، لاَ تَبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلاَ يَفْنَى شَبَابُهُ** » .

وفي «**صحيح مسلم**» (٥) كذلك عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبيِّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) ، ومسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب أهون أهل النار عذاباً (٢١٣) (٣٦٤) واللفظ له .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب أهون أهل النار عذابًا (٢١١) .

(٣) والحديث في ذلك في «الصحيحين» ، البخاري ، كتاب « بدء الخلق » ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، برقم : (٣٢٤٤) ،ومسلم ، كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها »(٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب في دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٦) .

(٥) المصدر السابق (٢٨٣٧).

قال: « يُنَادِي مُنَادٍ : إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَدًا »؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف:٤٣] .

ولو تتبعنا وصْفَ ربنا تبارك وتعالى للجنة ، والله لطاشت العقول ! لما فيها من العجب العجاب ، وأسوقُ فقط بعض الآيات ؛ كقوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر:٢٠] .

وقوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة:١٧ـ١٩] .

وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن:٥٤] .

وقوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [الغاشية:١٣ـ١٦] .

وتدبر معي آيات من سورة الإنسان ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن

فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[الإنسان:٥ـ ٢٢] .

يكفى أن تعلم أن بناءها لبنةٌ من ذهب ، ولبنة من فضة .. تصوَّر أن (المونة) تلك المادة التي ستوضع بين اللبنتين أو الطوبتين هي المسك ؛ لبنة من ذهب ، ولبنه من فضة ، وملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ ، والياقوت ، وترابها الزعفران [(١)] ولن نتحدث عن حورها ، ولا عن حريرها ، ولا عن أنهار اللبن ، ولا عن أنهار الخمر ، ولا عن أنهار العسل ، ولن أتحدث عن الفضة ، ولا غيرها ، **ولكن أقولُ** : اعلم بأن أعلى نعيم في الجنة هو التمتع بالنظر إلى وجه الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فإذا انشغل أَهْلُ الجنة بهذا النعيم ، انشغلوا به عن كُلِّ نعيم ، لا يلتفتون بعد ذلك إلى فضة ، ولا إلى ذهب ، ولا إلى حور ، ولا إلى حرير ، ولا إلى أنهار من خمر ، أو عسل ، أو لبن ؛ قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] ، أي: أكبر من كُلِّ ما في الجنة من ألوان النعيم .

وصدق القائل :

قليـلٌ منـك يكفينـي ولكـن قليلـك لا يُقـال لـه قليـل [(٢)]

ويزيل ابن القيم بفهمه الراقي الدقيق إشكالاً هنا ؛ فيقول [(٣)] : « والتحقيقُ أن

---

(١) راجح الأحاديث الواردة في ذلك مبسوطة في «كتاب حادي الأرواح» للعلامة ابن القيم (٢٨٥ـ ٢٩٣) (الباب الرابع والثلاثون) .

(٢) انظر : «مغني اللبيب» (١٤٥ ط الفكر) ، و«الإتقان» للسيوطي (١/ ٥٥٧) وقد سبقت نسبته .

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٨٠) ، ط دار الكتاب ، بتصرف يسير .

يقال : الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والأنهار والقصور والحور العين ؛ فأكثر الناس يغلطون في مسمَّى الجنة ؛ فإن الجنة اسمٌ لدار النعيم المطلق الكامل ، وأعظم هذا النعيم هو التمتع بالنظر إلى الرب الكريم» .

قال ابن القيم : « فأيسرُ يسيرٍ من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من نعيم » .

قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] ، أي : أكبر من الجنة وما فيها من نعيم ، ولفظةُ: (ورضوان) جاءت نكرة في سياق الإثبات ؛ فالمعنى : أيّ شيءٍ من رضوانه تعالى على عبد ؛ فهو أكبر وأجل وأعظم من كلِّ ما في الجنة من نعيم [١].

قال ابن عاشور في «تفسير التحرير» [٢] : « والتنكير في «رضوان» التنويع يدلُّ على جنس الرضوان ، وإنما لم يقرن بلام تعريف الجنس ليتوسل بالتنكير إلى الإشعار بالتعظيم ؛ فإن رضوان الله عظيم ، «أكبر » تفضيل لم يذكر معه المفضل عليه ؛ لظهوره من المقام ، أي : أكبر من الجنات ؛ لأن رضوان الله أَصْلٌ للجميع ، وفيه دليلٌ على أن السعادات الروحانية أعلى وأشرق من الجثمانية» .

روى الإمام مسلمٌ في «صحيحه» [٣] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : **« إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، قَالَ : يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا**

---

(١) انظر «تفسير الزمخشري» (٢/ ٢٠٢) ، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٣٦) ط أولاد الشيخ ، و«المدارج» (٢/ ٨) ، و «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٣٩٣) ط مكتبة نزار .

(٢) « تفسير التحرير والتنوير » لمحمد الطاهر ابن عاشور (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٥) ط الدار التونسية للنشر.

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١).

أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ».

قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦] ، و﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ : هي الجنة . ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ : هي النعيم والنظر إلى وجه الخالق تبارك وتعالى [١] .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالُوا : يَا رَبِّ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » [٢] ؛ فاللَّهم اجعلنا أهلاً لرضوانك .

قيل للإمام أحمد [٣] : متى يجد العبد طعم الراحة ؟قال : « عند أول قدم يضعها في الجنة».

ولله درُّ القائل :

أحـــزانُ قلبـــي لا تـــزول حتـــــى أُبشَّر بـــــالقبول

وأرى كتــــابي بـــاليمين وتقـــرَّ عينـــي بالرســـول

اللهم لا تحرمنا من التمتع بالنظر إلى وجهك الكريم ، وإن قصَّرت أعمالنا ، يا أرحم الراحمين ؛ فالركن الخامس من أركان الإيمان هو الإيمان باليوم الآخر .

---

(١) انظر : «حادي الأرواح» (٣٤٤ـ٣٤٩) ط ابن رجب .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «الرقاق» ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩) ، ومسلم ، في كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها » ، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا (٢٨٢٩) .

(٣) انظر : «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ١١٥) .

سادسًا : الركن السادس من أركان الإيمان
الإيمان بالقدر خيره وشره

القَدَرُ لغةً :

قال في «القاموس المحيط» [١] : « القَدَرُ محركة : القضاء ، والحكم ، ومبلغ الشيء » .

وشرعاً ؛ قال ابن الأثير [٢] : « هو عبارة عما قضاه الله ، وحكم به من الأمور » .

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ [٣] :

« والقدر هو قدرة الله ؛ كما قال الإمام أحمد ، وهو المقدر لكلِّ ما هو كائن » .

وأجملُ لكم القول إجمالاً في هذا الركن ؛ **فأقول** [٤] : أهل النجاة ، والسعادة ، والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ هم من أخذوا عِلْم هذا الركن من مشكاة الوحي المبين ، من القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين ﷺ ، بفهم سلف الأمة الصالحين المتقين ، بعيدًا عن آراء المتهوِّكين ، وتشكيك المتشكيكين ، وتكلُّفات المتنطعين وزيغ المضللين ، ولقد زلَّت في هذا الباب أقدام ، وضلَّت في هذا الباب أفهام ، وتلعثمت في هذا الباب أقلام ؛ فالإيمانُ بالقدر الذي هو سرُّ الله - تبارك وتعالى - في خلقه، لم يَطَّلع عليه ملكٌ مقرَّب ، ولا نبيٌّ مرسل .

ودونك بعض أقوال السلف في ذلك :

---

(١) (ص٥٩١) .

(٢) في «النهاية» (٢/ ٤٢٢) .

(٣) في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٠٨) .

(٤) وهى تلخيص لكلمات نيرات للإمام ابن القيم في كتابه النفيس «شفاء العليل» (٣، ٤) ط دار التراث.

قال أبو المظفر السمعاني[١]: « سبيل المعرفة في هذا الباب : التوفيق إلى الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل ؛ فمن عدل عن التوفيق فيه ضلَّ ، وتاه في بحار الحيرة ، ولم يبلغ شفاء العين ولا ما يطمئن به القلب ؛ لأن القدر سرٌّ من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به ، وضرب دونه الأستار ، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ، لما علمه من الحكمة ، فلم يعلمه نبيٌّ مرسل ، ولا ملكٌ مقرب » .

ويقول الإمام الطحاوي ـ رحمه الله تعالى[٢]: « وأَصْلُ القدر سرُّ الله تعالى في خلقه ، لم يَطَّلع على ذلك ملكُ مقرب ولا نبيٌّ مرسل ، والتعمُّقُ والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسُلمُ الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كلُّ الحذر من ذلك ؛ نظرًا وفكرًا ووسوسة ؛ فإن الله طوى القدر عن أنامه ،ونهاهم عن مرامه ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣] » ا.هـ

والإيمان بالقدر خيره وشره ركنٌ من أركان الإيمان بالله ، لا يصحُّ إيمانُ العبد إلا به ، وأذكِّر بحديث عمر بن الخطاب **الذي رواه مُسْلمٌ** رحمه الله ؛ فقال[٣] : حَدَّثَنِي أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ كَهْمَسٍ ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ ح وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ وَهَذَا حَدِيثُهُ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا كَهْمَسٌ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ : كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا : لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ

---

(١) كما نقله عنه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٤٧٧) ط المعرفة .

(٢) «العقيدة الطحاوية»، (ص ٤٩، ٥٠) ، بتحقيق العلامة الألباني .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨) .

دَاخِلاً المَسْجِدَ فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي ، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ ، وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلامَ إِلَيَّ ، فَقُلْتُ : أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ ، وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ ، قَالَ : فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ الله مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ، ثُمَّ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ».

وساق الحديث الطويل الذي ذكرته بطوله في أول الكلام عن الإسلام ، والمعروف بحديث جبريل عليه السلام .

وتدبروا ـ معي ـ هذا التأصيل المهم في هذا الباب ؛ فالإيمان بالقدر له أربع مراتب وهي :

مراتب الإيمان بالقدر

المرتبة الأولى : مرتبة العلم .

والمرتبة الثانية : هي مرتبة الكتابة .

والمرتبة الثالثة : هي مرتبة المشيئة .

والمرتبة الرابعة : وهي مرتبة الخَلْقِ .

المرتبة الأولى : مرتبة العلم :

وهي : الإيمان بأن الله تبارك وتعالى قد أحاط علمه بكلِّ شيء من الموجودات والمعدومات والممكنات والمستحيلات .

فعلم ما كان سبحانه وتعالى وما هو كائن وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء .

فما من جبل على ظهر الأرض إلا ويعلم ما في وعره ، وما من بحر على سطح الأرض إلا ويعلم الله ما في قعره ، وما تحمل من أنثى ولا تضع على ظهر الأرض إلا بعلمه ، وما تسقط من ورقة في شجرة أو نخلة على سطح الأرض إلا بعلمه .

فعلم الله شاملٌ بكل شيء ، كامل محيط بكل شيء ؛ قال تبارك تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ [الحشر:٢٢] .

المرتبة الثانية : الكتابة :

ويدخل فيها خمسة تقادير :

التقدير الأول : هو التقدير الأزلي قبل خلق السموات والأرض ؛ فالله رازق قبل أن يخلق المرزوقين ، وعالم قبل أن يخلق الخلق الذي يعلم أحوالهم أجمعين .

قال ربُّنا تبارك وتعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] ، وقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد:٢٢، ٢٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:٧٥] .

وقال المصطفى ﷺ كما في «**صحيح البخاري**» [(١)] عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، فَقَالَ : « **اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ** ». قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا- مَرَّتَيْنِ - ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ** » قَالُوا : قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ الله ، قَالُوا : جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الأَمْرِ ، قَالَ : « **كَانَ الله وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** » فَنَادَى مُنَادٍ :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «بدء الخلق» ، باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧] ، رقم(٣١٩٠). وانظر أطرافه هناك .

ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ ، فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ ، فَوَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا.

الشاهد في الحديث : « وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ » هذا التقدير تقدير أزلي .

وروى الإمام مسلم في «صحيحه» [(١)] من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص أن النبيَّ ﷺ قال : « كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قَالَ : وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ».

والمراد : هو تحديد وقت الكتابة ، وليس أصل القدر ؛ فهو أزلي .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عليهما السلام عِنْدَ رَبِّهِمَا ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ، قَالَ مُوسَى : أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ ؟ فَقَالَ آدَمُ : أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ ، وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا ، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ قَالَ مُوسَى : بِأَرْبَعِينَ عَامًا ، قَالَ آدَمُ : فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟ » قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ».

التقدير الثاني : تقدير يوم الميثاق :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب «القدر» ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم (٢٦٥٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب وفاة موسى وذكره بعد رقم (٣٤٠٩) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، في كتاب «القدر» ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم (٢٦٥٢) واللفظ له .

هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢، ١٧٣] .

وعن أبي بن كعب ﷺ قال في الآية السابقة : «جمعهم فجعلهم أرواحًا ، ثم صورهم فاستنطقهم فتكلَّموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قال : إني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ﷺ أن تقولوا يوم القيامة : لم نعلم بهذا .

واعلموا أن لا إله غيري ولا رب غيري فلا تشركوا بي شيئًا ، إني سأرسل لكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتبي .

قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ولا رب غيرك وأقروا بذلك »[1] .

هذا الميثاق كتب الله ﷻ فيه برحمته وعدله أنه لن يؤاخذ الخلق بإقرارهم في هذا اليوم مع أن الخلق جميعًا قد أقروا في هذا اليوم بالوحدانية وأشهدهم على أنفسهم ، فشهدوا وأشهد عليهم السموات والأرض فشهدتا ، ومع ذلك لم يؤاخذهم الله بهذا الإقرار ؛ لأنهم حينما نزلوا إلى الأرض اجتالتهم الشياطين فأنستهم هذا الميثاق فوعد الله سبحانه وتعالى ألا يعذب منهم أحدًا إلا بعد أن يقيم عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

وروى **«البخاريُّ ومسلم»**[2] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ :

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٥) ، وابن جرير (٩/ ١١٥) رقم (١٥٣٧٤) ، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٣٠) ، والحاكم (٢/ ٣٢٣) ، وقال : «صحيح الإسناد» ، ووافقه الذهبي ، وعبد ابن حميد وابن مردويه ؛ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٠) ، وحسَّنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١/ ٤٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٣٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم واللفظ له ، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا (٢٨٠٥) .

« يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ : أَنْ لاَ تُشْرِكَ وَلاَ أُدْخِلَكَ النَّارَ ، فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ » .

قال الحافظ ابن حجر (١) :

«قوله : « وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ » فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأعراف:١٧٢] » .

وقد سبق حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللهَ عز وجل خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ » (٢) .

وروى أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم (٣) عن عبد الله بن قتادة السلميِّ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : «إِنَّ اللهَ عز وجل خَلَقَ آدَمَ ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ ، وَقَالَ : هَؤُلاَءِ فِي الْجَنَّةِ وَلاَ أُبَالِي ، وَهَؤُلاَءِ فِي النَّارِ وَلاَ أُبَالِي » . قَالَ : فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ ؟ قَالَ : « عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ » .

التقدير الثالث : التقدير العمري :

عند خلق النطف في الأرحام ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٤٨) ط الحديث .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤٢) وقال: «حديث حسن» ، وعبد الله بن أحمد في زوائد « المسند» (٢/ ١٧٦، ١٩٧) ، وابن حبان (٦١٩٦) ، وابن خزيمة (١٣٣٤) ، والحاكم (١/ ٣٠، ٣١) ، وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة (١٠٧٦) .

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦) ، وابن حبان (٣٣٨) ، واللالكائي (١٠٨١) ، والحاكم (١/ ٣١) وصححه ، والفريابي في «القدر» (٢٥، ٢٦) ، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٣٠) ، (٧/ ٤١٧) ، وأعلّه البخاريُّ ، وابن السكن ؛ كما في «الإصابة» (٦/ ٣١٨) ، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١٤٥٠) ، وصححه الشيخ الألباني في«الصحيحة»(٤٨) .

وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج:٥].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر:١١].

وقال النبيُّ ﷺ كما في «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث ابن مسعود قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ! إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»(١).

والقيد ـ كما ذكرت في حديث سهل: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ، في كتاب «بدء الخلق»، باب ذكر الملائكة رقم (٣٢٠٨) وانظر أطرافه هناك، ومسلم، في كتاب «القدر»، باب كيفية خلق الآدمي، في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقال فلان شهيد (٢٨٩٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (١١٢).

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»(١) من حديث أنس أن النبيَّ ﷺ قال: « **إِنَّ اللهَ ﷻ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ** ».

وفي «صحيح مسلم»(٢) من حديث أبي الطفيل عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: الشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، فَأَتَى رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُقَالُ لَهُ: حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ الْغِفَارِيُّ فَحَدَّثَهُ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَشْقَى رَجُلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَتَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ! فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « **إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا، وَبَصَرَهَا، وَجِلْدَهَا، وَلَحْمَهَا، وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ، رِزْقُهُ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ فَلاَ يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلاَ يَنْقُصُ** ».

التقدير الرابع: التقدير الحولي:

في ليلة القدر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان:٣ ـ ٥].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، في كتاب «القدر»، باب (١)، رقم (٦٥٩٥)، وانظر: (٣١٨)، ومسلم، في كتاب «القدر»، باب كيفية خلق الآدمي، في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٦).

(٢) أخرجه مسلم، في كتاب «القدر»، باب كيفية خلق الآدمي، في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٤٥).

قال مجاهد: ليلة القدر: ليلة الحكم.

وقال ابن عباس ﷺ: «يُكتب في أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال: يحج فلان وفلان».

وقال مقاتل: «يقدر الله تعالى في ليلة القدر أمر السنة في أرضه وفي عباده إلى السنة القابلة».

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية قوله: «إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى» [(١)].

وعن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك: «في ليلة القدر يُفْصَل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها» [(٢)].

التقدير الخامس: التقدير اليومي:

والآثار في ذلك عن الصحابة والأئمة كثيرة جدًّا.

قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

فالتقدير اليومي: هو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق؛ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

روى «البخاريُّ» ـ تعليقًا [(٣)]، موقوفًا ـ على أبي الدرداء ﷺ ـ ومنهم من

---

(١) انظر هذه الأقوال في «شفاء العليل» (ص٥٩)، ط دار الحديث.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٠)، ط دار الحديث، و«معارج القبول» (٢/ ٧٩٧)، ط المكتبة التجارية ونزار مصطفى الباز، و«تفسير ابن جرير» (لسورة الدخان:٣ـ ٦).

(٣) عند البخاري، في كتاب «التفسير»، باب سورة الرحمن، انظر: الفتح (٨/ ٧٦٢)، وقال الحافظ في «الفتح»: «وصله المصنف في «التاريخ»، وابن حبان، وابن ماجه، وابن أبي عاصم، والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعًا، وأخرجه البيهقي في «الشعب» من طريق أم الدرداء عن أبي الدرداء موقوفًا، وللمرفوع شاهد عن ابن عمر، أخرجه البزار وآخر عن عبد الله بن منيب، أخرجه الحسن بن سفيان، والبزار، وابن جرير، والطبراني». ا.هـ. انظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٧).

رفعه [١]، لكن الموقوف أصح ـ قال في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، قال: «مَنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ».

وقال الأعمش عن مجاهد، عن أبيه، عن عبيد بن عمير ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: «من شأنه أن يجيب داعيًا، أو يعطي سائلاً، أو يفك عانيًا، أو يشفي سقيمًا».

وقال مجاهد: «هو كل يوم يجيب داعيًا، ويكشف كربًا، ويجيب مضطرًا، ويغفر ذنبًا».

وقال قتادة: «لا يستغني عنه أهل السموات والأرض، يُحيي حيًّا، ويميت ميتًا، ويربي صغيرًا، ويفك أسيرًا، وهو منتهى حاجات الصالحين، وصريخهم ومنتهى شكواهم» [٢].

وقال الحسين بن فضيل: «هو سوق المقادير إلى المواقيت».

وقال أبو سليمان الداراني في هذه الآية: «كلُّ يوم له إلى العبيد برٌّ جديد».

وذكر البغوي ـ رحمه الله تعالى ـ قول المفسرين في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ **فقال**: «من شأنه أن يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويُعزُّ قومًا، ويذل قومًا، ويشفي مريضًا، ويفك عانيًا، ويفرج مكروبًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنبًا.. إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء» [٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية رقم (٢٠٢)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده حسن»، وابن حبان في «صحيحه»، في كتاب «التفسير»، باب سورة الرحمن رقم (١٧٦٣) ـ موارد ـ وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١)، وصححه الشيخ الألباني هناك بشواهده.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٧٥)، ط دار الحديث، و «معارج القبول» (٢/ ٧٩٨) وما بعده، ط نزار مصطفى، و«تفسير ابن جرير» (لسورة الرحمن:٢٩).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» مع تفسير البغوي (٦/ ٨٠، ٨١)، ط دار الكتب العلمية، وانظر كثيرًا من الآثار السابقة في «معارج القبول» (٢/ ٧٩٨، ٧٩٩) وما بعده، ط نزار الباز.

وجملة القول في ذلك: أن التقدير اليوميَّ هو سوق المقدور على العبد، وإنفاذه فيه في الوقت الذي سبق أن يناله فيه، لا يتقدمه ولا يتأخره، في الوقت الذي شاء الله تعالى وفي المكان الذي شاء.

وهكذا؛ فالتقدير اليومي تفصيلٌ من التقدير الحولي، والتقدير الحولي تفصيلٌ من التقدير العمري أو الأجلي، والتقدير العمري تفصيلٌ من التقدير الذي كتب في يوم الميثاق، وهذا التقديرُ هو تفصيلٌ من التقدير الأزلي الذي كتبه الله ﷻ يوم خلق القلم.

هذا بالنسبة للأقدار في الدنيا ومنتهى المقادير في الآخرة إلى علم الله تبارك وتعالى، وهكذا انتهت الأوائل إلى أوليته، وانتهت الأواخر إلى آخريته؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

أسألُ الله أن يرزقنا الإيمان بالقدر خيره وشره، وأن يرزقنا الرضا والتسليم والاستسلام؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

المرتبة الثالثة: **مرتبة الإرادة والمشيئة**.

إن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ عَلِمَ وأرادَ وشاء؛ فما شاء الله تعالى أن يكون فهو كائن بإرادته ومشيئته؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:١١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

فالسببُ في عدمِ وجودِ الشيء هو عدمُ مشيئتِهِ وإرادته لذلك ، لا لعجزه عن فعل ذلك ، ولا لعدم قدرته على فعل ذلك ، تنزه تبارك وتعالى عن ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦] .

فهذه المرتبة من مراتب الإيمان بالقدر تبين أن كلَّ ما يجري في الكون بمشيئة الله وإرادته ؛ فما من شيءٍ في الكون يقع إلا بمشيئة الله وإرادته .. لا تسقط ورقة من شجرة على وجه الأرض إلا بمشيئة الله وإرادته ، ولا تضع أنثى على وجه الأرض ذكرًا أو أنثى إلا بمشيئة الله وإرادته ، ولا تسود دولة ، ولا تزول دولة ، ولا يسود حاكم ، ولا يزول حاكم إلا بإرادة الله ومشيئته .

هذه القاعدة البيانية تؤكد قاعدة إيمانية عقدية ألا وهي : الإيمان بمرتبة الإرادة والمشيئة كمرتبة ثالثة من مراتب الإيمان بالقدر ؛ فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [المائدة:٤٨]

وقال الله تعالى لنبينا ﷺ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف:٢٣، ٢٤] ، وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦] .

المرتبة الرابعة : مرتبة الخَلْق :

وهذه المرتبة زلَّ فيها كثيرٌ من الفرق ؛ كالمعتزلة والقدرية الجبرية ، وأنا لا

أحبُّ أن أقف مع تفصيل أقوال الفرق في هذه المسألة حتى لا أشوش على أحدٍ من المسلمين ، وإنما يعنيني أن أؤصل المنهج الحق فحسب .

ومرتبة **الخلق هي** : أن الله تعالى خالقُ كلِّ شيء ، ومن ذلك أفعال العباد ، فلا يقع في هذا الكون شيءٌ إلا وهو خالقه .

والأدلة على هذه المرتبة من القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة كثيرة .

قال الله تعالى ـ حكاية عن إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ عندما حطَّم الأصنام وخاطب قومه : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٥،٩٦] ، ففيها إثبات لمرتبة الخلق؛ فالله تبارك وتعالى هو خالق كل شيء ، ومن هذا أفعال العباد .

وقال ﷺ كما في حديث حذيفة رضي الله عنه الذي رواه البخاريُّ في كتابه «خلق أفعال العباد» : « **إنَّ الله تَعَالَى يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ** »[١] .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر:٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [غافر:٦٢] .

فهذه نصوصٌ واضحة تبين مرتبة الخلق .

وهناك آيات كثيرة تدلُّ على أن الله تعالى هو الهادي المضل ، وهذا يدل على أن الله تعالى هو خالق كلِّ شيء .

قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات:٧] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ في « خلق أفعال العباد» (ص٧٣) ،وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٥٧، ٣٥٨) ، وصححه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣١) ،ووافقه الذهبي ، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» رقم (٣٧، ٥٧٠، ٨٢٥) من حديث حذيفة مرفوعًا ، وانظر : «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٣٧) .

ومن الأدلة الجميلة ؛ ما رواه البخاريُّ ومسلم [(١)] عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : رأيت النبيَّ ﷺ يوم الخندق ينقل التراب معنا ، وهو يقول :

وَاللهِ لَوْلاَ اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ صُمْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وفي لفظ البخاريِّ [(٢)]: « وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا » .

يقول تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[الحجرات:١٧].

والحديث دليلٌ على أن الله ﷻ هو خالق العباد ، وخالق أفعال العباد ، ومنها : الهداية والصلاة والصدقة ، إن تيسر شيء فبتيسيره ، وإن تعسر شيء فبتقديره ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[فصلت:٤٦] .

والله سبحانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من كلِّ أعمالهم .

*****

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب «القدر» ، باب ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعراف:٤٣]، رقم (٦٦٢٠) ، ومسلم في كتاب «الجهاد والسير» ، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق رقم (١٨٠٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب « المغازي» ، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق رقم (٤١٠٤) .

ثمرات الإيمان بالقدر

إن عقيدة الإيمان بالقدر التي كان عليها النبيُّ ﷺ وأصحابه مبرأة من التخاذل ، والتكاسل ،والخمول ،والإعراضِ عن العملِ ، والأخذِ بالأسباب ، الذي أصاب فئةً كبيرة من أبناء الأمة ممن أساؤوا فهمَ عقيدةِ القدر ؛ فسوءُ الفهمِ عن الله ورسوله ﷺ أصلُ كلِّ بدعةٍ وضلالةٍ نشأت في الإسلام ، قديمًا وحديثًا ؛ فَمَنْ تَأَمَّلَ في عقيدةِ القدرِ التي جاء بها الإسلامُ ، وعلمها النبي ﷺ لأصحابه ﷺ وجد فيها ثمارًا طيبةً كثيرةً ، كانت ـ وما زالت ـ سببًا في إصلاح الفردِ والمجتمع الإسلامي ، وقد قطفتُ من هذا البستان اليانع الماتع عشر ثمرات ، أسأل الله أن يجعلنا أهلاً لها ، ودونك هذه الثمرات :

الثمرة الأولى : الرضا واليقين

وقد بدأتُ بهذه الثمرة الكبيرة ، فهي من وجهة نظري أعظم الثمرات للإيمان بالقدر خيره وشره ؛ قال الله تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢] .

من فَهِم هذا فَهِم عقيدة القدر ، وعَلِمَ أنَّ كُلَّ شيء في الكونِ بقدر ، فما مِنْ وَرقَةٍ تَسْقُطُ من شجرةٍ أو نخلةٍ على وجه الأرض إلا بأمر الله وقدره وعلمه ، وما يقع شيء في الكون كلِّه إلا بتقديره سبحانه ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩] .

وفي «صحيح مسلم»[١] من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « **كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ».

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب «القدر» ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم (٢٦٥٣).

وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والترمذي [(١)] وغيرهما من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « **يَا غُلامُ ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ** ».

من استقرت هذه المعاني في قلبه امتلأ قلبه بالرضا عن الله ، واليقين بالله تبارك وتعالى ؛ فَصَاحِبُ الإيمان بالقدر يعيش عيشة هنيئة ، ويحيا حياة كريمة طيبة ؛ لأنه يعلم عِلْمَ اليقينِ أنه لن يصيبه إلا ما قدَّره له ربُّ العالمين ، ولن يخطئه ما قدره له الله ؛ قال ﷺ: « **وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ** » .

*****

(١) أخرجه الترمذي ، في كتاب «صفة القيامة» ، باب (٥٩) ، رقم(٢٥١٦)، وقال : «حسن صحيح» ، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٩٣) وسبق تخريجه .

الثمرة الثانية: الاستغناء بالخالق عن الخلق

ما أحلاها من ثمرة، وما أجملها من فائدة، وما أروعها للمسلم إن استقرت في قلبه عقيدة الإيمان بالقدر أن يستغني بالخالق عن الخلق.

وقد علِمْتَ كما أصَّلْتُ لك أنَّ كلَّ شيء بيد الله؛ فقلوبُ العباد بيد الله، لا تحوَّل لك بالحب، والبغض إلا بتقديره سبحانه !!!

والله لو استقرت هذه في قلبك لن تنافق مخلوقًا، ولن تخشى أحدًا على وجه الأرض، فهذا الذي ترجوه وتخافه قلبُهُ بيدِ من عصيت وهو الله سبحانه وتعالى؛ فالذي يُصرِّفُ لك القلوبَ بالحُب والبغضِ، والعطاء والمنع هو الله، إن صرفَ الله إليك قلبًا بحبٍّ فهذا تقديره، وإن صرف الله إليك قلبًا ببغض فهذا تقديره، وإن حوَّل الله إليك قلبًا بعطاءٍ فهذا تقديره، وإن حوَّل الله قلبًا إليك بمنع فهذا تقديره، إن كان ذلك كذلك، فلِمَ تعلِّق قلبك بالبشر وقلوبُ كلِّ البشر بيد رب البشر وخالقِ الخلق سبحانه وتعالى الذي يَقْدِرُ وحدهُ على أن يُصَرِّفَ لك القلوبَ بالبغضِ والحبِ والعطاء والمنعِ ؟!!

فلو اجتمع أهل الأرضِ بالثناء عليك لن يقربوك من الله إن كنت بعيدًا عن الله، ولو اجتمع أهل الأرض بذمك والبغض لك ما أبعدوك عن الله إن كنت قريبًا من الله؛ فلم تعلق قلبك بالخلق؟!!

فاللهم ارزقنا الإخلاص، وأغننا بفضلك عمَّن سواك؛ فمن عرف القضاء والقدر استغنى بالخالق عن الخلق.

*****

الثمرة الثالثة: صدقُ الاستعانة بالله ﷻ

فمن آمن بالقدر، وعَلِمَ أنَّ كُلَّ شيءٍ بقدر الله تبارك وتعالى، تَخَلَّصَ من حوله وطوله وَقُوَّتِه وعقله، ولجأ إلى حول وطول الله ومدده وقوته، فصدقَ في الاستعانة بالله سبحانه وتعالى، فكثيرٌ مِنَّا يكذب وهو يطلب الاستعانة بالله في قوله كُلَّ يوم: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].

فالصدق في طلب الاستعانة من الله ﷻ ثمرة، لن تتذوق طعمها ولا حلاوتها إلا إذا حققت الإيمان بالقدر، وعلمت يقينًا أن كلَّ شيء بتقدير الله وأن كل شيء في الكون بأمر الله؛ فأنت تتخلَّص من حولك وطولك ومددك وقوتك وعقلك وغناك وأسباب الدنيا، وتَصْدُق في طلب العون من الله تبارك وتعالى وحْدَه.

قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: « **إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله** »[1].

فما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه كلُّه مقدور عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كتب الله ﷻ له من ذلك في الكتاب السابق.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١].

فمن علم ذلك يقينًا ـ وهذا هو الإيمان بالقدر ـ سأل الله ﷻ العون في أن يصبر على ما قدره، وأن يوفقه في شُكْر ما يسره له.

قال الحافظ ابن رجب في كتابه الماتع « جامع العلوم والحكم »[2]:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢٤٨) ط الحديث.

« وأما الاستعانة بالله ﷻ دون غيره من الخلق ؛ فلأن العبد عاجز عن الاستقلال في جلب مصالحه ودفع مضاره » يعني : أنت لا تقدر على أن تجلب لنفسك مصلحة إلا بتقدير الحق سبحانه ، ولا تملك أن تدفع عن نفسك مضرة إلا بتقدير الحق سبحانه .

*****

الثمرة الرابعة :صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب

المؤمن بالقدر لا يُضَيِّعُ الأخذ بالأسباب ، لكنَّ الفارقَ بين المؤمن بالقدر وغيره ، أن المؤمن بالقدر يأخذُ بالأسباب ،ويعلق قلبه بمسبب الأسباب لا بالأسباب ؛ هذا هو المراد بصدق اعتماد القلب على الله .

قال شيخُ الإسلام رحمه الله[1] : « ما من شيء في الدنيا والآخرة إلا بسبب ، والله خالق الأسباب والمسببات في الدنيا والآخرة » .

حتى دخولك الجنة بسبب ، ودخولك النار بسبب ،وتفوقك بسبب ، وسقوطك في أي عمل بسبب ، وهذه سننُ الله في الكون .. إن لله سننًا ربانية في الكون لا تتبدل ولا تتغير ، ولا تحابي تلك السنن أحدًا من الخلق بحال مهما ادَّعى لنفسه من مُقَوِّماتِ المُحاباة ؛ قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة:٢٥١] .

*****

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧٠) .

الثمرة الخامسة: دوام الذل والانكسار والافتقار إلى الله ﷻ

كيف يُحصِّل المؤمن بالقدر هذه الثمرة ؟!

المؤمن بالقدر يشاهد القدر في فعل الحسنات وعمل الصالحات، يعني: إن أعانه الله ﷻ على طاعةٍ ما، لا يغتر بها؛ لأن الذي قدر له وأعانه على هذه الطاعة هو الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ولا يرى لنفسه فضلاً، ولا يمتن على الله بعمل !!

قال تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

والنبيُّ ﷺ يقول؛ كما «الصَّحِيحَيْنِ»[١]: « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ** ».

ونحن نشأنا في بيوت توحِّد الله فوحَّدنا الله ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١].

ولو وضعنا أنوفنا في الطين لنشكر ربَّ العالمين على أن وفقنا للإيمان بالله واتباع سيد المرسلين، والله مَا وَفَّيْنا الله حقَّه حتى نلقاه، من أجل ذلك؛ قال النبيُّ ﷺ: « **لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ** »[٢].

فما هو العمل الذي يكافئ هذه النعمة ؟!!

ولو وُفِّقت للطاعة وَأُعنت على الطاعة وألهمك الله شكرها؛ فكيف تشكر الله على الثالثة، وهي نعمة الشكر !!

---

(١) أخرجه البخاريُّ، في كتاب «الجنائز»، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣٨٥)، وانظر رقم (١٣٥٨)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، في كتاب «القدر»، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) سيأتي تخريجه.

ورحم الله من قال :

لك الحمد ربي على كل نعمة ومن أفضل النعماء قولي: لك الحمد

فمن عَرَف الله أحبَّه ، ومن عَرَفَ رسولَ الله ﷺ أَحبَّهُ ؛ قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] .

ومن اللطائف الجميلة التي وقفت عليها في بعض كتب أهل العلم : لما أمر الله إبراهيم أن يذبح إسماعيل ، وقام إبراهيم لينفذ أمر مولاه ، وأصبح القلب بكلِّيته مستسلمًا محبًّا راضيًا بقدر الله وأمره ، وكان الفداء!!!

أرأيتم قلبًا أبويًّا يتقبل أمرًا يأباه
أرأيتم ابنًا يتلقى أمرًا بالذبح ويرضاه
ويجيب الابن بلا فزع افعل ما تؤمر أبتاه
لن أعصي لإلهي أمرًا من يعصي يومًا مولاه
واستلَّ الوالد سكينًا واستسلم ابنٌ لرداه
ألقاه برفق لجبينٍ كي لا تتلقى عيناه
وتهزُّ الكون ضراعات ودعاء يقبله الله
تتضرع للرب الأعلى أرض وسماء ومياه
ويجيب الحق ورحمته سبقت في فضل عطاياه
صدَّقت الرؤيا لا تحزن يا إبراهيم فديناه

فالمطلوب أن يسجد قلبك لله !!

اللهم املأ قلوبنا بحبك ، وامنن علينا بفضلك ، وجودك ، وكرمك ، وعطائك ، ورضاك ، والشوق لك ، والأنس بك ، اللهم إنا نسألك أن تذيقنا لذة الذكر لك ، وأنس اللقاء بك يا أرحم الراحمين .

فمن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر : أن المؤمنَ بالقدر دائـمُ الـذل والافتقـار إلى الله تبارك وتعالى ؛ لأنه يشاهد فضل الله في كل طاعة فتدفعه هذه المشاهدةُ للقدر إلى مداومة التضرع إلى الله ، وطلب العفو منه ، وعدم الالتفات إلى عمله ، واعتقاده الجازم بأن فوزه في الدنيا والآخرة إنما هو بمحض فضل الله ورحمته لا بعمله .

روى البخاريُّ ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال : « **لَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ** » .قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « **وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ** » [1].

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعزنا بالذل إليه ، وأن يغنينا بالافتقار بين يديه ، وأن يحفظنا من شرور أنفسنا ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «الرقاق» ، باب القصد والمداومة على العمل رقم (٦٤٦٧) ، ومسلم ، في كتاب «صفات المنافقين» ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى ، رقم (٢٨١٨) من حديث عائشة .

وأخرجه البخاريُّ ، في كتاب «الرقاق» ، باب القصد والمداومة على العمل رقم (٦٤٦٣) ، ومسلم ، في كتاب «صفات المنافقين» ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى ، رقم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة ، وأخرجه مسلم ، في كتاب «صفات المنافقين» ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ؛ بل برحمة الله تعالى رقم (٢٨١٧) من حديث جابر بن عبد الله .

الثمرة السادسة : الصبر على الشدائد والمصائب

لا شك أن المؤمن بالقدر يعلم يقينًا أنه ما من شدة ومصيبة تقع في الكون إلا بإذن الله وأمره وتقديره ؛ قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢] .

فالمؤمن الذي يشاهد القدر ينظر إلى المصيبة أو إلى الشدة أو إلى الألم أو إلى الضر أو إلى الأذى ، سواء كان هذا الضر أو الأذى في نفسه أو في أهله أو ماله أو في أمته ، ينظر إليه على أنه تقدير الله سبحانه ،وعلى أن الدنيا كلها دار ابتلاء ، وبوتقة اختبار ،ولا يمكن أبدًا أن ينجو إنسان يعيش في هذه الدنيا من المصائب والبلايا ، ومن استخبر النقل الصحيح والعقل السليم لعلم أن الدنيا هي دار المصائب والشرور ، وليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بالكدر !!

*****

الثمرة السابعة: دوام الخوف والحذر

وأرجو أن تقفوا مليًّا مع هذه الثمرة .

فالمؤمنُ بالقدر دائم الخوف والحذر ؛ لأنه لا يعلم ما قَدَّر الله ﷻ له ، لا يعلم الخاتمة ، ولا يعلم المصير ، ومن ثَمَّ فهو دائم الحذر من الخاتمة ، دائم الحذر من مكر الله ، وهذا الخوف لا يجعله يُسَوِّف ويؤجل العمل ؛ بل يدفعه دفعًا إلى العمل ، وإلى الطاعة حتى يلقى الله ﷻ وهو على الطاعة .

قال الله ﷻ : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩] .

وقال الله ﷻ : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النحل:٤٥] .

إذًا المؤمن بالقدر دائم الخوف والحذر من مكر الله سبحانه وتعالى ، فكم من سعيدٍ بجاهه وماله انقلب عليه حالُه ؛ قال تعالى : ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠] .

*****

الثمرة الثامنة: الثبات على الحق

المؤمن بالقدر الذي يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن كلَّ شيء يحدث له إنما هو مكتوب ومقدور عليه ؛ فهذا رجلٌ يواجه الشدائد والمصاعب والظَلَمَة وأهل الباطل بقلب ثابت ، وبجنان لا يهتز ، ولا يخشى من أحد ؛ لأنه يعلم يقينًا أن رزقه ليس بيد أحد ، وأن ضره ونفعه ليس بيد أحد ؟!!

والمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه قدر ، وأن أجله قدر ، وأن الضار النافع هو الله ، وأن القابض الباسط هو الله ،وأن المعزَّ المذلَّ هو الله ، وأن الخافض الرافع هو الله، وأن أهل الأرض لو اجتمعوا على أن يضروه ما استطاعوا إلا إن كان الله قد قدَّر عليه الضر ، ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوه لن يستطيعوا إلا إذا كان الله قد قدَّر له هذا النفع .

فهو ثابتٌ على المنهج .. ثابتٌ على المبدأ .. ثابت على الحق ، لا يخشى الشدائد والصعاب ، ولا يخشى الظلَمَة على وجه الأرض ، وإنما يسير بخطًا ثابتة ، يبلغ دين الله ، ويبين منهج الله ، وهو يعلم علم اليقين أنه لا يقدر أحدٌ على ضره أو نفعه إلا بأمر الله ربِّ العالمين .

*****

الثمرة التاسعة: الإيمان بالقدر دواء لكثير من أمراض القلوب

من يؤمن بالقدر يحمل قلبًا نظيفًا طاهرًا من الغلِّ والحقد والحسد والغش والضغينة لإخوانه ؛ لأنه إن نظر إلى أخ من إخوانه ووجده في نعمة ، فهو يعلم يقينًا أن الذي أنعم عليه بهذا هو الله ؛ فهو يحبُّ لأخيه النعمة ، ويضرع إلى سبحانه وتعالى الذي رزق أخاه أن يرزقه بما رزق أخاه .

قال ابن سيرين [(١)] ـ وما أجمل هذه الكلمات : « ما حسدت أحدًا على شيء من الدنيا ؛ لأنه إن كان ـ أي هذا الرجل ـ من أهل الجنة ، فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة ، وإن كان ـ هذا الرجل ـ من أهل النار فكيف أحسده على شيء من الدنيا ، وهو يصير إلى النار » .

*****

---

(١) أخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (٣٩٣) .

الثمرة العاشرة: الصدق والوضوح

المؤمن بالقدر صادقٌ مع ربه، ومع نفسه، ومع الناس، وواضحٌ لا يعرف المداهنة، ولا يعرف النفاق، ولا يعرف اللفِّ ولا الدوران؛ فالإنسان بطبعه اجتماعيٌّ لا يعرف أن يعيش وحْدَهُ، جُبِلَ على أن يعيش مع الناس، إمَّا أن ينهج مع الناس في التعامل قولاً وعملاً منهجًا واضحًا صادقًا، وإما أن يَعيش ملتويًا منافقًا مرائيًا مداهنًا لا يجيد إلا اللف والخداع والكذب والدوران .. هذان صنفان موجودان بين الناس، صنف صادقٌ واضحٌ، وصنفٌ مخادعٌ مضلل؛ فالفريق الأول هو الذي يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن كلَّ شيءٍ بتقدير الله ﷻ؛ لذا، فهو يعامل الناس، بمنتهى الصدق والوضوح، لا يداهن أحدًا، ولا ينافق أحدًا؛ لأنه يعلم أن أمره بيد الله.

وصنفٌ آخر لم يحقق الإيمانَ بالقدرِ يخشى هذا؛ بل يظن أن رزقَهُ بيد واحدٍ من البشر لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا يقدر أصلاً على أن يرزق نفسه فضلاً عن غيره؛ فهذا الصنف لا يجيد إلا التملق والمداهنة والنفاق، ولا يجيد إلا اللف والدوران، ولا يعرف الصدق، ولا يجيد الوضوح؛ لأنه لم يذق ثمرةَ الإيمان بالقدر بأن رزقه وأجله وسعادته وشقاوته وأمره كلَّه قد قُدِّرَ وهو في بطن أمه، وربما سمع ذلك، لكنه لم يحقق ذلك قولاً واعتقادًا وعملاً.

فمن أعظم ثمرات الإيمان بالقدر: الصدق والوضوح والاستقامة على دين الله تبارك وتعالى وعلى منهج رسول الله ﷺ؛ فإيمانه بالقدر يورثه ذلك، ولا يحسن أن يعيش إلا بهذا؛ فتراه إن كذب مرَّة يحتقر نفسه، وتراه إن خدعَ

أخًا من إخوانه مرة لا يستطيع أن ينام ؛ لأنه دائم المحاسبة ، وهذا هو المؤمن .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الإيمان بالقدر ،وأن يذيقنا حلاوة مغفرته وبردَ عفوه ، وأن يرزقنا الإخلاصَ والصدق في الأقوال والأعمال والأحوال ، وألا يجعل حظنا من ديننا قولنا ، وأن يحسن نيَّاتنا وأعمالنا ، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة ، وألا يحرمنا الزيادة ، إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

الإِحْسَانُ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

«**المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ : الإِحْسَانُ ، رُكْنٌ وَاحِدٌ ؛ وَهُوَ** : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » . وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٧ـ ٢٢٠] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس:٦١] ، وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ : «حَدِيثُ جِبْرِيل» [(١)] المَشْهُور عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَخبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**» ، قَالَ : صَدَقْتَ ، قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ !! قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** » قَالَ :

---

(١) وقد تقدم قريبًا ؛ وهو في « صحيح مسلم » برقم(٨) .

صَدَقْتَ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ ؟ قَالَ : «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ ؟ قَالَ : « مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا ؟ قَالَ : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ » قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ لِي : « يَا عُمَرُ ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ » قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ».



هذه هي المرتبة الثالثة من مراتب الدين المفصلة في حديث جبريل ﷺ ، وهي أعلى مراتب الدين .

تَعْرِيفُ الإحسان :

والإحسان لغةً : ضدُّ الإساءة [1] وحسَّنت الشيء تحسينًا ، أي زينته ، وجمَّلته ، وأحسنت إليه ، وأحسنت به .

وروى الأزهريُّ [2] : عن أبي الهيثم أنه قال في قوله تعالى ـ في قصة يوسف : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف:١٠٠] .

قال : «أي : قد أحسن إليَّ» ، فالإحسان : أحسنت إليه ، وأحسنت به . هذا هو الإحسان لغةً بإيجازٍ شديد .

ويختلف معنى الإحسان اصطلاحًا بمختلف السياق الذي يردُ فيه لفظُ

(١) انظر : «اللسان» لابن منظور (٣/ ١٧٩ مادة حسن) ، و « القاموس المحيط» (١٥٣٥) .
(٢) كما في «اللسان» لابن منظور (٨٧٧ مادة حسن) .

الإحسان ؛ فإذا اقترن الإحسانُ بالإيمان والإسلام كان المرادُ به الإشارةَ إلى المراقبة ، وحسنَ الطاعة ، وهذا هو الذي فسَّره النبيُّ ﷺ في جوابه على سؤال جبريل عليه السلام : « **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » .

أما إن ورد الإحسان مطلقًا دون أن يكون مقترنًا بالإسلام والإيمان ؛ فإن المراد به هو فعل ما هو حسن . والحسن وصفٌ مشتقٌّ من الحسن الذي يراد به اصطلاحًا ؛ **كما يقول الجرجانيُّ** [1] : « ما يكون متعلق المدح في العاجل ، والثواب في الآجل .. هذا هو الحسن .

وذهب التهانويُّ وغيره [2] إلى أن لفظ الحسن يطلق ويُراد به اصطلاحًا واحدًا من أمور ثلاثة :

الأول : كون الشيء ملائمًا للطبع وضده القبح بمعنى كونه منافرًا ، فإذا لائم الشيء طبعك فهو شيء حسن .

المعنى الثاني : كون الشيء صفة كمال وضده القبح ،وكونه صفة نقصان ، وذلك ؛ كالعلم ، والجهل ، فالعلم شيء حسن ، والجهل ، ضدُّه : شيء قبيح .

الأمر الثالث : كون الشيء يتعلق به المدح ،وضده القبح . بمعنى : كونه يتعلق به الذم .

قال المناويُّ : « **الإحسان** : إسلامٌ ظاهرٌ يقيمه إيمانٌ باطن يكمله إحسان شهوديٌّ ، بمعنى: أن تشاهد الله حال تعبدك له ـ تبارك وتعالى ـ في كلِّ وقت وحين فالإحسان يستغرق الدين كلَّه » .

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (٤٠) .

(٢) «التعريفات» (١١٧) ، و« التوقيف على مهمات التعريف » للمناوي (٢٧٩) ، ط دار الفكر .

وقال **الراغب الأصفهانيُّ**[1] : « الإحسان فعل ما ينبغي فعله من المعروف ، وهو على وجهين :

أحدهما : الإنعام على الغير. إن أنعمت إليه فهذا إحسان منك إليه .

والثاني : الإحسان في فعله . أن تحسن في فعلك أنت ، هذا أيضًا إحسان ، وذلك إذا علم علمًا محمودًا ، وعمل عملاً حسنًا ، ومنه قول عليٍّ رضي الله عنه : « إن الناس أبناء ما يحسنون »[2] .

أي : « منسبون إلى ما يعملونه ، وما يعلمونه من الأقوال والأفعال الحسنة » .

ويأتي الإحسان على درجات متعددة ، وكلها تنضوي تحت المفهوم الشامل السابق ، وأعلاها ـ أعلى هذه الدرجات ـ ما كان في جانب الله تعالى ، وهو الذي فسَّره النبيُّ ﷺ : « **أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ** » .

وتأتي بعد ذلك مراتب أخرى للإحسان ؛ سواءٌ في القصد أو في الفعل .

والإحسان في النية : يعدُّ أمرًا مهمًّا ؛ إذ لابد أن تُنَقِّي النية تنقية سليمة وافرة من الشوائب والكدر من الرياء ، والنفاق ، والغدر ، وحب الجاه ، والصيت .. إلى آخر ذلك .

أما الإحسان في الفعل ـ أي في المعاملة مع الخلق ـ فيكون في ما زاد على الواجب شرعًا .

ويدخل في الإحسان جميع الأقوال والأفعال مع سائر أصناف الخلائق إلا ما حرمَّ الشرع الإحسان إليه .

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» (١١٩) للراغب الأصفهاني ت ٥٠٢هـ ،و « فيض القدير » (١/ ١٢٤) للمناوي .

(٢) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم » (٦٠٨) بغير سند .

هذه مسألةٌ مهمةٌ لها ضوابط، وتندرج تحت قضية الولاء والبراء، والموالاة والمعاداة.

ومن أدنى وأقل مراتب الإحسان؛ ما ورد في «الصَّحِيحَيْنِ»(١) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه «**أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا** - البغي: هي المرأة الزانية - **رَأَتْ كَلْبًا يَلْهَثُ مِنَ الْعَطَشِ** - يأكل الثرى من شدة العطش - **فَنَزَعَتْ مُوقَهَا** - خُفَّها - وهو الذي يلبس في القدم - **فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لَهَا**».

إنه الإحسان إلى الحيوان!

انتبه: الإحسان إلى الكلب والحيوان وسائر المخلوقات أدنى مراتب الإحسان، ومع ذلك غفر الله عز وجل بهذه المرتبة لبغيٍّ!! مرتبة دنية من الإحسان ليست من طاهرة، ولا من شريفة؛ بل من بغيٍّ! غفر الله عز وجل لها ذنبها بذلك، فإذا كان الله تبارك وتعالى يغفر - برحمته وإحسانه - الذنوب والخطايا للبغايا؛ فكيف يكون إحسان الله مع من وحَّدَ ربَّ البرايا؟!

فإلى حقيقةِ الإحسانِ ترجعُ فروعُ وأصولُ وآداب المعاشرة كلُّها في المعاملة والصحبة، والعفو عن الحقوق؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال ابنُ القيم رحمه الله(٢): «الإحسان على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الإحسان في القصد - في النية - بتهذيبه (أي: بتهذيب

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب «أحاديث الأنبياء» (٣٤٦٧)، وكتاب «بدء الخلق»، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه... (٣٣٢١)، ومسلم، كتاب «السلام» باب فضل سَقْي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥).

(٢) «المدارج» (٢/ ٤٧٩) ط دار الكتب العلمية بتصرف.

الإحسان) علمًا ، وإبرامه عزمًا ، وتصفيته حالًا .

الدرجة الثانية : الإحسان في الأحوال ، وهو أن تراعيها غيرة ، وتسترها تظرفًا ، وتُصحِّحها تحقيقًا ، والمراد بمراعاة الأحوال : حفظها ، وصونها ، غيرة عليها أن تحول ، فإنها تمرُّ مرَّ السحاب . وتكون المراعاة أيضًا بدوام الوفاء ، وتجنب الجفاء .

الدرجة الثالثة : وهذا من ماتع كلام ابن القيم ـ في « المدارج » .قال : الإحسان في الوقت ،وهو أن لا تزايل المشاهدة أبدًا . وألا تخلط بهمتك أحدًا ، وتجعل هجرتك إلى الحق سرمدًا » .

والمعنى : أن تتعلَّق همَّتُك بالحق وحْدَهُ ، وألا تتعلق بأحدٍ غيره سبحانه وتعالى .

والإحسان في صورته العليا صفةُ رب العالمين ؛ فالله ﷻ موصوفٌ بالإحسان ؛ لأن الإساءة ـ وهي ضدُّ الإحسان ـ تنتج عن الإساءة ، والعجز والقصور .. وما إلى ذلك من أوصافٍ مستحيلة على الله تعالى .. والله تحدَّث عن خلقه ، وعن صُنْعِه للكون ؛ فقال ﷻ : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨] ، وقال الله ﷻ : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك:٣] .

ثم قال الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧] .

أَحْسَنَ : من الإحسان .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما خلق آدم ،وخلق الخلق من البشر ، وأناط بهم رسالة الحياة ، كلَّفهم لكي يكونوا ربانيين ، وأن يحسنوا العمل ، وأن

يبلغوا به درجة الكمال ، وإذا غلبتهم طباعهم الضعيفة ولم يصلوا إلى هذا الشأن من الربانية أمرهم أن يكرروا المحاولات ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] .

والإحسان في كلِّ شيء ؛ حتى مع الحيوان ـ كما تقدم ـ وكما في « صحيح مسلم » [١] من حديث شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ يَقُول : « **إِنَّ الله تَعَالَى كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ** » .

ولذلك مرَّ النبيُّ ﷺ على رَجُلٍ وَاضعٍ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ ، وَهُوَ يَحُدُّ الشَّفْرَةَ ، وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا ـ إنه منظر مؤلم ـ لقد طرحها أرضًا ، ووضع رِجله على صفحة عنقها ، وهو يحد السكين ليذبحها ؛ فلما رأى النبيُّ ﷺ هذا المشهد ، ورأى الشاة تنظر إليه ببصرها ! سبحان الله ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « **أَفَلاَ قَبْلَ هَذَا ؟** » أي : هلاَّ كنت حدَدت شفرتك قبل أن تطرحها أرضًا ، وتراها بهذه الصورة تنظر إليك ، بالله عليك ، تدبَّر قولَ النبيِّ ﷺ : « **أَفَلاَ قَبْلَ هَذَا ؟ أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَيْنِ ، هَلاَّ حَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضْجِعَهَا ؟** » [٢] .

انظر إلى إحسان المصطفى ﷺ !!

إذًا الإحسان في كلِّ شيء ، وأذكِّر ببعض الأحاديث على عَجَلٍ في مقام

---

(١) أخرجه مسلمٌ ، كتاب «الصيد والذبائح» ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥) .

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٣١، ٢٣٣) ، وقال الحاكم : « صحيح على شرط البخاري » ، وفي الموضع الثاني قال : « على شرط الشيخين » ، والطبراني في « الكبير » (١١٧٤٨) ، و «الأوسط» (٣٧٢٨) ، قال في «المجمع » (٤/ ٣٣) : « ورجاله رجال الصحيح » ، وصحَّحه العلامة الألباني في « الصحيحة » (٢٤) .

الإحسان :

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) عن عَبْدِ الله بْنَ عَمْرٍو قَالَ : أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ الله ﷺ ، فقَالَ : أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ ، أَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ الله ، قَالَ : « **فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ** » قَالَ : نَعَمْ ، بَلْ كِلاَهُمَا.. قَالَ : « **فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ الله ؟** » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « **فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا** ». اللهم ارزقنا الإحسان إلى الوالدين .

وفي البخاريِّ - تعليقًا - ووصَلَهُ النسائيُّ - بسندٍ صحيح (٢) - عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « **إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ** - حَسُنَ : من الإحسان - **فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ ، يُكَفِّرُ الله عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا** - أي : فعلها - **وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ : الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ الله عَنْهَا** ». اللهم تجاوز عنا يا رب .. وهذا من إحسان الله .. الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز عنه ، وهذا إحسانٌ آخر من الله عز وجل للعبد .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) عن أَبِي مُوسَى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **ثَلاَثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ** (يعطيه الله أجره مرتين : مرةً على إيمانه بنبيه ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الجهاد والسير» ، باب الجهاد بإذن الأبوين (٣٠٠٤) ،ومسلم ، كتاب « البر والصلة والآداب » ، باب بر الوالدين ، وأنهما أحق به (٢٥٤٩) (٦) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاريُّ - تعليقًا - كتاب « الإيمان » ، باب حسن إسلام المرء (٤١) ، والنسائي ، كتاب « الإيمان » ، باب حسْن إسلام المرء (٨/ ١٠٦) وصحح سنده الألباني في « الصحيحة » (٢٤٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «العلم» ، باب تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧) ، ومسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (١٥٤) .

ومرةً على إيمانه بالنبيِّ الخاتم ﷺ) **وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّي حَقَّ الله تَعَالَى ، وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا ، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ** ».

اللهم ارزقنا من فضلك .

وفي « **الصَّحِيحَيْنِ** »(١) عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت : « جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ ، وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُنِي - الصَّدَقَةَ - فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا ، فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا ، وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا شَيْئًا ، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ وَابْنَتَاهَا ، تَقولُ عَائِشَةُ : فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا ، فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَهَا - أي : بِمَا صَنَعَت الأُمُّ مَعَ ابْنَتَيْها - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ** ».

والإحسان إلى البنت يكون بتربيتها على الفضيلة ، والذي ترك ابنته تخرج بالاسترتش ليس من الإحسان ! وتَرْكُ البنت تخرج إلى الجامعة بشعر ، وصدر عار ، وبرفان عاصف ! ليس من الإحسان ، وتَرْكُ البنت تختلط مع الشباب باختلاط ماجن ! ليس من الإحسان ، وتَرْكُ البنت تسافر بغير محرم ! ليس من الإحسان ، وترْكُ البنت ليخلوا بها ابن عمها ، أو ابن خالها ، أو ابن عمتها ، أو ابن خالتها ، أو خطيبها ليس من الإحسان ؛ فمن ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن أي : رباهُنَّ على الفضيلة .. على الكتاب والسنة ، حينئذٍ كُنَّ لَهُ سترًا من النار ؛ كما أخبر النبيُّ المختار ﷺ. وفي روايةٍ لمسلمٍ والترمذي

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الزكاة » ، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة (١٤١٨) ، ومسلم ، كتاب « البر والصلة » (٢٦٢٩) .

ـ واللفظ للترمذي [١] ـ من حديث أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَـالَ : « **مَنْ عَـالَ جَارِيَتَيْنِ** » [٢] أي : بنتين صغيرتين ، « **دَخَلْتُ أَنَا وَهُوَ الجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ** » ، وَأَشَارَ النَّبيُّ ﷺ بأصبعيه بِالسَّبَابَةِ والوُسْطَى .

مستحيلٌ أن تصل إلى هذه المكانة ، إلاَّ إذا ربيت بناتك على القرآن والسنة ، على العزة والشرف ، والمروءة والحياء ؛ أسأل الله أن يستر نساءنا وبناتنا .

وفي « **سنن ابن ماجه** » بسندٍ صحيح [٣] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ الله ﷺ : يَا رَسُولَ الله ، كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ إِذَا أَحْسَنْتُ وَإِذَا أَسَأْتُ ؟ ـ سؤال جميلٌ قويٌّ ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « **إِذَا سَمِعْتَ جِيرَانَكَ يَقُولُونَ : أَنْ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ** »... وأنا ألمح في هذا الجواب بصيرة نبوية ،ودواء أراد النبيُّ ﷺ أن يصرفه لداء رآه في هذا الرجل ، وإن كنا جميعًا في حاجة إلى هذا الدواء ، فقد تعدَّدت أجوبة النبيِّ ﷺ على الصحابة في السؤال الواحد ؛ فكان يفتي كلَّ أحد بما يرى أنه يصلحه ،وأنه في حاجة إليه وقت سؤاله .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ** » [٤] قَالَ : قَالَ أناسٌ لرسول الله ﷺ : يَا رَسُولَ الله ، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ ؟ قَالَ : « **مَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلاَمِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الإِسْلاَمِ أُخِذَ بِالأَوَّلِ**

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «البر والصلة» ، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٣١) ، والترمذي ، كتاب « البر والصلة » ، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات (١٩١٤) .

(٢) في رواية : « حتَّى تبلُغا » .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢) وابن ماجه ، كتاب «الزهد» ، باب الثناء الحسن (٤٢٢٣) ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (١٣٢٧) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم » (٦٩٢١) ، ومسلم ، كتاب « الإيمان » ، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية (١٢٠) .

وَالآخِرِ ».. اللهم سلِّم !!

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الإِبِلِ ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي ـ دَوْرِي ـ فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ ـ أي : رَدَّهَا بوقتِ الرَّوحة ـ فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ : « **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ ، إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ** » . والحديث في «**صحيح مسلم**»[(١)] .

إقبال القلب : وهذا الأصل أن تكون خاشعًا ، حاضر القلب ، أن تجمع القلب بكلِّيته على الله ، **والوجه** : ألا تلتفت ؛ لأن العبد إذا وقف في صلاته نصب الله وجهه إليه؛ فإن العبد إذا أعرض أعرض الله عنه ؛ لأنه معرض عن الله ، إن أعرض البصر فمن باب أولى يكون القلب معرضًا ؛ لأنه إن أقبل القلب أقبل البصر ، وأقبل الوجه ، وأقبلت الجوارح ؛ فالقلب هو الملك ، فإن أعرض القلب عن الله أعرضت الجوارح ؛ فترى كثيرًا من المسلمين وهم في الصلاة ؛ لا تدري أَهُمْ في صلاةٍ أم في غير صلاة ؟! من كثرة إعراضه ؛ فإذا التفت العبد في الصلاة ، يقول الله ﷻ إلى أفضل مني ؟! سبحان الله ! نسأل الله تعالى أن يرزقنا خشوع الظاهر والباطن .

وفي «**صحيح البخاري**»[(٢)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ ، إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ ؛ لِيَزْدَادَ شُكْرًا ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ ، إِلاَّ أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ ؛ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً** » فالعبد حتى وإن دخل الجنة يُذَكِّرُهُ الله بذلك ـ وهو في الجنة ؟ ـ نعم ـ ليشكر الله ـ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الطهارة» ، باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الرقاق » ، باب صفة الجنة والنار (٦٥٦٩) .

سبحانه!!

وكما في «صحيح مسلم»[١] عن جابر رضي الله عنه؛ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَبْلَ مَوته بِثَلاَثَة أيام يَقُولُ: «لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِالله». وهذا البابُ عظيمٌ في الإحسان.

و كما في «سنن الترمذي» وصححه شيخنا الألبانيُّ[٢] عن أنس رضي الله عنه قال: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، ـ تدبَّر شهادة المهاجرين في حقِّ إخوانهم من الأنصار ـ قالوا: مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ وَلاَ أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ (وهم الأنصار) لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَإِ ـ المهنأ: هو كلُّ هنيء في الطعام والشراب ـ حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالأَجْرِ كُلِّهِ ـ انظر إلى نظرة المهاجرين للأجر ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ، مَا دَعَوْتُمُ الله لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ». يعني: فأنتم تشاركونهم في الأجر، لكن بهذا الشرط: «مَا دَعَوْتُمُ الله لَهُمْ وَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِمْ».

وعن عثمان رضي الله عنه قال ـ كما في «صحيح مسلم»[٣] ـ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، وَخُشُوعَهَا، وَرُكُوعَهَا، إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ». هل تريد نعيمًا كهذا؟! أسأل الله أن يُجنِّبنا الكبائر والصغائر؛ فما لم توجد كبائر؛ فإن الصغائر التي ترتكب بين الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب «صفة القيامة والجنة والنار»، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه الترمذيُّ، كتاب «صفة القيامة»، باب (٤٤) (حديث٢٤٨٧)، وصحَّحه الألباني؛ في «المشكاة» (٣٠٢٦)، و«صحيح الترمذي»(٢٦١٧).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب «الطهارة»، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٢٢٨).

والصلاة تكفرها الصلاة، لكن بهذه الشروط:

أولاً: تحسن الوضوء؛ لقوله ﷺ: « **فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا** » وهذا من باب الإحسان في العبادة.

ثانيًا: « **وَخُشُوعَهَا** » وهذه صعبة وكبيرة إلا على الخاشعين، اللهم ارزقنا الخشوع، يا أرحم الراحمين؛ قال ﷺ: « **فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، وَخُشُوعَهَا، وَرُكُوعَهَا، إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ** ». بعد ذلك تستطيع أن تلقى الله ﷻ، وتقف بين يديه ـ سبحانه ـ أما أن تقف بين يديه، وأنت مشغول القلب والفؤاد، لا تدري كم صلَّيتَ؟ ولم تَدْر هل قرأت التشهد وأنت في حال القيام؟ أو قرأت الفاتحة في حال الجلوس؟! فتلك ـ والله ـ ليست بصلاةٍ تحمل معنى الإحسان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**»[(١)] قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: « **أُمُّكَ** » قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: « **أُمُّكَ** » قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: « **أُمُّكَ** » قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: « **ثُمَّ أَبُوكَ** ».

وفي «**سنن الترمذي**» و «**ابن ماجه**» و «**أحمد**» في «**مسنده**»[(٢)] ـ بسندٍ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب « الأدب » باب البر والصلة (٥٩٧١)، ومسلم، كتاب «البر والصلة والآداب»، باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب «الزهد»، باب الورع والتقوى (٤٢١٧)، وأخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس (٢٣٠٥) من وجهٍ آخر عن أبي هريرة، وللحديث شواهد حسَّنه بها الألبانيُّ في «الصحيحة» (٩٣٠)، و«صحيح ابن ماجه» (٢/ ٤١٢) وجوَّده الشيخ الأرناؤوط في تعليقه على «المسند» (٨٠٩٥). =

حسن ـ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : قَالَ « **يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، كُنْ وَرِعًا ، تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَكُنْ قَنِعًا** (أي : قنوعًا) **تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ ، تَكُنْ مُؤْمِنًا ، وَأَحْسِنْ جِوَارَ مَنْ جَاوَرَكَ ، تَكُنْ مُسْلِمًا ، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ** » .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ؛ فأكتفي منها بهذا القدر .

وبالجُمْلةِ : **أقولُ** : إنِ حياة النبيِّ ﷺ كلَّها إحسان ؛ فبيتُم النبيِّ ﷺ الذي قدَّره الرب العليُّ أحسن الله ﷻ بيتمه إلى كلِّ يتيم ؛ فكان يُتْمُ النبيِّ ﷺ تشريفًا لكلِّ يتيم ، ومن صور ذلك كذلك ؛ إحسانه في الدعوة ، وإحسانه في المعاملة ، وإحسانه في العطاء ، وإحسانه في الدعوة ، وإحسانه في الخُلُق ... إلى آخر حياته ﷺ .

فقولُه ﷺ : « **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » ؛ فإحسانُ العبادة هو : الإخلاص ، والخشوع ، ومراقبة المعبود ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ **وهذا هو المقام الأول من مقامات الإحسان** حَالَ العبادة ، كأنك ترى المعبود ﷻ ، وهو : أن يغلب عليك أثناء العبادة أنك تشاهد الحقَّ ـ تبارك وتعالى ـ بقلبك ،حتى وكأنك تراه .

فقوله : « كَأَنَّكَ تَرَاهُ » : أي : كأنك تراه بعينيك .

أما المقام الثاني للإحسان : فهو أن تستحضر أثناء العبادة أن الحقَّ سبحانه وتعالى مُطَّلعٌ عليك ، يسمع ويرى عملك .

وقوله : « **فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » .

= **وللفائدة** : انظر : « علل الدارقطني »(١٣٣٩) .

قال الإمام النوويُّ : كما في «فتح الباري» للحافظ ابن حجر [(١)] : « فتقدير الحديث : فإن لم تكن تراه ـ سبحانه وتعالى ـ فاستمرَّ على إحسان العبادة ، فإنه يراك ، على إخلاصك ،ومراقبتك ، وخشوعك ، وخضوعك في العبادة » .

فالمحسن دائمًا يطلب الأعلى والأفضل ؛ فهذا هو طلب الآخرة ، يطلب العبد الزيادة ، فحين تكلَّم ربُّ العزة سبحانه وتعالى عن الزكاة المفروضة ، قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴾ [المعارج:٢٤] ، حقٌّ معلوم مقدَّر ، له نصاب محدَّد ، إذا اجتمع هذا النصاب عند صاحب المال وتحققت فيه شروطٌ معينة وجب عليه أن يخرج قدرًا معلومًا محدَّدًا ، ولكنه سبحانه لمَّا أراد أن يتكلَّم عن مقام الإحسان قال في سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات:١٥-١٩] ، ولم يقل هنا : « حق معلوم » .

قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» [(٢)] : « وحقُّ السائل والمحروم هو النصيب الذي يعطونه إياهما أطلق عليه لفظ الحق ؛ إما لأن الله أوجب على المسلمين الصدقة بما تيسر قبل أن يفرض عليهم الزكاة ، فإن الزكاة فرضت بعد الهجرة ، فصارت الصدقة حقًّا للسائل والمحروم ، أو لأنهم ألزموا أنفسهم حتى صار كالحق للسائل والمحروم » .

ومن صفاتهم ؛ كما بين ربنا في الآيات السابقة أنهم لا يكتفون بأداء

(١) «الفتح» (١/ ١٢٠) (تحت حديث رقم ٥٠) ط دار الفكر ، وانظر: «شرح مسلم» للنووي (١/ ١٥٨) .
(٢) «التحرير والتنوير » (٤١٤٥) .

الفرائض من الصلوات المكتوبة ؛ بل هم يقومون اللَّيل يصلون ، ويتلون القرآن ، ويدارسون العلم ؛ هذا مقام الإحسان بالإجادة والإتقان وطلب المزيد الأخروي .

أما الدنيا ؛ فقد حذَّرنا الله سبحانه وتعالى من طلب الزيادة فيها ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[طه:١٣١، ١٣٢] ؛ فنهاه عن النظر إلى زينة الدنيا ، ولفَتَ نظرَهُ إلى التزوُّد من أمر الآخرة ، وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ « **إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ** »(١) .

فمرتبةُ الإحسان هي المرتبة الثالثة من مراتب الدين المفصلة في حديث جبريل المتقدم ، وهي أعلى مراتب الدين وأعظمها خطرًا ، وأهلها هم المستكملون لها ، السابقون بالخيرات ، المقربون في علو الدرجات .

وقد قدمنا أن الإسلام هو الأركان الظاهرة عند التفصيلِ واقترانِهِ بالإيمان ، والإيمان إذ ذاك هو الأركان الباطنة ، والإحسان هو تحسين الظاهر والباطن ، وأمَّا عند الإطلاق فكلٌّ منها يشمل دين الله كلَّه ، وقد جاء الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة ، تارة مقترنًا بالإيمان ، وتارة بالتقوى ، وتارة بهما معًا ، وتارة بالجهاد ، وتارة بالإسلام ، وتارة بالعمل الصالح مطلقًا ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «الرقاق» ، باب لينظر إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى مَنْ هو فوقه (٦٤٩٠) ، ومسلم ، في كتاب « الزهد والرقائق » ، باب (٥٣) (٢٩٣٦) .

طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] ، وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف:٣٠] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] ، وقال تعالى:﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢] ، وقال تعالى:﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان:٢٢] .

وتارة بالإنفاق في سبيل الله ، وهو من الجهاد ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[البقرة:١٩٥]

وقد فسَّرهُ النبيُّ ﷺ تفسيرًا لا يستطيعه من المخلوقين أحدٌ غيرهُ ﷺ لما أعطاه الله تعالى من جوامع الكَلِم ؛ فقَال ﷺ : «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» أخبر ﷺ أنَّ مرتبة الإحسان على درجتين ، وأنَّ للمحسنين في الإحسان مقامين متفاوتين :

المقام الأول : وهو أعلاهما ـ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، وهذا مقام المشاهدةِ ، وهو أنْ يعمل العبد على مقتضى مشاهدته الله ﷻ بقلبه ، وهو أنْ يتنوَّرَ القلب بالإيمان ، وتنفذ البصيرة في العرفان ، حتى يصير الغيب كالعيان ؛ فمن عَبَدَ الله ﷻ على استحضار قربه منه وإقباله عليه ، وأنَّهُ بين يديه كأنه يراهُ أَوْجَب له ذلك الخشية والخوف ، والهيبة والتعظيم .

المقام الثاني : مقام الإخلاص ـ وهو أن يعمل العبدُ على استحضار مشاهدَةِ الله إياه ، واطلاعه عليه ، وقربه منه ، فإذا استحضر العبدُ هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالى ؛ لأنَّ استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل . وهذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلى المقام الأول ؛ ولهذا أتى به النبيُّ ﷺ تعليلًا للأول ؛ فقال : « **فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » وفي بعض ألفاظ الحديث : « **فَإِنَّكَ إِلَّا تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » ؛ فإذا تحقق في عبادته بأنَّ الله تعالى يراهُ ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أمره؛ فحينئذٍ يسهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني ، وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله تعالى من عبده ومعيته حتى كأنَّهُ يراه .

وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا المعنى في غير ما موضع من القرآن ؛ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس:٦١ـ ٦٤] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٧ـ ٢٢٠] .

وغير ذلك من الآيات.

فأولياء الله المتقون المحسنون ، هم الذين آمنوا بالله ﷻ وبإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأفردوه بالعبادة محبةً وتذللًا وخوفًا ورجاء ورغبة ورهبة وخشية وخشوعًا ، ومهابةً وتعظيمًا وتوكلًا عليه ، وافتقارًا إليه واستغناءً عما سواه ، واتقوه بامتثال أوامره ومحبة مرضاته ، وترك مناهيه وموجبات سخطه سرًّا وعلنًا ، وظاهرًا وباطنًا ، قولًا وعملًا واعتقادًا ، واستشعرت قلوبهم ونفوسهم إحاطة الله ﷻ بهم علمًا وقدرةً ولطفًا وخبرة بأقوالهم ونيَّاتهم وأسرارهم وعلانياتهم وحركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم ، كيف عملوا وأين عملوا ومتى عملوا ، فكان عملهم خالصًا لله موافقًا لشرعه مناطًا بما جاءت به رسله ونطقت به كتبه ، مستحضرين ذلك لقلوبهم نافذةً فيه بصائرهم ، فأخلصوا لله العمل وراقبوه مراقبةً من ينظر إلى ربِّه ، لكمال علمهم بأن الله ينظر إليهم ، ويرى حالهم ، ويسمع مقالهم ، فطرحوا النفوس بين يديه وأقبلوا بكلِّيتهم عليه ، والتجأوا منه إليه ، وعاذوا به منه ، وأحبُّوهُ من كلِّ قلوبهم فامتلأت بنور معرفته فلم تتسع لغيره ، فبه يبصرون ، وبه يسمعون ، وبه يبطشون ، وبه يمشون ، وبرؤيتهم يُذكَر الله تعالى ، وبذكره يذكرون .

وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة ﷺ يقول : قال النبيُّ ﷺ : « **يَقُولُ الله تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** »(١) .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «التوحيد» ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨] (٧٤٠٥) ، وباب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه (٧٥٣٧) ، ومسلم في الذكر ودعاء ، باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) .

وفي «صحيح البخاري» أيضًا عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ عَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[1].

ذكروا الله تعالى فذكرهم، وشكروه فشكرهم، وتولَّوه ووالوا فيه فتولَّاهم، وعادوا أعداءه لأجله فآذن بالحرب من عاداهم، وأحسنوا عبادة ربهم فأحسن جزاءهم وأجزله، عبدوه على قدر معرفتهم به فجزاهم بفضله وزادهم ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، ولما ذكر أهل الجنة وما وعدهم به من النعم وصفهم أنَّ ذلك جزاء إحسانهم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات:١٥، ١٦]، ثم فسر إحسانهم ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٧-١٩]، والحسنى التي وعد الله ﷻ المحسنين هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله ﷻ؛ كما رواه مسلم عن صهيب عن النبيِّ ﷺ[2]، فلما كانوا يعبدون الله ﷻ في الدنيا على وجه

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١).

الحضور كأنَّهم يرونه بقلوبهم وينظرون إليه في حال عبادتهم إياه كان جزاؤهم على ذلك النظر إلى وجهه تبارك وتعالى في الآخرة عيانًا بأبصارهم ، وعكس هذا ما أخبر به عن المكذبين الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ؛ فقال تعالى فيهم : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين:١٥] ، لما كان حالهم في الدنيا التكذيب وأعقبهم ذلك التكذيب تراكم الرَّانُ على قلوبهم حتى حجبت عن معرِفَتِهِ ومُرَاقَبتهِ في الدنيا فكان جزاؤُهم على ذلك أن حُجبوا عن رؤيته في الآخرة ، وذلك قول الله ﷻ : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[النجم:٣١] ، وقوله: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١] [(١)] .

*****

(١) « معارج القبول» (٢/ ٩٩٨ـ ١٠٠٢) ط ابن القيم .

مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

« الأَصْلُ الثَّالِثُ : مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ ـ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ والسَّلامِ ـ وَلَهُ مِنَ العُمُرِ : ثَلَاثٌ وسِتُّونَ سَنَةً ، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ ، وَثَلَاثٌ وعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولاً ، نُبِّئَ بـ (أَقْرَأْ) ، وأَرسِلَ بـ (المُدَّثِّر) .

وَبَلَدُهُ مَكَّةُ ، بَعَثَه اللهُ بالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ ويَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧] .

وَمَعْنَى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ؛ يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ ، ويَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ ، ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ؛ أَيْ : عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ . ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ؛ أَيْ: طَهِّر أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ . ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ ؛ الرِّجْزُ : الأَصْنَامُ ، وَهَجْرُهَا : تَرْكُهَا ، والبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا . أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلى التَّوْحِيدِ ، وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلى السَّمَاءِ ، وفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، وصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلى المَدِينَةِ .

والهِجْرَةُ : الانْتِقالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإسْلاَمِ ، وَالهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلاَمِ ، وَهِي بَاقِيةٌ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةَ ، وَالدَّلِيلُ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء:٩٧-٩٩] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت:٥٦] ، قَالَ البَغَوِيُّ رحمه الله: « سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي المُسْلِمين الَّذِينَ فِي مَكَّةَ لمْ يُهَاجِرُوا ، نَادَاهُمُ الله بِاسْمِ الإِيمان ».

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ ؛ قَوْلُهُ ﷺ : « لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ ، وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي المَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ ، مِثْل : الزَّكَاةِ ، وَالصَّوْمِ ، وَالحَجِّ ، والأَذَانِ ، والجِهَادِ ، والأَمْرِ بالمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلاَمِ .

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ ، وَبَعْدَهَا تُوفِّيَ صَلاَةُ الله وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِ ، وَدِينُه بَاقٍ ، وَهَذَا دِينُهُ : لاَ خَيْرَ إِلاَّ دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْه ، وَلاَ شَرَّ إِلاَّ حَذَّرَهَا مِنْهُ ، وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ الله وَيَرْضَاهُ ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُه الله ويَأْباهُ .

بَعَثَهُ الله إِلى النَّاسِ كَافَّةً، وافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيع الثَّقَلَيْنِ: الجِنِّ والإِنْسِ، والدَّلِيلُ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وَكَمَّلَ الله بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر:٣٠، ٣١]».



الأَصْلُ الثَّالِثُ؛ ألا وَهُوَ: مَعْرِفَةُ نبينا محمدٍ ﷺ [(١)]، وهـا أنـا ذا أَجِدُني أودُّ أن أُلخِّصَ السيرة النبوية الزكِيَّة العطرة لشرح هذه العبارات الرصينة القصيرة فقط؛ فأسألُ الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على ذلك؛ لا سيما وأنَّ الحديث عن رسولِ الله ﷺ حديثٌ جميل بجماله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بجمال الحديث في أطهر، وأشرف، وأعطر السير، لأكرم، وأشرف نبيٍّ عرفته الأرض، صلَّى الله وسلم وبارك عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين، ثم بدأ المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بالنسب الشريف؛ قال البخاريُّ رحمه الله [(٢)]: «محمد بن

(١) فقد سبق في حديث البراء الطويل، أن العبد يُسأل هذه الأسئلة الثلاثة: «مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟». أخرجه أبو داود، كتاب «السنة»، باب المسألة في القبر عذاب القبر (٤٧٥٣)، وأحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨) بسندٍ حسن عن البراء رضي الله عنه مرفوعًا، وقد صححه عدةٌ من أهل العلم؛ كابن القيم في بحثٍ مستفيض في «تهذيب السنن» (٤/ ٣٣٧)، ونقل فيه تصحيحه عن أبي نعيم وغيره، وراجع «أحكام الجنائز» للألباني (١٥٦ـ١٥٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ، في كتاب «مناقب الأنصار»، باب مبعث النبيِّ ﷺ، باب (٢٨).

عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيٍّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، بن خزيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان » .

وهذا متفقٌ عليه في نسبه الشريف ﷺ، ومختلفٌ فيما بين عدنان ، وإسماعيل بن إبراهيم - عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام .

قال ابنُ القيم - رحمه الله تعالى - في «زاد المعاد» **بعد ذكر نسب النبيِّ ﷺ إلى عدنان** [(١)]:

«إلى ها هنا معلوم الصحة ، متفق عليه بين النسَّابين ، ولا خلاف فيه البتة ، وما فوق عدنان مختلف فيه ، ولا خلاف بينهم أن « عدنان » من ولد إسماعيل عليه السلام» .

فنبينا ﷺ خَيْرُ أهل الأرض نسبًا على الإطلاق ؛ فلنسبه من الشرف أعلى ذِرْوة ، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك ،ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك أبو سفيان بين يدي ملك الروم [(٢)] ؛ فأشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيله ، وأشرف الأفخاذ فخذه [(٣)] .

أشرف من خلق الله تبارك وتعالى ، وأكرم من اصطفى الله عز وجل ؛ فلقد خلق الله الخلق ، واصطفى من الخلق الأنبياء ، واصطفى من الأنبياء الرُّسلَ ، واصطفى من الرسل أولي العزم الخمسة ؛ نوحًا ، وإبراهيم ، وموسى ،

---

(١) «الزاد» (١/ ٧١) .

(٢) كما في «صحيح البخاريِّ» ، كتاب «بدء الوحي » ، باب (٦) (حديث٧) ، وفيه قول أبي سفيان: «ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب » .

(٣) «الزاد» (١/ ٧١) .

وعيسى ، ومحمدًا ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ واصطفى من أولي العزم الخمسة : الخليلين ؛ إبراهيم ، ومحمدًا ـ صلى الله عليهما وسلم[1] ـ ثم اصطفى محمدًا ﷺ على كلِّ خلقه[2] ؛ فرفع له قدره ، وأعلى له شَأْنه ، ورفع له ذِكْره ، ووضع عنه وِزْرَهُ ، وزكَّاه في كلِّ شيء .

زكَّاهُ في عقله ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم:٢] .

وزكَّاه في فؤاده ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم:١١].

وزكَّاه في بَصَره ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٧] .

وزكَّاه في صَدْره ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح:١] .

وزكَّاه في طهره ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [الشرح:٢] .

وزكَّاه في ذكره ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح:٤] .

وزكَّاه في معلمه ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٥] .

وزكَّاه في صدقه ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم:٣] .

وزكَّاه في حلمه ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨]

---

(١) راجع «زاد المعاد» (١/ ٤٣، ٤٤) ط الرسالة .

(٢) **قال ابن القيم في «الزاد»** (١/ ٤٤) : « اختار سبحانه ولد إسماعيل من أجناس بني آدم ، ثم اختار منهم بني كنانة ، من خزيمة ، ثم اختار من ولد كنانة قريشًا ، ثم اختار من قريش بني هاشم ، ثم اختار من بني هاشم سيد ولد آدم محمدًا ﷺ » .

وفي «**صحيح مسلم**» ، كتاب «الفضائل» ، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ،واصطفاني من بني هاشم** » .

وفي «**صحيح البخاري**» ، كتاب «المناقب» ، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذي كنت منه** » .

ثم زكَّاه كُلَّه ؛ فقال - جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤] .

والله ما ذرأ الله ، وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمدِ بن عبد الله ﷺ ؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : « ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم على الله من محمد ﷺ ، وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحدٍ غيره ؛ فقال - جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر:٧٢]» (1) .

قال القاضي عياض في « الشفا » (2) :

« اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ ، وهذه نهاية التعظيم وغاية التشريف » .

قُلْتُ : بل يتجلَّى تكريمُ ربِّنَا لنبيِّنا ﷺ في أنه - جَلَّ وَعَلاَ - قد نادى على جميع الأنبياء والمرسلين بأسماء مجردة ، إلا المصطفى ﷺ ما نادى الله عليه باسمه المجرد قط ؛ فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة:٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا ﴾ [هود:٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:١٠٤، ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ [القصص:٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى

---

(1) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة الحجر:٧٢) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ، وابن أبي شيبة كما في «الدر المنثور» (٥/ ٨٠) والحارث بن أبي أسامة كما في «بغية الحارث» (٩٣٨) ، و«المطالب العالية» (٣٧٤٠) ، و«إتحاف الخيرة المهرة» (٦/ ٧٤) ، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ١١٦) ، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٧٥٤) بسندٍ ضعيفٍ .

(2) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ» للقاضي عياض (ت ٥٤٤) ، (ص٥٣) ، (فصل في قسمه تعالى بعظيم قدره ﷺ) .

مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ﴾ [مريم:٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم:١٢] .

فلما نادى على حبيبنا ونبينا ﷺ ؛ قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ﴾ [المائدة:٤١]

ونادى عليه بصفته ؛ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر:١، ٢] .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل:١، ٢] ، إلى آخره .

وقبل أن أتحدث عن السيرة العطرة أودُّ أن أُذَكِّرَ أن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ قد أنزل من فوق سبع سماوات قرآنًا يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، يُعِلِّمُ فيه ربُّنا الصحابةَ ﷺ ، والأمة من بعدهم الأدب مع رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات:١، ٢]

فهيا تعالوا معي لنرجع إلى الوراء قليلاً ؛ لنتحدث عن سيرة أشرف

وأعظم وأكرم نبيٍّ .. إنها قصَّةُ طفلٍ طهورٍ كالربيع .. إنها قصَّةُ طفلٍ وديعٍ كالنسيم .. ينشأ هذا الطفلُ المبارك يتيمًا في مكَّة زادها الله تشريفًا ، ليشبَّ وليقول : ربيِّ ربيِّ ، لا ليقول : أبي أبي ؛ فالذي تولَّى تربيته هو الله سبحانه وتعالى ، وأقسم ربنًّا سبحانه بذلك ؛ فقال سبحانه :

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾[الضحى:١-١١] .

إنه اليتيمُ الذي كان يُتْمُه تشريفًا لكلِّ يتيم ؛ بل والذي جعل الله يتمه تشريفًا لكلِّ يتيم ، إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ، نشأ في بيئةٍ تصنع الحجارة بأيديها ، ثم تسجد لها من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فاحتقر النبيُّ ﷺ هذه الأصنام وهذه الآلهة المكذوبة المدعاة ! وأشفق على أصحاب هذه العقول ؛ فها هو أحدُهم يصنعُ إلهه من الخشب ، أو من العجوة أحيانًا ، فإذا ما عبث الجوعُ ببطنه ، قام ليدُسَّ هذا الإله الرخيص في جَوْفه ؛ ليطفأ به لهيب الجوع في أحشائه ، أو بين أحشائه !! فأشفق النبيُّ ﷺ على أصحاب هذه العقول العليلة ، وترك مكة وراح بعيدًا بعيدًا عن ضوضائها ، وصخبها ، وعن أصوات الشرك التي تملأُ البيت الحرام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، إلى أين ؟ إلى قِمَّة جبلِ النور ، إلى غار حراء ، بعيدًا بعيدًا عن مكة بآلهتها المكذوبة ، وأصنامها المدعاة ! راح هنالك ؛ ليقضي الليل في التبتل ، والدعاء، والتضرع ، ويقضي النهار في التأمل ، والتفكر ، والتدبر ، وفي ليلةٍ كريمةٍ مباركةٍ يصمتُ الكونُ كلُّه ؛ بل وتخشع أنفاس الوحوش في البريَّة ؛ بل وتسكُنُ حَبَّاتُ الرِّمال في

الصحراء ؛ بل وتسكن كُلُّ المياه ، ولِمَ لا ؟ وغار حراء يزداد أنوارًا بتنزُّل جبريل ﵇ ؛ ليُلامِس هذه الأرض المباركة بجناحيه !! ها هو رسول الله ﷺ هنالك في هذه القمة العالية ، في هذا الغار الضيق ، يودُّ أن يبتعد بعيدًا عن مكة وصخبها ، وصخب آلهتها المكذوبة ، وفي ليلةٍ من ليالي شهر رمضان (١) ، يتنزَّلُ عليه الملكُ جبريل ﵇ ؛ ليضم النبيَّ ﷺ إلى صَدْره ؛ كما في «**صحيح البخاري**» من حديث عائشة ﵂ :

أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ؛ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ ؛ فَقَالَ : «**اقْرَأْ**». قَالَ : « **مَا أَنَا بِقَارِئٍ** »قَالَ : « **فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ؛ فَقَالَ : اقْرَأْ ، قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ؛ فَقَالَ :** ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق:١ـ٤] » فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ﵂ ؛ فَقَالَ : « **زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي** » فَزَمَّلُوهُ ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ؛ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا

---

(١) وقد جزم بذلك الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/ ٣٢) ، (٧/ ٢٠١) اعتمادًا على رواية لابن إسحاق؛ كما في «السيرة»لابن هشام (١/ ١٣٧ـ ١٣٩) عن عبيد بن عمير مرسلاً ، وله فيه شاهدٌ آخرُ ، وله شاهدٌ عند الطيالسي في «مسنده» (١٥٣٩) من طريق : حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن رجل عن عائشة مرفوعًا . وفي سنده مجهول ؛ وقد فُسِّر في رواية أخرى لكن في سندها داود بن المحبر ؛ كما في « مسند الحارث بن أبي أسامة » (بغية الحارث ٩٣٢) ، و«المطالب العالية» (٤٣٣٦) وداود متروك .

الْخَبَرَ : « **لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي** » ؛ فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : كَلاَّ وَاللهِ ، مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ؛ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ؛ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي ، مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟** » قَالَ : نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ [١] .

أي : انقطع ! والرسول ﷺ ينتظر ماذا بعدما نُبئ بـ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ في الأربعين من عمره الشريف المبارك ؟ كما في «**صحيح البخاري**» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « **أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ ...** » الحديث [٢] .

فماذا بعد اقرأ ؟ ما هي المهمة ؟ وما هي الرسالة؟

روى البخاريُّ ومسلم من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما : **أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «بدء الوحي» باب (٤) رقم(٣) ، ومسلم في ، كتاب «الإيمان» ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «مناقب الأنصار» ، باب مبعث النبي ﷺ (٣٨٥١) ، وراجع «البداية والنهاية» (٣/ ٣ وما بعدها) .

ﷺ يقُولُ : «**ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الْوَحْيُ فَتْرَةً ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ ، فَجِئْتُ أَهْلِي ، فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى :** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ :** ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر:١-٥] ، **قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: وَالرِّجْزُ الأَوْثَانُ**»(١) ، وهذه هي المرةُ الأولى التي رأى فيها نبيُّنا ﷺ جبريلَ على هيئته الحقيقية ، وعلى صورته الطبيعية .

أيها المدثر بالأغطية ، قم فما كان بالأمس القريب حِلْمًا جميلاً ، أصبح اليوم حملاً ثقيلاً .. قم ؛ فلقد مضى عهد النوم ، لا راحة بعد اليوم ، فقام النبيُّ ﷺ ، والله لم يَذُقْ طعم الراحة حتَّى نزل عليه قَوْلُ ربه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، قام وما عاش لنفسه قط ، وما عاش لراحته الشخصية أبدًا ؛ بل قام فبذل من أَجْل دين الله تبارك وتعالى كُلَّ ما يملك من وقتٍ وعرقٍ وجهدٍ وروح ، فلم ير الرَّاحة ﷺ بعد قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر:١، ٢] ، أي : أنذر هؤلاء المشركين لتخرجهم من ظلمات الشرك والوثنية ، إلى أنوار التوحيد والإيمان بربِّ البرية ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي : كَبِّر ربَّك سبحانه وتعالى بالتوحيد ، وأفرِدْه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وَحْدَه بالعبودية ، واحْمَده أن هداك للطريق الحق ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، أي : طهر ثيابك من النجاسة ؛ لأن المشركين كانوا لا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «بدء الخلق» ، باب إذا قال أحدكم : «آمين» والملائكة في السماء ، فوافقت إحدهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣٨) ، ومسلم في كتاب «الإيمان» ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦١) .

يطهرون ثيابهم ، وقيل: طهر ثيابك من دنس المعاصي ، وحاشاه ﷺ ؛ فلقد طهره الله تبارك وتعالى ، أو أن المراد: طَهِّر باطنك كما أُمِرْت بتطهير ظاهرك ، والآية تحتمل هذه المعاني ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي : اهجر هذه الأصنام ، وتلك الآلهة المكذوبة الباطلة المدعاة ، التي لا تسمع ، ولا تتكلَّم ، ولا تبصر ، ولا تغني عن نفسها شيئًا ؛ بل ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا ؛ فضلاً على أن تملك ذلك لغيرها ، من هؤلاء الذين يتضرعون إليها ، ويعبدونها في الليل والنهار!! قم يا محمد ؛ فقام ﷺ ، وبدأ يدعو إلى الله تبارك وتعالى ، سرًّا ثلاث سنوات كاملة ، نعم .. سرًّا ؛ فللأصنام ، والآلهة المكذوبة جيوشٌ من الغضب ؛ بل إن هؤلاء القوم الذين يعبدون هذه الأصنام ، ينحرُ أحدهما الآخر من أَجْل ناقة ؛ فما ظنكم بما سيفعلونه من أَجْل آلهتهم التي يذبحون لها آلاف النياق ؛ نعم إن للأصنام جيوشًا من الغضب ، وهي على أتمِّ استعدادٍ لنحر كُلِّ من يعتدي على قُدْسية وكرامة هذه الأصنام! وهذه الآلهة المكذوبة المدعاة !!

تحرك النبيُّ ﷺ يدعو إلى الله تبارك وتعالى سرًّا ، ينتقي ويختار أصحاب العقول الراشدة ، وأصحاب العقول الأبية الكريمة ، ليبلغهم عن الله تبارك وتعالى ، فأسلمت خديجة ﵂ ؛ فأول من أسلم من النساء أم المؤمنين خديجة ـ رضوان الله عليها ـ رَمْزِ الوفاء ، وسَكَنِ سيِّدِ الأنبياء ، وأَسْلَم أبو بكر ﵁ ، وأَسْلَمَ عليُّ بن أبي طالب ﵁ ؛ فأول من أسلم من الرجال الصديق ، وَأَوَّلُ مَنَ أسلم من الصبيان علي ﵁[1] .

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٤/ ٤٦٢) : « وأول من أسلم من الرجال الأحرار البالغين أبو بكر ، ومن الأحرار الصبيان عليٌّ ، ومن الموالي زيد بن حارثة ، ومن النساء خديجة أم المؤمنين ،وهذا باتفاق أهل العلم » ا.هـ .

=

ثم بعد ذلك خرج الصديق ـ رضوان الله عليه ـ وما كان أبدًا كالزهرة الصناعية التي لا تحمل من الزهور إلا اسمها ؛ بل كان زهرة حقيقيةً من خلق الله تبارك وتعالى ، لا تحبس عن الناس أريجها وعطرها .. تحرَّك الصِّديق بهذا النور الذي ملأ الله به قلبه ، فدعا إلى الله تبارك وتعالى ، وعاد في اليوم التالي إلى النبيِّ ﷺ بخمسةٍ من العشرة المبشرين بالجنة [(١)] ؛ فأسلم على يديه عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وأعلنوا إسلامهم بين يدي الله تبارك وتعالى ، وهكذا بدأ الناس يدخلون في دين الله تبارك وتعالى يومًا بعد يوم ، وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم [(٢)] قام النبيُّ ﷺ ليربيِّ هؤلاء الأطهار ؛ ليزكي

= وفي «**صحيح البخاري**» من حديث عمار قال : « رأيتُ رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسةُ أعبدٍ وامرأتان وأبو بكر » ، البخاري ،كتاب «فضائل الصحابة» (حديث ٣٦٦٠) ، **قال الحافظ** : «وأما المرأتان فخديجة ، والأخرى أم أيمن أو سمية » .

ولا تعارض بين حديث زيد بن أرقم قال : « عليٌّ أول من أسلم » ، أخرجه الترمذي (٣٧٣٥) ، وأحمد (٤/ ٣٦٨) ،وهو صحيح ، وصححه شيخنا الألباني في «صحيح الترمذي » (٣/ ٢١٥) ، وبين الحديث الذي يثبت أن أبا بكر أول من أسلم ؛ عند الترمذي كذلك (٣٦٦٧) وهو صحيح كذلك .

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ٢٨) : « وقد أجاب أبو حنيفة ﷺ بالجمع بين هذه الأقوال بأن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الموالي زيد بن حارثة ، ومن الغلمان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين » وهذا قول جمع من أهل العلم ، ومنهم إسحاق بن راهويه ؛ كما نقل عنه ذلك القرطبي في «تفسيره» (لسورة التوبة:١٠٠) ، و البغوي في «معالم التزيل» (١/ ٨٧) ، وانظر : «الاستيعاب» (١/ ٢٩٤) لابن عبد البر .

(١) «السيرة» لابن إسحاق («كما في سيرة ابن هشام» ١/ ١٥٦) ط المكتب الثقافي ، و«مختصر سيرة الرسول ﷺ» لعبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص١١٣ ،١١٤) ، و«زاد المعاد» (٣/ ١٩)، و«الثقات» لابن حبان (١/ ٥٣) ط الفكر ، و «جزء في حديث خيثمة» (باب إسلام أبي بكر الصديق (ص١٢٥ ط دار الكتاب العربي) .

(٢) كما قال عامة أهل السير وغيرهم ؛ وانظر «الإصابة » لابن حجر (ترجمة الأرقم بن أبي الأرقم) (١/ ٤١، ٤٢) ط التوفيقية ، و«سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٢/ ٣١٩، ٣٢٠) .

وهناك أحاديث في أسانيدها مقال شديد ؛ فراجع «حلية الأولياء» لأبي نُعيم (١/ ٤٤، ٤٥) ، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٤/ ٢٩، ٣٠) ، و«أخبار مكة» للفاكهي (٢٢٤١) ، و«مستدرك الحاكم» (٣/ ٥٧٤) ، و«الضعيفة» (٣٠٦٢) .

نفوسهم ، وليهذب أخلاقهم ، لنرى منهم بعد ذلك العجب العجاب ؛ بل والله يزولُ كلُّ عجبٍ إذا علمنا أن الذي ربَّى هؤلاء هو المصطفى ، وكفى ! رباهم تربية ستظلُّ الدنيا تقف أمام هذا المنهج التربويِّ وقفةَ إعزازٍ وإجلالٍ وإكبارٍ ، وإذا كان كلُّ تلميذٍ في العادة يقتبسُ من أستاذه ، فلكُمْ أن تتصوروا كيف يكون الاقتباسُ إذا كان المربي والمعلم هو رسول الله ﷺ ؟

وإذا كان كلُّ منهجٍ في العادة يترك طابعه على مَنْ يتربون عليه ، ويتتلمذون عليه ، فلكُمْ أن تتصوروا كيف يكون الطابع الذي تُرك على قلوب وعقول الصحابة ﷺ ؟

فالمنهج الذي تربَّى عليه هؤلاء هو القرآن والسنة ، نعم ربَّى النبيُّ ﷺ الصحابةَ في دار الأرقم بن أبي الأرقم ومازال مستخفيًا حتى نزل عليه قول الله تعالى ؛ بعد ثلاث سنوات كاملة [1] : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤] ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤] ، فصعد النبيُّ ﷺ جبل الصفا ؛ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**» من حديث

---

(١) أخرج الطبريُّ (٢١٢٠٦) عن عبد الله بن عبيدة قال : « ما زال النبيُّ ﷺ مستخفيًا حتى نزلت : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤] ، فخرج هو وأصحابه » ، (وفي ابن كثير والدر المنثور: أبو عبيدة عن ابن مسعود) ، وفي «تفسير البغوي والقرطبي» موافق للطبري. ونحوه عند أبي نعيم في «الدلائل» من طريق السدى الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ مستخفيًا سنين لا يظهر شيئًا حتى نزلت : ... » وسنده فيه متهم . انظر : «الدر المنثور » (٥/ ٨٩) .

وراجع «التحرير والتنوير» لابن عاشور (تفسير الحجر:٩٤) ، و«معارج القبول» (٢/ ١٠٥٥) دار ابن القيم ، و«السيرة» لابن هشام (١/ ١٤٩) قال : قال ابن اسحاق : « وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار وفيه ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه ... »

وفي «**صحيح مسلم**» (٨٣٢) قال عمرو بن عبسة السلمي : «فسمعتُ برجلٍ بمكة يخبر أخبارًا ، فقعدتُ على راحلتي ، فقدمت عليه ، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا ، جُرءاءُ عليه قومه .. » .

ابن عباس رضي الله عنهما قال : لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: **يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي عَدِيٍّ** » ـ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ ـ حَتَّى اجْتَمَعُوا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ ، أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ ؛ فَقَالَ : « **أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟** » قَالُوا : نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا ، قَالَ : « **فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** » فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَهَذَا جَمَعْتَنَا ؟! فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد:١، ٢] (١).

فلما قال النبيُّ ﷺ : «**فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**» ، وسمِعَتْ مكة هذه الكلمات ! فأبرقت وأرعدت ، وأرغت وأزبدت ؛ بل ودقَّت طبول الحرب وأوعدت !! وصبَّت في التوِّ واللحظة جام غضبها على ابنها الصادق الأمين ، الذي شهدت له بالصدق والأمانة .

وتفنَّنَ المشركون من هذه اللحظة في إيذاء النبيِّ ﷺ ، ودخلت الدعوةُ مرحلةً جديدة ؛ مرحلة شرسة ، أُوذي فيها رسولُ الله ﷺ إيذاءًا تنوءُ عن حمله الجبال الرواسي ؛ فلقد وُضِع التراب على رأسه ، ووضِعَت النجاسةُ على ظهره ،وخُنِق حتَّى كادت أنفاسه أن تخرج !!

ففي «**الصَّحِيحَيْنِ** » من حديث عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلاَنٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ ، فَانْبَعَثَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب «التفسير» ، باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (٤٧٧٠) ، ومسلم ، في كتاب «الإيمان» ، باب ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢٠٨) .

أَشْقَى الْقَوْمِ ، فَجَاءَ بِهِ ، فَنظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، وَأَنَا أَنْظُرُ لاَ أُغْنِي شَيْئًا لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ ، قَالَ : فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ ، وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَاجِدٌ لاَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « **اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ** » ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ ، قَالَ : وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ ، ثُمَّ سَمَّى : « **اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ** » وَعَدَّ السَّابِعَ ، فَلَمْ نَحْفَظْهُ ، قَالَ : فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ[1] ؛ حتَّى لقد توعَّده أبو جهل فرعون هذه الأمة ؛ كما في «**صحيح مسلم**» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ قَالَ : فَقِيلَ : نَعَمْ ، فَقَالَ : وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ ، أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ ، قَالَ : فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ ، قَالَ : فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ ، قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا** » قَالَ : فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ لاَ نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ شَيْءٌ بَلَغَهُ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب «الوضوء» ، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته (٢٤٠) ، ومسلم ، في كتاب «الجهاد والسير» ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٤) .

وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [العلق:٦ـ ١٣] [(١)]، (يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ) ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٤ـ ١٩] ؛ فالله تبارك وتعالى هو الذي قال لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:٦٧] ، فالذي تولَّى حِفْظَ الرسول ﷺ، هو الله تبارك وتعالى .

يُخنق النبيُّ ﷺ حتى كادت أنفاسه أن تخرج ؛ حتى جاء الصديق رضي الله عنه ، ودفع هذا الوغد المجرم عقبة بن أبي معيط عن رسول الله ﷺ ؛ ففي «**صحيح البخاري**» [(٢)] من حديث عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ :

«سَأَلْتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ ، قَالَ : رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ ؛ فَقَالَ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [غافر:٢٨] » .

إن كان هذا قد فُعِل بالنبيِّ ﷺ ؛ فما ظنكم بما فعله المشركون بالصحابة رضي الله عنهم ؟! فلقد كان أبو طالب عمُّ النبيِّ ﷺ حائطَ صدٍّ منيعٍ ، طالما تحطَّمت عليه سيوفُ ورماح أَهْل الشرك بمكة ، ومع ذلك يفعل بالنبيِّ ﷺ ذلك !! اتهموه بالسحر وبالجنون وبالكهانة وبالشعر ، ويلقى التراب على رأسه ، وتوضع النجاسة على ظهره إلى آخر صور الإيذاء والسخرية التي ألحقوها بسيد

---

(١) أخرجه مسلم ، في كتاب «صفة القيامة» ، باب قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦، ٧] ، (٢٧٩٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب «فضائل أصحاب النبي ﷺ » ، باب قول النبيِّ ﷺ : «لو كنت متخذًا خليلاً» (٣٦٧٨) .

البشرية ﷺ .

فتصوروا ماذا فُعل بالصحابة ؟ ماذا فُعل ببلال ؟ وعمار وأمه سمية ؟ ماذا فُعل بكلِّ من آمن بالله وآمن برسول الله ﷺ ؟!

فُعِل بهم مالا يحتمله عقل ، ولا يتصوره خيال ، ولولا أننا على يقينٍ مطلقٍ بالأدلة الصحيحة الثابتة أن هذا قد وقع بالفعل لأصحاب رسول الله ﷺ ، والله ما تصورناه ، ولا تخيلناه ، لقد ثبتهم الله تبارك وتعالى ، وملأ الله ﷻ قلوبهم إيمانًا ويقينًا وثباتًا وصبرًا ، وضربوا أروع الأمثلة في الصبر على الأذى والبلاء ، لنصرة دين ربِّ الأرض والسماء .

روى ابن ماجه في «السنن» وأحمد في «المسند» بسندٍ حسن من حديث ابن مسعود قَالَ : « كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلاَمَهُ سَبْعَةٌ : رَسُولُ الله ﷺ ، وَأَبُو بَكْرٍ ، وَعَمَّارٌ ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ ، وَصُهَيْبٌ ، وَبِلاَلٌ ، وَالْمِقْدَادُ ، فَأَمَّا رَسُولُ الله ﷺ فَمَنَعَهُ الله بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ منه قَوْمِهِ ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ ، فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إِلاَّ بِلاَلاً ، فَإِنَّهُ قَدْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي الله وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ ، فَأَخَذُوهُ ، فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ ، وَهُوَ يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ »[1] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «المقدمة» ، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد (١٥٠) ، وأحمد (١/ ٤٠٤) ، وابن أبي شيبة (٣٢٣٣٣) ط الرشد ،والحاكم (٣/ ٣٢٠) ط دار الكتب ، والعجلي في «الثقات» (٢/ ٣١٨) ، وابن حبان (٧٠٨٣) ، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٨١، ٢٨٢) ، وأبو نعيم في « الحلية» (١/ ١٤٩) ، قال في «مصباح الزجاجة » (١/ ٢٣) : « هذا إسناد رجاله ثقات » ، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه». =

قال ابنُ كثير[١]:

« كان بلال ﵁ يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم ، وهو يقول : أحد أحد » .

فوجدت قريش أن العنف والشدة والقسوة لم يوقف تيار الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ،ولم يَحُلْ بين رسول الله ﷺ وبين الدعوة إلى الله ، ففكَّروا في أسلوبٍ آخر ، إنه أسلوب الإغراء والاستمالة بعَرَضِ الدنيا الزائل .

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»[٢] :

قال الإمام العَلَم عبد بن حُمَيد في «مسنده»[٣]: حدثني ابن أبي شيبة ، حدثنا علي بن مسهر ، عن الأجلح ،عن الذِّيَّال بن حَرْمَلَة الأسدي ، عن جابر بن عبد الله ﵄ قال : اجتمعت قريش يومًا فقالوا : انظروا أعلمَكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فَرّق جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعاب ديننا ، فَلْيكلمه وَلْنَنْظُرْ ماذا يَرُدّ عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحدًا غير عُتْبَة بن ربيعة ، فقالوا : أنت يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة فقال : يا محمد ، أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟

= وأخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٣٣٤) ، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٣٣) عن مجاهد قوله . وانظر : «علل الدارقطني» (٣٠٨) .

(١) «تفسير ابن كثير» (لسورة النحل:١٠٦) .

(٢) «تفسير ابن كثير » (لسورةفصلت ١-٥) .

(٣) في «المنتخب» (برقم:١١٢٣) ، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٦٠) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٨٢٤٣) ، وأبو نعيم في «الدلائل» (٢٥٨) ط دار طيبة . وله شواهد عن ابن عمر عند البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٥، ٢٠٦) ، والحديث صححه الألباني في «صحيح السيرة» (١٥٩- ١٦١) .

فسكت رسول الله ، قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكَلَّم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك ، فَرَّقت جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعِبْتَ ديننا ،وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا ، وأن في قريش كاهنًا ! والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحُبْلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، حتى نتفانى ! أيها الرجلُ ، إن كان إنما بك الحاجة جمعْنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أيّ نساء قريش فَلْنُزوجك عشرًا ؛ فقال رسول الله ﷺ « **فَرَغْتَ؟**» قال : نعم : فقال رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ حتى بلغ : ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت:١-١٣] ؛ فقال عتبة : حسبك ! حسبك! ما عندك غير هذا ؟ قال : «لا» . فرجع إلى قريش ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئًا أرى أنكم تكلِّمونه به إلا كلمته ، قالوا : فهل أجابك ؟ قال : لا ، والذي نصبها بَنِيَّةً ما فهمتُ شيئًا مما قال ، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا : ويلك ! يكلمك الرجل بالعربية ما تدري ما قال ؟! قال : لا ، والله ما فهمت شيئًا مما قال غير ذكر الصاعقة .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (١) عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده مثله سواء ،وقد ساقه البغوي في «تفسيره» (٢) بسنده عن محمد بن فضيل ، عن الأجلج ـ وهو ابن عبد الله الكندي ، وقد ضُعّف بعض الشيء ـ

---

(١) في «مسنده» (برقم:١٨١٨) .

(٢) « معالم التنزيل» (٧/ ١٦٧) (تفسير فصلت :١٣) ط طيبة .

عن الذّيّال بن حرملة ، عن جابر ، فذكر الحديث إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣] ، فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرَّحِم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، والله ما نرى عتبة إلا قد صَبَا إلى محمد ، وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه ، فانطلقوا إليه ؛ فقال أبو جهل : يا عتبة ، ما حَبَسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت لك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب عتبة ، وأقسم أن لا يكلِّم محمدًا أبدًا ، وقال : والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ، ولكني أتيته وقَصَصتُ عليه القصة ، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا وكهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ، فأمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكُفَّ ، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى ،والله أعلم .

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار في كتاب «السيرة» (١) على خلاف هذا النمط ؛ فقال :

حدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : حُدِّثتُ أن عتبة ابن ربيعة ـ وكان سيدًا ـ قال يومًا وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلِّمَه ،

---

(١) كما في «السيرة» لابن هشام (١/ ١٦٦) ط المكتب الثقافي ، ومن طريق ابن إسحاق ، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥) .

وأعرض عليه أمورًا لعلَّه يقبل بعضها ، فنعطيه أيَّها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلِّمه ، فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ؛ فقال : يا ابن أخي ، إنك منَّا حيث قد علمت من [السِّطَة في] العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فَرَّقْتَ به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها ، قال : فقال له رسول الله ﷺ : « **قُلْ يَا أَبَا الوَلِيد أَسْمَعُ** » قال : يا ابن أخي ، إن كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ؛ حتى تكون من أكثرنا أموالاً ، وإن كنت تريد به شرفًا سَوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئيًّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ،وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غَلَب التابعُ على الرجل حتى يُداوى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : « **أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟** » قال : نعم ، قال : «**فَاسْتَمِعْ مِنِّي**» قال : أفعل ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [فصلت:١ـ٤] ، ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبةُ أنصتَ لها ،وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، فسجد ، ثم قال : « **قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ ، فَأَنْتَ وَذَاكَ** » فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

أقسم ـ يحلف بالله ـ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا الكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فمُلْكُه مُلككم ،وعِزُّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ،وهذا السياق أشبه من الذي قبله ، والله أعلم .

وفي «**مستدرك الحاكم**» و«**الدلائل**» و«**الشعب**» للبيهقي [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما :

« أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيِّ ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ؛ فأتاه فقال : يا عم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لِمَ ؟ قال : ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لَمَا قبله ، قال : قد علمت قريش أَنِّي من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له أو إنك كاره له ، قال : وماذا أقول؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ،وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : لا

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٥٠) ط دار الكتب ، وقال : « صحيح الإسناد على شرط البخاري ، ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي ، وكذا الألباني ؛ كما في «صحيح السيرة» لابن كثير (١٥٨، ١٥٩) ، وأخرجه كذلك البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٩٨ ، ٢٠٠) ، و«الشعب» (١٣٥) ،وجود سنده العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٢٧٤) ، وصححه الألباني ـ كما سبق .

يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره ، فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدثر:١١] .

نعم ؛ أنزل الله هذه الآيات الفريدة في شأن هذا المفتري على رسول الله ﷺ ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالاً مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴾ [المدثر:١١ـ٢٧] .

فالمشركون كانوا يخشون على أنفسهم وأولادهم من القرآن ؛ بل ويقولون لبعضهم البعض ،كما قال الله عنهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت:٢٦] ، أي : شوِّشوا على القرآن ، ولا تدعوه يصل إلى الآذان ؛ ولا تنصتوا له ؛ لأنه يقلب القلوب ، ويَسْبي العقول ، وكلٌّ من استمع إليه صبا إليه ، ولو وصل القرآن إلى الآذان لصدَّع جلالُ القرآنِ عناد الكبر في القلوب!!

ويفسِّر لنا الإمام السعدي هذه الآية تفسيرًا رائعًا ؛ حيث يقول[1] :

«يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن ، وتواصيهم بذلك فقال :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أي : أعرضوا عنه بأسماعكم ، وإياكم أن تلتفتوا ، أو تصغوا إليه وإلى من جاء به ؛ فإن اتفق أنكم سمعتموه أو

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (لسورة فصلت:٢٦) .

سمعتم الدعوة إلى أحكامه ، عارضوه ﴿ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾ [فصلت:٢٦] ، أي : تكلَّموا بالكلام الذي لا فائدة فيه ، بل فيه المضرة ، ولا تمكنوا ـ مع قدرتكم ـ أحدًا يملك عليكم الكلام به ، وتلاوة ألفاظه ومعانيه ، هذا لسان حالهم ، ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن .

﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿ تَغْلِبُونَ ﴾ وهذه شهادة من الأعداء ، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء ؛ فإنهم لم يحكموا بغلبتهم لمن جاء بالحق إلا من حال الإعراض عنه والتواصي بذلك.

ومفهوم كلامهم ، أنهم إن لم يلغوا فيه ، بل استمعوا إليه ، ألقوا أذهانهم ، أنهم لا يغلبون ، فإن الحق ، غالب غير مغلوب ، يَعْرِف هذا أصحاب الحق وأعداؤه » ا . هـ .

ومن أروع ما قرأتُ أنه في السنة الخامسة من النبوة (1) ، دخل النبيُّ ﷺ بَيْتَ الله الحرام ، ورحى الصراع دائرة على أشدها بينه وبين المشركين وقرأ النبيُّ ﷺ سورة النجم بمكة ، ولك أن تتخيل حلاوة القرآن وجلاله حين يتلوه رسول الله ﷺ ؛ فالقرآن لو أنزله الله على جبل لتصدع من خشية الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ قام النبيُّ ﷺ يقرأ هذه الآيات : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:١ـ٥] ، وفي آخر السورة قرأ آيات كريمة تطير لها القلوب : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ [النجم:٥٩ـ٦٢] ، وخَرَّ النبيُّ ﷺ ساجدًا لله ، فلم يتمالك أحدٌ من المشركين نفسه ، فخروا كلُّهم

---

(1) كما قال أهل السير ؛ ذكره الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٢٧) ، باب الهجرة إلى الحبشة (٨/ ٤٨١) .

سجَّدًا لله خَلْف رسولِ الله ﷺ.

روى البخاريُّ في كتاب السجود من «**صحيحه**» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما:

«**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَالْمُشْرِكُونَ، وَالْجِنُّ، وَالإِنْسُ**»[(١)].

وهذه هي العلَّة التي جعلت المهاجرين إلى الحبشة يعودون إلى مكة مرة أخرى بعدما ترامت الأنباء إليهم هنالك أن المشركين قد سجدوا خلف رسول الله ﷺ[(٢)]؛ لكنهم لم يعلموا أن جلال القرآن هو الذي صدع عناد الكبر في قلوبهم .. وسجدوا لله؛ فلما رفعوا رؤوسهم استنكروا ذلك، وعاب بعضهم على بعض أن يفعلوا ذلك مع رسول الله ﷺ !!

ففي السنة الخامسة من البعثة[(٣)] اشتدَّ العذاب الإيذاء بالصحابة رضي الله عنهم، بعدما فشلت خطة قريش في استمالة رسول الله ﷺ بالإغراء، فلم يجد النبيُّ ﷺ بُدًّا أن يطلب من أصحابه الذين اشتد بهم الأذى أن يهاجروا إلى الحبشة؛ لتغسل شلالات الحبشة جروحهم، ودماءهم، التي لا زالت تنزف من رماح وسيوف وسهام وسياط المشركين في مكة !!

---

(١) أخرجه البخاريُّ، في كتاب «سجود القرآن»، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١).

(٢) قال ابن إسحاق: «وبلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوارٍ أو مستخفيًا ...»، «السيرة» لابن هشام (٢/ ١١)، و«الفتح» لابن حجر (٧/ ٢٧٦)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٨٨).

(٣) «البداية والنهاية» (٣/ ٦٤) ط الريان.

ثم لماذا الحبشة ؟ والجوابُ من رسول الله ﷺ قال [١]:

« **إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلاَدِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ** ».

ويخرج الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ المغلوبون على أمرهم ، المستضعفون الذين أُلهبت ظهورُهم بسياطِ أهل الشرك في مكة ؛ فخرجوا إلى الحبشة [٢] ، ولما وجد النبيُّ ﷺ أرض مكة أرضًا صلدة تأبى أن تقبل بذرة التوحيد والإيمان ،خرج بأبي هو وأمي ، ليبحث عن أرضٍ جديدة أخرى ؛ فخرج إلى الطائف على قدميه الداميتين المتعبتين ، لم يجد راحلة ليركبها ، والمسافة من مكة إلى الطائف تقارب سبعين كيلو مترًا ، فلم يجد شيئًا يحمله ؛ بل يمشي على رمال مكة ! في الصحراء التي انعكست عليها أشعة الشمس ، فكادت الأشعة المنعكسة فقط أن تخطف الأبصار ، لا يرى حوله إلا جبالاً سوَّدتها حرارة الشمس ، ولا يرى إلا رمالاً ملتهبة ،كأنها تبخ الحرارة بخًّا ، وتنفث الألم نفثًا .. خرج النبيُّ ﷺ إلى الطائف .

والله ما خرج يريد جاهًا ،ولا ذهب يريد مالاً ، ولا وَجَاهةً ، إنما ذهب لينتشلهم من ظلام الشرك والوثنية ، إلى أنوار التوحيد والإيمان برب البرية ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ لكن أهل الطائف فعلوا به أسوأ ما يفعله الإنسان بالإنسان ، وفعلوا به ما لم يتوقعه رسولُ الله ﷺ ؛ سَلَّطوا عليه السفهاء والصبيان ، فسبُّوه

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن» (٩/ ٩) ،و «الدلائل» (٢/ ٣٠١) من حديث أم سلمة ﵂ قالت : فذكرته مرفوعًا . وهو عند أحمد (١/ ٢٠١، ٢٠٢) ، وابن إسحاق في «السيرة» ؛ كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ١٩١) عن أم سلمة بدون هذه الفقرة ، والحديث جوَّد سنده العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/ ٢٢٥) وكذا الألباني في «الصحيحة» (٣١٩٠)

(٢) «السيرة » لابن هشام (١/ ١٨٤) ، فصل : الهجرة الأولى إلى الحبشة .

وشتمُوه ،وقذفوه الحجارة ، ولم يستجيبوا لدعوته ؛ **كما روى ذلك الطبرانيُّ في «الكبير» وفي «الدعاء» وابن عدي في «الكامل» وابن عساكر في «تاريخه» والخطيب في «الجامع لأخلاق الرواي»** [(١)] من طريق : ابن إسحاق عن هشام ابن عروة عن عروة عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفى أبو طالب خرج النبيُّ ﷺ إلى الطائف ماشيًا قدميه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوه ، فانصرف فأتى ظلَّ شجرة ، فصلَّى ركعتين ، ثم قال :

« اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ أَرْحَمُ بِي ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي ، أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانًا عَلَيَّ ، فَلَا أُبَالِي ، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتِ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ » .

حتى قالَتْ عائشةُ رضي الله عنها للنبيِّ ﷺ ؛ كما في «**الصَّحِيحَيْنِ**» : **هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ قَالَ : « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ ، وَكَانَ**

---

(١) وسنده حسن لولا ما يخشى من تدليس ابن إسحاق ؛ وقد أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» (٦/ ٣٧) ، وفي «الدعاء» (١٠٣٦) ، وفي «جزء في ترجمة الطبراني»(١/ ٣٤٦) ، وابن عدي (٦/ ١١١) ، وابن عساكر (٤٩/ ١٥٢) ، والخطيب في «الجامع» (١٨٣٩) من طريق : ابن إسحاق به .

قال ابن عدي : « وهذا حديث أبي صالح الراسبي لم نسمع أن أحدًا حدث بهذا الحديث غيره ولم نكتبه إلا عنه » ، وقال الهيثمي : « وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات » ، وقد ضعفه الشيخ الألباني ؛ فقال : « فإنه ضعيف على شهرته في كتب السيرة »(«تمام المنة» ١/ ٤) ، و«الضعيفة» (٢٩٣٣) ، و«ضعيف الجامع» (١١٨٢)، و«فقه السيرة» (١/ ١٢٥) .

قلت : وللحديث شاهدٌ مرسلٌ ؛ أخرجه ابن إسحاق ؛ كما في «السيرة» لابن هشام (٢/ ٤٣، ٤٤) ، والطبري في «تاريخه» (١/ ٥٥٤) من طريق : ابن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً ؛ فلعله به يحسن ، والله أعلم .

أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ : ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمِ الأَخْشَبَيْنِ[١] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا »[٢] .

هذا هو المصطفى ﷺ ؛ خرج وهو يحمل في قلبه أملاً يتجدد ،خرج وهو يحمل في صدره ربيعًا يتنفس ! نعم ما خرج للانتقام ولا للثأر للذات أبدًا ، والله ثُمَّ والله لو كان النبيُّ ﷺ ممن ينتقمون لأنفسهم ، وممن يثأرون لذواتهم ، لأمر ملك الجبال ، فلحطَّم هذه الرؤوس الصلدة ، وحطَّم هذه الجماجم العنيدة ، ولسالت بحورٌ من الدماء ـ لا من الماء ـ ولكنه الرحمة المهداة والنعمة المسداة بأبي هو وأمي ﷺ .

ويرجع النبيُّ ﷺ مرةً أخرى إلى مكة ، بعدما وجد أرض الطائف أشدَّ صلادة من أرض مكة ! ويشاء ربُّنا تبارك وتعالى في العام العاشر[٣] أن يموت عمه أبو طالب ، وقدَّر ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن يموت على دين قومه ، مع ما بذله

---

(١) الأخشبان: جبلان عظيمان يقال للأول أبو قبيس ، ويقال للثاني الأحمر .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «بدء الخلق» ، باب ذكر الملائكة (٣٢٣١) ،ومسلم ، في كتاب «الجهاد والسير» ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٥) .

(٣) «الفتح» (٧/ ٢٣٣) باب قصة أبي طالب .

للنبيِّ ﷺ ولدعوة الله تبارك وتعالى من حماية ورعاية [(١)] .

ففي «صحيح البخاري» من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن رضي الله عنه أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ ؛ فَقَالَ : « أَيْ عَمِّ قُلْ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله » فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : يَا أَبَا طَالِبٍ ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ » . فَنَزَلَتْ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣] [(٢)] ، وَنَزَلَتْ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦] .

وبعد موت عمه أبي طالب تموتُ خديجة رضي الله عنها [(٣)] رمزُ الوفاء ، وسكن سيد الأنبياء ، ويحزن النبيُّ ﷺ في هذا العام حزنًا شديدًا ،حتى سَمَّى بعضُ المؤرخين للسير هذا العام بعام الحزن ؛ ففيه مات أبو طالب ، وماتت خديجة ، وملأ الحزنُ قَلْب رسول الله ﷺ وفتت الألم كبده ﷺ ، وخرج النبيُّ ـ عليه

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٣٣) : « وأخباره في حياطته والذب عنه معروفة مشهورة ، ومما اشتهر من شعره في ذلك قوله :

والله لــن يصــلوا إليــك بجمعهــم حتــى أوســد في الــتراب دفينــا» .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب «المناقب» ، باب قصة أبي طالب (٣٨٨٤) ، ومسلم ، في كتاب «الإيمان» باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع (٢٤) .

(٣) وقد ماتا في عام واحد ؛ قاله ابن إسحاق ، انظر : «السيرة» لابن إسحاق ، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٢) ، و«الفتح» (٧/ ٢٣٢) ، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٢٠) .

وقد ورد في «صحيح البخاري» (٣٨٩٦) عن عروة قال : أن خديجة رضي الله عنها توفيت قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين ، وراجع : «الدلائل» للبيهقي (٢/ ٤١٠) ، (٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٣) ، و«الفتح» (٧/ ٢٤٣) .

الصلاة والسلام - يدعو ، ويشاء الله تبارك وتعالى أن يُضَمِّد جراح حبيبه ﷺ ؛ فيدعوه ربه تبارك وتعالى لرحلة من أعظم الرحلات ؛ بل هي أعظم رحلةٍ عرفتها البشرية ، ألا وهي : رحلة الإسراء والمعراج [(١)] ؛ لرب البرية - جَلَّ وَعَلاَ - وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنبيه ﷺ ، أن أهل الأرض إن كانوا قد طردوك فربُّ السماء والأرض يدعوك ، وإن كانوا قد ناصبوك العداء ؛ فإنك مدعوٌّ للقاء ربِّ الأرض والسماء . يا لها من كرامةٍ تقفُ أمامها كلُّ كلمات اللغة خجلاً ، ولا يستطيع بليغٌ ولا أديبٌ أن يجسِّد كرامة هذه الدعوة من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ، ليعرج إلى السماوات العلا بعد رحلة الإسراء ؛ قال تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ [الإسراء:١] الآيات.

ثم بعد ذلك تأتي معجزة المعراج في سورة النجم كرامةً من الله للنبيِّ ﷺ ؛ فقال تعالى :

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ

---

(١) وكان ذلك قبل الهجرة من مكة إلى المدينة بالإجماع ؛ كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة» (٥/ ٣٢) ثم وقع الاختلاف في تحديد ذلك ؛ فقيل: كان الإسراء لخمس قبل الهجرة، وقيل : قبل الهجرة بعام ، قال القاضي عياض : « والأشبه أنه لخمس » (الشفا ١/ ٢٠٨) وقال ابن عبد البر وغيره : « كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران » «زاد المعاد»(٣/ ٤٢) ، وعن الزهري قال: «أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس قبل خروج إلى المدينة سنة » أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٥٤) .

قال في «الفتح» (٧/ ٢٤٢) : «وقد اختلف في وقت المعراج ..وذهب الأكثر إلى أنه كان بعد المبعث ؛ ثم اختلفوا ؛ فقيل : قبل الهجرة بسنة ، قاله ابن سعد وغيره ، وبه جزم النوويُّ ، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه ! وهو مردودٌ ؛ فإن في ذلك اختلافًا كثيرًا يزيد على عشرة أقوال ..إلخ » .

بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾

[النجم:١ـ١٨]

وأقول : إن معجزة الإسراء كانت تكريمًا من الله لصاحب الدعوة في المقام الأول ، فلم تكن تكريمًا للدعوة ، بقَدْرِ ما كانت تكريمًا لصاحب الدعوة ؛ بل إن معجزة الإسراء فتنت كثيرًا من الناس ، لما عاد النبيُّ ﷺ ليخبرهم بأن الله أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى السماوات العلا .

ومعجزة الإسراء تتلخَّصُ في الزمن ؛ فمن المعلوم عند أهل العلم أن القدرة تتناسب تناسبًا عكسيًّا مع الزمن ؛ فكلَّما زادت القدرةُ قَلَّ الزمن ، يعني : لو أنك قطعت المسافة من القاهرة إلى المنصورة مثلاً على درَّاجة فتأخذ وقتًا معينًا ، فإن قطعت المسافة على سيارة عادية سيقلُّ الوقت ، فإن قطعت المسافة بسيارةٍ أقوى قَلَّ الوقت ، فإن قطعت المسافة بطائرةٍ أو بصاروخٍ قَلَّ الوقتُ ؛ فكلَّما زادت القدرة قلَّ الوقتُ ، فإن كانت القدرةُ التي أسرت برسول الله ﷺ من مكة إلى المسجد الأقصى هي قدرة الله ﷻ ! إذًا لا وقت ؛ فإعجاز ربنا تبارك وتعالى في رحلة الإسراء يتلخَّص في الوقت .

أمَّا المِعْراجُ ؛ فالحديثُ عن المعراج حديثٌ يطولُ (١) ، ويكفي أن نقول : إنه

---

(١) وراجع أحاديث الإسراء والمعراج في «الصحيحين» وغيرهما (البخاري ، كتاب «التوحيد» ، باب ما جاء في قوله ﷻ : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤]) ، (٧٥١٧) ، ومسلم ، كتاب «الإيمان» ، (باب=

بهذه الكرامة أعلى الله مكانة النبيِّ ﷺ ، ورفعه على كلِّ الأنبياء والمرسلين ، إذ صلَّى بهم ﷺ إمامًا ؛ فهو الإمام الأعظم ، وهو النبيُّ الأكرم ، الذي إن وجد في أي عصر ومصر لوجب على الخلق جميعًا أن يؤمنوا به ، وأن يتبعوه ، ولو كان فيهم نبيٌّ مُرسلٌ من أنبياء الله تبارك وتعالى [1] .

هذا هو نبينا ﷺ يشرفه الله برحلة الإسراء ليضمد جراحَهُ التي نزفت بعد هذا الأذى والابتلاء .

ثم يخرج النبيُّ ﷺ في موسم الحج في السنة الحادية عشرة من البعثة يبحث عن أناس يبلغهم دين الله ، ويدعوهم إلى: لا إله إلا الله ؛ كما في **«سنن الترمذي»** و**«أبي داود»** **وابن ماجه وغيرهم** [2] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « **كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ** ـ وفي رواية : في الموسم ـ **فَقَالَ : « أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي »** .

= الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات) (١٦٢) ، وراجع «صحيح البخاري» كتاب مناقب الأنصار ، باب حديث الإسراء (٤١) (حديث ٣٨٨٦ وما بعده) ، وراجع «تفسير ابن كثير» (لسورة الإسراء:١) ، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٥٤ـ ٤٠٨) ط الريان ، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى » (١٩٣، ٢١٩) ط ابن رجب .

(١) انظر : «تفسير ابن كثير» (لسورة آل عمران:٨١) ، (١/ ٣٥٧) ط المكتبة القيمة ؛ **قال ابن كثير :** « فالرسول محمد خاتم الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دائمًا إلى يوم الدين ، هو الإمام الأعظم الذي لو وُجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلِّهم ، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس ؛ وكذلك هو الشفيع في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفَصْل القضاء بين عباده ، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له ، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليه ؛ فيكون هو المخصوص به ـ صلوات الله وسلامه عليه » ا. هـ .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٠) وأبو داود ،كتاب «السنة في القرآن» ، باب في القرآن (٤٧٣٤) ، والترمذي، كتاب فضائل القرآن (٢٩٢٥) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح » ، وابن ماجه في «المقدمة» ، باب فيما أنكرت الجهمية (٢٠١)وصححه العلامة الألباني في «صحيح الترمذي» وغيره .

حتى مَنَّ الله تبارك وتعالى عليه في العام الحادي عشر بخيمةٍ كريمةٍ مباركة ، فيها ستة نفر من الأنصار الأطهار الأخيار ، فدعاهم النبيُّ المختار إلى العزيز الغفار ، فآمنوا بالله تبارك وتعالى ، ووعدوا رسول الله ﷺ أن ينقلوا هذه الدعوة ـ دعوة التوحيد ـ إلى أهليهم في المدينة ، التي كانت تسمَّى يومها بـ يثرب وقالوا : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ؛ فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعزَّ منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا .

قال ابن إسحاق : وهم ـ فيما ذكر لي : « ستة نفر من الخزرج .. حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوه بالعقبة .. » [١].

وبالفعل عادوا في العام المقبل ، وقد أسلم اثنا عشر رجلاً من الأنصار الأخيار [٢].

وبايعوا النبيَّ ﷺ بيعة العقبة الأولى ؛ تلك البيعة التي حطَّمت الجدران السوداء .. تلك البيعة التي أذن الله تبارك وتعالى بها لشمس التوحيد أن

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٩، ٥٠) دعوة الرسول الله ﷺ الخزرج إلى الإسلام ، وأخرجه من طريق ابن إسحاق: البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٣٣، ٤٣٤) ، وراجع «زاد المعاد» (٣/ ٤٥ وما بعدها) .

(٢) كما عند ابن إسحاق في «السيرة» ـ سيرة ابن هشام (٢/ ٥٢) ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٣٦) عن عبادة بن الصامت ، وأخرجه أحمد (٥/ ٣١٦) من وجه آخر عن عبادة . وهو صحيح .

وانظر: « صحيح البخاري» ، كتاب «مناقب الأنصار» ، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة (٣٨٩٣، ٣٨٨٩) ، و «صحيح مسلم » ،كتاب «الحدود» ، باب الحدود كفارات لأهلها (١٧٠٩) .

تشرق على أرض يثرب ، وقد بايعوا النبيَّ ﷺ على أن ينصروه ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم وذراريهم .

روى أحمد في «مسنده» والحاكم في «مستدركه» وأبو يعلى في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه» وغيرهم عن جابر رضي الله عنه قال :

مَكَثَ رسولُ الله ﷺ بمكةَ عشرَ سنينَ يَتَّبِعُ الناسَ في منازلهم بعُكَاظَ ومجَنَّة ، وفي المواسِمِ بمِنيً ، يقول : « **من يُؤْوِيني ؟ مَنْ يَنْصُرُني ؟ حتَّى أُبَلِّغَ رِسالةَ رَبِّي ، وله الجَنَّةُ** » حتى إنَّ الرجلَ لَيَخْرُجَ مِنَ اليَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ - كَذَا قَالَ - فيَأْتِيهِ قومُه ، فيقولونَ : احْذَرْ غُلامَ قريشٍ ، لا يَفْتِنْكَ . ويمشي بينَ رجالهم ، وهم يُشِيرونَ إِلَيْهِ بالأَصابعِ ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ لَهُ مِنْ يَثْرِبَ ، فآوَيْناهُ وصَدَّقْناهُ ، فيخرجُ الرَّجُلُ مِنَّا ، فيؤمنُ به ، ويُقرِئُه القرآنَ ، فيَنْقَلِبُ إلى أهلِه ، فيُسلِمُونَ بإسلامِهِ ، حتى لم يَبْقَ دارٌ من دُورِ الأنصارِ إلا وفيها رَهْطٌ من المسلمينَ يُظهِرُونَ الإسلام .

ثم ائتَمَرُوا جميعًا ، فَقُلْنا : حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ رسولَ الله ﷺ يُطرَدُ في جبالِ مكَّة ويُخافُ ؟ فرَحَلَ إليه مِنَّا سبعونَ رجلاً ، حتى قَدِمُوا عليه في المَوسِم ، فواعَدْناه شِعْبَ العَقَبةِ ، فاجتمعنا عندَه من رجلٍ ورَجُلَيْنِ ، حتى توافَيْنا ؛ فقلنا : يا رَسُولَ الله ، عَلامَ نُبايِعُكَ ؟

قال : « **تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ ، والنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لاَ تَخَافُونَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي ، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ** » .

قَالَ : « فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بنُ زُرَارَةَ ، وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ ، فَقَالَ : رُوَيْداً يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلاَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ الله ﷺ ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً ، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَجْرُكُمْ عَلَى الله ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً ، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ ، فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ الله ، قَالُوا : أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ ، فَوَالله لاَ نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَداً ، وَلاَ نَسْلُبُهَا أَبَداً ، قَالَ : فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا وَشَرَطَ ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ »[1] .

وعاد هؤلاء الأخيار إلى المدينة وقد بعث النبيُّ ﷺ معهم لؤلؤةَ شبابِ قريش ، وغرَّة فتيانها ، وزهرة شبابها ، مصعب الخير ، مصعب بن عمير رضي الله عنه[2] ، ووضع النبيُّ ﷺ في هذا الوقت مصير الدعوة بأكمله بين يدي مصعب ؛ بل لقد وضع النبيُّ ﷺ مصير الدين بأكمله ، بين يدي مصعب ؛ فأرض مكة لم تقبل بذرة التوحيد ، وأرضُ الطائف لفظت هي الأخرى بذرةَ التوحيد ، ولا توجد خيمةٌ من الخيام إلا وطردت النبيَّ ﷺ ، وأصحابُهُ مطاردون في الحبشة ، لا يملكون لأنفسهم حولًا ولا قوة ؛ فمصير الدعوة إذًا سيكون في هذه الأرض الجديدة ؛ في أرض يثرب ، ومع ذلك يختار النبيُّ ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه ، ليضع بين يديه مصير الدعوة بأكمله ،واستطاع مصعبٌ ـ رضوان الله عليه بحكمته البالغة ، وصبرِهِ العجيبِ أن يغرس للإسلام شجرةً في أرض مقفرة ، واستطاع بحكمةٍ بالغة أن يضيء للإسلام نورًا في أرض مظلمة ، وأن يشق نهرًا

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣) ، والحاكم (٢/ ٦٢٤، ٦٢٥) وصححه ، ووافقه الذهبي ، وأبو يعلى (١٨٨٧) مختصرًا ، وابن حبان (٦٢٧٤) ، وجوَّده ابن كثير في «البداية» (٣/ ١٥٩، ١٦٠) ، وحسَّن سنده الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٦٣) .

(٢) راجع : «السيرة» لابن هشام (٢/ ٥١) ، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٤٩) .

للحياة ـ نهرًا للإسلام ـ وسْطَ صخورٍ صلبة وأحجار عاتية .

وبعد عام ـ في السنة الثالثة عشرة من البعثة ـ يرجع مصعب مع سبعين رجلاً من الصحابة ـ رضوان الله عليهم من الأنصار ؛ ليبايعوا النبيَّ ﷺ بيعة العقبة الثانية [١]، وهنا تنتقلُ الدعوةُ إلى مرحلةٍ أخرى جديدة ، نعم .. أشرقت شمسُ التوحيد على يثرب ،ولم يعد هنالك بيتٌ إلا وقد سمع عن الإسلام ، أَوْمنه مَنْ دخل في الإسلام بفضل الله ، ثم بفضل دعوة مصعب ـ رضوان الله عليه [٢].

ثم قام بعد ذلك معه أسعد بن زرارة وأسيد بن حُضير ، وغيرهم وبايع هؤلاء رسول الله ﷺ على حرب كُلِّ من يقف في سبيل الدعوة إلى الله تبارك وتعالى !!

روى ابن إسحاق في «السيرة» ، وأحمد في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه» ، والبيهقي في «الدلائل» بسندٍ حسن [٣]من طريق ابن إسحاق قال: فحدَّثني مَعْبَدُ بْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ أَبِي كَعْبِ بْنِ الْقَيْنِ أَخُو بَنِي سَلِمَةَ أَنَّ أَخَاهُ عُبَيْدَ الله بْنَ كَعْبٍ ـ وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ الأَنْصَارِ ـ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَاهُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ـ وَكَانَ كَعْبٌ مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ ، وَبَايَعَ رَسُولَ الله ﷺ بِهَا ـ قَالَ : خَرَجْنَا

---

(١) راجع: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٥٥) ، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٤٢) ، و «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/ ١٥٦) ، و«زاد المعاد» (٣/ ٤٧) . وانظر : «صحيح البخاري » (٣٨٩٠) .

(٢) **قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٦٤)** : « فأسلم خلقٌ كثير من الأنصار على يد مصعب بن عمير بمعاونة أسعد بن زرارة حتى فشا الإسلام بالمدينة ، فكان ذلك سبب رحلتهم في السنة المقبلة ،حتى وافى منهم العقبة سبعون مسلمًا وزيادة ، فبايعوا كما تقدم » .

(٣) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٥/ ٥٦) ، وأحمد (٣/ ٤٦٠ـ ٤٦٢)، وابن حبان في «الصحيح» (٧٠١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٤٤ـ ٤٤٩) .
قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٤٥) :« رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع» ، وصححه الشيخ الألباني في «فقه السيرة» (١٤٦) .

فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا ، وَمَعَنَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا ، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا ، وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ ، قَالَ الْبَرَاءُ لَنَا : يَا هَؤُلاَءِ ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ وَاللهِ رَأْياً ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَدْرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لاَ ؟ قَالَ : قُلْنَا لَهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لاَ أَدَعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ ـ يَعْنِي الْكَعْبَةَ ـ وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا ، قَالَ : فَقُلْنَا : وَاللهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلاَّ إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ ، فَقَالَ : إِنِّي أُصَلِّي إِلَيْهَا، قَالَ : فَقُلْنَا لَهُ : لَكِنَّا لاَ نَفْعَلُ ، فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ ، وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ ، قَالَ أَخِي : وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ ، وَأَبَى إِلاَّ الإِقَامَةَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ ، قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، فَإِنَّهُ ـ وَاللهِ ـ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَا رَأَيْتُ مِنْ خِلاَفِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ.

قَالَ : خَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُهُ ، لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَقِينَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : هَلْ تَعْرِفَانِهِ ؟ قَالَ : قُلْنَا : لاَ ، قَالَ : فَهَلْ تَعْرِفَانِ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، عَمَّهُ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : وَكُنَّا نَعْرِفُ الْعَبَّاسَ ، كَانَ لاَ يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِراً ، قَالَ : فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ ، فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ الْعَبَّاسِ ، قَالَ : فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا الْعَبَّاسُ جَالِسٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ ، فَسَلَّمْنَا ، ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْعَبَّاسِ : « **هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الْفَضْلِ ؟** » قَالَ : نَعَمْ ، هَذَا الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ ، وَهَذَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، قَالَ : فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : « **الشَّاعِرُ؟** » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، وَهَدَانِي اللهُ لِلإِسْلاَمِ ، فَرَأَيْتُ أَنْ لاَ أَجْعَلَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا ، وَقَدْ خَالَفَنِي

أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا** » قَالَ : فَرَجَعَ الْبَرَاءُ إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ الله ﷺ فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّام ، قَالَ : وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ .

قَالَ : وَخَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ ، فَوَاعَدْنَا رَسُولَ الله ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ ، وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدَنَا رَسُولُ الله ﷺ وَمَعَنَا عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَام أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا ، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا ، فَكَلَّمْنَاهُ ، وَقُلْنَا لَهُ : يَا أَبَا جَابِرٍ ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا ، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا ، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ الله ﷺ ، فَأَسْلَمَ ، وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ ، وَكَانَ نَقِيباً ، قَالَ : فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا ، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ الله ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً ، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ ، نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ ، أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ .

قَالَ : فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ ، إِلاَّ أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ ، وَيَتَوَثَّقَ لَهُ ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ ، قَالَ : وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ ؛ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا ـ إِنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ

مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، قَالَ : فَقُلْنَا : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ، فَتكَلَّمْ يَا رَسُولَ الله ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ ، قَالَ : فَتكَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ فَتَلاَ ، وَدَعَا إِلَى الله ﷻ وَرَغَّبَ فِي الإِسْلاَمِ ، قَالَ : « **أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ** » قَالَ : فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ الله ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ ، وَرِثْنَاهَا كَابِراً عَنْ كَابِرٍ.

قَالَ : فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ ـ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ الله ﷺ ـ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً ، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا ـ يَعْنِي الْعُهُودَ ـ فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ الله ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ ، وَتَدَعَنَا ؟ قَالَ : فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ : « **بَلِ الدَّمُ الدَّمُ ، وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ ، أَنَا مِنكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ** » وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَخْرِجُوا إِلَيَّ مِنْكُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً يَكُونُونَ عَلَى قَوْمِهِمْ** » فَأَخْرَجُوا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ، مِنْهُمْ تِسْعَةٌ مِنَ الْخَزْرَجِ ، وَثَلاَثَةٌ مِنَ الأَوْسِ .

وَأَمَّا مَعْبَدُ بْنُ كَعْبٍ ، فَحَدَّثَنِي فِي حَدِيثِهِ عَنْ أَخِيهِ ، عَنْ أَبِيهِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ الله ﷺ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ ، ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ ، فَلَمَّا بَايَعْنَا رَسُولَ الله ﷺ صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ : يَا أَهْلَ الْجُبَاجِبِ ـ وَالْجُبَاجِبُ : الْمَنَازِلُ ـ هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ ؟ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ ـ قَالَ عَلِيٌّ ـ يَعْنِي ابْنَ إِسْحَاقَ : مَا

يَقُولُ عَدُوُّ الله : مُحَمَّدٌ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ** [(١)] ، **هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ الله ، أَمَا وَالله لأَفْرُغَنَّ لَكَ** » ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **ارْفَعُوا** [(٢)] **إِلَى رِحَالِكُمْ** » قَالَ : فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا ؟ قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ** ».

قَالَ : فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جِلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّى جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا ، فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَى صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا ، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا ! وَالله إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَض إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ ، قَالَ : فَانْبَعَثَ مِنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِالله مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ وَمَا عَلِمْنَاهُ ، وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا ، قَالَ : فَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ ، قَالَ : وَقَامَ الْقَوْمُ وَفِيهِمُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ وَعَلَيْهِ نَعْلاَنِ جَدِيدَانِ ، قَالَ : فَقُلْتُ كَلِمَةً كَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشْرِكَ الْقَوْمَ بِهَا فِيمَا قَالُوا : مَا تَسْتَطِيعُ يَا أَبَا جَابِرٍ ، وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا أَنْ تَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِثْلَ نَعْلَيْ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ ؟ فَسَمِعَهَا الْحَارِثُ ، فَخَلَعَهُمَا ، ثُمَّ رَمَى بِهِمَا إِلَيَّ ، فَقَالَ : وَالله لَتَنْتَعِلَنَّهُمَا ، قَالَ : يَقُولُ أَبُو جَابِرٍ : أَحْفَظْتَ ـ وَالله ـ الْفَتَى ، فَارْدُدْ عَلَيْهِ نَعْلَيْهِ ، قَالَ : فَقُلْتُ : والله لاَ أَرُدُّهُمَا ، فَأْلٌ ـ وَالله ـ صَالِحٌ ، وَالله لَئِنْ صَدَقَ الْفَأْلُ لأَسْلُبَنَّهُ.

فلمَّا تمَّت بيعةُ العقبةِ الثانية ـ وكانت سرًّا على كُفَّار قريش ـ أمر رسولُ الله ﷺ من كان معه من المسلمين بالخروج إلى المدينة أرسالاً ؛ أي : جماعات .

---

(١) قال ابن الأثير في «النهاية» (١/ ٥٦): «هو شيطان اسمه أزبُّ العقبة ، وهو الحية» .

(٢) وفي رواية : «ارفَضُّوا» أي: تفرقوا .

وهكذا أخذوا يتركون مكة زرافاتٍ ووحدانًا ، حتى كادت مكَّةُ تخلو من المسلمين .. خرجوا مستخفين متسلِّلين ،وتركوا وراءهم الوطن والمال والمتاع ! وأقام رسولُ الله ﷺ بمكة بعد أصحابه ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، وقد أعدَّ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج ، وأعدَّ أبو بكر جهازه [1] ، وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصف النهار في ساعة لم يكن يأتيه فيها متقنعًا ؛ فقال له : « **أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ** » ، فقال : إنما هم أهلك يا رسول الله ؛ فقال : « **إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ** » .

والحديث في «**صحيح البخاري**» [2] من حديث عائشة رضي الله عنها ، في باب « هجرة النبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة » .

قالت عائشة : قال النبيُّ ﷺ : « **إني أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ** ». وَهُمَا الحَرَّتَانِ ؛ فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ ، وَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قبل المدينة ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « **عَلَى رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي** » فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ** » فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ ـ وهو الخَبْطُ ـ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ : هَذَا رَسُولُ الله ﷺ مُتَقَنِّعًا ـ فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا ـ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي ، وَالله مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ فَاسْتَأْذَنَ ، فَأُذِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ :

---

(١) « زاد المعاد » (٣/ ٥٠) ، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٧٩) [تعجل أبي بكر هجرة الرسول ﷺ].

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٥) .

«**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ**»؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**بِالثَّمَنِ**». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الْجِرَابِ؛ فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ، قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ - وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا - حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ ابْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ، وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ».

وخطط النبيُّ ﷺ للهجرة بالانتقال من مكة إلى يثرب، وسمع المشركون بهذا الأمر، واجتمع البرلمان الشركي في دار الندوة بمكة بالإجماع [1]، لاتخاذ

(١) راجع «دلائل النبوة» (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦)، باب مكر المشركين برسول الله ﷺ وعصمة الله رسولَهُ وإخباره إياه بذلك حتى خرج مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه مهاجرًا، و«زاد المعاد» (٣/ ٥٠)، و«سيرة ابن=

أخطرِ قرارٍ عرفته البشرية ،ألا وهو قتل سيد البشرية ﷺ ، للقضاء على تيار نور هذه الدعوة نهائيًا ،ولكن هيهات هيهات ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠] ، فلما خططوا لقتله ﷺ ، خطَّط النبيُّ ﷺ للهجرة [(١)] ، وأخذ بكلِّ أسباب الحيطة والحذر ؛ فلقد أمر النبيُّ ﷺ عليًا ﷺ أن يبيت في مضجعه تلك الليلة ،واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صِيرِ الباب ويرصدونه ، ويريدون بياته ، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها [(٢)]!!

ففي «مسند أحمد» و«مصنف عبد الرزاق» [(٣)] **وغيرهما بسندٍ حسنه الحافظان ابن كثير وابن حجر ـ رحمهما الله ـ من حديث ابن عباس** ﷺ **في قوله تعالى:** ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [الأنفال:٣٠] ، قال : «تشاورت قريشٌ ليلةً بمكة ؛ فقال بعضهم : إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق يريدون النبيَّ ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم: بل أخرجوه ، فأطلع الله ﷻ نبيه على ذلك ، فبات عليٌّ على فراش النبيِّ ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبيُّ ﷺ حتَّى لحق

= هشام» (٢/ ٨٠) [مؤامرة قريش على رسول الله ﷺ] .

(١) **قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية » (٣/ ١٧٥)** : « وقد كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من بعثته ﷺ ، وذلك في يوم الاثنين ؛ كما رواه أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٧) بسندٍ فيه ابن لهيعة من حديث ابن عباس قال : «ولد النبيُّ ﷺ يوم الاثنين ، واستنبئ يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين » ، وله شاهدٌ عند ابن أبي شيبة عن ابن عباس وجابر . قال ابن كثير في «البداية والنهاية » (٣/ ١٠٧) : « فيه انقطاع» ، وجزم ابن إسحاق بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول «الفتح» (٧/ ٢٦٨) .

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٥١، ٥٢) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٨) ،وعبد الرزاق (٥/ ٣٨٤) ، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٠٧) ، وابن أبي عمر العدني في «مسنده» كما في «إتحاف الخيرة» (٦/ ٦٩) قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٠) : « رواه أحمد والطبراني وفيه عثمان بن عمرو الجزري وثقة ابن حبان وضعفه غيره ، وبقية رجاله رجال الصحيح » والحديث حسنه ابن كثير في «البداية والنهاية » (٣/ ١٧٩) ، وابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٧٨) .

بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليًّا يحسبونه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه ؛ فلما رأوا عليًّا ردَّ الله مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري ، فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل خُلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ؛ فقالوا : لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال » .

فلم يدع النبيُّ ﷺ سببًا من أسباب التوكُّلِ على الله إلا وأخذ به ، وعليه فالمفترض أن المتجه من مكة إلى المدينة لابد أن يتجه شمالاً ؛ لكنه ﷺ اتَّجه جنوبًا ؛ لأن المطاردين سيبحثون عنه في كُلِّ الطرق التي تؤدي إلى المدينة ، فليتجه النبيُّ ﷺ جنوبًا ، وليمكث في الغار حتى تهدأ حركة الباحثين عنه بين الصخور والجبال ؛ بل وحتى بين حبَّاتِ الرِّمال !! وبالفعل يمكثُ النبيُّ ﷺ ثلاث ليال وعبدُ الله بنُ أبي بكر يبيت في مكة يسمع الأخبار ، وفي جوف الليل ينطلق إلى النبيِّ ﷺ ليخبره بما خطط به وله المشركون ،وقبل أن يصبح الصباح يكون في مكة ، ليصبح بين أهلها وكأنه بات بينهم ، وعامر بن فهيرة يأتي بالأغنام؛ لتزيل بآثار أقدامها آثار أقدام النبيِّ ﷺ وصاحبه ، وأسماء تأتي بالزاد ، وعبد الله بن أريقط مشركٌ ؛ لكنه خبيرٌ بالطرق ـ تأكد النبيُّ ﷺ من أمانته ـ ليدلَّ النبيَّ ﷺ وصاحبه على أقرب الطرق المؤدية إلى المدينة ـ إلى يثرب ـ وهذا هو الأخذ بالأسباب ؛ ولا ينبغي على الإطلاق أن نفهم التوكُّلَ على غير هذا ؛ فالتوكُّلُ على الله هو جماع الإيمان ، وهو نهاية التحقيق في التوحيد ، وهو صدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب ؛ فلم يدع النبيُّ ﷺ من الأسباب شيئًا ، ومع ذلك في لحظةٍ من اللحظات انقطعت هذه الأسباب ؛ فها هم المشركون يحاصرون الغار من كُلِّ ناحية ، والصدِّيق في

حوارٍ هامس وجِلٍ ؛ ففي «**الصَّحِيحَيْنِ** »[١] من حديث أبي بكر الصديق قال : نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ ؛ فَقَالَ : « **يَا أَبَا بَكْرٍ ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا ؟** ».

وفي روايةٍ للبخاريِّ[٢] : عَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ ، فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ الله ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا ، قَالَ : « **اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ الله ثَالِثُهُمَا** ».إنه قلبٌ مطمئن موصولٌ بربه تبارك وتعالى .

وفي رواية مرسلة عن الحسن البصري قال [٣]: انطلق النبيُّ ﷺ وأبو بكر في الغار ، وجاءت قريش يطلبون النبيَّ ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا : لم يَدْخل أحدٌ ، وكان النبيُّ ﷺ قائمًا يصلِّي وأبو بكر يرتقب ؛ فقال أبو بكر للنبيِّ ﷺ: هؤلاء قومُك يطلبونك ، أما والله ما على نفسي أئل ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره ؛ فقال النبيُّ ﷺ: « **يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَخَفْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا** » .

قال تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « فضائل أصحاب النبي ﷺ » ، باب مناقب الأنصار وفضلهم (٣٦٥٣) ، ومسلم ، كتاب « فضائل الصحابة» باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ(٢٣٨١) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « مناقب الأنصار » ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٢٢) .

(٣) أخرجه أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد القاضي المروزي في «مسند أبي بكر» ـ كما في «البداية والنهاية» (٣/ ١٧٩) ، و«الفتح» (٧/ ٢٧٩) وقال الحافظ ابن كثير : « وهذا مرسل عن الحسن ، وهو حسن بحاله من الشاهد ، وفيه زيادة صلاة النبي ﷺ في الغار ، وقد كان ﷺ إذا أحزنه أمر صلى » .

عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠].

وينجِّي الله تبارك وتعالى نبيه وحبيبه المصطفى ﷺ من أذى المشركين، وقد ضرب الصدِّيق ﷺ في هذا اليوم أروع المثل للحب؛ فلقد نسج الصديق بدمائه عباءةً لرسول الله ﷺ، ووَدَّ لو فدى رسول الله ﷺ وحماه بنفسه!! لأنه بشر، أما رسول الله فهو سيد البشر، إن قتل قتلت أُمَّةٌ، بل قتلت بشرية بأسرها، ولما يئس المشركون من الظَّفر بهما، جعلوا لمن جاء بهما دية كلِّ واحدٍ منهما، فجدَّ الطَّلَبُ، والله غالب على أمره، وكان سراقة بن مالك بن جعشم ممن جدَّ في طلب رسول الله ﷺ وصاحبه، ولكنه باء بالفشل في محاولته، فكان أول النهار جاهدًا عليهما، وآخره حارسًا لهما.

ففي «صحيح البخاري» (١) من طريق الزهريِّ قال: أخبرني عبد الرحمن ابن مالك المدلجي ـ وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم ـ أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ الله ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِمَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ؛ فَقَالَ: يَا سُرَاقَةُ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ، قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب «مناقب الأنصار»، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٥، ٣٩٠٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٨٥، ٤٨٦)، وانظر كلام الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٨٣) ط الريان.

جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهُمْ ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي ، فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لَا ، فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ ، سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ، ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ ، فَوَقَفُوا ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّى جِئْتُهُمْ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ ، فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي إِلَّا أَنْ قَالَ: «**أَخْفِ عَنَّا**» ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ فَأَمَرَ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ وَسَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ ، فَلَمْ يَمْلِكْ

الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ الْعَرَبِ ، هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ فَتَلَقَّوْا رَسُولَ الله ﷺ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ (١) ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ وَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ صَامِتًا فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنْ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ الله ﷺ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ الله ﷺ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ الله ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَبِثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، وَأُسِّسَ الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، وَصَلَّى فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ ، ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَسَارَ يَمْشِي مَعَهُ النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حَجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ : «**هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ الْمَنْزِلُ**» ، ثُمَّ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ الْغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا فَقَالَا: لَا بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ الله فَأَبَى رَسُولُ الله أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا ، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا وَطَفِقَ رَسُولُ الله ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمْ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ : « **هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرْ ، هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ** » ، وَيَقُولُ : «**اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَهْ ، فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ** » فَتَمَثَّلَ بِشِعْرِ رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ يَبْلُغْنَا فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ تَمَثَّلَ بِبَيْتِ شِعْرٍ تَامٍّ غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ.

---

(١) **قال الحافظ** (٧/ ٢٨٦) : « وصورته مرسل ؛ لكنه وصله الحاكم أيضًا من طريق معمر عن الزهري قال : « أخبرني عروة أنه سمع الزبير به » ا.هـ ، وانظر : «زاد المعاد»(٣/ ٥٨) ، و«دلائل النبوة» (٢/ ٥١١) .

واستقبلت يثربُ رسولَ الله ﷺ استقبالاً يليقُ بمكانته ؛ فلقد جَسَّد الصحابةُ من الأنصار الأطهار الأخيار حُبَّهم العارم للنبيِّ المختار ﷺ في حُسْن الاستقبال والحفاوة والحب والسعادة ، لقد حَلَّ النبيُّ ﷺ وصحبه في قلوب الأنصار وعيونهم ، قبل أن يحل وصحبه - من المهاجرين - في بيوتهم ودورهم !!

وصدق ربي إذ يقول في حَقِّ هؤلاء الأطهار من الأنصار : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩] .

ويبدأ النبيُّ ﷺ إقامة دولة الإسلام في المدينة ببناء المسجد النبوي ؛ ليربِّي الصحابة هنالك في بيت الربِّ العلي ؛ تربية إيمانية ، وعقدية ، وتعبدية ، وفكرية ، وخُلُقية ، وسلوكية ، ما عرفت ولن تعرف البشرية لها مثيلاً ونظيرًا على الإطلاق .

وتبدأُ مرحلةٌ جديدةٌ من مراحل الدعوة إلى الله ، ألا وهي مرحلةُ بعث وإرسال البعوث والسرايا ؛ ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج:٣٩، ٤٠] ؛ فهي مرحلة أخرى جديدة يأذن الله تبارك وتعالى فيها للنبيِّ ﷺ بالجهاد والقتال[١] .

---

(١) راجع «زاد المعاد» (٣/ ٧٠) ط الرسالة ؛ ففيه تفصيلٌ في وقت الإذن بالقتال ، و«الدلائل» للبيهقي (٢/ ٥٧٦) .

قال السعديُّ في «تفسيره» [(١)]:

كان المسلمون في أول الإسلام ، ممنوعين من قتال الكفار ، ومأمورين بالصبر عليهم ـ لحكمة إلهية ، فلما هاجروا إلى المدينة ، وأوذوا ، وحصل لهم منعة وقوة ، أذن لهم بالقتال ؛ كما قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين ، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلونهم ، وإنما أذن لهم ، لأنهم ظُلِموا ، بمنعهم من دينهم ، وأذيتهم عليه ، وإخراجهم من ديارهم .

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ فليستنصروه ، وليستعينوا به ، ثم ذكر صفة ظلمهم ؛ فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ أي : أُلجؤوا إلى الخروج بالأذية والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ ﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي : إلا لأنهم وحدوا الله ، وعبدوه مخلصين له الدين ، فإن كان هذا ذنبًا ، فهو ذنبهم ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج:٨] ، وهذا يدل على حكمة الجهاد ، فإن المقصود منه ، إقامة دين الله ، أو ذبُّ الكفار المؤذين للمؤمنين ، البادئين لهم بالاعتداء ، عن ظلمهم ، واعتدائهم ، والتمكين من عبادة الله ، وإقامة الشرائع الظاهرة » .

والجهاد ليس غاية ، ولكنه وسيلة لغاية ؛ فالجهاد وسيلةٌ لتعبيد الناس في الأرض للحق تبارك وتعالى ؛ فنحن لا نرفع السيف في وَجْهِ أيِّ أحد أبدًا ، وإنما نحن ندعو لدين الله تبارك وتعالى ، ونبلِّغ أهل الأرض دين الله بحكمةٍ ورحمةٍ وتواضع ؛ فإن دعونا إلى الله أحدهم ثم أنكر وأبى ، نقول : لكم دينكم ولي دين .. نقول : لا إكراه في الدين ؛ لكننا نقاتل من حال بيننا وبين دعوة الناس لدين الله

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (لسورة الحج:٣٩، ٤٠) .

تبارك وتعالى ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة:١٩٣] ، والفتنة المذكورة في الآية هي الشرك ؛ فإن أعظم فتنة هي فتنة الكفر بالله تبارك وتعالى ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

ويبعثُ النبيُّ ﷺ بَعْضَ البعوث والسرايا [١]، ويشاء الله تبارك وتعالى ، ويُقدِّر أن يلتقي التوحيد بالشرك ، وأن يلتقي النبيُّ ﷺ وصحبه مع المشركين في معركةٍ فاصلةٍ حاسمةٍ بعد عامٍ واحدٍ فقط من الهجرة ؛ ألا وهي معركة بدر [٢]، وما خرج النبيُّ ﷺ وصحبهُ للنفير ؛ بل خرجوا للعير ؛ لكن ربك تبارك وتعالى قَدَّر أن يكون خروجهم للنفير لا للعير .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال:٧] .

فالله تبارك وتعالى أراد أن يحق الحق ، وأن يبطل الباطل ، وأن يكسر شوكة

---

(١) فقبل غزواته ﷺ كان يرسل السرايا ، وكان أول لواء عقده رسول الله ﷺ في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من مهاجره كان لحمزة بن عبد المطلب ، راجع تلك السرايا في « السيرة » لابن هشام (٢/ ١٥٨) ، و «البداية والنهاية» (٣/ ٢٣٢) ، و«زاد المعاد» (٢/ ١٦٣) وفيه رجح ابن القيم أن سرية حمزة أول السرايا ؛ خلافًا لابن إسحاق .

(٢) وكان قبل بدر عدة غزوات ؛ قال ابن إسحاق : « أول ما غزا رسول الله ﷺ الأبواء ، ثم بواط ، ثم العشيرة » علقهُ البخاري في «الصحيح» ،«الفتح» (٧/ ٣٢٦) .

قلت : وغزوة بدر كانت في السنة الثانية من الهجرة في رمضان ، **قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٣٣٣) :** « بدر قرية مشهورة نسبت إلى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة كان نزلها ،ويقال بدر بن الحارث ويقال: بدر اسم البئر التي بها سميت بذلك ؛ لاستدارتها أو لصفاء مائها فكان البدر يرى فيها ، وحكى الواقديُّ إنكار ذلك كلِّه عن غير واحدٍ من شيوخ بني غفار ، وإنما هي مأوانا ومنازلنا وما ملكها أحد قط يقال له بدر ، وإنما هو علم عليها كغيرها من البلاد » .

وراجع « زاد المعاد » (٢/ ١٧١) ، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٤٤) .

المجرمين من المشركين في هذا اللقاء ؛ في لقاء الفرقان ؛ في لقاء الحق ؛ في لقاء بدر ، وينصر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ والصحابة معه نصرًا مؤزرًا ،ويتبعثر المشركون الذين زاد عددهم عن ألف مقاتل ، يتبعثرون في الصحراء ، كتبعثر الفئران ، وينصر الله عبده ، والمؤمنين المستضعفين من الموحدين ، وتسمع الدنيا كلُّها بانتصار رسول الله ﷺ على المشركين في بدر ، فتطيش عقول اليهود والمنافقين في المدينة ، وعقول المشركين في مكة ! إذ كيف ينتصر هؤلاء المستضعفون على هذا الجيش الجرار للشرك وأهله ؟! ودارت غزوات ، ووقعت حروب ومعارك ، وشاء الله تبارك وتعالى أن يربي الصَّحابة في أُحُد بعد بدر [(١)] ؛ في درسٍ بالغ أودُّ أن لو وعَتْهُ الأمة الآن ؛ لأن كثيرًا من أبناء الأمة الآن لم يَع درس أُحُد ، لقد هزم المسلمون في أحد بعد بدر !! لماذا يا شباب ؟ لأن بعض الصحابة قد تخلَّى عن سببٍ من أسباب النصر ؛ ألا وهو طاعة النبيِّ ﷺ ؛ فلقد أمر النبيُّ ﷺ بعض الرماة أن لا يفارقوا الجبل .

ففي «**صحيح البخاري**» [(٢)] من حديث البراء رضي الله عنه قَالَ :

لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ الله ، وَقَالَ : « **لاَ تَبْرَحُوا ، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ ، فَلاَ تَبْرَحُوا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا** ».

---

(١) وكانت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة في شهر شوال ؛ قاله ابن إسحاق ، انظر : «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٣) .
وقد بوَّب البيهقيُّ في « الدلائل » بابًا بعنوان : « باب ذكر التاريخ لوقعة أحد » (٢/ ٢٠١) ،وراجع «فتح الباري » (٧/ ٤٠١) .
قال ابن كثير : « وكانت هذه الغزوة في شوال سنة ثلاث ، قاله الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق ومالك ... » ، «البداية والنهاية» (٣/ ١١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب « المغازي» ، باب غزوة أحد (٤٠٤٣) .

وفي رواية في «**الصحيح**» كذلك [(١)]:

« جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ ـ وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلاً ـ عَبْدَ الله ابْنَ جُبَيْرٍ ؛ فَقَالَ : « **إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ ، فَلاَ تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلاَ تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ** » .

وبالفعل انتهت المعركة ،وحُسِمت لصالح المسلمين ،وترك الرماةُ مواقعهم لجمع الغنائم ، لكن الرسول ﷺ أمرهم ألا يفارقوا مواقعهم بالميدان إلا بأمرٍ منه ، ففارقوا الميدان ، ووقعوا في مخالفة لأمرٍ نبوي ، قَالَ عَبْدُ الله ابْنُ جُبَيْرٍ : أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ الله ﷺ ؟ قَالُوا : وَالله لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ » [(٢)] .

فصار النصرُ هزيمة ، وتغير ميزان المعركة ، وتعرَّض النبيُّ ﷺ بالفعل للقتل ؛ بل كُسرت رباعيته ، وَشُجَّ وجهه ، ودخلت حلقتا المغفر في وجنتيه الشريفتين .

ففي «**الصَّحِيحَيْنِ**» [(٣)] من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه وَهُوَ يُسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: وَجُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وَهُشِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ ؛ قَالَ: كَانَتْ فَاطِمَةُ عليها السلام بِنْتُ رَسُولِ الله ﷺ تَغْسِلُ الدَّمَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَسْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ ؛ فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةَ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا ، ثُمَّ أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ

---

(١) عند البخاريِّ ،كتاب « الجهاد والسير» ، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٣٠٣٩) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب ما أصاب النبيُّ ﷺ من الجراح يوم أحد (٤٠٧٥) ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب في غزوة أحد (١٧٩٠) واللفظ له .

فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ .

وفي رواية [(١)]:«وَجُرِحَ فِي وَجْهِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ بِرَمْيَةٍ أَصَابَتْهُ ، حَتَّى دَخَلَ بَعْضُ الْمِغْفَرِ فِي وَجْهِهِ ، وَكُسِرَتِ الْبَيْضَةُ أَيْضًا عَلَى وَجْهِهِ بِرَأْسِهِ بِرَمْيَةٍ رَمَاهُ بِهَا بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ » .

وانتشر خبر قتله في الميدان ، بعد ما انتقلت الدفة ، وكانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار ، فأحاط الكفار بالمسلمين ، وألقى بعض الصحابة السلاح بالفعل ، واستسلموا للموت ، وقتل من قتل من الصحابة [(٢)] ، ومرَّ أنس بن النضر رضي الله عنه بقوم من الصحابة ، فوجدهم قد ألقوا السلاح ؛ فقال: ما يجلسكم ، فقالوا : قُتِل رسولُ الله ﷺ ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم ، فقاتل حتَّى قُتِل » [(٣)] كُلُّ ذلك لتتعلم الأمة بعد الصحابة أن مجرد المخالفة لأمرٍ واحدٍ من أوامر رسول الله ﷺ يكون سببًا في الهزيمة .

أنا أسأَلُ وأقولُ : كيف وقد خالفت الأمة الآن جُلَّ أوامر رسول الله ﷺ ؟ ولذلك لما قال بعض الصحابة : كيف نهزم وقائد المعركة رسول الله ﷺ ؟! كيف نهزم والمشركون هم أعداؤنا ؟ جاء الجواب من الله العليم الحكيم ؛

---

(١) عند ابن أبي شيبة في «المسند» (١١٩) **بسندٍ صحيح** ، وورد نحوه عند الحاكم (٣/ ٢٩) عن عائشة بسندٍ فيه متروك .

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٦، ١٩٧) .

(٣) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ـ [كما في «سيرة ابن هشام » ٣/ ٣٠] ومن طريقه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٤٥) .

وفي رواية : («الصحيحين» البخاري (٤٠٤٨) ، ومسلم (١٩٠٣)) من حديث أنس قال عمه حين هزم الناس يوم أحد : « اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به المشركون .. » .

فقال جَلَّ من قائل: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [آل عمران:١٦٥]؛ فلا ينبغي أن تعلق الأمة أخطاءها على الحكام، ولا على العلماء، ولا على الأعداء؛ بل يجبُ على كُلِّ مسلم أن ينظر في تقصيره مع ربه؛ في خلله هو بينه وبين ربه تبارك وتعالى، ولا تجعل ـ أيها المسلم ـ من غيرك مشجبًا، لتعلق عليه أخطاءك، وتقصيرك؛ فما عليك إلا أن تبذل ما أُمرت به لدين الله، وأن تدع النتائج بعد ذلك لله تبارك وتعالى؛ فليس أحدٌ أغير على الدين من الله، وليس أحدٌ أغير على المسلمين ممن تسفك دماؤهم، وتمزق أشلاؤهم من ربهم تبارك وتعالى.

وهكذا ـ أيها الأحبة ـ توالت المعارك والغزوات وعاش النبيُّ ﷺ في المدينة عشر سنوات في جهادٍ يبلِّغ دين الله تبارك وتعالى، ويرسلُ كتبه إلى الملوك، والزعماء، وإلى الحكّام والرؤساء [(١)]، حتّى عاد مرة أخرى إلى مكة فاتحًا [(٢)]، ووقف بعد ذلك بين أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ ليعلمهم مناسك الحج في حجة الوداع، وكانت في السنة العاشرة من الهجرة في شهر ذي الحجة، وقد وضع الحافظ ابن كثير في كتابه العظيم: «البداية والنهاية» كتابًا قال فيه: «كتاب حجة الوداع في سنة عشر، ويقال لها: حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع.. لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودَّع الناس

---

(١) راجع «صحيح مسلم» (١٧٧٣، ١٧٧٤)، وانظر «صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي (المبحث الرابع عشر: كتب الرسول إلى الملوك والزعماء ٣٧٩ـ ٣٨٥).

(٢) وقد كانت غزوة الفتح في السنة الثامنة للهجرة في شهر رمضان، روى البخاريُّ (٤٢٧٥) عن ابن عباس قال: «غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح في رمضان»، قال في «الفتح» (٤/ ٢١٤): «والذي اتفق عليه أهل السير أنه خرج في عاشر رمضان، ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه»، وراجع «البداية والنهاية» (٤/ ٢٧٧)، و«دلائل النبوة» للإمام البيهقي (٥/ ٥ وما بعدها).

فيها ولم يحج بعدها ، **وسُمِّيت حجة الإسلام** ؛ لأنه عليه السلام لم يحج من المدينة غيرها ، ولكن حج قبل الهجرة مرات قبل النبوة وبعدها .

وسُمِّيت حجة البلاغ ؛ لأنه عليه السلام بلَّغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً ، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه عليه السلام ؛ فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] (١) .

ففي «**صحيح مسلم**» (٢) من حديث جابر رضي الله عنه قال : رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ ، وَيَقُولُ :

« **لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ ، فَإِنِّي لاَ أَدْرِي لَعَلِّي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ** ».

وفي «**الصَّحِيحَيْنِ**» (٣) من حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ :

« أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا ، قَالَ : أَيُّ آيَةٍ ؟ قَالَ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، قَالَ عُمَرُ : قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ ». وأظهر الله دينه ، ونصر الله عبده ورسوله ؛ قال ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٨، ٩] ، ويعود النبيُّ صلى الله عليه وسلم مرة أخرى إلى

---

(١) «البداية والنهاية»(٥/ ٩٩) ، وراجع « سيرة ابن هشام» (٤/ ١٥٢) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الحج» ، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا (١٢٩٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب «الإيمان » ، باب زيادة الإيمان ونقصانه (٤٥) ، ومسلم ، كتاب « التفسير»، باب (٥٤) (٣٠١٧) .

المدينة [(١)]؛ وقد نزل عليه قبل ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾[النصر:١-٤] ، وهذه السورة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ؛ كما في «صحيح مسلم» [(٢)]؛ من حديث عبيد الله بن عتبة قال لي ابن عباس: « تعلم آخر سورة نزلت من القرآن نزلت جميعًا ، قلت : نعم ، ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قال : صدقت » .

وفي «**صحيح البخاري**» [(٣)]؛ من حديث ابن عباس أن عمر رضي الله عنه سألهم عن قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾؟ قالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قال : أَجَلٌ ، أَوْ مَثَلٌ ضُرِب لمحمدٍ ﷺ ، نُعيت له نَفْسُهُ » .

وروى البخاريُّ في «**صحيحه**» [(٤)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال :

« كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ : لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ ، قَالَ : مَا

---

(١) وبها تُوفِّي رسول الله ﷺ؛ روي البخاريُّ في «صحيحه» ، كتاب «مناقب الأنصار» ، باب مبعث النبي ﷺ(٣٨٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين ، فمكث ثلاث عشرة سنة ، ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة ، فمكث بها عشر سنين ، ثم تُوفِّي رسولُ الله ﷺ» .

قال الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٠٢) : « قوله : فمكث بمكة عشرة سنة» ، أصح مما رواه مسلم (٢٣٥٣) من طريق عمار بن أبي عمار عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة » .

(٢) أخرجه مسلم ،كتاب «التفسير» (٣٠٢٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب «التفسير» باب قوله : ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ (٤٩٦٩) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ،كتاب «التفسير» باب قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٤٩٧٠) .

تَقُولُونَ فِي قَوْلِ الله تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أُمِرْنَا نَحْمَدُ الله وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا ، وَفُتِحَ عَلَيْنَا ، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، فَقَالَ لِي : أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ؟ فَقُلْتُ : لاَ ، قَالَ : فَمَا تَقُولُ ؟ قُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ قَالَ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ ـ وَذَلِكَ عَلامَةُ أَجَلِكَ ـ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ فَقَالَ عُمَرُ : مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ » .

وقد بوَّبَ البيهقيُّ في «الدلائل» [١] بابًا بعنوان : « باب ما جاء في نعي النبي ﷺ نفسه إلى الناس في حجة الوداع وذلك حين نزل عليه قوله ﷻ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخر السورة ، ثم ساق الحديث السابق» ، ثم أورد رواية أخرى تفيد أنها نزلت في حجة الوداع ، ثم قال [٢] : « كذا في هذه الرواية ، ويذكر عن أبي سعيد ما يدل على أنها نزلت عام الفتح ، والله أعلم » .

نعم ـ أيها الأحبة :

يمرض النبيُّ ﷺ ، وتشتد عليه الحُمَّى ؛ حتى قال له ابن مسعود كما في «الصَّحِيحَيْنِ » [٣] أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ ـ وَهْوَ يُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا ـ وَقُلْتُ : إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا !! قُلْتُ : إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ ؟ قَالَ : « **أَجَلْ ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلاَّ حَاتَّ الله عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ** ».

---

(١) «دلائل البيهقي»(٥/ ٤٤٥) .

(٢) «الدلائل »(٥/ ٤٤٧) ، وفي سندها موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «المرضى» ، باب شدة المرض (٥٦٤٧) ، ومسلم ، كتاب «البر والصلة والآداب » ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض (٢٥٧١) .

ويشتدُّ الألم على النبيِّ ﷺ ؛ فيعصبُ النبيُّ ﷺ رأسه [(١)]، ويتكأ على رجلين من الصحابة ؛ العباس وعليٍّ ـ رضوان الله عليهما [(٢)] ـ ويصعد ﷺ ليرتقي المنبر في أيامه الأخيرة ؛ فيحمد الله ، ويثني عليه ؛ ثم يقولُ : « **إِنَّ الله خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ الله** » فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنِ الله خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ الله ؛ فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ الْعَبْدَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا ، قَالَ : « **يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ تَبْكِ إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ لاَ يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ إِلاَّ بَابُ أَبِي بَكْرٍ** »[(٣)].

ونزل النبيُّ ﷺ من على المنبر وثقل به ، واشتد به الألم والوجع ، واستأذن نساءه أن يُمَرَّض في بيت أم عبد الله أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ كما في « **الصَّحِيحَيْنِ** » [(٤)] عن عائشة قالت : « **لَمَّا ثَقُلَ رَسُول** ﷺ **وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ ، اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي فَأَذِنَّ لَهُ ...** » وفي اليوم الموعود يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، في العام الحادي عشر من الهجرة [(٥)]، ينام ﷺ على صدرها ، ويأتيه ملك الموت ليخيره بين الدنيا

---

(١) كما عند البخاريِّ ، كتاب « المرضى » ، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٧) .

(٢) كما عند البخاري ، كتاب « المرض » ، باب شدة المرض (٤٤٤٢) ، ومسلم ، كتاب « الصلاة » ، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر (٤١٨/ ٩١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الصلاة» ، باب الخوخة والممر في المسجد(٤٦٦) ، ومسلم ، كتاب «فضائل الصحابة رضي الله عنهم » ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٢) عن أبي سعيد .

(٤) تقدم .

(٥) **قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٧٣٦)** : «وكانت وفاته يوم الاثنين بلا خلافٍ من ربيع الأول وكاد يكون إجماعًا .. والجمهور أنها في الثاني عشر منه» وراجع «البداية والنهاية (٥/ ٢٢٣، ٢٢٤) ، وانظر : « صحيح البخاري » كتاب الجنائز ، باب موت يوم الاثنين (١٣٨٧) .

والآخرة، فيختار النبيُّ ﷺ لقاء الله تعالى؛ ففي «الصَّحِيحَيْنِ» (١) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لاَ يَمُوتُ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ - وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ - يَقُولُ: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ».

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) من حديث عَائِشَةَ أَنَّهَا سَمِعَتْ رسُولَ الله ﷺ يَقولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ: وَهْوَ مُسْنَدٌ إِلَى صَدْرِهَا، وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ:

«**اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ**».

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» (٣) من حديث عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ وَهْوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ**» فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ، غُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يَخْتَارُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهْوَ صَحِيحٌ.

وفي «صحيح البخاري» (٤) من حديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ:

«دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَمَعَهُ سِوَاكٌ يَسْتَنُّ بِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب «المغازي»، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٥)، ومسلم، كتاب «فضائل الصحابة»، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤/ ٨٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب «المغازي»، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٠)، ومسلم، كتاب «فضائل الصحابة»، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤) واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب «المغازي»، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٧)، ومسلم، كتاب «فضائل الصحابة»، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٤/ ٨٧).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب «الجمعة»، باب من تسوك بسواك غيره (٨٩٠).

الله ﷺ ، فَقُلْتُ لَهُ : أَعْطِنِي هَذَا السِّوَاكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، فَأَعْطَانِيهِ ، فَقَصَمْتُهُ ، ثُمَّ مَضَغْتُهُ ، فَأَعْطَيْتُهُ رَسُولَ الله ﷺ فَاسْتَنَّ بِهِ ، وَهْوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى صَدْرِي ».

وفي رواية [(١)]:قالت عائشة : إِنَّ مِنْ نِعَمِ الله عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي ، وَفِي يَوْمِي ، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي ، وَأَنَّ الله جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ : دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ الله ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ ، فَقُلْتُ : آخُذُهُ لَكَ ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ ، « **أَنْ نَعَمْ** » فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ : أُلَيِّنُهُ لَكَ ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ « **أَنْ نَعَمْ** » فَلَيَّنْتُهُ فَأَمَرَّهُ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ - أَوْ عُلْبَةٌ يَشُكُّ عُمَرُ - فِيهَا مَاءٌ ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ : « **لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ** » ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ : « **فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى** » حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ .

سقطت يده الشريفة ﷺ ، وخرجت عائشة تبكي ، وضجَّ الصحابة فبكوا بكاء شديدًا ، وطاشت عقولهم ، وفقدوا صوابهم ؛ منهم من أُقعد [(٢)] ؛ ومنهم من أخرس لسانه ؛ ومنهم من فقد كُلَّ شيء ، لا يعرف شيئًا ؛ يؤخذ فيؤتى به وينصرف به ، وهو لا يدري ،وضجَّ الناس حَوْلَ مسجدِ رسول الله ﷺ ؛ حتى جاء الصدِّيقُ من منزله بالسُّنْح وقد أنزل الله على قلبه السكينة والثبات ، وشق هذه الجموع الملتهبة ، ودخل حجرة عائشة ، ووجد أن الخبر بالفعل قد تحقق ، وأن المصيبة قد وقعت ، فرسولُ الله ﷺ لا يستقبله اليوم ،

---

(١) عند البخاريِّ ، كتاب «المغازي»، باب مرض النبيِّ ﷺ ووفاته (٤٤٤٩) .

(٢) قال عمر رضي الله عنه : « فعقرت حتى ما تقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض » ، انظر :«صحيح البخاري» ، كتاب «المغازي»، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٤) .

ووجد رسول الله ﷺ مُسَجًّى ؛ فجلس الصدِّيقُ عند رأسه ، وبرك على ركبتيه ، وكشف الغطاء عن وجهه الأزهر الأنور ؛ فقبله وبكى ؛ ففي «صحيح البخاريِّ»[(١)] : من حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ ، فَتَيَمَّمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى ، ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، وَاللهِ لاَ يَجْمَعُ اللهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ ، أَمَّا المَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا» .

ونادى على رسول الله ﷺ بعدما قبل جبهته وقال : وَا نَبِيَّاهْ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ: ثُمَّ وَا صَفِيَّاهْ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ وَقَالَ: وَا خَلِيلاَهْ ، مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[(٢)] .

وفي «صحيح البخاري»[(٣)] من حديث عائشة رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ مَاتَ ، وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ ـ قال إسماعيل يعني : بالعالية ـ فَقَامَ عُمَرُ يَقُولَ : وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، قَالَتْ : وقال عُمَرُ : وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلاَّ ذَاكَ ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ ، فَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « المغازي » ، باب مرض النبيِّ ﷺ ووفاته (٤٤٥٢ ، ٤٤٥٣) .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣١ ـ مختصرًا) و (٦/ ٢١٣ ، ٢٢٠ ـ مطولًا) ، والترمذي في «الشمائل» ـ أشرف الرسائل إلى فهم الشمائل لابن حجر الهيتمي (٣٧٤) ، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٨) ، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (١٣٣٣ ، ١٧١٨) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٨ ، ٢٢٩) ، والخطيب في «تاريخه» (٥/ ٢٣١) ، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٦٥) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ، والبيهقي في «الدلائل» وغيرهم ؛ كما في «الدر المنثور» (الأنبياء:٣٤) ، من طريق : أبي عمران الجوني عن يزيد بن بابنوس عن عائشة فذكرته ، وفي سنده يزيد من الثالثة وهو متكلَّمٌ فيه ، ويحتمل تحسين حديثه ؛ لذا حسنه الألباني في «مختصر الشمائل» (٣٢٨) ، و«الإرواء» (٣/ ١٥٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الفضائل ، باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذًا خليلًا » (٣٦٦٧ ، ٣٦٦٨) .

فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَبَّلَهُ وَقَالَ : « بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ الله الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ ؛ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَقَالَ: أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله ، فَإِنَّ الله حَيٌّ لاَ يَمُوتُ ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[الزمر:٣٠] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤] ، قَالَ : فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ » .

أيها الأحبة : تُوفِّي رسولُ الله ﷺ بعد أن بلَّغ رسالة ربه ، وأتم الله به الملة ، وأكمل الله به الدين ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ؛ فصلوات ربي وسلامه عليه ، وقد أوجب الله على الأمة كلها طاعته ؛ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[النساء:٨٠] ، ولم يرسله الله للعرب فحسب ؛ بل أرسله للخلق كافة ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧] ، فيجبُ علينا أن نمتثل أمره ، وأن نجتنب نهيه ، وأن نقف عند حدوده ؛ فطاعة الحبيب النبيِّ ، طاعةٌ للربِّ العلي ، ومعصيةُ النبيِّ معصية للربِّ العلي .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾

[الأحزاب:٣٦]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ

بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢]

وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] .

ونسأل الله أن يحشرنا مع نبينا محمد ﷺ في جنة الفردوس ؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه .

*****

البَعْثُ بَعْدَ المَوْتِ
وَالحِسَابُ والمجَازَاةُ عَلَى أعْمَالِ بَنِي آدَم

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ :

« وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ ، وَالدَّلِيلُ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح:١٧، ١٨] .

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَالدَّلِيلُ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١] ، وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ ، وَالدَّلِيلُ ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن:٧] » .

الشرح

بعد أن بيَّن المصنف رَحِمَهُ اللهُ أن المصطفى ﷺ قضى الله عليه الموت كغيره من البشر ، وأن جميع الناس سيموتون ، بيَّن بعد ذلك رَحِمَهُ اللهُ أن الله تعالى سيبعث هؤلاء الموتى جميعًا ، ويجمعهم بعد ما فرقهم ، وينشرهم بعدما مزقهم ، ويعيدهم كما خلقهم ، قد علم الله ما تنقص الأرض منهم ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر:٤٤] .

فكما أنشأهم الله النشأة الأولى سيميتهم جميعًا ، ثم ينشؤهم أنفسهم النشأة الآخرة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا

...﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم:٤٥-٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٥٧-٦٢] .

واستدلَّ المصنف - رحمه الله تعالى - بآيةٍ واضحةٍ في ذلك أيضًا ، وهي قول الله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه:٥٥] ؛ فالذي خلقهم من الأرض هو الذي أعادهم فيها ، وهو الذين يخرجهم منها ، ليسوا غيرهم .. والنصوص في ذلك لا تحصى كثرة ، وإنما أشرنا إلى بعضٍ من كُلٍّ ، ودق من جُلٍّ ، وقطرةٍ من بحر ، والله المستعان (١) .

وقد بسطنا ذلك في كتابنا « أحداث النهاية » نسأل الله حسن الخاتمة .

وأذكِّر - هنا - بأبياتٍ لابن القيم - رحمه الله تعالى - يقول فيها في «نونيته »(٢) :

وإذا أراد الله إخــــراج الــــورى	بعــد المـمات إلى المعــاد الثــاني
ألقـى عـلى الأرض التـي هـم تحتهـا	والله مقتــــدر وذو ســــلطان
مطــرًا غليظًــا أبيضًــا متتابعًــا	عشرًا وعشرًا بعــــدها عشران
فتظـلُّ تنبـت منـه أجسـام الـورى	ولحـومهم كمنابـت الريحـان

وهذا المعنى مأخوذٌ من حديث أخرجه مسلم في «صحيحه»(٣) من حديث

---

(١) «معارج القبول » (٢/ ٧٩٨) وما بعدها وقبلها ، ط ابن القيم .

(٢) «النونية» (٢/ ١٠) مكتبة ابن تيمية .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الفتن» باب في خروج الدجال (٢٩٤٠) .

عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « **ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ** - أو قال : **يُنْزِلُ الله** - **مطرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ ، أَوْ الظِّل فتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ** » .

وفي روايةٍ (١) : « **ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ** » .

ثم بين المصنف بعد ذلك أن ثمَّ حسابًا وجزاءً بعد قيام الناس من القبور يحاسب الله الجميع على عمله ، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم:٣١] ، ولا يُظْلَم أحدٌ في ذاك الحساب ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧]

فالبعث حقٌّ ، والله يبعث من في القبور للوقوف بين يدي الملك الغفور ليسأل الجميع عن الصغير وعن الكبير! وعن الجليل والحقير !! وستؤدى الحقوق في هذا اليوم المهيب ، وتنشر دواوين المظالم ، ليأخذ كلُّ واحدٍ حقه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦] .

وبكلِّ أسفٍ لقد أنكر من أنكر قضية البعث ، وظنوا أن الحياة تنتهي بالموت !! فظنوا أنه ليس هناك عرض على الله ، ولا حساب بين يدي الله تبارك وتعالى !! والله الذي لا إله غيره ستبعث - أيها العبد - بعد الموت ، بل لقد أمر الله نبيه المصطفى ﷺ أن يقسم على ذلك ؛ فقال تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن:٧] ،

---

(١) عند البخاري ،كتاب «التفسير» ، باب ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [النبأ:١٨] ، (٤٩٣٥) .

قل يا محمد : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ﴾ لأن الكفار زعموا أنهم لن يبعثوا : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام:٢٩] ، ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية:٢٤] ، إنها حقيقة لابد أن يعلمها الجميع أن بعد الموت بعث ، وقد ضرب الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ الأمثلة في قرآنه على قضية البعث بعد الموت ، حتى لا يظن أحد أن الحياة ستنتهي بالموت ، وستطوى صفحة حياته عند هذا الحد وفقط !! لا ..

لقد جاء قديمًا للمصطفى ﷺ العاصي ! العاص بن وائل بعظامٍ باليةٍ يفتُّها بين يديه ؛ كما في «المستدرك» و« تفسير ابن أبي حاتم » وغيرهما بسندٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

جاء العاصُ بن وائل السهمي إلى رسول الله ﷺ بعظمٍ حائلٍ ففتَّه بيده ؛ فقال : يا محمَّدُ ، أيبعث الله هذا بعد ما أرم ؟ قال : « **نَعَمْ ، يَبْعَثُ الله هَذَا ، ثُمَّ يُميتُكَ ، ثُمَّ يُحْيِيك ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّم** » [(١)].

فنزل قول الله ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ـ كما في ابن كثير ـ (تفسير سورة يس: ٧٨) ، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٦٥) ، وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، والبيهقي في «البعث» ، والإسماعيلي في «معجمه» والضياء في «المختارة» ـ كما في «الدر المنثور» (سورة يس : ٧٨) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وأخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة يس :٧٨) عن سعيد بن جبير قال : جاء العاص بن وائل السهمي فذكره (ولم يذكر ابن عباس) وصححه الشيخ مقبل رحمه الله في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (١٩٧) .

ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٧٧ـ٨٣]

قال ربُّنا في الحديث القدسيِّ الذي رواه «البخاريُّ» (١) من حديث أبي هريرة ﷺعن الصادق رسول الله ﷺ:

« **قَالَ الله : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ** » ! كَذَّبت ربك يا ابن آدم ، وشتمت ربك يا ابن آدم « **فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ** » الله الذي خلق من العدم قادرٌ على أن يعيد من وجود ؛ بل قادرٌ على أن يعيد من العدم ، وعلى أن يخلق من العدم ؛ قادرٌ على كلِّ شيء سبحانه ، ثم قال تعالى : « **وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ الله وَلَدًا ! وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْأً أَحَدٌ** » .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[الإخلاص:١ـ٤] .

بل وذكر الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ لنا في قرآنه أمثلةً رائعة على قضية البعث بعد الموت .

اقرأ معي قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «تفسير القرآن » ، باب تفسير سورة : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾(٤٩٧٤ ، ٤٩٧٥) .

فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٨، ٢٥٩].

فهذا رجلٌ من بني إسرائيل (١) ، ضرب الله ﷻ به المثل لقضية البعث بعد الموت ، يركب حماره ؛ فأماته الله ﷻ مئة عام ، ثم بعثه ، وسأله ربنا ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ عن طريق المَلَكِ كم لبثت ؟ فنظر فوجد الشمس تميل إلى الغروب ، فظن أنها شمس اليوم الذي نام فيه ؛ فقال : ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ ولكن كيف أعرف ؟ لابد من وجه مقارنةٍ ثابت ووجه مقارنةٍ متغير .

أما وجه المقارنة الثابت ؛ فهو : الطعام والشراب ؛ لذا قال : ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي : لم يتغير لونه ولا طعمه ولا ريحه !

أريد منك أن تأتي (بديب فريزر) فتحفظ فيه الطعام والشراب لمدة سنة .. لابد أن يتغير لون الطعام وطعمه وريحه !! سبحان من هو على كل شيءٍ قدير ؛ فهذا وجه المقارنة الثابت .

ووجه المقارنة المتغير هو : أن الحمار صار عظامًا بالية ؛ فأمر الله ﷻ بإحياء

---

(١) اختلف أهل العلم في هذا المار ،مَنْ هو؟ والمشهور أنه عزير ؛ كما قال ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٤٥٣) ط أولاد الشيخ .

الحمار ، بدأت العظام تتجمع من هنا ومن هناك : الرِّجْل مع الرجل ، واليد مع اليد ، وعظام الوجه لعظام الوجه ، وعظام الظهر لعظام الظهر ، ثم كُسيت العظام باللحم ، ثم نفخت فيه الروح ؛ فنهق الحمار بإذن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أحياه الله أمام عينيه وبين يديه ؛ فقال العزير : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٥٩] .

وبعدها ؛ يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة:٢٦٠] ، وإبراهيم عليه السلام لم يشك [(١)] .

كما تقول لي : ابني في هذه السنة حصل على ١٠٠٪ في الثانوية العامة ، وهذه هي الشهادة ؛ فأقول : ما شاء الله ، كيف حصل على هذا المجموع ؟ وأنا لا أشك في أنه حصل عليه ؛ فإبراهيم عليه السلام يقول : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ

---

(١) وفي «**الصحيحين**» البخاريِّ ، كتاب «التفسير» ، باب : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة:٢٦٠] ، (٤٥٣٧) ، ومسلم ، كتاب « الإيمان» ، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :« **نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِنْ إبْراهِيمَ إِذْ قَالَ** : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : « ليس المراد ها هنا بالشك ما قد يفهمه مَنْ لا علم عنده بلا خلاف ، وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة ؛ أحدها ... » ا.هـ وتلخيصها فيما يلي :

منهم من حمل النصَّ على ظاهره ، وقال : إن سبب حصوله وسوسة الشيطان ،وقال آخرون : كان ذلك قبل النبوة ،ومنهم من قال : إن المعنى : نحن أشد اشتياقًا إلى رؤية ذلك من إبراهيم عليه السلام ، ومنهم من قال : إن معناه : أننا إذا لم نشك فإبراهيم أولى أن لا يشك ، أي: لو كان الشك متطرقًا إلى الأنبياء ، لكنت أنا أحق بهم منهم ، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك ، وإنما قال النبيُّ ﷺ ذلك تواضعًا منه ، أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم ، وهو كقوله في حديث أنس عند مسلم : « أن رجلاً قال للنبيِّ ﷺ : يَا خَيْرَ البَرِيَّة ، قال : « **ذَاكَ إِبْراهِيمُ** » ومنهم من قال : إنه دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس ، أي من طلب المعاينة ؛ فليس الخير كالمعاينة » . انظر : « الفتح » (٦/ ٤٧٤، ٤٧٥) .

تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ أي : قطِّعهن ، وعلِّم كلَّ طير ، وتعرَّف عليهن معرفةً واضحة : ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗا﴾ ولم يقل : يأتينك طيرانًا ؛ بل يأتينك سعيًا ، ليرى إبراهيم بعينه كلَّ طائر على حقيقته ،وانفراده !

بل لقد ذكر الحافظ ابن كثير وغيره(١) :

أن إبراهيم أخذ بيده رؤوس الطير ، فإذا ما اجتمع عليه الجسد ، وكُسي العظم باللحم ، وكُسي بالريش ،وتقدم للخليل إبراهيم ، فقدَّم له رأسًا غير رأسه فإنه لا تلتئم ! فإذا قُدِّمت رَأْسُه التئمت ، ثم جاء هذا الطائر سعيًا لإبراهيم أمام عينيه وبين يديه : ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة:٢٦٠] .

وفي قصة أصحاب الكهف ؟ يقول ربُّ العزة تبارك وتعالى : ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف:٢٥] ، الله أكبر ! ٣٠٩ سنة في الكهف : ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ [الكهف:١٢]، لقد أحياهم الله ﷻ وبعثهم بعد سنين طويلة من الموت .

وأختمُ هذه الجزئية بهذا الحديث الجميل الذي يبين لنا نبينا ﷺ فيه قضية البعث ؛ كما في «**الصحيحين**»(٢) من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٥٦) ، و«تفسير البغوي»(١/ ٣٢٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٥٠٦) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦) .

« قَالَ رَجُلٌ ـ لَمْ يَعْمَلْ خيْرًا قطُّ : فَإِذَا مَاتَ فَحرِّقُوهُ ، وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لِمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ لَهُ » .

والخشية من الله تبارك وتعالى تغفر الخطايا والذنوب .

وفي «مسند أحمد» و«سنن ابن ماجه» (١) **بسندٍ حسن من حديث بُسْرِ بْنِ** جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَزَقَ يَوْماً فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ أُصْبُعَهُ ثُمَّ قَالَ : **«قَالَ اللهُ : ابْنَ آدَمَ ! أَنَّى تُعْجِزُنِي وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ ، وَعَدَلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ ، وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ »** .

قال جَلَّ وَعَلَا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾[الانفطار:٦ـ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٠) ، وابن ماجه ، كتاب «الوصايا» ، باب النهي عن الإمساك في الحياة ، والتبذير عند الموت (٢٧٠٧) ، والحاكم (٣٨١٤) ، وقال البوصيريُّ : «وإسناده صحيح» . وصححه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة » (١٠٩٩) .

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر:٦٨-٧٠] .

ثم منكرو البعث على أربعة أصناف [(١)]:

صنف: أنكروا المبدأ والمعاد ،وزعموا أنَّ الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها ، ليس لها ربٌّ يتصرف فيها ، إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع ، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدَّهريَّة والطبائعيَّة.

والصنف الثاني : مِنَ الدهريَّة طائفةٌ يقال لهم الدوريَّة ، وهم منكرون للخالق أيضًا ،ويعتقدون أنَّ في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أنَّ هذا قد تكرَّر مراتٍ لا تتناهى فكابروا في المعقول وكذَّبوا المنقول ، قبحهم الله تعالى : وهاتان الطائفتان يعمهم قوله ﷻ : ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤] ، ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران :

الأول : معنى قولهم : ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي : يموت الآباء ويحيى الأبناء هكذا أبدًا ، وهو قول الطائفة الأولى .

والمعنى الثاني : أنَّهم عَنَوْا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم ، ويتكرر ذلك منهم أبدًا ولا حساب ولا جزاء ، بل ولا موجد ولا معدم ولا محاسب ولا مجازي ، وهذا قول الدورية !!

الصنف الثالث : الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم ، وهم مقرون بالبداءة ، وأنَّ الله تعالى ربُّهم وخالقهم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾

---

(١) «معارج القبول» (٢/ ٧٧٦-٧٧٩) .

[الزخرف:٨٧] ، ومع هذا قالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ [الدخان:٣٥] ، فأقروا بالبداءة والمبدئ ، وأنكروا البعث والمعاد ، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة الصحيح : « **وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ ، فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ** »(١) .

والصنف الرابع : ملاحدة الجهمية ومن وافقهم ، أقروا بمعادٍ ليس على ما في القرآن ولا فيما أخبَرَتْ به الرسل عن الله ﷻ ؛ بل زعموا ، أنَّ هذا العالم يعدم عدمًا محضًا ، وليس المعاد هو بل عالم آخر غيره ، فحينئذٍ تكون الأرض التي تحدِّث أخبارها وتخبر بما عمل عليها من خير وشر ليست هي هذه ، وتكون الأجساد التي تعذب وتجازي وتشهد على من عمل بها المعاصي ليست هي التي أعيدت بل هي غيرها ، والأبدان التي تنعم في الجنة وتثاب ليست هي التي عملت الطاعة ، ولا أنَّها تحولت من حال إلى حال ، بل هي غيرها تبتدأ ابتداءً محضًا ، فأنكروا معاد الأبدان ، وزعموا أنَّ المعادَ بداءة أخرى ! وما أحسنَ ما قاله ابنُ القيِّم فيهم في «كافيته»(٢) :

وقضى بأنَّ الله يجعل خلقه ... عدمًا ويقلبه وجودًا ثاني

العَرْشُ والكرسيُّ والأرواحُ والـ ... أملاكُ والأفلاكُ والقمرانِ

والأرض والبحر المحيط وسائر الـ ... أكوانِ من عرض ومن جثمانِ

كلٌّ سيُفْنيهُ الفناءُ المحض لا ... يبقى له أثر كظلٍّ فانِ

ويعيد ذا المعدوم أيضًا ثانيًا ... محض الوجود إعادة بزمان

---

(١) تقدم .

(٢) «الكافية الشافية» (٢/ ٧) .

هــذا المعـاد وذلــك المبــدأ لــدى جَهــم وقــد نسـبوه للقــرآن

هــذا الــذي قـاد ابـن سـينا والألى قـــالوا مقالتَـــهُ إلى الكفـــرانِ

لم تقبـــل الأذهـــانُ ذا وتوهَّمـــوا أنَّ الرســـولَ عنـــاهُ بـــالإيمان

هـــذا كتـــابُ الله أنَّـــى قـــال ذا أو عبـــدهُ المبعـــوثُ بالبرهـــانِ

أو صـــحبه مِـــنْ بعـــده أو تـــابع لهمـــو عـــلى الإيـــمانِ والإحســـان

بـــل صرَّح الـــوحيُ المبـــين بأنَّـــهُ حقًّـــا مغـــيِّرٌ هـــذه الأكـــوان

فيبـــدِّلُ الله الســـماواتِ العُـــلا والأرضَ أيضًـــا ذان تبـــديلان

وهمـــا كتبـــديل الجلـــود لســـاكني النِّيران عِنْـد النُّضج مِـنْ نـيرانِ

وكـــذاك يقـــبض أرضَـــهُ وســـماءَهُ بيديـــه مـــا العـــدمان مقبوضـــان

وتحـــدِّثُ الأرضُ التـــي كنَّـــا بهـــا أخبارَهـــا في الحَشْرِ للـــرحمنِ

وتظـــلُّ تَشـــهد وهـــي عَـــدْلٌ بالـــذي مِـنْ فوقهـا قَـدْ أحـدث الـثقلانِ

أفيشْـهد العـدم الـذي هـو كاسـمه لا شيء هـــذا لـــيس في الإمكـــان

لكــن تُســوَّى ثــم تبســط ثــم تشــد ثُـــمَّ تبـــدل وهـــي ذاتُ كيـــانِ

وتمـــدُّ أيضًـــا مثـــل مَـــدِّ أديمنـــا مِـــنْ غـــير أوديـــةٍ ولا كثبـــانِ

وتقـيءُ يَـوْمَ العـرض مِـنْ أكبادِهـا كالاســطوان نفـــائسُ الأثـــمانِ

كـــلٌّ يـــراهُ بعينـــه وعيانـــه مـــا لا مـــرئ بالأخْـــذِ مِنْـــهُ يـــدانِ

وكـــذا الجبـــالُ تُفَـــتُّ فَتّـــاً محكـــمًا فتعـود مثـل الرَّمْـلِ ذي الكثبـانِ

وتكـونُ كـالعهن الـذي لـو أنَّـهُ وصـباغه مِـنْ سـائِرِ الألـوانِ

وتُـبَسُّ بَسًّـا مثـل ذاك فتنثـبي مثـل الهبـاءِ لنـاظرِ الإنسـانِ

وكـذا البحـار فإنهـا مسـجورة قـد فجـرت تفجـير ذي سـلطان

وكـذلك القمـرانِ يـأذنُ رَبُّنَـا لهـما فيجتمعـانِ يلتقيـانِ

هـذي مكـوَّرة وهـذا خاسـف وكلاهمـا في النَّـار مطروحـانِ

وكواكِـبُ الأفـلاكِ تُنثـر كلُّهـا كلآلـئ نُثِـرَتْ عـلى ميـدانِ

وكـذا السماءُ تُشَـقُّ شـقًّا ظـاهرًا وتمـورُ أيضًـا أَيَّـما مـورانِ

وتصـيرُ بعـد الانشـقاقِ كمثـل هـذا المُهْـل أو تـك وردة كـدهانِ

والعـرش والكـرسي لا يفنـيهما أيضًـا وإنَّهـما لمخلوقـانِ

والحـور لا تفنـى كـذلك جنـة المـأوى ومـا فيهـا مِـنَ الوِلـدانِ

ولأَجْـل هـذا قـال جهـمٌ إنَّهـا عَـدَمٌ ولم تُخلَـق إلى ذا الآنِ

والأنبيـاءُ فـإنَّهم تحـت الثَّـرى أجسـادهم حُفِظتْ مـن الدِّيـدانِ

مـا للـبلى بلحـومهم وجسـومهم أبـدًا وهـم تحـت الـتُّراب يـدانِ

وكـذاك عَجْـب الظَّهْـرِ لا يـبلى بـلى منـه تُركَّـب خِلْقـة الإنسـانِ

وكـذلك الأرواح لا تـبلى كـما تـبلى الجسـومُ ولا بـلى اللحـمانِ

ولأجـل ذلـك لم يُقِـرَّ الجهـمُ مـا الأرواحُ خارجـةٌ عـن الأبـدانِ

لكِنَّهـا مـن بعـضِ أعـراضٍ بهـا قامَـتْ وذا في غايـةِ الـبُطلانِ

فالشَّأْنُ للأرواحِ بعد فراقها ... أبدانها والله أعظم شانِ

إمَّا عذابٌ أو نعيمٌ دائمٌ ... قد نعمت بالرَّوحِ والرَّيحانِ

وتصيرُ طيرًا سارِحًا مع شكلها ... تجني الثمار بجنَّةِ الحيوانِ

وتظلُّ واردة لأنهارٍ بها ... حتى تعودَ لذلك الجثمانِ

لكنَّ أرواحَ الذين استُشْهدوا ... في جَوْف طيرٍ أخضر رِيَّانِ

فلهم بذاك مزية في عيشهم ... ونعيمهم للروحِ والأبدانِ

بذلوا الجسومَ لربِّهم فأعاضهم ... أجسام تِلْكَ الطيرِ بالإحسانِ

ولها قناديلٌ إليها تنتهي ... مأوى لها كمساكنِ الإنسانِ

فالروحُ بعد الموتِ أكملُ حالةٍ ... منها بهذي الدارِ في جثمانِ

وعذاب أشقاها أشدَّ مِنَ الذي ... قد عاينتْ أبصارُنا بعيانِ

والقائلونَ بِأَنَّها عرض أبوا ... ذا كلَّه تبًّا لذي نكرانِ

وإذا أرادَ الله إخراج الورى ... بعد المماتِ إلى المعادِ الثاني

ألقى على الأرض التي هم تحتها ... والله مقتدِرٌ وذو سلطانِ

مطرًا غليظًا أبيضًا متتابعًا ... عشرًا وعشرًا بعدها عشرانِ

فتظلُّ تنبت منه أجسام الورى ... ولحومهم كمنابِتِ الرَّيحانِ

حتَّى إذا ما الأم حانَ ولادُها ... وتمخَّضتْ فنِفاسُها متدانِ

أوحى لها ربُّ السَّما فتشقَّقتْ ... فبدا الجنينُ كأكملِ الشُّبانِ

وتخلت الأم الولــودُ وأخْرجــتْ أثقالُهــا أنثـــى ومـــن ذكـــرانِ

والله يـــنشِءُ خلقـــه في نشـــأةٍ أخـرى كـما قـد قـال في القـرآن

هــذا الـذي جـاءَ الكتـابُ وسـنَّةٌ الهـادي بـه فـاحرص عـلى الإيـمانِ

مـــا قـــال إنَّ الله يعـــدم خلقـــه طـــرًّا كقــولِ الجاهــلِ الحــيرانِ

*****

حُجَّةُ الله عَلَى النَّاسِ بإرْسَالِ الرُّسُلِ للنَّذارَةِ والبِّشارَةِ

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

« وأَرْسَل الله جَميعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ ، والدَّلِيلُ : قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] ، وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهُو خَاتَمُ النَّبِيِّين ، والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء:١٦٣] .

وكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ الله إِلَيْهِم رَسُولاً مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ، يأْمُرُهُم بِعَبَادَةِ الله وَحْدَهُ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ ، وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ».

الشرح

ثم بيَّن المصنِّفُ ـ رحمه الله تعالى ـ أن مهمة الرُّسل ودورهم الرئيسَ البلاغُ عن الله ، ودعوة الناس إلى إلهٍ واحدٍ ، ونهيهم عن الشرك ، وتبشير من أطاع منهم بدخول الجنة ، وإنذار من عصى بدخول النار ، قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٣٥] ، ومن الثابت في الشرع أن الناس منذ أول عهدهم كانوا أمة واحدة على التوحيد الخالص ، ثم طرأ عليهم الشرك ؛

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ [يونس:١٩] ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة:٢١٣] ، وأسلوب التبشير والإنذار ، والترغيب والترهيب أسلوبٌ قرآنيٌّ ونبويٌّ أصيل .. الترغيب في الثواب ، والترهيب من العقاب .. وما أكثر الآيات التي ترغب في الجنة ، وما أكثر الآيات التي ترهب من النار ومما يسخط الجبار ﷻ ، ولقد بعث الله أنبياءه ورسله للقيام بهذه المهمة الشريفة ، ونرى بكلِّ أسفٍ أناسًا لم يفقهوا دعوة الإسلام يعيبون على دعاة الإسلام أخذهم بالإنذار والتبشير ، ويقولون : فلان واعظ !! ويعيبون عليهم عدم فلسفتهم للأمور التي يدعون إليها ، ويطالبون الدعاة بالكف عن طريقة الوعظ ، وتخويف الناس وترغيبهم، وهؤلاء بحاجة إلى أن يراجعوا أنفسهم ، وينظروا في موقفهم هذا ، في ضوء نصوص القرآن وأحاديث الرسول ﷺ التي تبين أسلوب الدعوة ،وتوضح مهمة الرسل الكرام ، وحسبك أن تطالع كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذري ، وتقرأ منه على إخوانك ومن تدعوهم إلى الله ، ثم انظر أثر هذا في نفسك وفي نفوس السامعين(١) .

وأكتفي فقط بضرب مثالٍ واحدٍ من القرآن في عرض قضية الترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار بأسلوبه الفذ البديع من سورة الواقعة ؛ قال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ

---

(١) «الرسل» للدكتور الأشقر ـ حفظه الله تعالى ـ (٤٧ ـ٤٩) ط دار النفائس .

عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾

[الواقعة:١٥ـ٣٨]

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة:٤١ـ٥٦].

وأعظم مهمة للرسل؛ إقامة الحجة على الخلق ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥].

قال السعديُّ ـ رحمه الله تعالى [١]: « أرسلهم الله مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله، وخالفهم بشقاوة الدارين، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]، فيقولوا: ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾

---

(١) «تفسير السعدي» (لسورة النساء:١٦٥).

[المائدة:١٩] ، فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى ، يبينون لهم أمر دينهم ، ومراضي ربهم ومساخطه ، وطرق الجنة وطرق النار ، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وهكذا من كمال عزته تعالى ، وحكمته ، أن أرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ؛ وذلك أيضًا من فضله وإحسانه ، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء ، أعظم ضرورة تقدَّر ، فأزال هذا الاضطرار ، فله الحمد والشكر ، ونسأله ، كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم ، أن يتمها بالتوفيق ، لسلوك طريقهم ، إنه جواد كريم » .

ثم بين المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ أن أول الرسل : نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ واحتج بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء:١٦٣] ، ويشهد لهذا كذلك ما جاء في «**الصَّحِيحَيْنِ** »[1] في حديث الشفاعة الطويل ، وفيه : « **فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ** » .

وثبت بسندٍ حسن عند ابن أبي عاصم في «السنة»[2] من حديث أبي ابن كعب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب:٧] ، قال رسولُ الله ﷺ : « **أولهم نُوحُ ثُمَّ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ** ». وهذا يختلف عن آدم عليه السلام ؛ فآدم نبيٌّ كريم وليس رسولاً ؛ فالتوفيق أن يقال : أول الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « أحاديث الأنبياء» ، باب ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ [نوح:١] ، (٣٣٤٠) ، ومسلم كتاب «الإيمان» ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٠٧) ، وحسَّنه العلامة الألباني في « ظلال الجنة » (١٦٤) ط المكتب الإسلامي .

هو أبو البشر آدم ﷺ، وأول الرسل هو نوح ﷺ.

ومن الأدلة على ذلك ؛ **ما رواه الحاكم ، والبيهقي في «الأسماء»** بسندٍ صحيح [(١)] من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال : يَا رَسُولَ الله ، أَنَبِيٌّ كَانَ آدَمُ ؟ قال : « **نَعَمْ مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ** » قال : كم بينه وبين نوح؟ قال : « **عَشْرَة قُرُونٍ** » قال : كم كان بين نوح وإبراهيم ؟ « **عَشْرَة قُرُونٍ** » قال: يا رسول الله ، كم كانت الرسل؟ قال : « **ثَلاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غفيرًا** ».

ونبينا محمد ﷺ هو خاتمهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠] ، ولم يترك الله أمة إلا وقد أرسل إليها من الرسل من يبشرهم وينذروهم ، ويأمروهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وينهوهم ويحذروهم من الشرك بالعزيز الحميد .

قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف:٦] .

فما من أمةٍ من الأمم الماضية ،والقرون الخالية إلا وقد بُعِثَ إليها رسولٌ يقيم عليهم حجة الله تعالى ؛ كما **قال العلامة السعدي** رحمه الله [(٢)] . ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال:٤٢] .

واستدلَّ المصنف بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، وسيأتي تفسير الطاغوت ، وأقسامه في كلام المصنف إن شاء الله .

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٦٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (١/ ٥١٧) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٦٧) .

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (لسورة فاطر:٢٤) .

تلك هي مهمة الرسل الأولى ، وهي الصيحة الأولى لكل نبيٍّ ؛ قال تعالى : ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾

[فصلت:١٤]

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

وهكذا قامت الرسل بهذه المهمة ، ودلُّوا أممهم على كل خير يعلمونه لهم ، وينذرونهم شر ما يعلمونه لهم .

ففي «صحيح مسلم»[١] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « **إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ شَرًّا لَهُمْ** ».

وأختم هذه الجزيئة بهذا الحديث المهم الذي رواه البخاريُّ ومسلم[٢] عن المغيرة بن شعبة عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « .. **وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللهِ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ** » .

وفي رواية مسلم : « وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ اللهُ الْمُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » .

*****

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الإمارة » ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التوحيد » ، باب قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : «لا شخص أغير من الله» (٧٤١٦) ، ومسلم ، كتاب «اللعان» ، باب (١٩/ ١٤٩٩) .

كَمَالُ التوْحيدِ وتمَامُه وتعْريفُ الطَّاغُوت

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله:

« وافْتَرَضَ الله عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ والإِيمانَ بالله ؛ قال ابنُ القَيِّم ـ رحمه الله تعالى : « مَعْنَى الطَّاغوتِ : مَا تجاوزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّه مِنْ مَعبُودٍ أَوْ مَتبوعٍ أَوْ مُطَاعٍ » ، والطَّواغِيتُ كَثِيرونَ ، وَرُؤسُهم خَمْسةٌ : إِبْلِيُس لَعَنه الله ، وَمَنْ عُبِدَ وهُوَ راضٍ ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلى عِبادَةِ نَفْسِه ، وَمَنْ ادَّعى شَيْئًا مِنْ عِلْم الغَيْبِ ، ومَنْ حكَم بغَيْر مَا أَنْزَلَ الله ، والدَّلِيلُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦] وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لَا إِلَه إِلَّا الله ».

الشرح

بين المصنِّفُ رحمه الله أن معنى كلمة التوحيد هو الإيمان بالله ، والكفر بالطاغوت ، فكَلِمةُ التوحيد نفيٌّ وإثبات ؛أي : لا معبود بحق إلا الله ، تنفي جميع الآلهة ،وتثبت الألوهية لله وحده ، وهذا يشتمل على الكفر بالطاغوت ؛ فهذه الكلمة الطيبة تنفي الآلهة والأنداد والطواغيت والأرباب ، وتثبت التوحيد الخالص لذي الجلال والإكرام .

قال ابنُ القيم رحمه الله[1] : « والنفي المحض ليس توحيدًا ، وكذلك الإثبات

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٤١) ط مكتبة نزار .

بدون النفي ؛ فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا ، والإثبات ، وهذا هو حقيقة التوحيد » .

والطاغوتُ : مشتق من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد ؛ وقد حدَّه ابن القيم ـ كما ذكر المصنف ـ حدًّا جامعًا ؛ فقال [(١)]:

« **الطاغوت**: كلُّ ما تجاوز به العبدُ حدَّه ،من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوتُ كلِّ قوم مَنْ يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله ، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها ، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم انصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ،وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعتهِ ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته ، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ، ولاقصدوا قصدهم ؛ بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا » انتهى .

وما من نبيٍّ أو رسولٍ إلا وقد دعا قومه إلى الإيمان بالله وحده وإلى عبادة الله وحده ، والكفر بالطاغوت في جميع أشكاله وصوره التي لا تنتهي عن حدٍّ .

فالطاغوت له في كلِّ عصر لغة ، وله في كل عصر منهج ، وله في عصر أسلوب ،وله في كل عصر لسان ؛ بل ألف ألف لسان !! .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى : « اعلم ـ رحمك الله ـ أن أول ما فرض الله على ابن آدم : الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله ، والدليل

---

(١) «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥) ط مكتبة ابن تيمية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، فأما صفة الكفر بالطاغوت : فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتكفر بأهلها وتعاديهم .

وأما معنى الإيمان بالله : فأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون من سواه ،وتُخلص جميع أنواعِ العبادة كلها لله ، وتنفيها عن كلِّ معبودٍ سواه ، وتحب أهلَ الإخلاص وتواليهم ، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم ، وهذه ملة إبراهيم التي سَفِه نفسه مَنْ رَغِب عنها ، وهذه الأسوة التي أخبر الله بها في قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤] .

والطاغوت عام في كلِّ ما عُبد من دون الله ؛ فكلُّ ما عبد من دون الله ، ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت .

والطواغيت كثيرة ، ورؤوسهم خمسة :

الأول : الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس:٦٠] .

الثاني : الحاكم الجائِر المُغيِّر لأحكام الله تعالى ، والدليل قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلاً بَعِيدًا ﴾ [النساء:٦٠] .

الثالث : الذي يحكم بغير ما أنزل الله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] .

الرابع: الذي يدَّعي علم الغيب من دون الله ؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله ، والدليل قوله تعالى : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن:٢٦، ٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩] .

الخامس : الذي يُعبد من دون الله وهو راضٍ بالعبادة ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٢٩] .

واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمنًا بالله إلا بالكفر بالطاغوت ، والدليل قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦]

الرشد : دين محمد ﷺ .

والغيُّ : دين أبي جهل .

والعروة الوثقى : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهي متضمنة للنفي والإثبات ، تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى وتثبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له » ا.هـ [١] .

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ١٠٩، ١١٠) .

ويقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية أيضًا : « ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ الآية ، يقول : أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كلِّ ما يعبد من دون الله ، ووحَّدَ الله فَعَبَدَهُ وحْدَهُ ، وشهد أن لا إله إلا هو : ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي : فقد ثبت في أمره ، واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم »(١).

إذًا فكلمة التوحيد : «**لا إله إلا الله**» هي أيضًا نفيٌ لكلِّ الطواغيت ، وكفرٌ بجميع الطواغيت بجميع أشكالها وصورها ، والبراءة من كلِّ ذلك ، والإيمان بالله تعالى وحده ، وتوجيه العبادة كاملة إليه سبحانه دون شريك ، وأن كلَّ من عبد شيئًا دون الله فإنما عَبَد الطاغوت ؛ فإن كان المعبود صالحًا كانت عبادة العابد له واقعة على الشيطان الذي أمره بعبادته وزينها له ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ:٤٠، ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴾[يونس:٢٨، ٢٩] .

وإن كان المعبود ممن يدعو إلى عبادة نفسه كالطواغيت ، أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا كاللات والعزى ومناة ،وغير ذلك مما كان يتخذه المشركون لهم أصنامًا على صور الصالحين والملائكة أو غير ذلك فهي من الطاغوت الذي

---

(١) «تفسير ابن كثير» الجزء الأول :(سورة البقرة ، الآية:٢٥٦).

أمر الله عباده أن يكفروا بعبادته ويتبرؤوا منه ، ومن عبادة كلِّ معبودٍ سوى الله كائنًا من كان ؛ فالتوحيد هو الكفر بكلِّ ما عبد من دون الله ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ الآية [الزخرف:٢٦، ٢٧] . فلم يستثن من كل معبود إلا الذي فطره سبحانه وتعالى ، وهذا معنى لا إله إلا الله [١] .

*****

(١) «قرة عيون الموحدين » (١٩٢ وما بعدها) بتصرف .

رأس الأمر وعموده وذروة سنامه

قَالَ المُصَنِّفُ رحمه الله :

وَفِي الحَدِيثِ [(١)]: «رَأْسُ الأَمْرِ : الإِسْلامُ . وعَمُودُه : الصَّلاة .وذِرْوَةُ سَنَامِه : الجِهَادُ في سَبِيلَ الله » والله أَعْلَم [وصَلَّى الله عَلى مُحَمَّدٍ وآله وصَحْبِه وسَلّم] » [(٢)]



ختم المصنفُ رحمه الله هذه الرسالة المباركة بهذا الحديث الشريف في وصية النبيِّ صلى الله عليه وسلم لمعاذٍ رضي الله عنه .

بين في هذه الوصية أن رأس هذا الأمر وأصله هو الإسلام ، أي النطق بالشهادتين ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء:١٢٥] .

فدينُ الإسلام هو رأس الأمر الذي من تمسك به فاز في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] . ولِمَ لا ؟ وهو الدين الذي اختاره الله لصفوة الخلق من الرسل والأنبياء ، وعلى رأسهم سيد الأتقياء ، وإمام الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) ، والترمذيُّ في «السنن» ، كتاب «الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦) . وابن ماجه ،كتاب «التفسير» ، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣) ، وصححه بمجموع طرقه العلامة الألباني في «الصحيحة» برقم (١١٢٢) .

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في غالب النسخ التي وقفنا عليها ، وإنما أثبتنا ذلك من نسخة «شرح الأصول » للعلامة ابن عثيمين - رحمه الله تعالى .

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران:١٩] ؛ فمن لم يقر بالشهادتين ظاهرًا وباطنًا ، فليس من الإسلام في شيء [١] ولا يَقْوى للعبد إسلامه إلا إذا حافظ على الصلاة ، وداوم عليها ، وقام بها خير قيام ؛ لأنها عمود الإسلام .

فالعبد يستمد قوة إيمانه بربه ، وكمال إسلامه بخالقه من الصلاة ، فهي صلةٌ بين العبد وربه ؛ فإن لم يحافظ على الصلاة ؛ فقد قطع هذه الصلة الوثيقة التي تربطه بخالق السماوات والأرض ، وأوقع نفسه في الخسران والهلاك ، والعياذ بالله ، ومن ثم فقد شبه النبيُّ ﷺ الصلاة بالعمود ، كعمود البيت الذي لا يقوم إلا به .

ثم بيَّن النبيُّ ﷺ أن أعلى هذه الأمور وأرفعها : الجهاد في سبيل الله ، وهو أفضل الأعمال بعد الفرائض ؛ كما قال الإمام أحمد وغيره [٢] .

قال المباركفوريُّ في «تحفة الأحوذي» [٣] :

« وقوله : « وذروة سنامه الجهاد » فيه إشعار إلى صعوبة الجهاد ، وعلو أمره ، وتفوقه على سائر الأعمال ، والجهاد من الجهد بالفتح ، وهو المشقة ، أو بالضم وهو الطاقة ؛ لأنه يبذل الطاقة في قتال العدو عند فعل العدو مثل ذلك » ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٣] .

وقال : «ألا أخبرك برأس الأمر كلِّه» ، أي : بأصل كلِّ أمر (وعموده) بفتح

(١) «جامع العلوم» لابن رجب (٤٨٢) ط ابن رجب .

(٢) المصدر السابق .

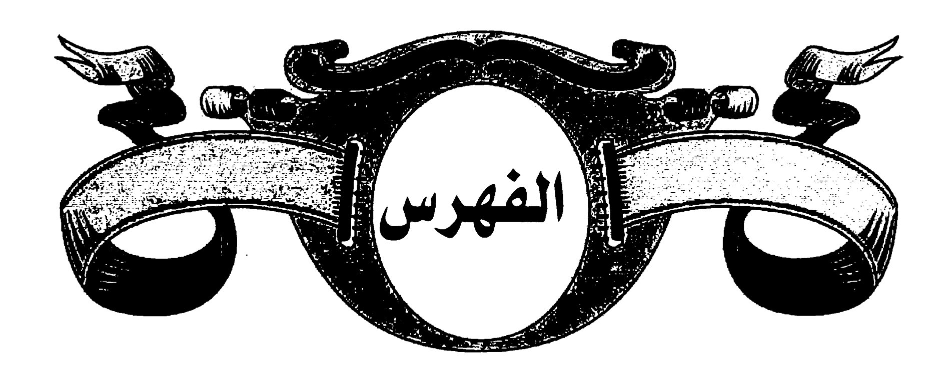
(٣) «تحفة الأحوذي» (٧/ ٢٩) ط التوفيقية .

أوله أي : ما يقوم ويعتمد عليه **(وذروة سنامه)** بكسر الذال وهو الأشهر وبضمها وحكى فتحها : أعلى الشيء ، والسنام بالفتح : ما ارتفع من ظهر الجمل قريب عنقه » ا.هـ .

وهكذا ختم المؤلفُ ﷾ « الأصول الثلاثة » بهذا الحديث الجامع ، ثم ردَّ العلم إلى الله تعالى ، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه ؛ فنسأُل الله أن يلحقنا بهم في الفردوس بمنه وكرمه ، وأن يتقبل هذا العمل من مؤلفه وشارحه وكلِّ من ساهم في إعداده ونشره ، وأشكر لإخواننا الذين لم يضنوا علينا بإثراء هذا الكتاب الكريم ، وتزويدنا بفوائد قيمة ؛ فأسأل الله أن يجعل هذا البحث خالصًا لوجهه ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين.

«انتهى شرح الأصول الثلاثة»

*****


الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

*****